قبول الآخر

من أجل تواصل حوار الحضارات



قبول الآخر

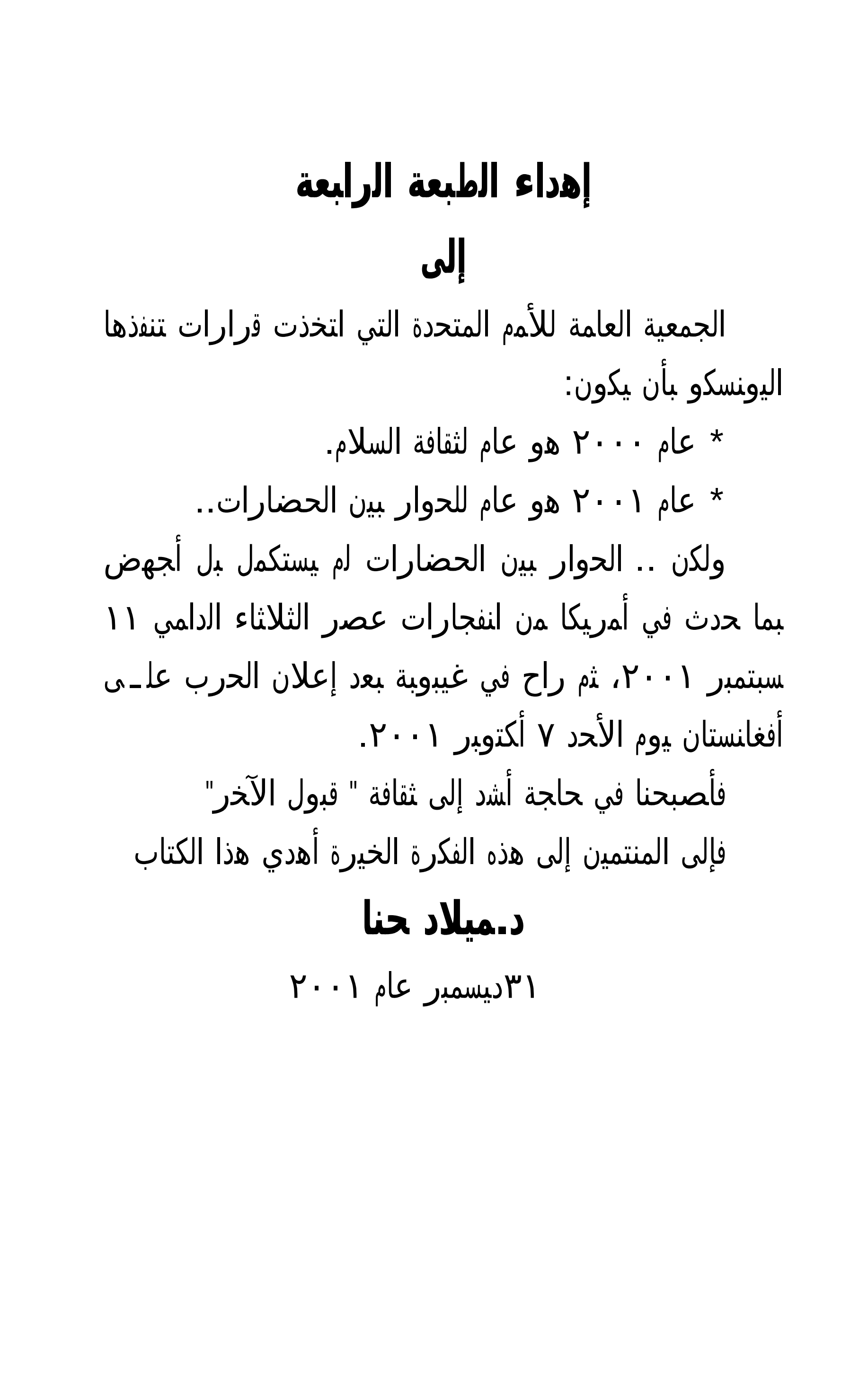
من أجل تواصل حوار الحضارات

سبتمبر الدامي

وتعليق على ما حدث

د. ميلاد حنا

الفهرس



إهداء الطبعة الرابعة

إلى

الجمعية العامة للأمم المتحدة التي اتخذت قرارات تنفذها اليونسكو بأن يكون:

* عام ٢٠٠٠ هو عام لثقافة السلام.

* عام ٢٠٠١ هو عام للحوار بين الحضارات..

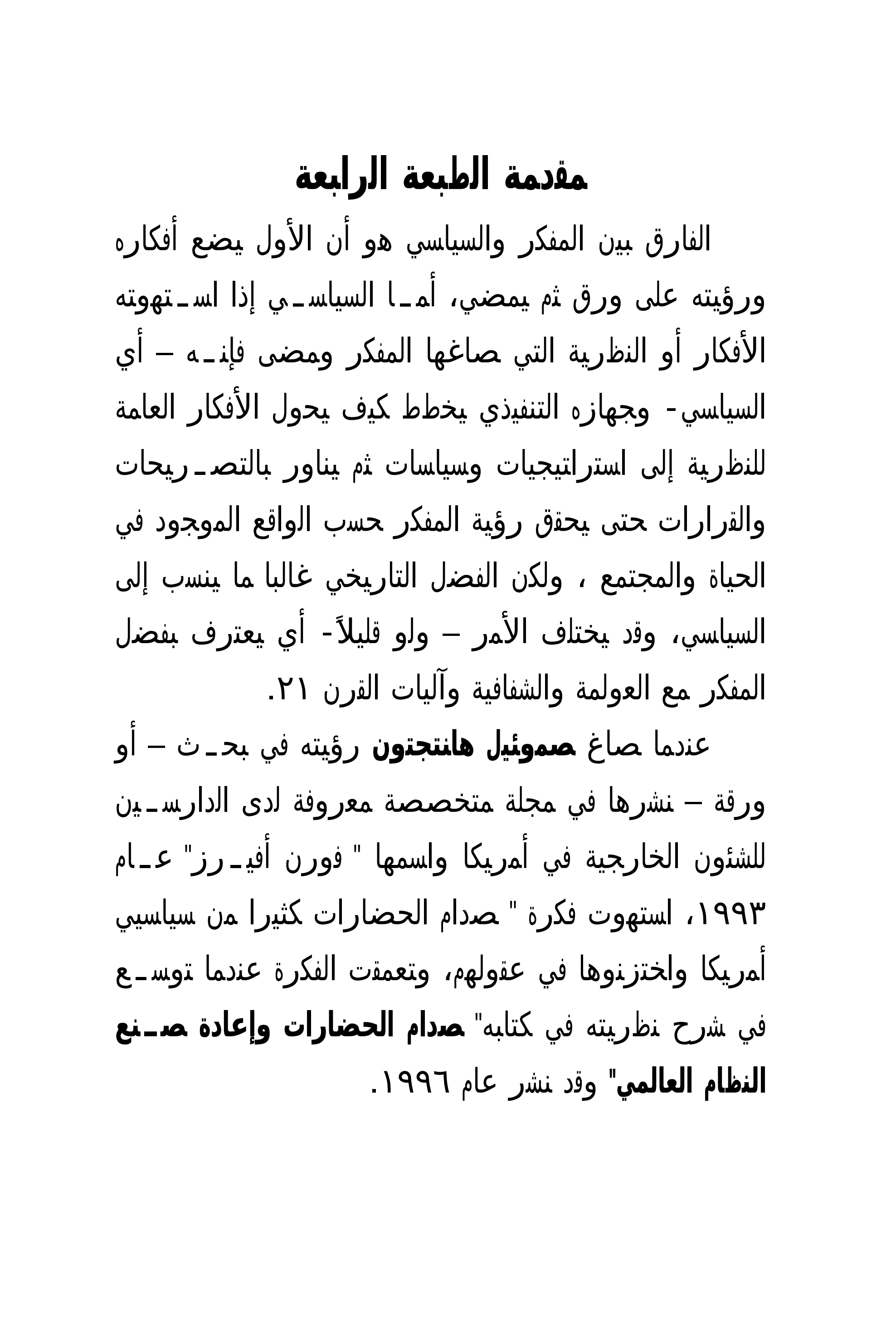
ولكن .. الحوار بين الحضارات لم يستكمل بل أجهض بما حدث في أمريكا من انفجارات عصر الثلاثاء الدامي ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ثم راح في غيبوبة بعد إعلان الحرب علـى أفغانستان يوم الأحد ٧ أكتوبر ٢٠٠١.

فأصبحنا في حاجة أشد إلى ثقافة " قبول الآخر"

فإلى المنتمين إلى هذه الفكرة الخيرة أهدي هذا الكتاب

د.ميلاد حنا

٣١ديسمبر عام ٢٠٠١



مقدمة الطبعة الرابعة

الفارق بين المفكر والسياسي هو أن الأول يضع أفكاره ورؤيته على ورق ثم يمضي، أما السياسي إذا استهوته الأفكار أو النظرية التي صاغها المفكر ومضى فإنه – أي السياسي- وجهازه التنفيذي يخطط كيف يحول الأفكار العامة للنظرية إلى استراتيجيات وسياسات ثم يناور بالتصريحات والقرارات حتى يحقق رؤية المفكر حسب الواقع الموجود في الحياة والمجتمع ، ولكن الفضل التاريخي غالبا ما ينسب إلى السياسي، وقد يختلف الأمر – ولو قليلاً- أي يعترف بفضل المفكر مع العولمة والشفافية وآليات القرن ٢١.

عندما صاغ **صموئيل هانتجتون** رؤيته في بحث – أو ورقة – نشرها في مجلة متخصصة معروفة لدى الدارسين للشئون الخارجية في أمريكا واسمها " فورن أفيرز" عام ١٩٩٣، استهوت فكرة " صدام الحضارات كثيرا من سياسيي أمريكا واختزنوها في عقولهم، وتعمقت الفكرة عندما توسع في شرح نظريته في كتابه" **صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي**" وقد نشر عام ١٩٩٦.

لم يكن أمام المفكرين إلا الحـوار بكلمـة أو فكـرة أو نظرية تؤيد أو تقدم البديل، وهكذا صدر مؤلفي هذا " قبـول الآخر" في ثلاث طبعـات، الأولـى صـدرت عـام ١٩٩٨ وحصل الكتاب على تقدير " أفضل كتاب في معرض القاهرة الدولي لعام ٩٨" في محاولة لتقديم فكر إنساني يسـتند إلـى خواص الإنسان التي لا فضل له فـي اكتسـابها، وبعـدها أصدرته " مكتبة الأسرة" التي تدعمها السيدة **سوزان مبارك،** بسعر مدعم قدره ١٢٥ قرشًا أي حوالي ٢٥ سنتًا من الدولار الأمريكي ، وتم إصداره وطبع وبيع ٥٠ ألف نسخة منه في صيف عام ١٩٩٩ ، ثم صدرت الطبعة الثالثة عن "الإعلامية للنشر " منقحة ومزيدة في أوائل عـام ٢٠٠٠ ونفـدت مـن السوق حاليا.

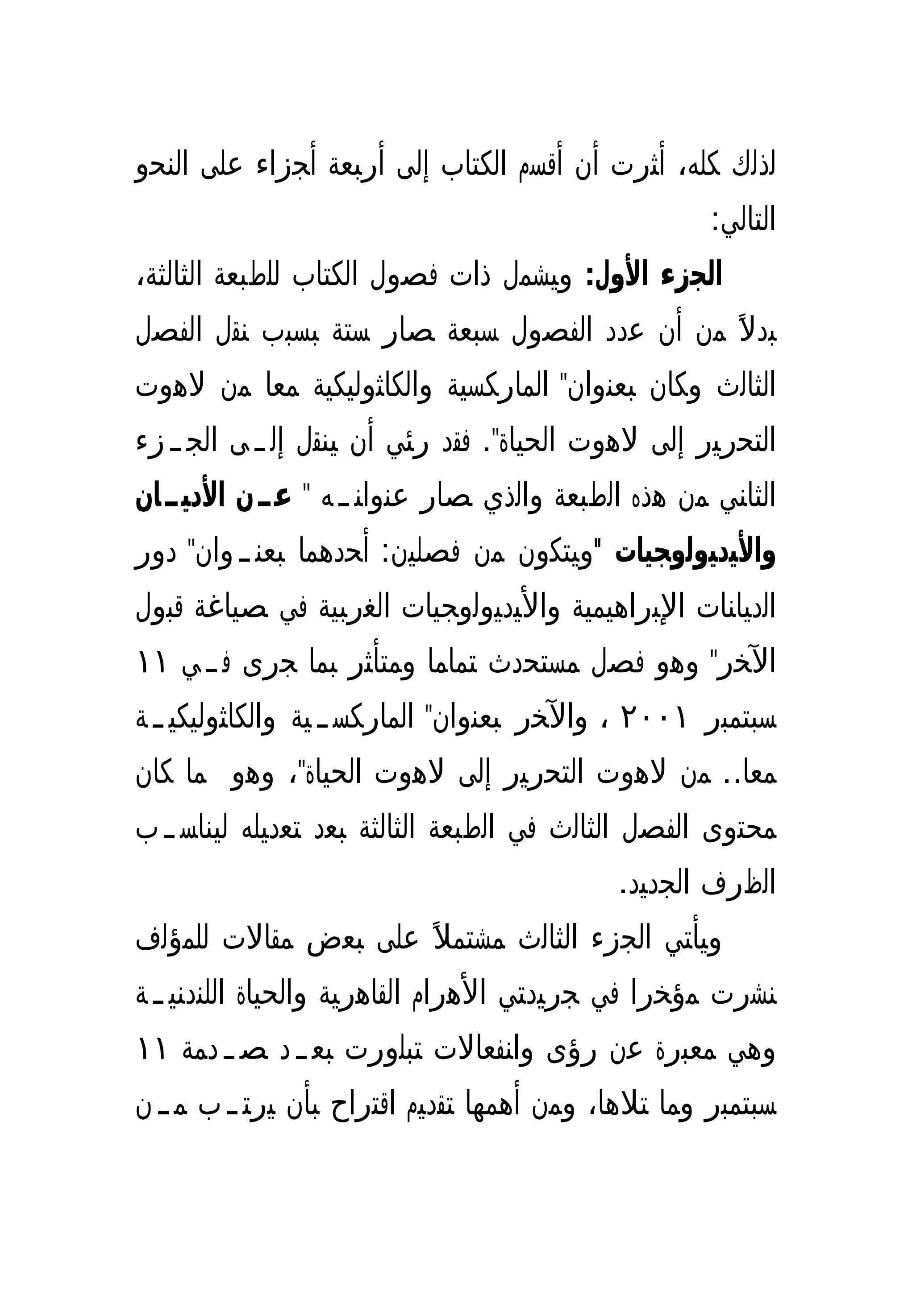
أقول ذلك، لأوضح أن هذا الكتاب قد " وجـد " قبـولاً لدى جمهور مصر من القراء . وكنـت متصـورا أننـي – وغيري من كتاب ومفكري العالم الثالث وأوربا – قادر على إيقاف أو تأجيل ومنـع تـأثير رؤيـة ونظريـة " صـدام الحضارات" حتى لا تصل إلى " صدام حقيقي وفعلـي" فمـا أبشع الحرب والاقتتال ، وكنت متوهما أن العالم قد تجـاوز

الحروب العالمية ولم تبق إلا الحروب الصغيرة التي نتمنـى أن تتوقف كذلك، غير أن توازن القوى السياسي والعسكري، والقيمي والمجتمعي على مستوى العالم كان أكثر فاعلية على حركة الحياة ذاتها، والتي تتفوق غالبا على أي فكر أو رؤية أو نظرية .

وهكذا جاءت أحداث الهجوم على مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك وعلى مبنى البنتاجون في واشنطن، فـي ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لتؤكد أن نوعا مـن أشـكال " صـدام الحضارات " قد تم بالفعل، وبعدها تم إعلان الحـرب علـى أفغانستان في ٧ أكتوبر عام ٢٠٠١.

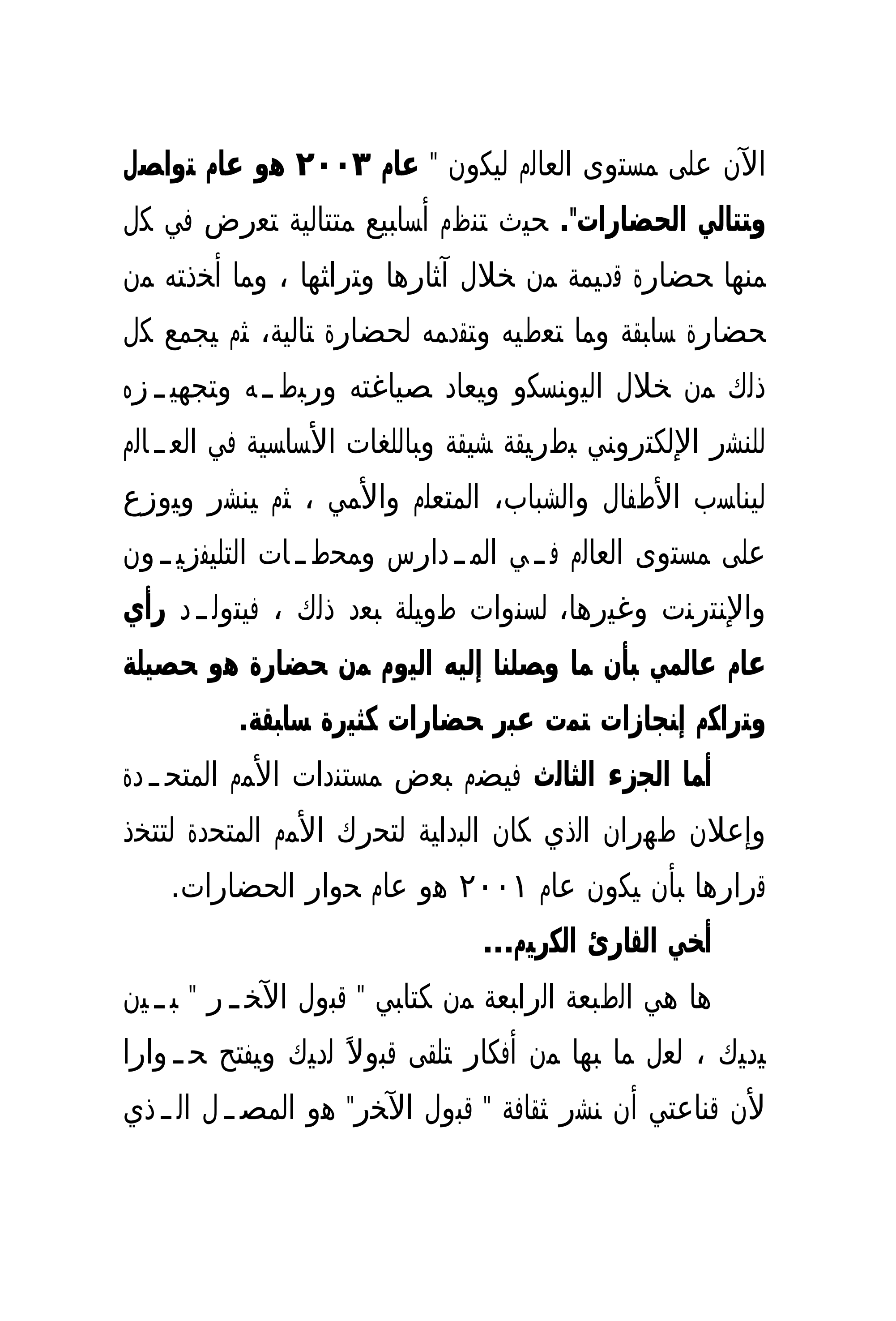
وتصادف أن كان ذلك مع الحاجة لإصدار طبعة رابعة باللغة العربية لكتاب " قبول الآخر" وخلال عام ٢٠٠١ صدر عن **مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية للأهرام** الطبعة الأولى **باللغة الإنجليزية** وقبل نهاية العام صار مطلوبا عمل طبعة ثانية إنجليزية، فكان لازما أن أجري بعض التعديلات على النصوص السابقة.

كان لازما بعد هذه الأحداث الجسـام والتـي صـارت محطات لها أثرها على تاريخ العالم السياسي والمجتمعـي،


لذلك كله، أثرت أن أقسم الكتاب إلى أربعة أجزاء على النحو التالي:

الجزء الأول: ويشمل ذات فصول الكتاب للطبعة الثالثة، بدلاً من أن عدد الفصول سبعة صار ستة بسبب نقل الفصل الثالث وكان بعنوان" الماركسية والكاثوليكية معا من لاهوت التحرير إلى لاهوت الحياة". فقد رئي أن ينقل إلـى الجـزء الثاني من هذه الطبعة والذي صار عنوانـه " **عـن الأديـان والأيديولوجيات** "ويتكون من فصلين: أحدهما بعنـوان" دور الديانات الإبراهيمية والأيديولوجيات الغربية في صياغة قبول الآخر" وهو فصل مستحدث تماما ومتأثر بما جرى فـي ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، والآخر بعنوان" الماركسـية والكاثوليكيـة معا.. من لاهوت التحرير إلى لاهوت الحياة"، وهو ما كان محتوى الفصل الثالث في الطبعة الثالثة بعد تعديله ليناسـب الظرف الجديد.

ويأتي الجزء الثالث مشتملاً على بعض مقالات للمؤلف نشرت مؤخرا في جريدتي الأهرام القاهرية والحياة اللندنيـة وهي معبرة عن رؤى وانفعالات تبلورت بعـد صـدمة ١١ سبتمبر وما تلاها، ومن أهمها تقديم اقتراح بأن يرتـب مـن

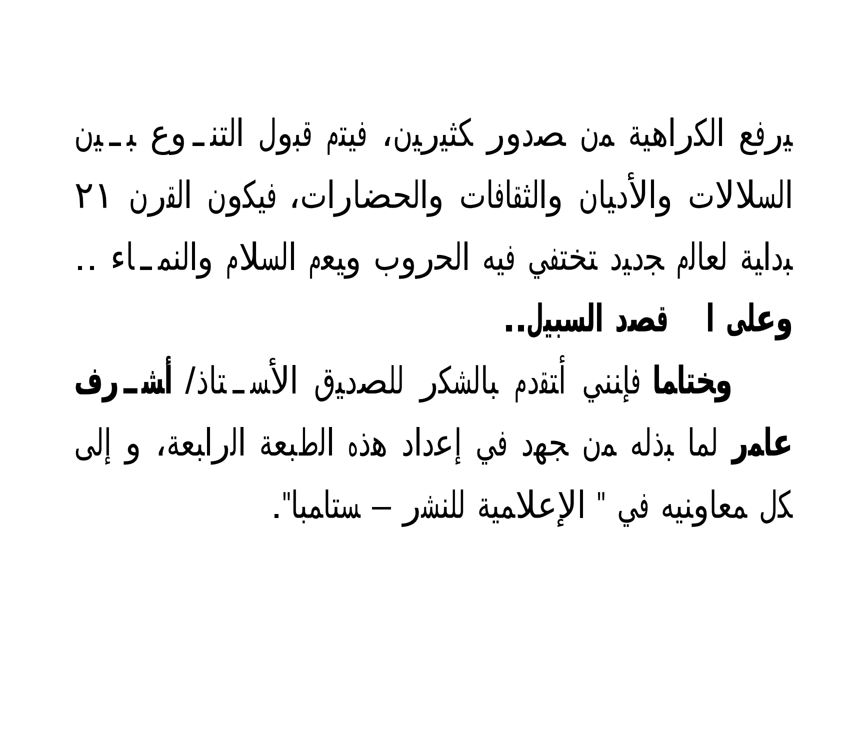


الآن على مستوى العالم ليكون " **عام ٢٠٠٣ هو عام تواصل وتتالي الحضارات".** حيث تنظم أسابيع متتالية تعرض في كل منها حضارة قديمة من خلال آثارها وتراثها ، وما أخذته من حضارة سابقة وما تعطيه وتقدمه لحضارة تالية، ثم يجمع كل ذلك من خلال اليونسكو ويعاد صياغته وربطـه وتجهيـزه للنشر الإلكتروني بطريقة شيقة وباللغات الأساسية في العـالم ليناسب الأطفال والشباب، المتعلم والأمي ، ثم ينشر ويوزع على مستوى العالم فـي المـدارس ومحطـات التليفزيـون والإنترنت وغيرها، لسنوات طويلة بعد ذلك ، فيتولـد **رأي عام عالمي بأن ما وصلنا إليه اليوم من حضارة هو حصيلة وتراكم إنجازات تمت عبر حضارات كثيرة سابقة.**

أما الجزء الثالث فيضم بعض مستندات الأمم المتحـدة وإعلان طهران الذي كان البداية لتحرك الأمم المتحدة لتتخذ قرارها بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عام حوار الحضارات.

أخي القارئ الكريم...

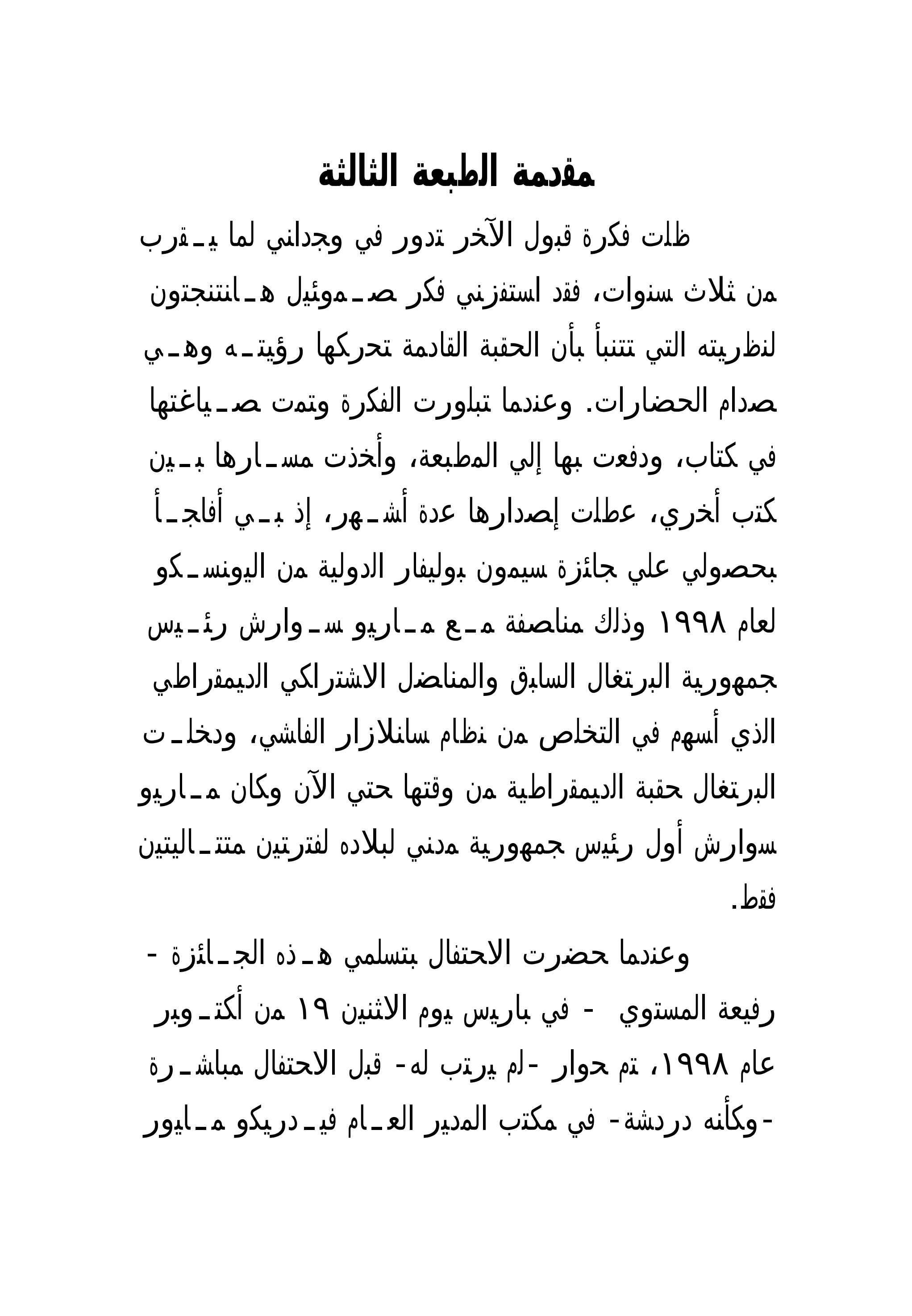
ها هي الطبعة الرابعة من كتابي " قبول الآخـر " بـين يديك ، لعل ما بها من أفكار تلقى قبولاً لديك ويفتح حـوارا لأن قناعتي أن نشر ثقافة " قبول الآخر" هو المصـل الـذي



يرفع الكراهية من صدور كثيرين، فيتم قبول التنـوع بـين السلالات والأديان والثقافات والحضارات، فيكون القرن ٢١ بداية لعالم جديد تختفي فيه الحروب ويعم السلام والنمـاء ..

وعلى ا قصد السبيل..

وختاما فإنني أتقدم بالشكر للصديق الأسـتاذ/ **أشـرف عامر** لما بذله من جهد في إعداد هذه الطبعة الرابعة، و إلى كل معاونيه في " الإعلامية للنشر – ستامبا".



مقدمة الطبعة الثالثة

ظلت فكرة قبول الآخر تدور في وجداني لما يقرب من ثلاث سنوات، فقد استفزني فكر صموئيل هانتنجتون لنظريته التي تتنبأ بأن الحقبة القادمة تحركها رؤيته وهي صدام الحضارات. وعندما تبلورت الفكرة وتمت صياغتها في كتاب، ودفعت بها إلي المطبعة، وأخذت مسارها بين كتب أخري، عطلت إصدارها عدة أشهر، إذ بي أفاجأ بحصولي علي جائزة سيمون بوليفار الدولية من اليونسكو لعام ١٩٩٨ وذلك مناصفة مع ماريو سوارش رئيس جمهورية البرتغال السابق والمناضل الاشتراكي الديمقراطي الذي أسهم في التخلص من نظام سانلازار الفاشي، ودخلت البرتغال حقبة الديمقراطية من وقتها حتي الآن وكان ماريو سوارش أول رئيس جمهورية مدني لبلاده لفترتين متتاليتين فقط.

وعندما حضرت الاحتفال بتسلمي هذه الجائزة - رفيعة المستوي - في باريس يوم الاثنين ١٩ من أكتوبر عام ١٩٩٨، تم حوار -لم يرتب له- قبل الاحتفال مباشرة -وكأنه دردشة- في مكتب المدير العام فيدريكو مايور

المدير العام لليونسكو وكان أن تطرق حديثي عن هذا المؤلف الذي اخترت له عنوان قبول الآخر. فأعجب مايور بالفكرة والكتاب، ونصحني بأن يترجم الكتاب إلي الانجليزية -وهو مايتم قريبا بإذن ا - وسعدت بأن اقترح علي دمج الكلمتين في عبارة واحدة هي The Otherness أي أنه يري أن عبارة قبول الآخر ستتحول إلي أيديولوجية أو ما أسميه ذهنية وفق تعبيرات صديقي المفكر والمثقف الصادق المهدي، زعيم حزب الأمة ورئيس وزراء السودان السابق.

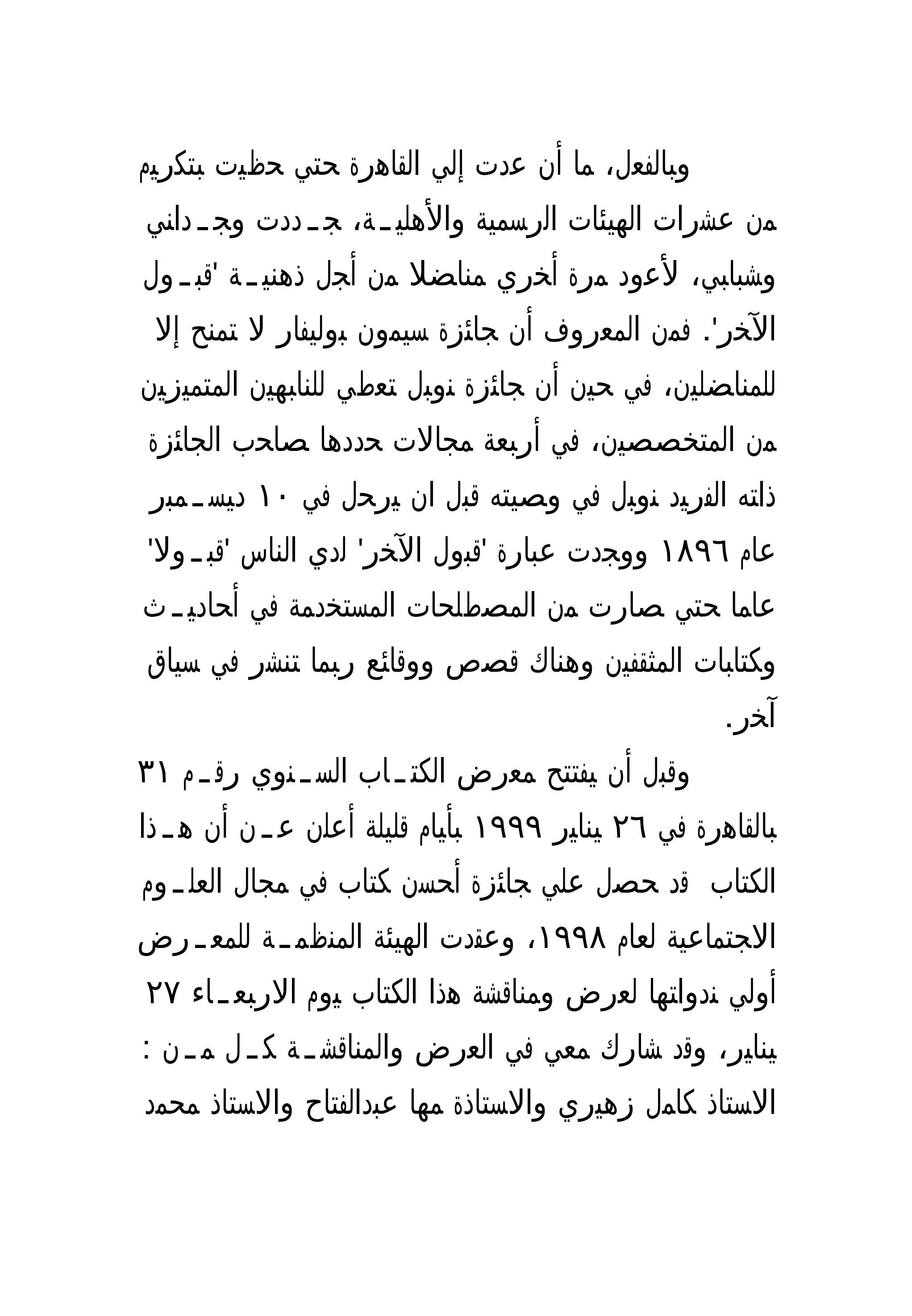
وفي أثناء تقديم مايور لي للحصول علي الجائزة، قال:

عزيزي بروفسور حنا

ابن مصر

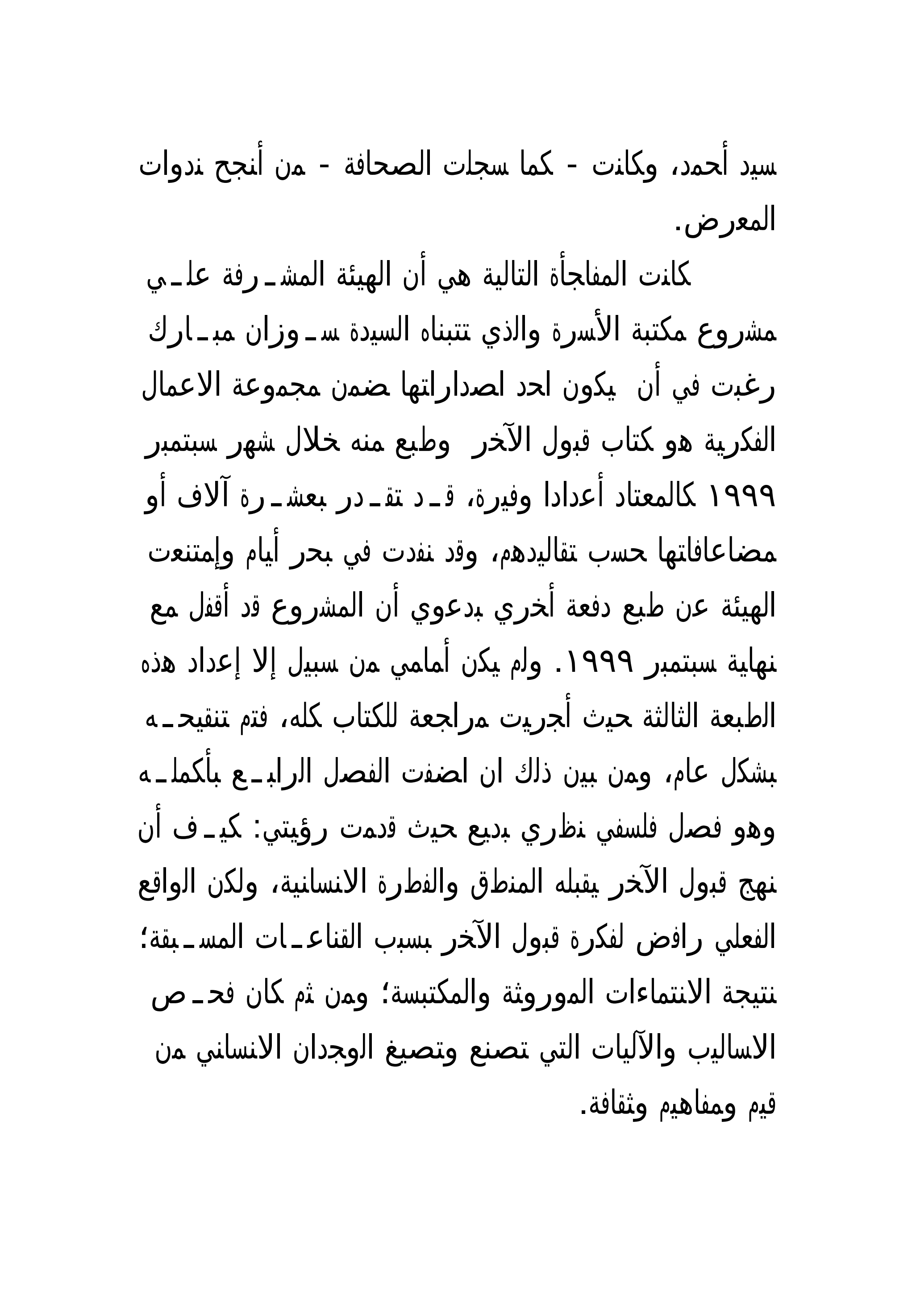
أقدم حضارة في التاريخ:

ثم ذكر فيما ذكر: كيف أنني كنت - بمواقفي وكتاباتي - أحد أسباب استمرار التسامح وقبول الآخر في مصر، حيث يوجد مجتمع متعدد الأديان. وبعدها تطرق -في كلمته- إلي الحوار الذي جري بيننا - قبل الاحتفال مباشرة - وعن عزمي نشر كتابي قبول الآخر.

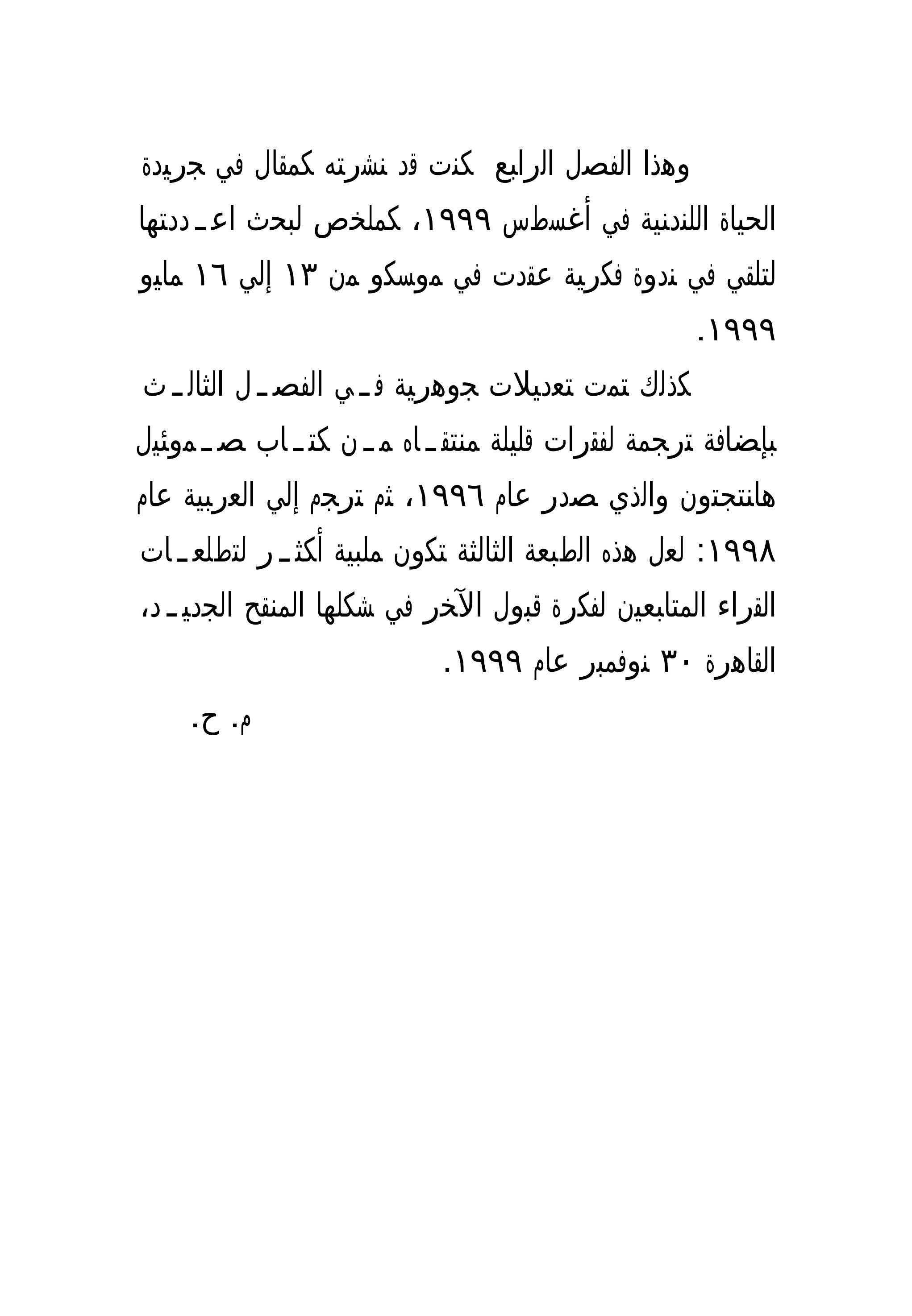


وبالفعل، ما أن عدت إلي القاهرة حتي حظيت بتكريم من عشرات الهيئات الرسمية والأهليـة، جـددت وجـداني وشبابي، لأعود مرة أخري مناضلا من أجل ذهنيـة 'قبـول الآخر'. فمن المعروف أن جائزة سيمون بوليفار لا تمنح إلا للمناضلين، في حين أن جائزة نوبل تعطي للنابهين المتميزين من المتخصصين، في أربعة مجالات حددها صاحب الجائزة ذاته الفريد نوبل في وصيته قبل ان يرحل في ١٠ ديسـمبر عام ١٨٩٦ ووجدت عبارة 'قبول الآخر' لدي الناس 'قبـولا' عاما حتي صارت من المصطلحات المستخدمة في أحاديـث وكتابات المثقفين وهناك قصص ووقائع ربما تنشر في سياق آخر.

وقبل أن يفتتح معرض الكتـاب السـنوي رقـم ٣١ بالقاهرة في ٢٦ يناير ١٩٩٩ بأيام قليلة أعلن عـن أن هـذا الكتاب قد حصل علي جائزة أحسن كتاب في مجال العلـوم الاجتماعية لعام ١٩٩٨، وعقدت الهيئة المنظمـة للمعـرض أولي ندواتها لعرض ومناقشة هذا الكتاب يوم الاربعـاء ٢٧ يناير، وقد شارك معي في العرض والمناقشـة كـل مـن : الاستاذ كامل زهيري والاستاذة مها عبدالفتاح والاستاذ محمد


سيد أحمد، وكانت - كما سجلت الصحافة - من أنجح ندوات المعرض.

كانت المفاجأة التالية هي أن الهيئة المشـرفة علـي مشروع مكتبة الأسرة والذي تتبناه السيدة سـوزان مبـارك رغبت في أن يكون احد اصداراتها ضمن مجموعة الاعمال الفكرية هو كتاب قبول الآخر وطبع منه خلال شهر سبتمبر ١٩٩٩ كالمعتاد أعدادا وفيرة، قـد تقـدر بعشـرة آلاف أو مضاعفاتها حسب تقاليدهم، وقد نفدت في بحر أيام وإمتنعت الهيئة عن طبع دفعة أخري بدعوي أن المشروع قد أقفل مع نهاية سبتمبر ١٩٩٩. ولم يكن أمامي من سبيل إلا إعداد هذه الطبعة الثالثة حيث أجريت مراجعة للكتاب كله، فتم تنقيحـه بشكل عام، ومن بين ذلك ان اضفت الفصل الرابـع بأكملـه وهو فصل فلسفي نظري بديع حيث قدمت رؤيتي: كيـف أن نهج قبول الآخر يقبله المنطق والفطرة الانسانية، ولكن الواقع الفعلي رافض لفكرة قبول الآخر بسبب القناعـات المسـبقة؛ نتيجة الانتماءات الموروثة والمكتبسة؛ ومن ثم كان فحـص الاساليب والآليات التي تصنع وتصيغ الوجدان الانساني من قيم ومفاهيم وثقافة.



وهذا الفصل الرابع كنت قد نشرته كمقال في جريدة الحياة اللندنية في أغسطس ١٩٩٩، كملخص لبحث اعـددتها لتلقي في ندوة فكرية عقدت في موسكو من ١٣ إلي ١٦ مايو ١٩٩٩.

كذلك تمت تعديلات جوهرية فـي الفصـل الثالـث بإضافة ترجمة لفقرات قليلة منتقـاه مـن كتـاب صـموئيل هانتجتون والذي صدر عام ١٩٩٦، ثم ترجم إلي العربية عام ١٩٩٨: لعل هذه الطبعة الثالثة تكون ملبية أكثـر لتطلعـات القراء المتابعين لفكرة قبول الآخر في شكلها المنقح الجديـد، القاهرة ٣٠ نوفمبر عام ١٩٩٩.

م. ح.

مقدمة الطبعة الأولي معدلة

ما إن سقط حائط برلين فـي نـوفمبر عـام ١٩٨٩ وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، حتي بدا العالم وكأن قد أصابه وباء جديد نتيجة تفجر كراهية وعداوات كانت كامنـة مثل الأمراض الخبيثة. فتفجرت صراعات في مواقع كثيـرة من العالم. تبث الكراهية بين مجموعات بشرية قد تكون من مواطني دول مختلفة لها حدود مشتركة متجاورة أو متعايشة في داخل إقليم أو وطن واحد.

يتولد الاحساس بالكراهية بسبب رواسب تاريخيـة لاختلاف السلالة أو الأديان أو المذاهب. وفي بعض الأحيان تزداد الكراهية عمقا وحدة فتتحول إلي صـراعات تشـتعل لتكون حروبا أهلية تملأ أخبارها وسائل الإعلام، وبسـرعة تتواري أخبارها لأنها طالت ومل الناس من تكرار أحداثها، لكي تظهر أخبار جديدة تغطي صراعا في مكان آخر، حتي احتلت أخبار هذه الصراعات مكان الحـرب البـاردة كمـا عاشها جيلي من نحو عام ١٩٤٧ حتي عام ١٩٩٠.

ربما كان أهم هذه الصراعات وأشهرها بل أخطرها، ذاك الانهيار الذي أصاب يوجوسلافيا السابقة، حتي بدت هذه

الدولة وكأنها مكونة من قطع متجاورة متداخلة مـن الـزلاط والرمل، ولم يكن تماسكها ـ في واقع الأمر ـ ـ إلا مؤقتـا وظاهريا من خلال النظرية الماركسية بزعامة محررها مـن الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية جوزيف بـروز تيتـو. وعندما تحلل الأسمنت واختفي نظام تيتـو وفكـره وحزبـه ونظامه عادت قطع الزلاط والركام المصـفوفة والمتراصـة تتصارع رافضة لأي نوع جديد من التماسك. وهكذا استمرت حرب البوسنة والهرسك كـأكبر مأسـاة بشـرية إلـي أن استطاعت الأمم المتحدة وأوروبا وأمريكا أن توقف الحـرب بعد أن قتل الملايين ثم اشتعلت من جديد عـام ١٩٩٩ فـي كوسوفو ويعلم ا أين ومتي يكون الصراع الجديد.

وهناك عشرات من حالات مشابهة في مواقع كثيـرة أخري حيث دار ـ ومازال يدور ـ الصراع بسبب الخلاف في الدين ثم امتدت الظاهرة لتشمل مصـادمات حـادة بـين جماعات تنتمي إلي ذات الدين، ففي أيرلندا صراع قديم بين البروتستانت والكاثوليك، وفي أفغانستان حرب شرسة بـين فرق تنتمي إلي حركات المجاهدين الذين تحالفوا للتحرر من الاحتلال السوفيتي($)، ولكن ما إن خرج السـوفيت حتـي

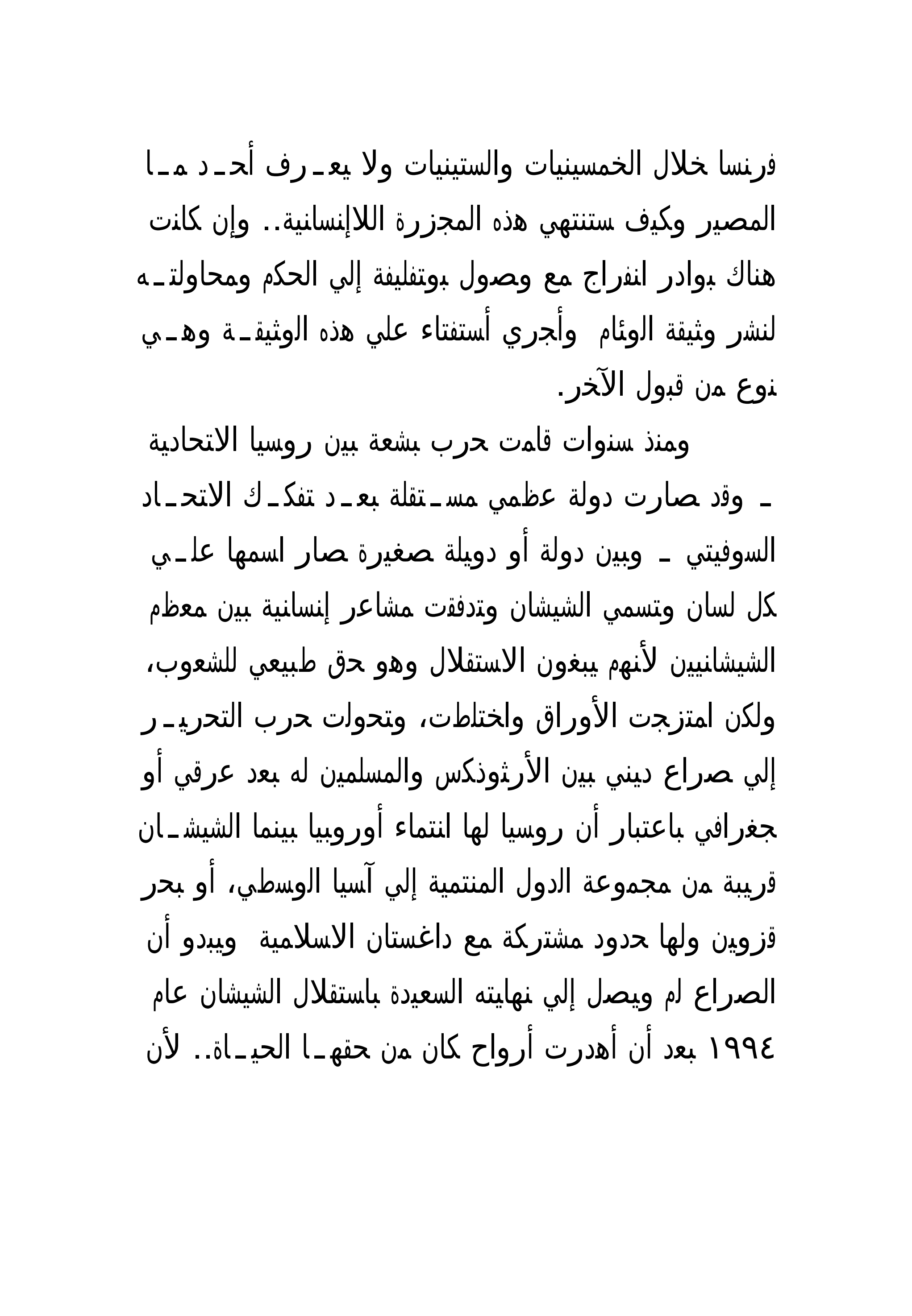
تناحرت الفرق الدينية والقبلية المتحاربة ومازالت تتصـارع حتي الآن.

وعلي حدود كل من تركيا والعراق حـروب تكمـن أحيانا وتشتعل أحيانا أخري، بسبب مشاعر جماعية لشـعب عرف باسم الأكراد رغب في أن يكون له كيان مستقل، ولكن قامت الحكومات المجاورة التي بها أقلية كردية باضطهاد هذه الحركة، علي الرغم من أن الديانة السائدة في كل هذه الدول -بما فيهم الأكراد أنفسهم- هي الإسلام. وطرح السؤال نفسه علي الساحة، هل الصراع بسبب السـلالة أو اللغـة (أي أن للصراع جانبا ثقافيا أم هما معا؟

أما الحرب الأهلية في جنوب السودان، فقد بدأت قبل اشهر من الاستقلال في أول يناير عام ١٩٥٦ أي منذ نحـو ٤٣ عاما وخلال هذه الفترة، اشتعلت الحرب الأهلية لنحـو ٣٢ عاما متقطعة، وربما كان ذلك بسبب أنها من الحـالات الصارخة للصراعات الأهلية الداخلية حيـث تجمعـت كـل أسباب الفرقة. فأهل الشمال ينتمون إلي الإسلام ويتمسـكون بالعروبة علي الرغم من أن العروبة هناك ممثلة فـي اللغـة أكثر من وضوحها في لون البشرة أي من ناحية السلالة، أما

في الجنوب فالانتماء واضح أنه لسلالة الشـعوب الإفريقيـة المسماة الزنجية أي أن هناك خلافا في السلالة. كمـا يوجـد خلاف في الدين حيث تنتشر في الجنوب ديانات متعددة بمـا فيها المسيحية والإسلام وديانات أخري قديمة يسمونها خطـأ بكلمة فضفاضة: الوثنية.

وأما ما يجري في الجزائر، فـأمره عجـب، فهـو نموذج حاد للصراع بين المنتمين إلي الحركـة الإسـلامية الأصولية من جانب وهـم المتمسـكون بالجـذور العربيـة الإسلامية، وبين فريق آخر ينتمـي إلـي التيـار الليبرالـي العلماني غير المعارض للثقافة الفرنسـية أو التعامـل مـع الغرب، وهذا القطاع الأخير يشمل ـ ضمن ما يشـمل ـ ـ السلالة المعروفة باسم البربـر ولهـا توجهـات اشـتراكية ديمقراطية، ولـذا فـالجزائر سـاحة للصـراع السياسـي والأيديولوجي كما أن له بعدا ثقافيا وعرقيا علي الرغم مـن أن أهل الجزائر ينتمون جميعا إلي الإسـلام.... ولكـن أي إسلام؟ فمن الواضح أن الدين له مفهوم مختلف حسب الرؤية الثقافية، حتي صار قبول الآخر في الوطن الواحد مسألة شبه مستحيلة بعد حرب المليون شهيد من أجل الاسـتقلال عـن



فرنسا خلال الخمسينيات والستينيات ولا يعـرف أحـد مـا المصير وكيف ستنتهي هذه المجزرة اللاإنسانية.. وإن كانت هناك بوادر انفراج مع وصول بوتفليقة إلي الحكم ومحاولتـه لنشر وثيقة الوئام وأجري أستفتاء علي هذه الوثيقـة وهـي نوع من قبول الآخر.

ومنذ سنوات قامت حرب بشعة بين روسيا الاتحادية ـ وقد صارت دولة عظمي مسـتقلة بعـد تفكـك الاتحـاد السوفيتي ـ وبين دولة أو دويلة صغيرة صار اسمها علـي كل لسان وتسمي الشيشان وتدفقت مشاعر إنسانية بين معظم الشيشانيين لأنهم يبغون الاستقلال وهو حق طبيعي للشعوب، ولكن امتزجت الأوراق واختلطات، وتحولت حرب التحريـر إلي صراع ديني بين الأرثوذكس والمسلمين له بعد عرقي أو جغرافي باعتبار أن روسيا لها انتماء أوروبيا بينما الشيشـان قريبة من مجموعة الدول المنتمية إلي آسيا الوسطي، أو بحر قزوين ولها حدود مشتركة مع داغستان الاسلامية ويبدو أن الصراع لم ويصل إلي نهايته السعيدة باستقلال الشيشان عام ١٩٩٤ بعد أن أهدرت أرواح كان من حقهـا الحيـاة.. لأن

ثقافة قبول الآخر غير مطروحة بل وغير واردة أصلا فقـد حل الدم مكان الوئام.

ولا أود أن استرسل في ذكر صراعات في مواقـع كثيرة في إفريقيا حيث القبائل المتناحرة في الصومال ورواندا وزيمبابوي، ثم في مواقع كثيرة من أسـيا.. لعـل أبرزهـا الصراع القديم الذي يتجدد بين الهند وباكستان حول كشـمير وصل إلي حد التهديد باستخدام صواريخ حاملـة لـرؤوس لرؤية.

ويبدو الأمر كأن وباء قد أصاب معظم شعوب ودول العالم، أي أن البشرية تمر بحقبة بائسة قد تسـتمر سـنوات وسنوات. وتحاول الدول الكبري أن تتدارك المشـكلة مـن وجهات نظرها، وتقوم تنظيمات الأمم المتحدة بالتدخل بقـدر ما تسمح إمكاناتها فضلا عن حسـابات دقيقـة لتوازنـات السياسة الدولية، فتشكل - في بعض الأحيـان - - قـوات عسكرية تحمل علم الأمم المتحدة، أو يتم الاستغناء عن غطاء الأمم المتحدة بأكمله لتحل محله منظمـة حلـف الأطلنطـي 'الناتد والتي تسعي الحكومات للانضمام إليهـا خوفـا مـن بطشها، كما تقوم الجيوش الوطنية بالتـدخل لمقاومـة هـذه

الحركات التي قد يسمونها أحيانا بـالتطرف والإرهاب كمـا في حالة الشيشان التي اشتعلت من جديد عـام ١٩٩٩ كـرد اعتبار لكرامة الجيش الروسي التي يعتبره نفسه وكـان قـد هزم عام ١٩٩٤. ويتم تبادل المعلومات من خلال اختـراق هذه الجماعات المسلحة علي أنواعها، ولكن المشكلة لن تعالج بهذه الطريقة، لأن التـدخل بالسـلاح وبأسـاليب الشـرطة والمخابرات يتعامل مع أعراض الظاهرة في سـطحها دون العمق وصولا إلي جوهرها وأسبابها.

إن هذه الصراعات ـ في الأغلب الأعـم ـ هـي نتيجة لمشاعر إنسانية عميقة الجذور قد تعود لقرون تراكمت لدي مجموعات بشرية تحمل غالبا صبغة فكرية وثقافية. فإذا استطعنا أن ننشر فكر وثقافة قبول الآخر بينها فإننا نكون قد قطعنا شوطا من الطريق، إذ عندها يتحول الصراع الـدموي المسلح والساخن إلي صراع أهدأ، وتنخفض درجة حـرارة الصراع، بعدها تأتي مرحلة الحلول التوفيقيـة مـن خـلال التفاوض مقرونة بقبول حقـوق البشـر فـي الاسـتقلال أو الخصوصية الثقافية وما أشبه، وفي هذا الأمر تختلـف كـل

حالة عن الأخري لاختلاف الخلفية التاريخيـة للأمـاني أو المعاناة أو التطلعات.

***

غير أن ثقافة قبول الآخر - وهـو موضـوع هـذا الكتاب ... سلاح ذو حدين، فإذا كان هدفنا هو إقناع الشعوب المقهورة بهذه الثقافة دون أن تقتنع شعوب (ثـم حكومـات) الدول القاهرة، فإننا نكون بهذه الثقافة قد ساعدنا القاهر علي حساب المقهور. فثقافة قبول الآخر في مجملها هي محاولـة لصياغة عقلية وجدانية ينبغي أن تسود دول العالم الأول قبل دول العالم الثالث، فالمفترض أن دول أوروبا وأمريكا أكثـر ثقافة وديمقراطية، ومع بدء هذه العملية ومع الزمن وتـراكم الفكر الأرقي لقبول الآخر، يتكون رأي عام عـالمي يـتفهم حقوق الشعوب والمجموعات البشرية المناضلة مـن أجـل استقلال أو كسب حقوق متساوية في وطنها، أو الاعتـراف بحق كل المنتمين لأقليات عرقيـة أو دينيـة أو مذهبيـة أو عقائدية في أن يتمتعوا بحقوق متكافئة وفق نصوص ومواثيق الدول ذاتها حسب ما جاء في ميثاق حقوق الأقليات الذي تـم

التصديق عليه من قبل الجمعية العامة للأمـم المتحـدة فـي ديسمبر عام ١٩٩١. (انظر الملحق رقم ١ في نهاية الكتاب).

إن كل أملنا هو أن يقصر المـدي الزمنـي الـذي ستعاني فيه البشرية من هذه الصراعات الدموية والتي يزداد عددها ومداها عاما بعد عام، فضلا عن أن نشر ثقافة قبـول الآخر قد يكون المصل الواقي الذي يعالج بعـض الحـالات الحرجة حيث توجد معاناة بين مجموعات بشـرية، ولكنهـا معاناة مكبوتة لم تنفجر بعد، فتكون ثقافة قبول الآخر عـاملا أساسيا في منع قيام الصراعات الدموية أصلا، وكأنها إجراء وقائي. كما قد تتحول ثقافة قبول الآخر إلي أسلوب للعـلاج وكأنها نوع من الدواء أو البلسم عقب إيقاف الحرب بشكل أو بآخر.

تكاد لاتكون هناك دولة أو شعب يـدعي أن جميـع مواطنيه ينتمون إلي سلالة واحدة؛ ويدينون بديانة واحدة؛ لها ذات المذهب، فالنقاء العرقي والديني والمذهبي أمـر نـادر الوجود، خصوصا مع حركة الهجرة والانتقال من دولة إلـي أخري وهو أمر سائد الآن لأسباب مختلفة ليس هنـا مجـال ذكرها($). ولعل خير دليل علي ذلك هذه المـدن الكبـري،

مثل: لندن وباريس ونيويورك وغيرها، حيث يشعر المرء - وهو يسير في شوارعها الرئيسية - وكأنها قد صارت بالفعل مدنا عالمية بها كم هائل من ألوان البشرة واللغات واللهجات وغالبا الثقافات والأديان. فتسمع وأنت تسـير فـي شـارع أكسفورد في لندن أو طريق الشـانزليزيه فـي بـاريس أو الطريق الخامس Fifth Avenue في نيويورك، معظم لغات الأرض، وتري كل درجات ألوان البشرة والشكل فضلا عن الزي والعادات ... حقا إن العالم يتحول تدريجيا ليكـون - كما يقولون - قرية واحدة صغيرة ..! ولكن أمامنا مشـوار طويل قبل الوصول إلي هذه الحالة من قبول الآخر أو حرية التنقل من دولة إلي أخري، فكل ذلك يؤكد أننا علـي عتبـة المرحلة المسماة بـ العولمة أو الكوكبية Globalism، ولذا فمن المهم أن نعبر هذه الحقبة الحرجة في أقصر وقت وبأقل قدر من الخسائر في الأرواح والأموال والمعاناة.

***

المعتاد - لدي معظم الكتـاب - أن يكـون اختيـار عنوان الكتاب، والذي - يعبر عن القضية الرئيسـية التـي يعالجها- قبل أن يبدأ الكتابة ويحدد بنية المؤلف، وهو مـاتم

بالفعل بالنسبة لي مع هذا الكتاب. ذلك أنني قد كتبت كثيـرا حول السنة الدولية التي دعت لها هيئة اليونسكو تحت شعار أنها تسعي لأن يكون عام ١٩٩٥ هو عـام التسـامح. وقـد ترجمت كلمة Tolerance - أول الأمر - بمـا تصـورته المقابل العربي وهي كلمة التسامح ولكن مع الحـوار وردود الفعل لكتاباتي، اكتشفت أن عبارة قبول الآخر هـي ترجمـة أفضل وأقرب إلي المفهوم السليم كما سيفتح للقـاريء مـع السياق العام للكتاب لأن عبارة التسامح تعني أن هناك طرفا أخطأ ولذا فإن الطرف الآخر يسامحه وهذا يعبر عن رؤية تحالف فكر ونظرية ونهج قبول الآخر.

***

في الفصل الأول قدمت محاولة نظرية للاقتراب من القوانين المحركة للتاريخ حيث قدمت رؤيتي في أن المشاعر الانسانية الجماعية للشعوب أو المجموعات البشرية هي التي تحرك التاريخ، وربما تكون بديلا للمفهوم الماركسي لنظرية صراع الطبقات، ذلك أن الطبقات مـا هـي إلا مجموعـات بشرية لها مشاعر وأماني مشـتركة، ولـذا فـإن تجميعهـا وتنظيمها في شكل نقابات للطبقة العاملة قد يحرك التـاريخ.

وربطت ذلك بنظرية أن البشر والجماعات تترجم مشـاعرها بالالتفاف حول انتماءات اجتماعية متعددة بعضها مـوروث والآخر مكتسب، ولعل أهم الانتماءات الموروثة هما: الانتماء الديني والانتماء الوطني، ثم طرحت تساؤلا مشروعا هـو: أي هاتين الانتماءين يسبق الآخر وهي قضية خلافيـة فـي المرحلة الحالية. لعل القارئ يجد في هذا الفصل متعة ذهنية تثير الحوار وربما الاختلاف في الرؤي.

الفصل الثاني من الكتاب- فهو فصل أطول نسبيا - لأنه طرح كيف انتقل العالم من قبول نظرية صراع الطبقات التي قدمها كارل ماركس في منتصف القرن التاسـع عشـر وصولا إلي نظرية صدام أو صراع الثقافات التـي ابتـدعها المفكر الأمريكي صموئيل هانتجتون عام ١٩٩٣ عام وهي النظرية التي صارت المحـرك النظـري لمجمـل سياسـة الخارجية الأمريكية في الحقبة الحالية، لذلك قدمنا نصوصـا مختارة من هذه النظرية الأخيرة حتي تكون في متناول قراء العربية. ففي ضوئها يمكن فهم الكثير مما يجري في منطقتنا العربية لأن السياسة الأمريكية تسير -في الأغلـب الأعـم- وفق الخطوط العامة العريضة لنظرية صراع الحضارات.

***

وقبل أن ندخل في صلب فكر وثقافة قبول الآخـر، كان المنطق يقتضي تقديم أمثلة عملية علي قبول الآخر مـن خلال خبرات إنسانية فريدة في التاريخ المعاصر، كان أولها هو ما ظهر في أمريكا اللاتينية من فكر صار يعرف بعبارة لاهوت التحرير وكيف تمت المصالحة ثم التزاوج أو التلقيح الثقافي($) Acculturation بين المذهب الكاثوليكي المحافظ من جانب وبين الماركسية والاشتراكية من جانب آخر وهي الأفكار التي امتزجت وأنصهرت خـلال حركـة التحـرر الوطني في بلدان أمريكا اللاتينية في النصـف الثـاني مـن القرن العشرين وتنبيء الشواهد أن لاهوت التحرير سـوف يتطور ليناسب العصر، وينتظر أن يسـمي لـذلك لاهـوت الحياة.... وكل ذلك قد أوضحناه في الفصل الثالث.

وفي شيء من الصراحة، لابد لي أن أعتـرف بـأن الفصول الثلاثة الأولي قد كتبتها في صيف عام ١٩٩٦، في مدينة مارينا ـ علي الساحل الشمالي الغربـي لمصـر ـ ـ وعندما عدت للقاهرة، تاهت الأفكار، وضاع الوقـت، فلـم أستطع أن أستكمل الكتاب حتي عدت مرة أخري إلي مارينا

في صيف عام ١٩٩٧، وكان صموئيل هانتجتون قد أصدر كتابه شارحا نظريته في شيء من التفصيل، ووجدت أن قضية قبول الآخر مازالت ملحة، فعكفت علي استكمال الدراسة، فكان الفصل الخامس($) بعنوان ثقافة قبول الآخر، وهو المعبر - من وجهة نظري - عن كيفية نشر الثقافة التي تدعو وتوصلنا لقبول الآخر، فالجزء الأول من هذا الفصل الرئيسي والمهم، هو عن نشر ثقافة قبول الآخر بالنسبة للفرد، ومن ثم فهو أمر مفيد لكل منا، ويستطيع أي فرد أن يطور نفسه حتي يكون قابلا للآخر، وسيجد كيف أن قناعتك بهذا المفهوم سيكون له مردود هائل بالنسبة لمن يقتنع به، وسيجد أنه هو نفسه مقبول من الآخرين طالما أنه قد مارس فكر وثقافة قبول الآخر، فالحب معد كما أن الكراهية معدية. أما الجزء الثاني من هذا الفصل الخامس، فهو يتعرض لقضية أعقد وأصعب، لأن نشر ثقافة قبول الآخر بين المجتمعات البشرية، وصولا لأن يكون بين الشعوب أي بين الأجناس المتناحرة أو الأديان المتناقضة، ليس أمرا سهلا، لأنه في الأساس عمل سياسي وثقافي وتعليمي من الطراز الأول. وقد طرحت ما تصورته أساليب وآليات يمكن

لأي مجموعة بشرية أو شعب ـ وربما من خلال حكوماتـه ـ أن تتبعها لعلها تنمي ثقافة قبول الآخر جماعيا، وعندئـذ ستقل الصراعات وتخف حدة التوتر، وفي بعـض الحـالات التي يوجد بها احتمالات لتفجير صراع طائفيي أو دينـي أو مذهبي، ستكون أساليب وآليات ثقافة الآخر ـ وكما شرحت تفصيلا في مجمل هذا الفصل الخامس وقبله الرابع ـ ملطفة وربما مانعة، أي تكون وقائية حتي لا تتطور الأمـور مـن الصراع البارد إلي الصراع الساخن.. الدامي!

ثم جـاء الفصـل السـادس بعنـوان الاشـتراكية الديمقراطية أيديولوجية مناسبة لقبول الآخر ـ ليكون فرصة لأعرض فيها بعض خبراتي وأرائي وتاريخي مع أيديولوجية الاشتراكية الديمقراطية، ذلك أنه لأسباب ذاتية فإنني مقتنـع بأن المناخ الحضاري الذي تفرزه الاشتراكية الديمقراطية ـ علي الأقل كما رأيتها ممارسة في مجتمع مثل السـويد ـ ـ كانت المناخ الملائم لمجتمع يعمل ويسعي لإقلال المصادمات داخله، ومن ثم فمناخ الاشتراكية الديمقراطية مـن أفضـل الأيديولوجيات التي توفر ثقافة قبول الآخر وسيجد القـاريء بعض القصص التاريخية ـ التي شاركت فيهـا، وسـتكون

موضع تندر وحوار وخلاف بين التيارات السياسية وعموما واليسارية خصوصا، وأحسب أنها ترى النور وتنشر لأول مرة.

وكان طبيعيا أن أنهي الكتاب في الفصل السابع عن مصر كنموذج لقبول الآخر مقدما خبرة وجود ديانتين متعايشتين عبر قرون طويلة، لعلها تكون هي ذاتها مثالا يحتذي، وقد يكون في طرحها أيضا ما يصفي هذه العلاقة مما يكون قد علق بها من شوائب نتيجة ماصرنا نسميه بالفتنة الطائفية والإرهاب. وهنا أقدم أيضا خبرة مصر في التعايش بين التيارات السياسية والفكرية دون عنف.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة أود أن أقدم الشكر والتقدير للأستاذ مصباح قطب الكاتب الصحفي بجريدة الأهالي والذي قدم لي حوارا مفيدا من خلال قراءته للنص الأصلي وكانت لإضافته فائدة كبيرة، فضلا عن معاونته لي في مراجعة النصوص والبروفات المختلفة.

أيها القاريء الكريم،

ها هي ذي أفكار مطروحة بين يديك، قابلة للحوار، ولابد أن تثير الشهية لوجهات نظر مختلفة، فسيظل الحـوار جاريا ما جرت الأحداث في الحياة، ولكن دعنا نأمل أن نري انسان أسعد ومن ثم مجتمعات أسعد من خلال قبول الآخـر، حتي نهتف بالشعار الذي اتخذته عنوانا لكتابتي في الأهرام: غدا أكثر إشراقا.

د. ميلاد حنا

مارينا ـ العلمين

علي الساحل الشمالي الغربي لمصر

أكتوبر ١٩٩٧

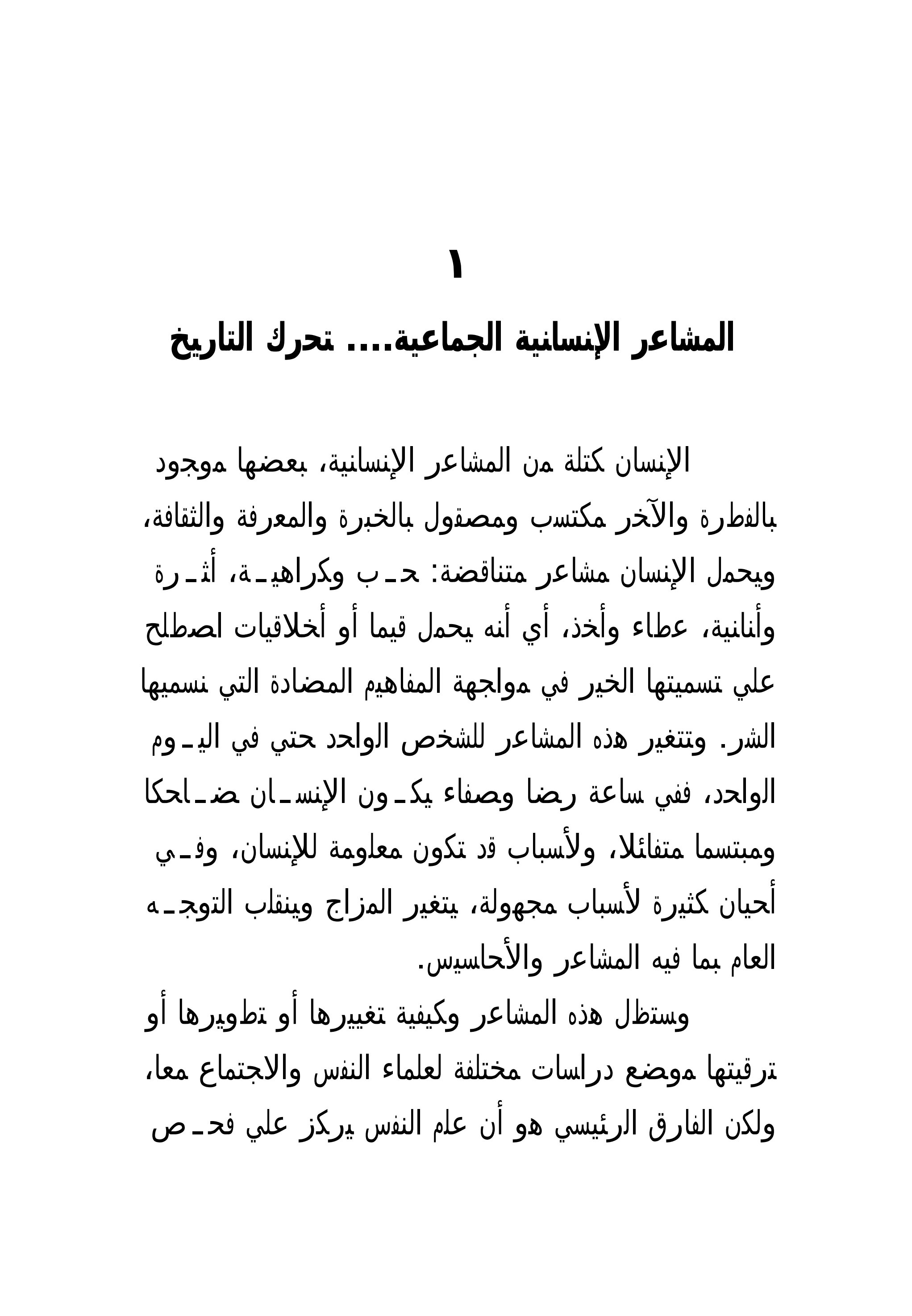
الجزء الأول

ثقافة قبول الآخر

الفصل الأول

المشاعر الإنسانية الجماعية.. تحرك التاريخ

- علم النفس يفحص المشاعر الإنسانية للفرد.
- علم الاجتماع يفحص المشاعر الإنسانية للجماعات البشرية.
- للشعوب والجماعات مشاعر وخواص تتميز بها تعرف الآن بعبارة الخصوصية الثقافية.
- الإنجليزي بارد والفرنسي رومانسي والألماني منضبط
- مجال الاجتهاد لتفسير مسببات حركة التاريخ سيظل مفتوحا للفكـر الإنساني.
- المشاعر الإنسانية تتراكم وتتغير للفرد مع تطور انتماءاته.
- الانتماء إلي القبيلة أقوي من الانتماء إلي الوطن فـي بعـض دول إفريقيا.
- الصراع بين الانتماء الديني والانتماء الوطني يتغير بعد الاستقلال.
- المشاعر الإنسانية الجماعية - إذا نمت بعد قهر- تتفجر في شكل ثورة شعبية وقد تتطور لتتحول إلي حرب أهلية.

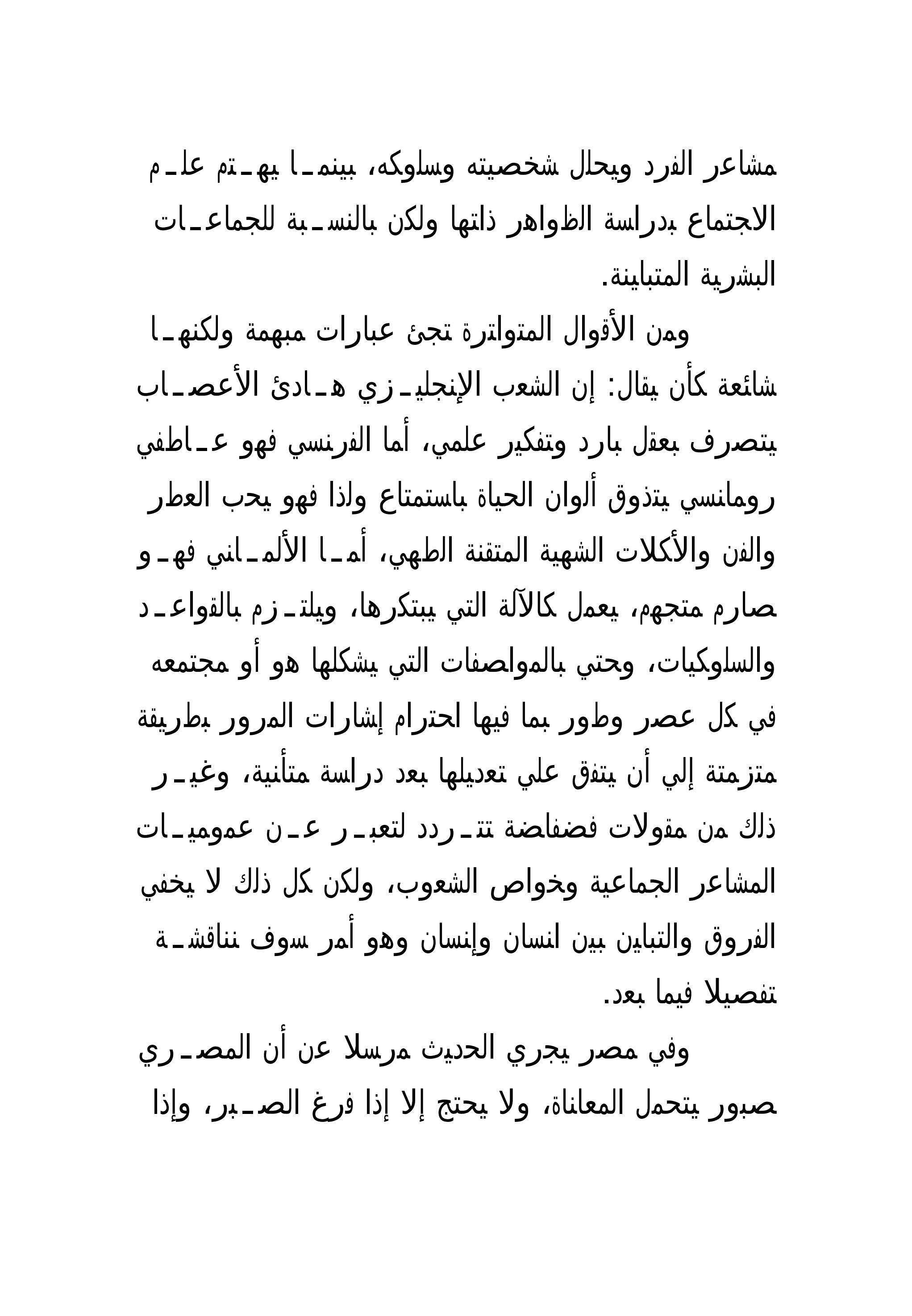


١

المشاعر الإنسانية الجماعية.... تحرك التاريخ

الإنسان كتلة من المشاعر الإنسانية، بعضها موجود بالفطرة والآخر مكتسب ومصقول بالخبرة والمعرفة والثقافة، ويحمل الإنسان مشاعر متناقضة: حـب وكراهيـة، أثـرة وأنانية، عطاء وأخذ، أي أنه يحمل قيما أو أخلاقيات اصطلح علي تسميتها الخير في مواجهة المفاهيم المضادة التي نسميها الشر. وتتغير هذه المشاعر للشخص الواحد حتي في اليـوم الواحد، ففي ساعة رضا وصفاء يكـون الإنسـان ضـاحكا ومبتسما متفائلا، ولأسباب قد تكون معلومة للإنسان، وفـي أحيان كثيرة لأسباب مجهولة، يتغير المزاج وينقلب التوجـه العام بما فيه المشاعر والأحاسيس.

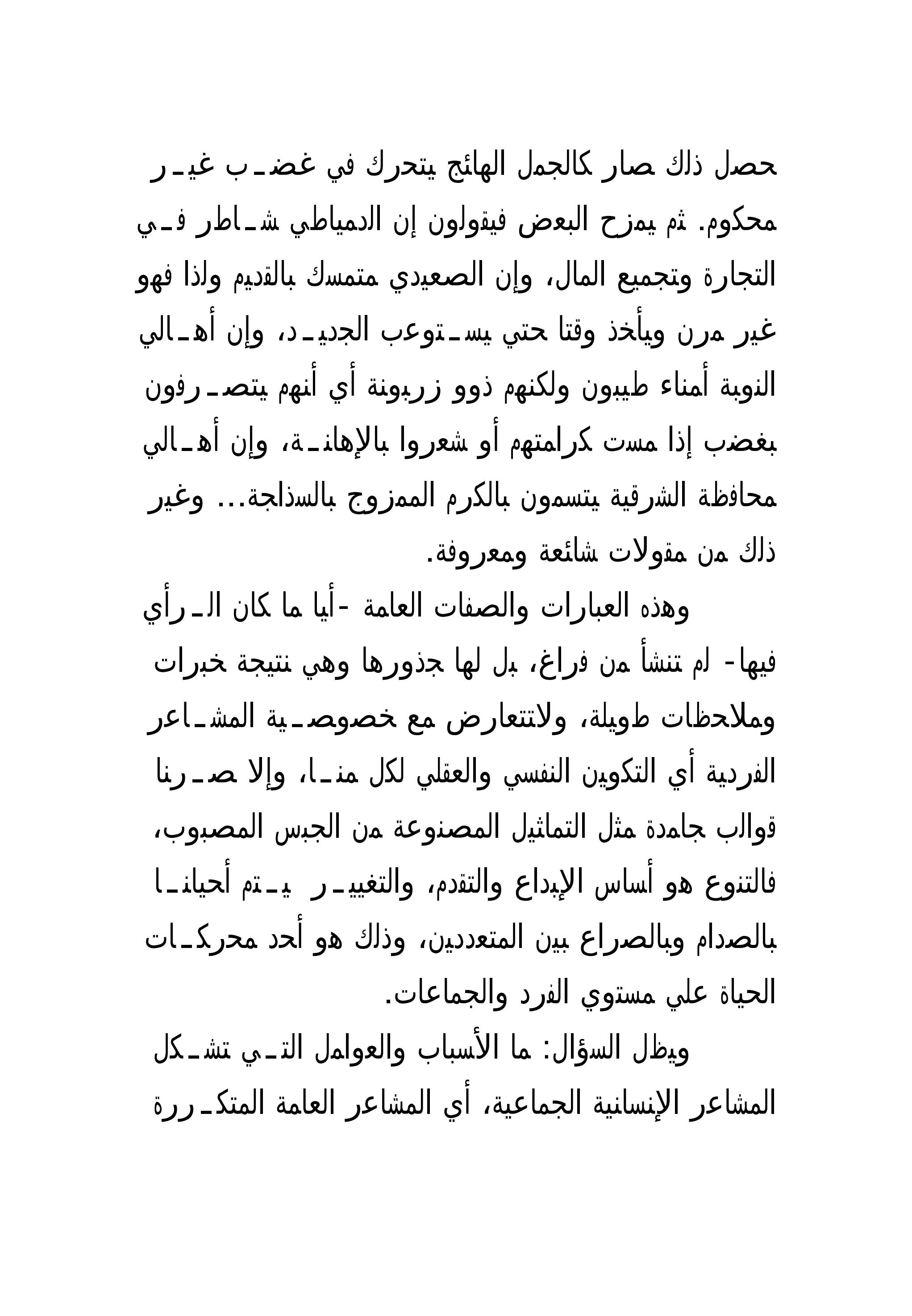
وستظل هذه المشاعر وكيفية تغييرها أو تطويرها أو ترقيتها موضع دراسات مختلفة لعلماء النفس والاجتماع معا، ولكن الفارق الرئيسي هو أن علم النفس يركز علي فحـص



مشاعر الفرد ويحلل شخصيته وسلوكه، بينما يهتم علم الاجتماع بدراسة الظواهر ذاتها ولكن بالنسبة للجماعات البشرية المتباينة.

ومن الأقوال المتواترة تجئ عبارات مبهمة ولكنها شائعة كأن يقال: إن الشعب الإنجليزي هادئ الأعصاب يتصرف بعقل بارد وتفكير علمي، أما الفرنسي فهو عاطفي رومانسي يتذوق ألوان الحياة باستمتاع ولذا فهو يحب العطر والفن والأكلات الشهية المتقنة الطهي، أما الألماني فهو صارم متجهم، يعمل كالآلة التي يبتكرها، ويلتزم بالقواعد والسلوكيات، وحتي بالمواصفات التي يشكلها هو أو مجتمعه في كل عصر وطور بما فيها احترام إشارات المرور بطريقة متزمتة إلي أن يتفق علي تعديلها بعد دراسة متأنية، وغير ذلك من مقولات فضفاضة تتردد لتعبر عن عموميات المشاعر الجماعية وخواص الشعوب، ولكن كل ذلك لا يخفي الفروق والتباين بين انسان وإنسان وهو أمر سوف نناقشة تفصيلا فيما بعد.

وفي مصر يجري الحديث مرسلا عن أن المصري صبور يتحمل المعاناة، ولا يحتج إلا إذا فرغ الصبر، وإذا



حصل ذلك صار كالجمل الهائج يتحرك في غضب غير محكوم. ثم يمزح البعض فيقولون إن الدمياطي شاطر في التجارة وتجميع المال، وإن الصعيدي متمسك بالقديم ولذا فهو غير مرن ويأخذ وقتا حتي يستوعب الجديد، وإن أهالي النوبة أمناء طيبون ولكنهم ذوو زربونة أي أنهم يتصرفون بغضب إذا مست كرامتهم أو شعروا بالإهانة، وإن أهالي محافظة الشرقية يتسمون بالكرم الممزوج بالسذاجة... وغير ذلك من مقولات شائعة ومعروفة.

وهذه العبارات والصفات العامة -أيا ما كان الرأي فيها- لم تنشأ من فراغ، بل لها جذورها وهي نتيجة خبرات وملاحظات طويلة، ولاتتعارض مع خصوصية المشاعر الفردية أي التكوين النفسي والعقلي لكل منا، وإلا صرنا قوالب جامدة مثل التماثيل المصنوعة من الجبس المصبوب، فالتنوع هو أساس الإبداع والتقدم، والتغيير يتم أحيانا بالصدام وبالصراع بين المتعددين، وذلك هو أحد محركات الحياة علي مستوي الفرد والجماعات.

ويظل السؤال: ما الأسباب والعوامل التي تشكل المشاعر الإنسانية الجماعية، أي المشاعر العامة المتكررة

في جماعة أو أمة أو شعب؟ وهو سؤال عويص، وفي حاجة لتعليل؛ فقد يعود بعضها لعوامل جغرافية أي بيئية، فالطبيعة والمناخ أي المكان أو الجغرافيا في مجملهـا تـؤثر علـي التركيبة النفسـية للجماعـات الإنسـانية فسـكان الوديـان والحضارات الزراعية أميل إلي الهدوء النفسي والتعاون بين الأهل والجيران والاطمئنان للآخر، بينما الصحراء وامتدادها اللانهائي يدفعان لانطلاق الخيال والخوف من الغريب القادم من بعيد، ولذا فلابد أن يرفع الغريب يده واضـحة بالسـلام حتي يطمئن صاحب المكان إلي أنه ليس عـدوا ولا يحمـل سلاحا.ولأن سكان الغابات معرضون لمخاطر الافتراس من الحيوانات والزواحف التي قد تنقض عليهم في لحظة غيـر متوقعة، ولأن الرعد والأمطار ظواهر متكررة تحـدث دون انقطاع أو دون إنذار، فيترتب علي ذلك حالـة دائمـة مـن الترقب وعدم الاستقرار، أي القلـق المسـتمر لأهـل هـذه المناطق، لذلك فالحياة رخيصة والمـوت موجـود عنـد أي منعطف وفي أي لحظة، ولا يفرق بين كبير السن أو يافعـه. أما سكان المناطق الثلجية، فإنهم يجتمعون في أماكن محصنة طلبا للدفء ولمقاومة الطبيعة القاسية لأشهر طويلـة، لـذلك

فالتماسك الأسري للعائلة الصغيرة والتعاون الأكيد فيما بينها هما الضمان لاستمرار الحياة.

ومن الطبيعي أن تختلف المشاعر الإنسـانية كـذلك باختلاف الزمان، فما كان قائما وسائدا منـذ قـرون وفـي العصور الوسطي يختلف كثيرا عما هو عليه الآن. ففي كـل عصر تتولد أحاسيس جماعية نتيجة عوامل مشتركة، يشـعر بها عدد كبير ممن يعيشون في المكان ذاته وفي حقبة زمنية بعينيها وهو ما يشار إليه أحيانا التركيبة الثقافيـة للأجيـال وهكذا.. تكون المحصلة النهائية وهي وجـود اتفـاق عـام للمشاعر المرتبطة بالقيم والمفاهيم والتي تتغير بتغير كل من الزمان والمكان($)، ولذلك فرؤيتي هي أن المشاعر الإنسانية الجماعية هي أحد العوامل الرئيسية في تحريك التاريخ، فقـد يدفع الجوع شعبا أو جماعة لغزو جماعة أخري لديها خيـر وفير، وقد تنشأ حروب لأن المشاعر الجماعية للمنتمين لدين أو مذهب تتصاعد وتنمو حاملة الكراهية والبغض، فيشـنون حربا أوهجوما خاطفا أو قد يستمر لقرون وفق ما لديهم مـن إمكانات، فيكون المحرك الأول هـو الكراهيـة الجماعيـة للآخر.

وقد يهب شعب أو تنتفض جماعـة لنجـدة جماعـة أخري، لما تتصوره ظلما أو قهرا لمن هم أقرب إليهم في المشاعر الإنسانية، بسبب تقارب ثقافي أو عرقي أو وطني. وما الثورات وحركات التحرر الوطني إلا تجسيد لمشـاعر إنسانية جماعية تلتف حول قائد فرد أو قيادة ممثلة في حزب يصوغ هذه المشاعر الجماعية فيما نسميه أيديولوجية، فتكون الحرب الأهلية أو الهبة الشعبية، وكلتاهما محركا للتاريخ إلي الأمام أو إلي الخلف.



وفي هذا الإطار فقد كان المحرك الرئيسـي حتـي العصور الوسطي هو الخلافات الدينية أو المذهبية داخل كل دين في المراحل الأولي ثم بين الأديان فـي مراحـل تاليـة ولذلك تفاصيل كثيرة مدونة في تاريخ الألفية الأولي ومعظم الالفية الثانية ثم ظهر مع انتصار التفكير العلمي في مجـال العلوم الإنسانية نظرية أن صراع الطبقـات هـو المحـرك الرئيسي للتاريخ، وقدم كارل ماركس رؤيته التي بدأت مـع إعلانه المانفستو أو البيان الشيوعي عام ١٨٤٨، واسـتكمل ذلك بما طرحه حول المادية التاريخية والمادية الجدلية، وهو

أمر سيرد الحديث عنه كثيرا عبر فصول هذا الكتاب وعقب انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ ظهرت نظريات أخري كثيرة معظمها في أمريكا، ربما كـان أهمهـا هـو كتـاب فرانسيس فوكوباما [١] الأمريكي -من أصل ياباني- والـذي يري أنه لا توجد نظريات تحكم مسار التاريخ فالانتصار قد تم من خلال نجاح النظـام الـديمقراطي الليبرالـي فكريـا والرأسمالي اقتصاديا علي النظام السوفييتي الشمولي. كمـا قدم د.صموئيل هانتنجتون كتابة الشهير بعنـوان صـراع أو صدام الحضارات، اعادة صنع النظام العالمي[٢] وغيرهما من محاولات نظرية مختلفة تحاول تفسير حركة التاريخ، وهي في مجملها جهد بشري إنساني سيظل يتجدد مـن مفكـرين وكتاب كثيرين في العالم لأن الإنسان بالفطرة يـود أن يلـج المجهول ليتنبأ بالمستقبل، خصوصا وأن الدول لها مصـالح

---

[١] فرانسيس فوكوباما: نهاية التاريخ وخاتم البشر – ترجمة د. حسـين أحمد أمين

الناشر : مركز الأهرام للترجمة وانشر – الطبعة الأولى عام ١٩٩٣

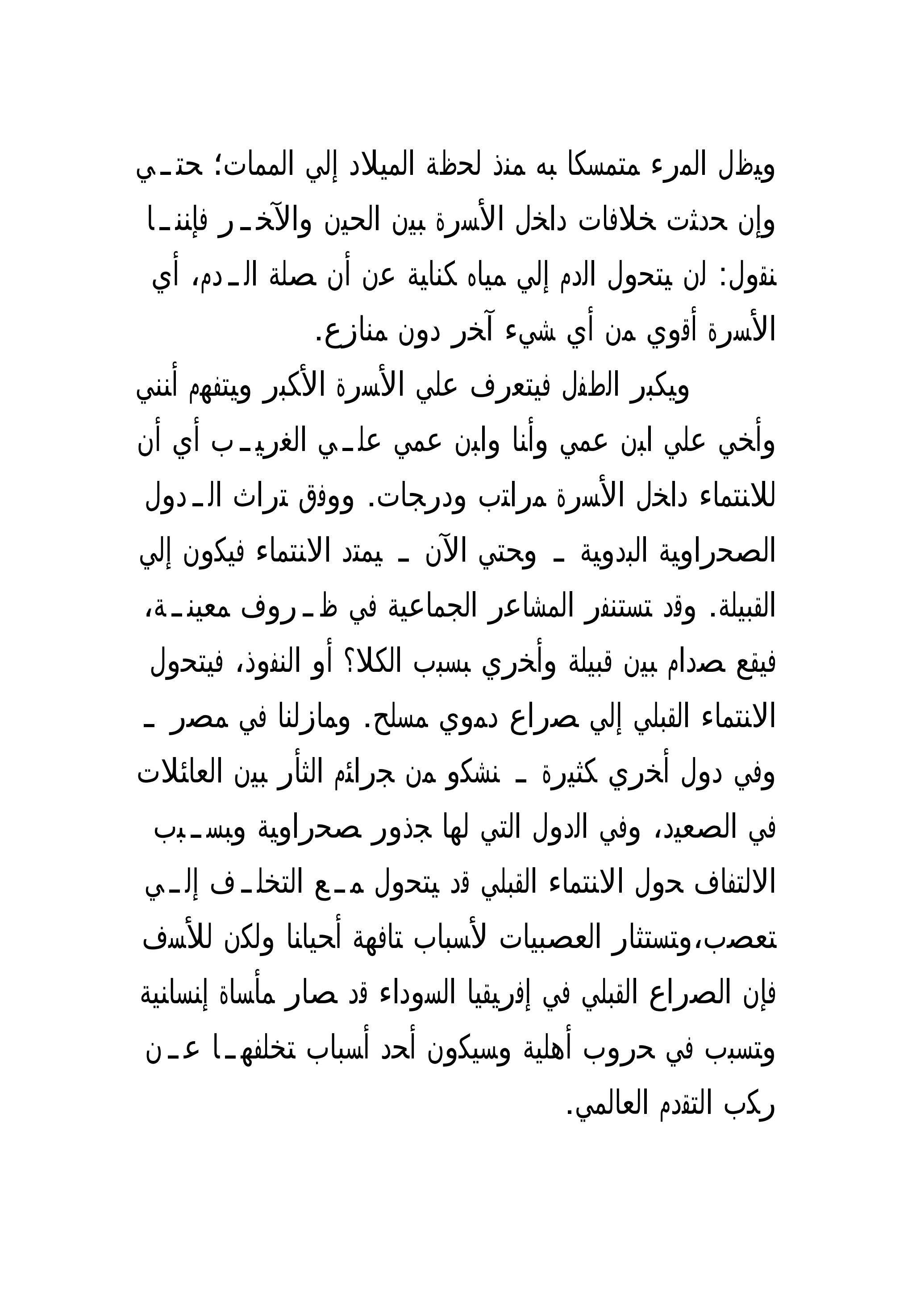
[٢] صامويل هنتنجتون : صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي ترجمة طلعب الشايب – الناشر سطور عام ١٩٨٨

وترغب في أن ترسم سياستها بناء علي رؤية يستشف منهـا ما سوف يجري وفق منطق تقبله الثقافة والمفاهيم السائدة.

وإذا كنا نزعم أن المشـاعر الإنسـانية للجماعـات البشرية قد تتجمع وتلتف لتكون أحد محركـات التـاريخ أو الفاعل الرئيسي فيه أحيانا، فإننا لابد أن نتساءل عن العوامل التي تولد هذه المشاعر الجماعية والتي أتصورها مجسدة في موضوع الانتماءات.

المشاعر الجماعية تتراكم مع الانتماءات:

الإنسان ـ وأحيانا بعض أنواع الحيوان ـ ـ كـائن مجتمعي أي يكره أن يعيش بمفرده، ولذا فإن العقوبـة فـي السجون تكون بمعزل للانسان في محبس انفـرادي فـالمرء بإخوانه ويشعر الإنسان بالدفء بمجرد معيشته بين جماعـة من البشر، وقد عبر جدودنا عن ذلك في المقولة التي مازلنا نرددها كثيرا: جنة من غير ناس ما تنداس، فالطفـل فـور ولادته يشعر بالحنان في صدر أمـه ولـذا تكـون الام أول مخلوق ينتمي إليه، وعندما يتعلم النطق تكون كلمة ماما ثـم بابا ويتلوها التعرف علي إخوته الذين يلعبون بـه وحولـه، ويصبح الانتماء إلي الأسرة الصغيرة هو أقوي الانتمـاءات



ويظل المرء متمسكا به منذ لحظة الميلاد إلي الممات؛ حتـي وإن حدثت خلافات داخل الأسرة بين الحين والآخـر فإننـا نقول: لن يتحول الدم إلي مياه كناية عن أن صلة الـدم، أي الأسرة أقوي من أي شيء آخر دون منازع.

ويكبر الطفل فيتعرف علي الأسرة الأكبر ويتفهم أنني وأخي علي ابن عمي وأنا وابن عمي علـي الغريـب أي أن للانتماء داخل الأسرة مراتب ودرجات. ووفق تراث الـدول الصحراوية البدوية ـ وحتي الآن ـ يمتد الانتماء فيكون إلي القبيلة. وقد تستنفر المشاعر الجماعية في ظـروف معينـة، فيقع صدام بين قبيلة وأخري بسبب الكلا؟ أو النفوذ، فيتحول الانتماء القبلي إلي صراع دموي مسلح. ومازلنا في مصر ـ وفي دول أخري كثيرة ـ نشكو من جرائم الثأر بين العائلات في الصعيد، وفي الدول التي لها جذور صحراوية وبسـبب الالتفاف حول الانتماء القبلي قد يتحول مـع التخلـف إلـي تعصب،وتستثار العصبيات لأسباب تافهة أحيانا ولكن للأسف فإن الصراع القبلي في إفريقيا السوداء قد صار مأساة إنسانية وتسبب في حروب أهلية وسيكون أحد أسباب تخلفهـا عـن ركب التقدم العالمي.

ثم يذهب الطفل إلي المدرسة ويرتبط بانتماء جديد هم تلاميذ الفصل أو طلاب المدرسة، وتحدث ألفة بين الصـبيان أو البنات، ولكنه انتماء مؤقت، فغالبا ما يتآكل مـع الـزمن خلال العبور لسنوات النضج ثم بسبب التغيرات وفق ظروف الحياة المختلفة، وينتقل الصبي أو الفتاة إلي المدرسة الثانوية فتتكون انتماءات مؤقتة أو دائمة، ولكن الانتماء الـذي قـد يستمر لسنوات وأحيانا للعمر كله هو الزمالة فـي مرحلـة التعليم العالي والجامعة وربما تتطور لتكون زمالة في المهنة أو انتماء إلي نقابة مهنية مثلما هو حادث في مصر بالنسـبة للنقابات المهنية في الطب أو الهندسة أو المحاماة أو غيرها.

الانتماء الديني من أقوي الانتماءات

خلال سنوات التكوين الأولي ينمـو لـدي الطفـل الإحساس بالانتماء الديني، وهي قضية ثقافية حساسة تتوقف فاعليتها علي الزمان والمكان، أي علي المستوي الاجتماعي والوعي الفكري في المجتمع الصغير أو الكبير. وغالبا مـا تتشكل في البيت خصوصـا إذا كـان الوالـدان متـدينين، فيحرصان علي تلقين الطفل فروض العبادة من صلاة وصوم

وغيرها، ثم تلقينه تدريجيا نصوص دينية يحفظها عن ظهـر قلب وغالبا دون فهم أو تأمل، فيتبلور وجدانه الـديني وفـق مداركه ومراحل نموه وظروف نشأته، وينـتج عـن ذلـك قناعات ومفاهيم تجاه الحياة والناس.

وفي مصر -علي سبيل المثال- نلاحظ أن الانتمـاء الديني من أقوي الانتماءات أي المكونات الرئيسية في بنيـة المشاعر الجماعية من منطلق المفهوم السائد، وهو أن الدين مرتبط بكل أمور الحياة الدنيا وكذلك الحياة الأخري، ومـن هنا فالمؤسسات الدينية هيئات فاعلة ومؤثرة فـي المجتمـع، وتعمل هذه المؤسسات بالتالي علي نشر وتعميـق الانتمـاء الديني. وذلك بخلاف دول الحضارة الغربية التي حسمت هذه القضية مع انتشار قيم عصر النهضة وتم في وقـت مبكـر فصل الدين عن الدولة، أي جعل الدين لديهم قضية شخصية وليست جماعية، ولذا فإنه من غير اللائق الاستفسـار عـن ديانة جار أو صديق أو زميل فـي العمـل، ويوجـد فـي المجتمعات الأوروبية متدينون ينتمون لكل ديـن أو مـذهب ويمارسون شعائرهم الدينية في حرية وهـدوء وكـل علـي طريقة وشأنه، ولا يتم تدريس مادة الدين في المدارس التـي

تتفق عليها الدولة، أي أن الأديان موجودة ولكنها مثل الجزر المعزولة، وفاعليتها المجتمعية محدودة ولذا فـإن المشـاعر الدينية الجماعية لا تؤدي الي ثورات أو حروب. ومن خلال هذه القيم المستقرة في الغرب - وعلي مقـدمتها العلمانيـة العقلانية وأن الدين مسـألة شخصـية - تشـكل شخصـية المواطن وتعمق فكرة المواطنة. ومن ذات الفهـم لا يسـجل دين المواطن في أي وثيقة رسمية مثل البطاقة الشخصية أو جواز السفر أو عند التقدم لعمل وما أشبه، ضمانا للمسـاواة في التعامل دون قهر لجماعة بشرية وإمعانـا فـي تحاشـي الصدام بسبب الخلافات الدينية أو المذهبية. وكلما زاد رقـي الدولة ـ أي دولة ـ كان الإحساس بمشاعر جماعية بسـبب الدين أمرا غير مؤثر في الاستقرار بل ربمـا كـان إحـدي ركائزه.

ولأن الدين ـ أي دين ـ يعطي الإحساس بالطمأنينة والراحة الداخلية، ويلبي الاحتياجات الروحيـة والوجدانيـة للفرد، لذلك فهو مطلوب ويزداد الاحتيـاج إليـه بـدرجات متفاوتة، وله ارتباط بباقي الانتماءات، فقـد يكـون الـدين مرتبطا بالانتماء القبلي ويفيده بل ويقويه، وقد يكون مرتبطا

بالانتماء الوطني بل قد يكون بديلا عنه، ذلك أن الدين يعطي صاحبه ـ بجوار الامتلاء الروحي ـ الإحسـاس بـالتميز والتفاخر، أي أنه أفضل من الآخر.

وفي منطقتنا العربية كانت بداية المد الـديني علـي نطاق واسع مع وجود اسرائيل عام ١٩٤٨، حيـث يكـرر اليهود مقولة أنهم وحدهم شعب ا المختار وترسـخت فـي وجدان كل يهودي هذه العبارة، وكأنها هي الأسمنت الـرابط لكل حبيبات الرمل من البشر المنتمين إلي اليهودية في أركان الأرض الأربعة، حتي وإن كان الفرد غير متدين أصلا. وما الصهيونية إلا حركة جمعت هذه المشاعر الإنسـانية لـدي أفراد تشتتوا وعاشوا لقرون في دول مختلفة، تسود فيها لغات وأديان أخري؛ ولكنهم استمروا متواصلين لكي يحققوا حلـم إنشاء دولة إسرائيل، وبعدها تحول الانتماء الـديني ليكـون انتماء وطنيا، وأمكن أن يصبح إسرائيل حقيقة واقعـة علـي الرغم مما هو معروف من أن اليهود ـ بشكل عام ـ ليسوا في مجموعهم ـ شعبا متدينا، ولكن الانتماء الديني قد حولهم من أفراد متناثرين لقرون طويلة إلي شعب من خلال تماسك وقوة المشاعر الجماعية التي التفـوا حولهـا، فشـجع هـذا

النموذج مجموعات أخري للتشبه بهم ليحولوا الانتماء الديني إلي أمة أو قومية أو دولة أو خلافه. كما خلق هذا النمـوذج بما انطوي عليه من تناقض، حيث يرتكـز حكـم إسـرائيل المبني علي النمط الغربي العقلاني الديمقراطي ـ نقول خلق هذا النموذج وسيظل مولدا لتـداعيات و صـراعات فـي المنطقة لن تهدأ في المدي المنظور حتي بعد المرحلة النهائية للسلام.

وسيجد أتباع أي دين أو مذهب عبارات أو مفـاهيم تأخذ عادة شكل نصوص مقدسة، تؤكد التمـايز والإحسـاس بالزهو لكل الأنصار والأتباع المنتمين إلـي هـذا الـدين أو المذهب. وعندما تتراكم وتتزايد هـذه المشـاعر الإنسـانية الجماعية، تتحول إلي تعصب أي كراهيـة، وقـد تتطـور المشاعر الجماعية لتأخذ مسارا عنيفا وصولا إلي الحرب، إذا ما سمحت الظروف والتوازنات القائمة محليا وعالميا.

قليلون هم الذين ينفتحون علي الأديان أو المـذاهب الأخري بالدراسة أو التفهم، فمن منا يختار ديانته؟ وفـي أي مرحلة عمرية يفكر الانسان في التعـرف علـي اديـان أو مذاهب أخري فمسيرة الحياة في سن التكوين تنطبع بالتلقين

والمسلمات لا بالفحص والتمحـيص. ويتكـون الإحسـاس بالتمايز والأنا وينمو الانتماء الديني مع الوقت منذ الصـغر، وغالبا ما يكون مقرونا بالتعالي علي الآخر وربما يصل إلي الكراهية وصولا إلي العنف وأحيانا القتل..!

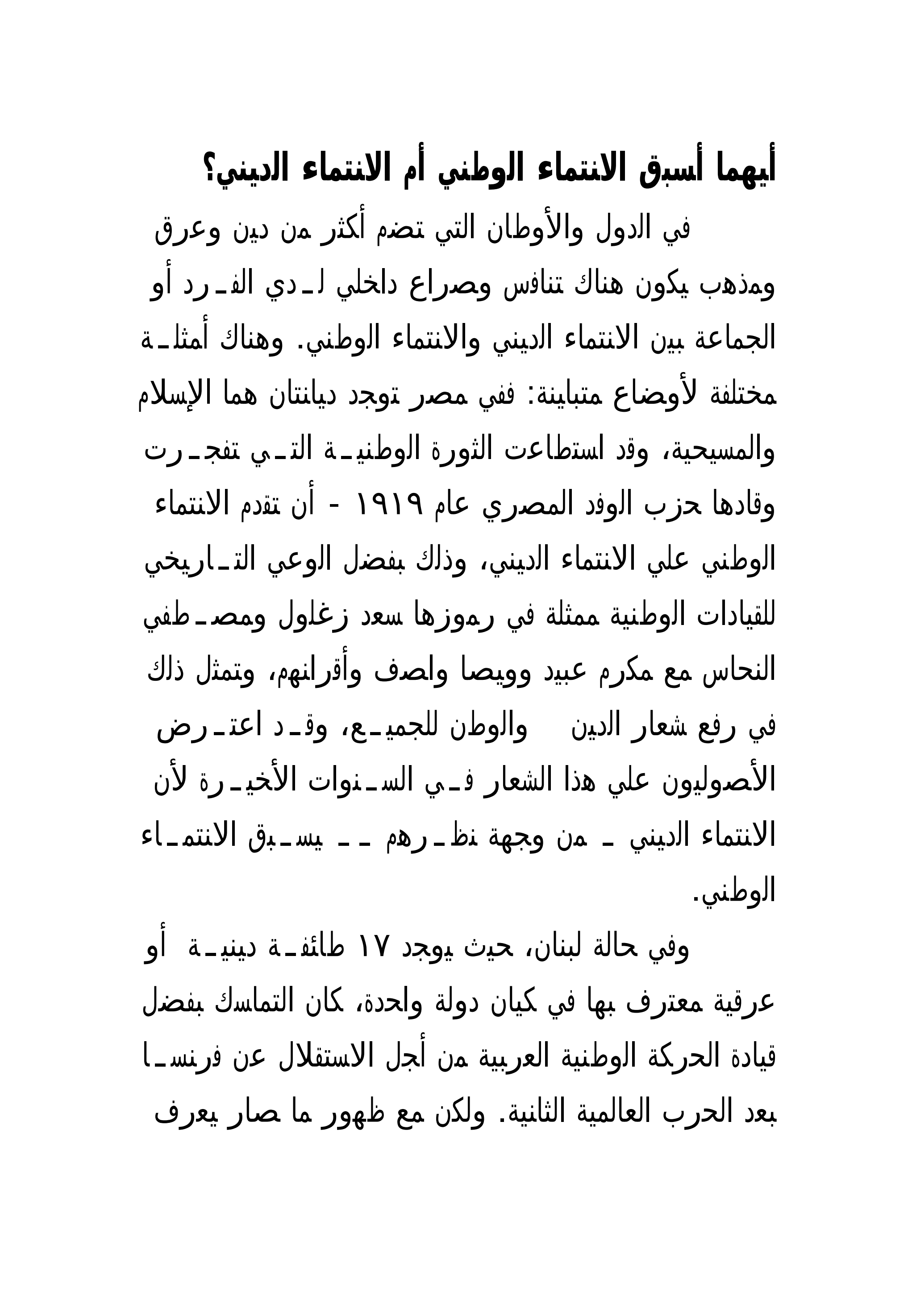
إن الانتماء الديني مبني علي مسلمات تؤخذ كما هي، وهو الأمر الذي يطلق عليه المـذهب الكـاثوليكي عبـارة الدوجما 'Dogmaس أي عقيدة أو مبدأ أو إيمـان بحقـائق يقينية تؤخذ كما هي ولا تناقش عقليا أو منطقيا.

وإن قضية قبول الآخر ـ وهي الموضوع الرئيسـي لهذا الكتاب ـ سوف تتعرض بين الحين والآخر لتفاصـيل الانتماء الديني، لأن قبول الآخر في مجال الدين أصعب منه في مجال قبول الآخر بـين الأسـر المتجـاورة أو القبائـل المتناحرة، بل وحتي بين القوميات والسلالات المختلفة التـي يجمعها وطن واحد ذلك إن الصراعات غير الدينية قد تذوب مع الرقي وثورة المعلومات والاتصالات وارتفاع المسـتوي الثقافي.

وتكون نقطة البداية غالبا هي لقاء الآخر ثم الحوار معه ويتحول الحوار إلي فهـم قبـل أن تتحـول المشـاعر

الإنسانية إلي قبول، وقد يمتد الأمر فتتحول المشـاعر إلـي وفاق وتعاون لاكتشاف الأرضية المشتركة لانتماءات أرقي، مثل حقوق الإنسـان والديمقراطيـة والبيئـة وحـب الفـن والرياضة وما أشـبه. لكـن الصـراع الـديني، وبعـض الصراعات العرقية تحتاج إلي مدي طويل وجهود شاقة.

دعنا نمر سريعا بعد ذلك علي انتماءات أخري قـد تكون أقل أهمية ولكنها تؤدي إلـي دفء اجتمـاعي، مثـل الانتماء إلي الجمعيات الأهليـة أو الأحـزاب السياسـية أو النقابات المهنية أو العمالية وما إليها، فهي ف مجملها ترقـي شخصية الإنسان وترفع من مسـتوي المشـاعر الإنسـانية الجماعية، ولكنها لا ترقي لأن تحرك التاريخ مثل الانتمـاء القبلي. وربما يكون الانتماء إلي الوطن هو أعلـي وأرقـي وأهم الانتماءات، فخلال القرنين ١٩، ٢٠ صار هو الوقـود لحركات التحرر والدافع لمعظـم الثـورات الوطنيـة التـي خاضت معارك شرسة أو لينة من أجل الاستقلال.



أيهما أسبق الانتماء الوطني أم الانتماء الديني؟

في الدول والأوطان التي تضم أكثر من دين وعرق ومذهب يكون هناك تنافس وصراع داخلي لـدي الفـرد أو الجماعة بين الانتماء الديني والانتماء الوطني. وهناك أمثلـة مختلفة لأوضاع متباينة: ففي مصر توجد ديانتان هما الإسلام والمسيحية، وقد استطاعت الثورة الوطنيـة التـي تفجـرت وقادها حزب الوفد المصري عام ١٩١٩ - أن تقدم الانتماء الوطني علي الانتماء الديني، وذلك بفضل الوعي التـاريخي للقيادات الوطنية ممثلة في رموزها سعد زغلول ومصـطفي النحاس مع مكرم عبيد وويصا واصف وأقرانهم، وتمثل ذلك في رفع شعار الدين والوطن للجميـع، وقـد اعتـرض الأصوليون علي هذا الشعار فـي السـنوات الأخيـرة لأن الانتماء الديني ـ من وجهة نظـرهم ـ ـ يسـبق الانتمـاء الوطني.

وفي حالة لبنان، حيث يوجد ١٧ طائفـة دينيـة أو عرقية معترف بها في كيان دولة واحدة، كان التماسك بفضل قيادة الحركة الوطنية العربية من أجل الاستقلال عن فرنسـا بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن مع ظهور ما صار يعرف

بـ الصحوة الدينية،تفوق الانتمـاء الـديني علـي الانتمـاء الوطني، فوقعت المأساة وحل التمزق والانهيار مـن خـلال حرب أهلية امتدت لنحـو ١٧ عامـا (١٩٧٥ ـ ـ ١٩٩٢)، كادت تعصف بالوحدة الوطنية للبنان وتقسمها إلي كانتونات. وعندما أعلن عن ذلك في أواخر الثمانينيات أدرك الوطنيون أن في تجزئة هذا الوطن الصغير (في المساحة وفي عـدد السكان) إضعافا للجميع، فعاد لبنان يحاول أن يكـون وطنـا موحدا بعد خراب شديد.

وفي كل من العراق وتركيا، يعاني الشعب الكـردي من الظلم بسبب الخلاف في السلالة واللغة علي الرغم مـن وحدة الدين. وتراكمت المشاعر الإنسانية الجماعيـة حتـي فرضت نفسها في شكل حروب محلية علي الحـدود، مـرة داخل تركيا وأخري مع العراق، ولكن الصراع مستمر ودون طائل، وليس له من حل إلا قبول الآخر، من خلال الحـوار وليس من خلال السلاح والقهر. وقد قامت تركيا في منتصف عام ١٩٩٧ بحرب نظامية سافرة داخل العراق بحجة القضاء علي الحركة الكردية ثم كان المخطط المخـابراتي لخطـف

عبدا أوجلان رمز الاكراد وصدر الحكم باعدامـه، ولكـن الصراع لن ينتهي لأن الرغبة الجماعية للأكراد لم تتحقق.

وتعاني السودان من مجموعة متداخلة من التناقضات العرقية والدينية والمذهبية والجغرافية، وها هـو السـودان يعاني من حرب أهلية ضروس، أنهكته بسبب غيـاب ثقافـة قبول الآخر، ولا سبيل لإيقاف الدم والانهيار الاقتصـادي إلا بقبول دولة مدنية علمانية موحدة يستظل بمظلتها كل الفرقاء، ولأن لي صلات تاريخية بالسودان فقد نتعرض لتفاصيل ذلك في مواقع أخري[٣] .

---

[٣] قام د. جون جارنج قائد جيش التحرير السوداني ورئيس الحركـة الشعبية لتحرير السودان بزيارة إلى مصر خلال نوفمبر ١٩٩٧ حيـث أكد إصراره على وحدة السودان،ووجه رساله واضحة لمثقفي مصـر أنه ليس ضد الإسلام أبو ضد العروبة فغالبية شـعب السـودان الـذي يناضل من أجل وحدته مسلمون يعتزون بالانتماء العربي، كتاباته كلها من اجل تكوين سودان جديد سيتحسن مع انصهار القبائل والسـلالات في دولة قومية عصرية يسميها " السودان الجديد" أي بعـد الانصـهار الوطني يتفوق على السلالات والأديان والقبائل وهي عمليـة طويلـة تحتاج إلى وقت لتغيير الوعي.

وإذا كانت الأمثلة السابقة معبرة عن صراعات مفهومة بسبب عدم قبول الآخر لاختلاف الدين أو المذهب أو السلالة، فإن هناك حالة أخري أكثر فجاجة هي الحرب الأهلية الجزائرية، إذ إن شعبها كله ينتمي إلي الإسلام، وخلال حرب الاستقلال تطابق الانتماء الوطني مع الانتماء الديني، ولذلك كان العلم الجزائري لحركة التحرير (وهو ذاته علم الدولة بعد الاستقلال) متضمنا هلالا ونجمة علي أرضية نصفها أبيض (رمز السلام) والنصف الآخر أخضر (رمز الإسلام والنماء). أما الصراع الحالي فإنه يأخذ منحي ثقافيا آخر بين جماعات: منها من تري أن مصلحة الجزائر في الاستقلال الوطني ومنها من تري أن الاستقلال هو الإسلام. أي فريق يري أن يستقل الجزائر، وفريق يري أن يستقل بالجزائر، فلا غيره يحكم ولو ملأت الدماء الأرض، وآخر يدرك معطيات العصر، ويري أن العودة إلي الدولة الدينية انتكاسة وضد التاريخ وأن مصلحة الجزائر هي في الانفتاح علي العالم كله، بما فيه فرنسا لما لها من علاقات تاريخية ثقافية واقتصادية قديمة ومستمرة، ويتضمن الفريق

الأخير كثرة من المنتمين إلي البربر بزعامة حسين آية أحمد ذي التوجه العلماني والاشتراكي معا.

ومن كل هذه النماذج يتضح أن الجماعات البشـرية المختلفة لها طموحات وأمان وتوجهات جماعية، فإذا تحققت في يسر أو بصعوبات معقولة، فخير وبركة. ولكن تبين أيضا أن أمورالحياة والتاريخ يسـيران وفـق اعتبـارات أخـري مطروحة، منها وأولها المصالح الاقتصادية ثم توازن القوي العسكرية،والارتباطات في الجيرة والثقافة وغير ذلـك مـن أمور. وإذا كبتت مشاعر وطموحات أية جماعة بشرية لهـا كيان وتنظيم، فقد تقهر بعض الوقت ولكنهـا ـ ـ بوصـفها مشاعر تتراكم ـ تظل مكبوتة كالبخار المحبـوس، إلـي أن تولد قياداتها الطبيعية التي تجمع هـذه الطاقـات المكبوتـة وتفجرها، إما في شكل هوجـة عشـوائية غيـر منضـبطة ولكنهامؤثرة حتي وإن كانت فرقعة، وإما أن يخطـط لهـا، فتولد ثورة مؤثرة تغير التاريخ كما حدث مع جماعة الضباط الأحرار في يوليو عام ١٩٥٢، أو تستمر في شـكل حـرب أهلية تطول أو تقصر إلي أن تتغيرالتوازنات المجتمعية فيتم ترتيب الأوضاع من جديد بما يتلاءم مع المتاح.

***

وفي فصل قادم سنتعرض لنظرية كـارل مـاركس ونظرية هانتجتون. الأولي كانت تبشر بأن صراع الطبقـات هو محرك التاريخ، وفي الحقيقة برأيـي أن الظلـم والقهـر اللذين يتجمعان لدي الطبقة العاملة هما العامل الـذي صـار محركا للتاريخ عندما أمكن تجميع المشاعر الإنسانية لغالبيـة من هذه الطبقة، وهذا هو سر قوتها وإنجازاتها، الأمر نفسـه ينطبق علي نظرية صراع الحضارات؛ لأنها تقول إن الثقافة واللغة والدين- وهي مكونات الحضارة- ستؤدي إلي صدام، مما يعني أنه أمكن أن تتبلور مشاعر إنسانية جماعية أحست بالقهر ورفض الآخر، ومن ثم اندفعت إلي الصراع وستندفع للصدام.

وقبل أن ننتقل الي الفصل الثاني أحب أن أشير إلـي أن الفروق لدي واضحة تماما بين حركات التحرر الـوطني وحركات الإرهاب والتطرف الدموي، ومن ثم فلا يمكـن أن يكون حديثي عن قبول الآخر دعوة إلي قبول الغاصب.

إنني ابن وطن قاوم فيه المسلمون والمسيحيون جنبا إلي جنب، الاحتلال الانجليزي، حتي حصلوا علي استقلالهم

مبكرا عام ١٩٢٢ وإن كان قد بدأ منقوصا واكتمـل عبـر حلقات من النضال توجت بتوقيع اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤.
أيضا أنا ابن مجتمع عربي قدم أبناؤه في فلسـطين صـورة باهرة للكفاح الوطني المشترك.

كما أود أن أؤكد أن طرحـي للمشـاعر الإنسـانية وإمكانية حل الصراعات بتعزيز قبول الآخر مسألة لها طابع إنساني بحت، وآمل أن يتحول علـي أرض الواقـع إلـي تنظيمات أهلية تنمي المودة والتآخي بين الناس.

الفصل الثاني

من صراع الطبقات... إلي صدام الحضارات

- كارل ماركس ـ في منتصف القرن الماضي ـ كـان أول من قدم نظرية متماسكة تفسر حركة التاريخ.
- الماركسية تتحول من نظرية فلسفية إلي حركة عماليـة وأحزاب سياسية في أوروبا أولا.
- لينين يضيف إلي النظرية ويحول الفكر إلي واقع عـام ١٩١٧.
- عبارة: حتمية انتصار الاشتراكية كانت تعبيرا عن عدم اليقين..!
- أهم الاجتهادات النظرية الحديثة جاءت مع بوادر تفكك الاتحاد السوفييتي.
- هانتنجتون الأمريكي يتفوق علي باقي المنظـرين فـي بحثه: صراع الحضارات عام ١٩٩٣. وقد حوله فـي كتاب صدر عام ١٩٩٦ وترجم إلي العربية عام ١٩٩٨

- الدراسة بتكليف وتمويل من الإدارة الأمريكية. وتتحول إلي سياسة واقعية تمارس بالفعل.
- حركة التاريخ القادمة صراع بـين سـبع حضـارات رئيسية.
- من أهم وأخطر العبارات: إن للإسلام حدودا دموية.
- الصراع بـين الحضـارات سـيحل محـل الصـراع الأيديولوجي.
- في طريقنا إلي التناقض الرئيسي بين الغرب وبين مـا عداه The West & The Res

٢

من صراع الطبقات.. إلي صدام الحضارات

إن أحد محركات الحياة ـ من خلال علم ومعرفـة الإنسان ـ هو محاولة اكتشاف المجهول بهدف امتلاك القدرة للتنبؤ بالمستقبل. وهـذا التوجـه يشـغل بـال المفكـرين والجماعات البشرية والشعوب والدول والحضارات وصـولا إلي كل المعنيين بمسـتقبل البشـرية، ولعـل أهـم وآخـر المحاولات لاكتشاف المجهول هو التعرف علـي التـوازن البيئي أي التنبؤ بمستقبل الحياة ذاتها في كافة أرجاء الكـرة الأرضية ذاتها، وهذه المحاولات لمعرفة المجهـول كثيـرة ومتعددة..

وربما كانت البداية بالنسبة لمسيرة محاولة الإنسـان كشف المجهول هي من خلال القصص والأساطير، إلـي أن تبلورت في التنبؤات الدينية والتي كثيرا ما تقدم النصـوص بالرموز والعبارات العامة لتحث علي فعل الخير. أمـا فـي

العصور الحديثة، فقد سيطر الفكر العلمي بمناهجه المختلفة، وحاول مفكرون ومبدعون كثيرون تقديم نظريـات تعطـي تفسيرا لحركة التاريخ بما فيها مستقبله السياسي، لعل أهمهـا وأكثرها شيوعا هي النظرية التي طرحها كارل ماركس في منتصف القـرن التاسـع عشـر تحـت مسـمي 'الماديـة التاريخيــةHistorical Materialism س، ثــم حــديثا: البــحث ثــم الكتاب الذي سجله د.صموئيل هـانتجتون بعنـوان صـدام الحضـارات Clash of Civilizations. ولأهميتهما رغبت في أن أطرح ملخصا لهما في هذا الفصل، لأن كلا من النظريتين تعمل من خلال مبدأ: رفض الآخـر.

ثم ننتقل في فصول تالية إلي خبرات تاريخية وفكرية تقـدم نماذج قبول الآخر من خلال تلقيح ثقافي كما في حالة لاهوت التحرير. وقد نتطرق فـي السـياق العـام لنمـــوذج الصراع والمعايشة لما قدمه العالم والأديب الإنجليزي بيرسي سنو Percy Snow من وجود ثقافتين هما ثقافة أهل الأدب والعلوم الإنسانية من جانب، وثقافة أهل العلوم الفيزيائية أي الطبيعية من جانب آخر.

مقتطفات من الفكر والتاريخ الماركسي:

تتلخص نظرية كارل ماركس في أن التاريخ يتقـدم إلي الأمام في مراحل متتالية من خلال الصراع بـين فئـة اجتماعية واخري ويسمي كلا منهما طبقـة. واحـدة تملـك وسائل الإنتاج ثم الطبقة المقابلة: المحرومـة منهـا. درس ماركس الماضي، وتوصل إلي أن المجتمع البشري قد انتقل من الشيوعية البدائية (المشاعية)، حيث كانت وسائل الإنتاج في الغابة متاحة للجميع، وتدريجيا عرف الإنسان الزراعـة وتملك الأرض، فظهر الصراع بين فئة ملاك الأرض الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، وهـي الأرض الزراعيـة، وبـين المحرومين من الملكية. وعندماتوسـعت الملكيـات ظهـر الإقطاع فكان الصراع بينه وبين طبقة الأجراء العاملين فـي مزارعه الذين أصبحوا بمثابة العبيد. وكانت الارض تبـاع وتشتري أو يتم الاستيلاء عليها بالحروب المحليـة، فتنتقـل ملكيتهامن يد إلي أخري أو من إقطاعي إلي وريثه بكل مـا تحمل الأرض من معدات وبشر ـ أقنـان ـ ـ لأنهـم فـي مجموعهم يكونون وسائل الإنتاج.

ثم تطور المجتمع تدريجيا من خلال صـراع جديـد بين طبقة ملاك الأرض الإقطاعيين مع طبقة التجار ثم طبقة رجال الصناعة الناهضة والتي أسماها بـ البرجوازية والتي تدعم نفوذها من خلال حركة التجارة العالمية. ونتيجة هـذا التفاعل الحضاري ومن خلال الثورة الصناعية برزت فئـة جديدة أسماها الرأسمالية. لقد تغيرت وسـائل الإنتـاج مـن الأرض الزراعية إلي ملكية الآلة، وتم إنشاء المصـانع فـي أوروبا فكان حتما أن يتغير شكل المجتمع وصارت القيـادة فيه لهذه الطبقة الجديدة من الرأسماليين. وفي المقابـل كـان التناقض والصراع بين فئة مـلاك المصـانع والآلات وقـد صارت وسيلة الإنتاج الجديدة وبين طبقة العمال، وقد أسماها بـ البروليتاريا. وهكذا أصبح الصراع، في مرحلـة جديـدة بين الرأسماليين والطبقةالعاملة، وكان ذلك في الحقبة التـي عايشها ماركس نفسه في أوروبا في القرن التاسع عشر.

إن المفكـر والمبـدع والمنظـر يتأمـل الظـواهر الاجتماعية حوله ثم يستنبط القوانين المنظمة لحركة المجتمع، ولذلك ـ وفي ضوء هذا التحليل المبني علي المشاهدات ـ ـ تنبأ كارل ماركس بأن الصراع سـوف يشـتد لأن الطبقـة

العاملة سوف تبني تنظيماتها في شكل أحزاب ونقابات، تتبني مطالب العمال ليحصلوا علي نسبة عائد أكبر نتيجة عملهم ثم يطمحون لتغيير المجتمع ثوريا. وهكذا تنبأ بأن الصراع ـ ـ في نهاية الأمر ـ سوف يحسم لصالحهم. وقد تبلور ذلك كله في وثيقة مهمة أسماها بـ البيان الشيوعي الذي أعلن عـام ١٨٤٨ والذي اختتمه بعبارات مشهورة هي:

إن الشيوعيين يؤيدون في كل قطر من الأقطار كـل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم. وفـي كل هذه الحركات يضعون في المقدمة مسألة الملكية باعتبار أنها المسألة الأساسية في الحركة، مهما كانت الدرجة التـي بلغتها هذه المسألة في تطورها.

وأخيرا يعمل الشيوعيون علي الاتحاد والتفاهم بـين الأحزاب الديمقراطية في جميع الأقطار. ويترفع الشيوعيون عن إخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويعلنون صراحة أن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بدك كل النظام الاجتماعي القـائم بعنف. فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثـورة الشـيوعية، فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوي قيودها وأغلالها، وتربح من ورائها عالما بأسره.

يا عمال العالم اتحدوا...!.

***

ولد ماركس في مايو عـام ١٨١٨ مـن أب يعمـل بالمحاماة في مدينة ترير الألمانية، وتوفي في ١٤/٣/١٨٨٣. وبعد موته بسنوات تولي المذهب ذاتـه فلاديميـر إيليتيشـن المعروف بـ لينين والذي قال: إن مـذهب مـاركس كلـي الجبروت، لأنه صحيح، وهي عبارة ذات مسحة عقائدية غير منطقية. ووصل الأمر إلـي أن قالـت د.سـتيبانوفا يفغنيـا المتخصصة في تاريخ الماركسية: إن أعظم مأثرة تاريخيـة لكارل ماركس تقوم علي أنه وضع علما عن القوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر الإنساني، وهذا العلـم هـو المادية الديالكتيكية والتاريخية. وبهذا فقد بين الطريق لـيس إلي معرفة العالم فحسب، بل وإلي تحويلـه تحـويلا ثوريـا أيضا. لقد برهن ماركس بصورة علمية علي حتمية هـلاك الرأسمالية وانتصار المجتمع الشـيوعي، وبهـذه الطريقـة أصبحت الاشتراكية علما بعد أن كانت حلمـا عقيمـا عـن المستقبل الأفضل للإنسانية($).

ولندع جانبا هذا التحيز الشديد لماركس من باحثة شيوعية، ولنعد إلي القول بأن ماركس بعد أن وضع البيان الشيوعي هو ورفيقه إنجلز دخل في معارك فكرية وفلسفية عديدة، توجها بإصدار كتابه الشهير رأس المال الذي حلل فيه طبيعة العلاقة بين صاحب المال وادوات الانتاج من جانب وبين صاحب قوة العمل أي العامل، من جانب آخر وانتهي إلي أن الرأسمالي يسرق جهدا من العامل، ووقتا لا يدفع عنه أجرا، وتمكن من أن يصك مصطلح فائض القيمة الذي منه يراكم الرأسماليون أرباحهم.

ثم جاء لينين فاستلهم أفكار ماركس وأضاف إليها الكثير ولكن الأهم من ذلك أنه قاد نضالا عمليا أثبت فيه أنه يمكن أن تقوم الاشتراكية في بلد واحد أولا وهي روسيا، باعتبارها أضعف حلقات لسلسلة الرأسمالية علي الرغم من أنها ليست أكثرها تطورا. انتصرت الثورة وبالفعل بالفريق الذي قاده البلاشفة وهم حزب لينين ورفاقه، والكلمة معناها الأغلبية، وارتفعت الرايات الحمراء عام ١٩١٧، في روسيا القيصيرية ثم تلا ذلك أن احتشدت الرأسماليات الغربية لمحاولة ضرب الدولة الجديدة لكنها فشلت. حاول لينين في

سعيه الثوري أن يستوعب التناقضات المذهبيـة والعرقيـة والدينية التي ورثتها الدولـة الجديـدة مـن الإمبراطوريـة القيصرية، وفي عام ١٩٢٢ تكون أول تجمع سياسـي فـي التاريخ قام علي أساس المساواة النظرية علي الـورق بـين البشر من جميع الوجوه دون تفرقة بسبب العرق أو الدين.

وحمل هذا التجمع بين الدول اسم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، ومع قيامه بزغ الأمل فـي أن تمتـد التجربة إلي دول العالم كافة لينتهي الأمر بقيام الاشـتراكية (ثم الشيوعية) العالمية وانـدحار الرأسـمالية وقيـام عـالم جديد..!

إنني أود هنا أن أقدم فقرتين مهمتين، الأولي هي من دستور الاتحاد السوفييتي، وهي تبين حجم الطموحات التـي كان النظام يبشر بها إذ تنص المادة ٣٤ من دسـتور اتحـاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية (المعدل عام ١٩٧٧) علي أن مواطني الاتحاد السوفييتي متساوون أمام القانون بصرف النظر عن المنشأ والوضع الاجتماعي والمـادي والانتمـاء العرقي والقومي والجنس والتعليم واللغة والموقف من الـدين

ونوع العمل وطابعه ومكـان الإقامـة وغيـر ذلـك مـن الاعتبارات.....

أما الفقرة الثانية، فهي جزء من تعريف الماركسـية اللينينية كما جاء في معجم الشيوعية العلمية الصادر عن دار التقدم بموسكو [طبعة بالعربية عام ١٩٨٥] وتقول إنها نظام معال علميا من نظريـات فلسـفية واقتصـادية واجتماعيـة وسياسية. مذهب عن معرفة العالم وتحويلـه، عـن قـوانين تطور المجتمع والطبيعة والتفكير البشري، عن سبل الإطاحة الثورية بنظام الاستغلال، وعن سبل بناء الشيوعية، عقيـدة الطبقة العاملة وطليعتها الأحزاب الشيوعية والعمالية.....

ما قصدت أن أصل إليه أن الماركسية قد عبأت أولا ـ ثم الماركسية اللينينية فيما بعد ـ ـ المشـاعر والوجـدان الإنساني، فكانت الحركة التي تحولت إلي ثورة ظلت تنمـو تاريخيا كما هو معروف خلال القرن العشـرين، بغيـر أن يتوقف مؤسسو المذهب الماركسي (معروف أن ماركس قال: أنا لست ماركسيا ليمنع بذلك تحول فكره إلي عقيدة جامدة أي دوجما) ليراجعوا نقديا أصل النظرية في ضـوء معطيـات الواقع الجديد.

صراع الطبقات اذن هو محرك التاريخ كما سبق الشرح. ثم جعلت النظرية شاملة ومستقبلية فكان التنبؤ بأن الصراع سيتطور بعد أن يصل إلي المجتمع اللاطبقي ليكون الصراع بين الإنسان والطبيعة لحساب الإنسانية جمعاء، كما تم التنبؤ بأن مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا لن تطول لأن الدولة سوف تذبل شيئا فشيئا إلي أن يتم حكم الإنسان لنفسه ديمقراطيا، في شكل جماعات تعاونية للفلاحين في مزرعة أو نقابة عمال في مصنع وهو ما عبروا عنه بكلمة السوفييت أي مندوبي الشعب. إن بداية الحلم قد تحققت بالفعل - من وجهة نظر الشيوعية - وطرح الحالمون أن الإنسان سيحيا في الاتحاد السوفييتي أحلي أيامه ف مجتمع تعمه المساواة ودون استغلال وأن الوفرة ستفيض حتي يأخذ كل انسان ليس كحسب جهده - وفق المفهوم الاشتراكي Socialism - - وإنما وفق احتياجاته بالمفهوم الشيوعي Communism المستقبلي.

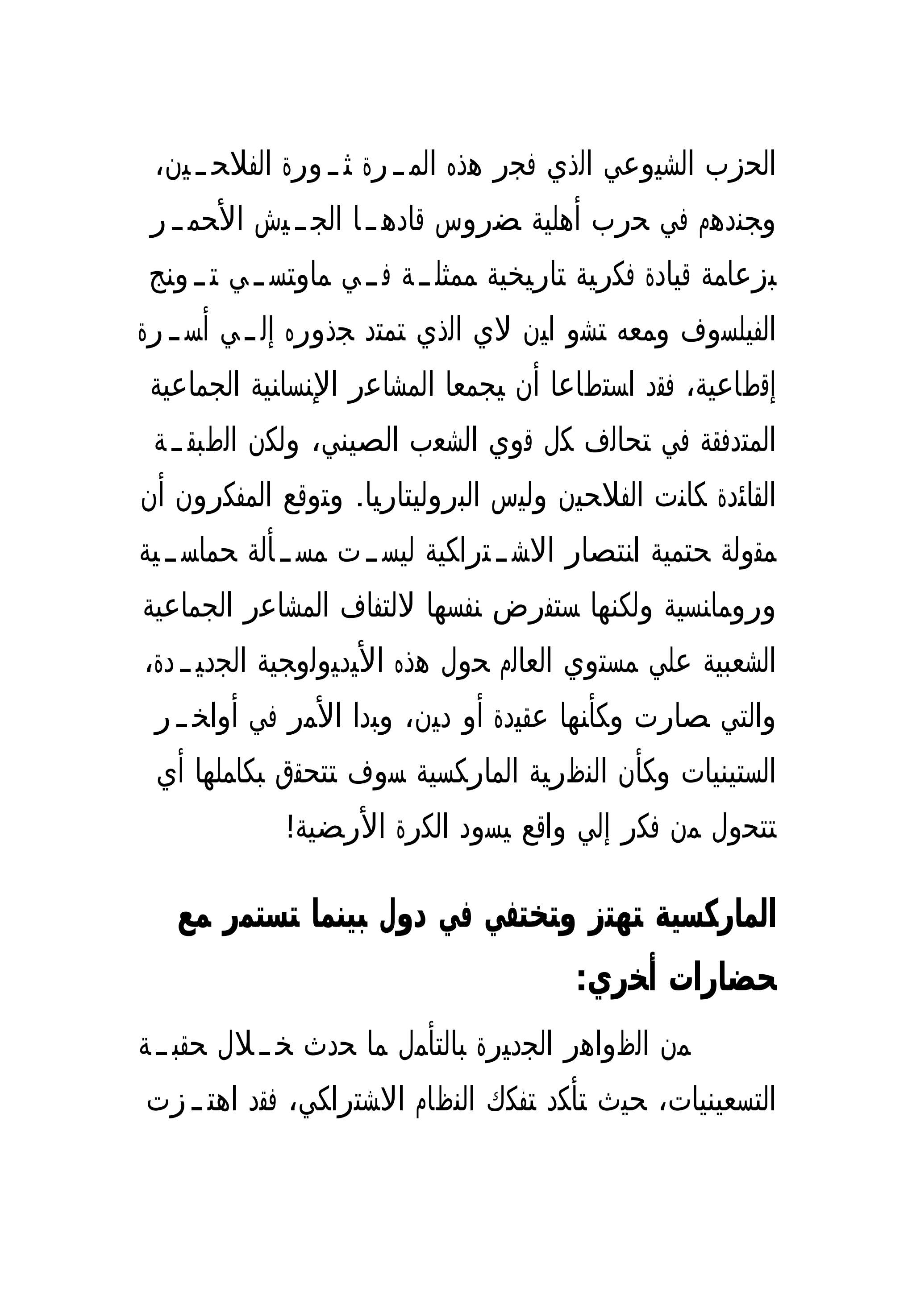
ظلت الماركسية تنتشر انتشار النار في الهشيم، فلم تعد فكرة وهمية طوباوية أفلاطونية، بل صارت واقعا يسود مسطحا وصل إلي سدس مسطح الكرة الأرضية، إلي أن

كانت الحرب العالمية الثانية، فتجمعت قـوي الحلفـاء فـي الغرب بزعامة أمريكا التي فرضت نفسها علي العالم كقـوة صاعدة جديدة، لها فلسفتها وطريقتها في تسـخير مواردهـا الطبيعية البكر برجال أشداء هاجروا من بلادهم طمعـا فـي المعيشة في بلاد تفيض لبنا وعسلا، ومن ورائها بريطانيـا، وقت أن كانت عظمي ولا تغيب الشمس عن ممتلكاتها، ثـم فرنسا ممثلة للتراث الليبرالي للثورة الفرنسية مـن الإخـاء والمساواة والحرية. وعاش العالم مرحلة الثنائية القطبية بين كتلتين حضاريتين الأولي شرقا ممثلة في الاتحاد السـوفييتي بأيديولوجيته الاشتراكية، والثانية غربا ممثلـة فـي أمريكـا وأوروبا الغربية بعد أن بلورت لنفسها أيديولوجية براجماتية، معبرة عن آليات السوق وديمقراطية برلمانية ممزوجة بتدخل الدولة لتوفير الحد الأدنـي للمعيشـة والـدخل بالتأمينـات الاجتماعية وشبكات الضمان المختلفة.

وعلي الرغم من الانتصار العسكري للسوفييت عـام ١٩٤٥، فإنهم خرجوا بـ حطام دولة بعد أن فقدوا ملايـين البشر الذين قتلوا، كما فقدوا مدنا ومصانع دمرت بالكامـل. كان خرابا هائلا من الناحية المادية، يقابله تعويض وإنتصار

معنوي هائل فقد تم كسر الحصـار الـذي كـان يطـوقهم، وبالتالي خرجت الماركسية من القمقم الذي كـان مفروضـا حولها، وتفجرت رغبات الشعوب الفقيرة والمقهـورة التـي تجمعت من خلال المشاعر الإنسانية الجماعية مطالبة بحقها في الاستقلال عن سيطرة الدول الكبري في أوروبا الغربية، ووجدت حركات التحرر الوطني في الاتحاد السوفييتي حليفا هائلا لها. وطوال حقبة الخمسينيات والستينيات كـان هـذا التعاون أو الحاف يتسع يوما بعد يوم، وتصور أصحابه ـ ـ ودعوا، وادعوا ـ أن الغلبة ستكون لهم فـي النهايـة، وأن الحضارة الغربية بما تحمل من قوة عسكرية جبارة من خلال حلف الأطلنطي الناتو NATO سوف تهزم إزاء هذا الزخم المتدفق الذي جمع المستضعفين في أربعة أركـان الأرض، وقد صار وراءهم دولة نووية قوية، اسـتطاعت أن تغـزو الفضاء لأول مرة في تاريخ البشرية عام ١٩٥٩.

وجاء الانتشار والانحياز للفكرة الاشتراكية سـريعا فتكونت أنظمة في مجموعة دول أوروبـا الشـرقية طبقـت النظام الاشتراكي بالطريقة السوفييتية ذاتها. ثم اهتز العـالم مع انتصار التنين الأصفر (الصين) عام ١٩٤٩ من خـلال



الحزب الشيوعي الذي فجر هذه المـرة ثـورة الفلاحـين، وجندهم في حرب أهلية ضروس قادهـا الجـيش الأحمـر بزعامة قيادة فكرية تاريخية ممثلـة فـي ماوتسـي تـونج الفيلسوف ومعه تشو اين لاي الذي تمتد جذوره إلـي أسـرة إقطاعية، فقد استطاعا أن يجمعا المشاعر الإنسانية الجماعية المتدفقة في تحالف كل قوي الشعب الصيني، ولكن الطبقـة القائدة كانت الفلاحين وليس البروليتاريا. وتوقع المفكرون أن مقولة حتمية انتصار الاشـتراكية ليسـت مسـألة حماسـية ورومانسية ولكنها ستفرض نفسها لالتفاف المشاعر الجماعية الشعبية علي مستوي العالم حول هذه الأيديولوجية الجديـدة، والتي صارت وكأنها عقيدة أو دين، وبدا الأمر في أواخـر الستينيات وكأن النظرية الماركسية سوف تتحقق بكاملها أي تتحول من فكر إلي واقع يسود الكرة الأرضية!

الماركسية تهتز وتختفي في دول بينما تستمر مع حضارات أخري:

من الظواهر الجديرة بالتأمل ما حدث خـلال حقبـة التسعينيات، حيث تأكد تفكك النظام الاشتراكي، فقد اهتـزت

الماركسية حتي كادت تختفي في الاتحاد السـوفييتي سـابقا وبعدها تداعت ذات الظواهر بالتوالي في النظم الاشـتراكية التي أخذت ذات النمط في أوروبا الشرقية، بينمـا اسـتمر النظام الشيوعي الماركسي في الصين بـل تطـور وزادت قدرته علي التنمية عبر رحلة شاقة وعسيرة امتـدت لنحـو نصف قرن إلي أن وصل معدل النمو الي ١٢% سنويا، مما فرض علي العالم الغربي أن يبتلع أو يغض الطـرف عـن التوجه الأيديولوجي للصين وعما أسماه الغـرب مخالفـات خطيرة أو تجاوزات فجة لمواثيق حقوق الإنسان. ويتوقـع المراقبون أن تحتل الصين بهذه التركيبة الثقافية والسياسـية الخاصة مرتبة متقدمة بأن تصير احد كتل العالم المؤثرة في القرن الحالي.

واستلفت نظر المراقبين والمحللـين أيضـا قـدرة الرئيس الكوبي – -فيديل كاسترو – علي البقـاء سـنوات وأحقاب طويلة وتجاوز أزماته الداخلية علي الرغم من معاداة الولايات المتحدة الأمريكية له، لأن كوبا تقع علي بعد كيلو مترات قليلة من ولاية فلوريدا في جنوب شرق أمريكا ذاتها

واستطاع أن يقنع بابا روما بزيارته ومن ثم استمرار نظامه مع تطويرات وإصلاحات متدرجة.

ومن هنا، فإن التساؤل يطرح نفسه، وهو أنه لـو أن العيب في النظرية الاشتراكية ذاتهـا (أي الماركسـية كمـا سجلها ماركس أو الماركسية ـ اللينينية كما تبلـورت فـي ضوء الإضافات النظرية والعملية التي استكملها لينين)، فإن المنطق يفترض أنه كان من الحتمي أن تسقط النظم ذاتهـا (المستندة علي النظرية ذاتها) في كل من الصين في أقصي الشرق، ثم في كوبا والتي تقع في حضن الولايات المتحـدة الأمريكية والتي كانت طوال الحرب الباردة من عام ١٩٤٧ حتي عـام ١٩٩١ الخصـم اللـدود للنظريـة الشـيوعية، واستطاعت بالفعل أن تمارس كـل الضـغوط الاقتصـادية والعسكرية والإعلامية، التي أدت إلي هذا الزلزال الذي بـدأ بسقوط حائط برلين وما أعقبه من مسلسل أشرنا إليه مـرارا في هذا الكتاب.

العيب إذن ليس في النظرية ذاتها ـ ـ وإنمـا فـي التطبيق الذي تمت صـياغته فكـرا وعمـلا فـي الاتحـاد السوفييتي أو مجموعة الدول التي كانت تـدور فـي فلكـه

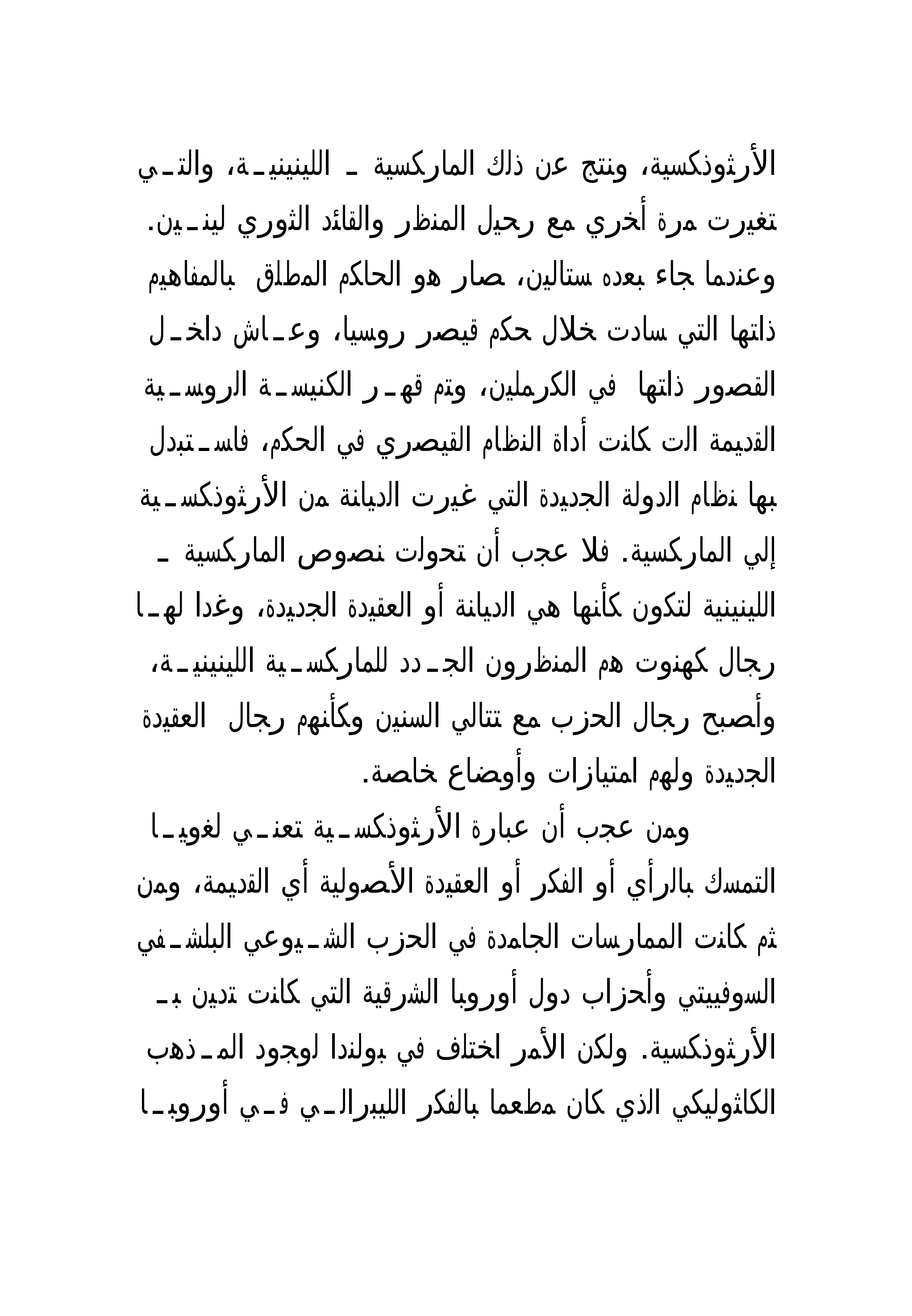
المسماة دول شرقي أوروبا. وهنا تجدر الملاحظـة أن هـذه الكتلة التي تفككت أو سقط فيها النظـام الاشـتراكي -فـي مجموعها- تنتمي إلي الحضـارة المسـماة بـ ـ المسـيحية الأرثوذكسية حيث كانت القيادة التاريخية في هـذه المنطقـة للكنيسـة الروسـية الأرثوذكسـية المرتبطـة بالقيصـر أو الإمبراطور القابع في بطرسبرج (والتي سميت لينينجراد في العصر الشيوعي)، وكانت مرتبطة أو مسيطرة علي الكنائس الأرثوذكسية الاصغر عددا ونفوذا فـي بلغاريـا ورومانيـا بالذات.

والمقاومة هي أن الكنيسة في بولندا كانت كاثوليكية، ولذلك بدأت حركة التضامن بين عمال بولندا بقيادة الـزعيم ليخ فاونسا، رئيس نقابة عمال التضامن ثم انتخـب رئيسـا للدولة في بولندا. ففي وقت مبكر ـ ربما عام ١٩٨٥ ـ قام هذا الزعيم العمالي بمظاهرات وإضرابات في موانئ بولنـدا ضد النظام الشيوعي، وبتحريض وتمويل من الفاتيكان ـ كما هو معروف ـ مما يعني أن النظرية الماركسية ـ ـ علـي الرغم من وحدة النصوص ـ وبالذات تلك التـي صـاغها

كارل ماركس، قد تمت صياغتها في التطبيق والممارسة وفق الخلفية الحضارية لكل بلد.

والتغيير في روسيا القيصرية كان بالثورة الشـعبية عام ١٩١٧، ثم كان من خلال الغزو أثناء اجتيـاح الجـيش الأحمر لبلدان أوروبا الشرقية خلال السنوات الأخيـرة قبـل نهاية الحرب العالمية الثانية، وقـد تـم فـرض الأحـزاب الشيوعية الضعيفة في تلك الدول علي الشعوب نتيجة الهزيمة العسكرية وليس نتيجة إرادة الشعوب، وهذا أمر متفق عليـه تاريخيا. ثم كان التغيير الهائل في الصين من خـلال رحلـة الجيش الأحمر الصيني والذي كان مكونا من الفلاحين أساسا والذي قاد الصراع العسكري لسنوات طويلة، ولم تتم سيطرة هذا الجيش والثورة علي مجمل أراض الصين ولـم تسـقط بكين العاصمة إلا عام ١٩٤٩ بعد مسيرة الجـيش الأحمـر للفلاحين لسنوات طويلة جدا وهو الأمر الذي ابتكر عبارة أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

وعليه فإن النظرية الماركسية الأوروبية التي تشكلت في منتصف القرن التاسع عشر، قد تم تطويرها لتأخذ شـكلا آخر من خلال امتزاجها بالحضـارة الروسـية القيصـرية


الأرثوذكسية، ونتج عن ذلك الماركسية ـ اللينينيـة، والتـي تغيرت مرة أخري مع رحيل المنظر والقائد الثوري لينـين. وعندما جاء بعده ستالين، صار هو الحاكم المطلق بالمفاهيم ذاتها التي سادت خلال حكم قيصر روسيا، وعـاش داخـل القصور ذاتها في الكرملين، وتم قهـر الكنيسـة الروسـية القديمة الت كانت أداة النظام القيصري في الحكم، فاسـتبدل بها نظام الدولة الجديدة التي غيرت الديانة من الأرثوذكسـية إلي الماركسية. فلا عجب أن تحولت نصوص الماركسية ـ اللينينية لتكون كأنها هي الديانة أو العقيدة الجديدة، وغدا لهـا رجال كهنوت هم المنظرون الجـدد للماركسـية اللينينيـة، وأصبح رجال الحزب مع تتالي السنين وكأنهم رجال العقيدة الجديدة ولهم امتيازات وأوضاع خاصة.

ومن عجب أن عبارة الأرثوذكسـية تعنـي لغويـا التمسك بالرأي أو الفكر أو العقيدة الأصولية أي القديمة، ومن ثم كانت الممارسات الجامدة في الحزب الشـيوعي البلشـفي السوفييتي وأحزاب دول أوروبا الشرقية التي كانت تدين بـ الأرثوذكسية. ولكن الأمر اختلف في بولندا لوجود المـذهب الكاثوليكي الذي كان مطعما بالفكر الليبرالـي فـي أوروبـا

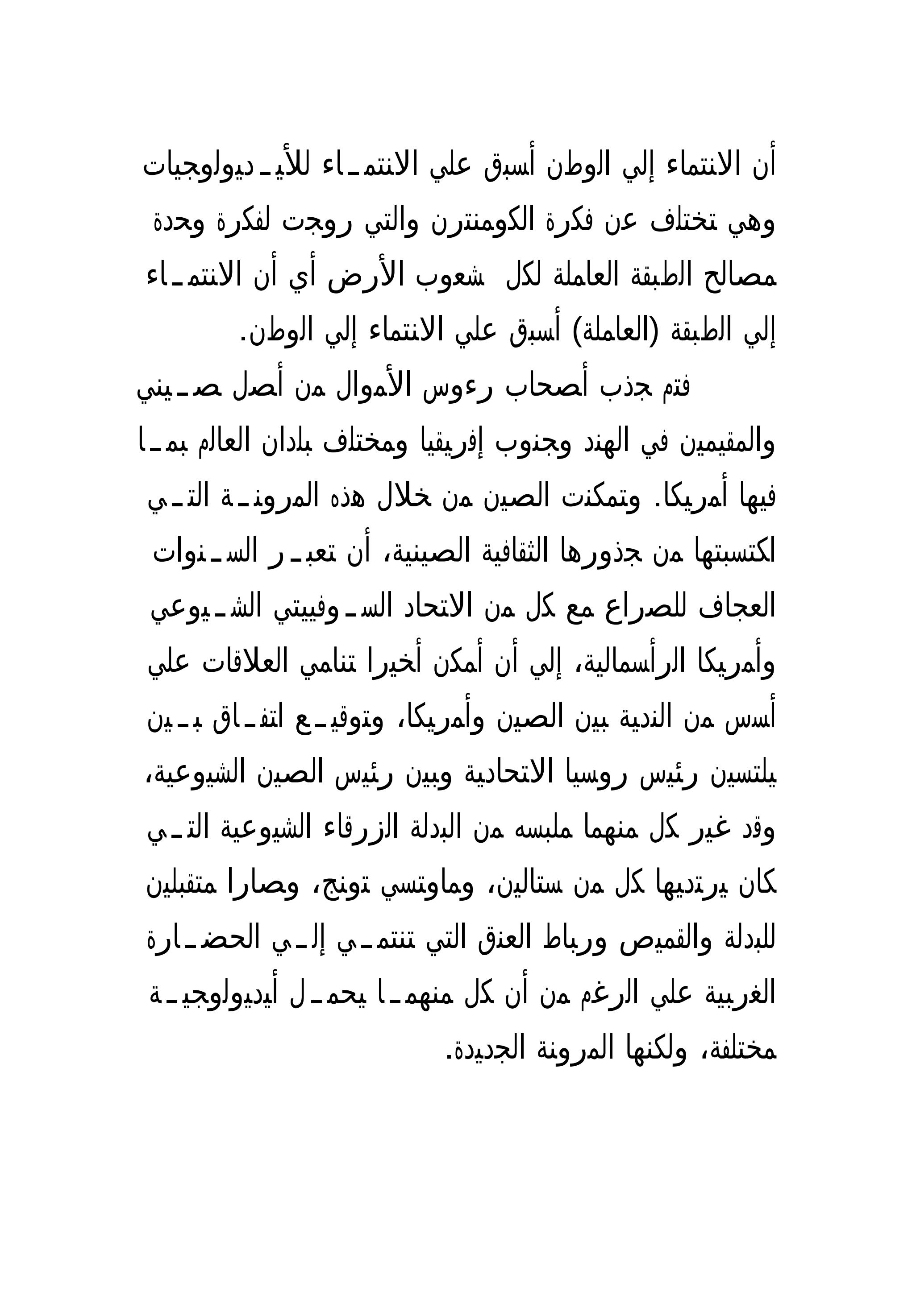
الغربية بعد أن تجاوز ـ الجمود الذي ساد العصور الوسط من خلال حركة الإصلاح الدين وانتشار نفوذ وقوة حركـة الاحتجاج المسماة بـ البروتستانتية.

ولذلك عندما اهتز النظام الشيوعي في بولنـدا، ثـم قامت أمريكا بمخططها اهتز الاتحاد السوفييتي وتفكـك ثـم تبعته في هذا الأمر النظم التي كانت تدور فـي فلكـه فـي أوروبا الشرقية الأرثوذكسية.

ولكي ندلل علي وجهة نظرنا المسماه التلقيح الثقافي -والتي أشرنا إليها سابقا-، من أن أي نظرية فكرية عامـة (بما فيها المستوحاة من النصوص الدينيـة) تتشـكل بشـكل مختلف عندما تغزو أي بلد أو قطر لأنها ـ تـدريجيا ومـع الوقت ـ تتأثر بما هو سائد في هذا القطر مـن ديانـات أو مفاهيم وثقافات أو حضارات سابقة عل الحضـارة الوافـدة الجديدة، ونذكر المثل البارز ـ مرة أخر ـ بما حـدث فـي الصين عندما انتصرت الشيوعية بها عام ١٩٤٩. فسـرعان ما دب الخلاف بين روسيا السوفييتية الشيوعية (والتي لهـا أصل وجذور حضارية مسيحية أرثوذكسية)، وبين الصـين الشعبية الشيوعية التي قاد فيها الثورة جيش فلاحـين بقيـادة

المفكرين الصينيين المتأثرين بـالفكر والديانـة الكنفوشـية: ماوتسي تونج وتشوا إين لاي وغيرهما الذين نظروا فكريـا وهم متأثرون بالثقافة والتاريخ الصيني. وكان نتيجـة هـذا الخلاف أن اعتمدت الصين علي ذاتها اقتصاديا وفكريا، فكان أن تم حصارها من كل من أمريكـا الرأسـمالية وروسـيا الشيوعية، فخاضت تجربة حصار مريرة إلي أن صارت قوة اقتصادية عالمية في منتصف التسـعينيات، كمـا خاضـت معارك فكرية ضارية داخل الحزب الشيوعي الصيني ذاتـه فيما عرف بعبارة الثورة الثقافية وكانت دروته في الصـراع ضد عصابة الأربعة. وها نحن أولاء نـري الصـين وقـد تمسكت بالنظرية الماركسية مـع تطويرهـا وفـق جـذور الحضارة الكنفوشية القديمة، ولقد سمعنا فـي الخمسـينيات عبارة ماوتسي تونج الشهيرة دع كل الزهور تتفـتح وهـي مقولة صينية قديمة، وتمهد لفكرة قبـول الأفكـار الأخـري وتختلف تماما عن نظرية ديكتاتورية البروليتاريا النابعة من الممارسات الروسية.

ومنذ أواخر الثمانينيات طـرح الحـزب الشـيوعي الصيني فكرة شعب واحد، ونظامان اقتصاديان والتي تعنـي



أن الانتماء إلي الوطن أسبق علي الانتمـاء للأيـديولوجيات وهي تختلف عن فكرة الكومنترن والتي روجت لفكرة وحدة مصالح الطبقة العاملة لكل شعوب الأرض أي أن الانتمـاء إلي الطبقة (العاملة) أسبق علي الانتماء إلي الوطن.

فتم جذب أصحاب رءوس الأموال من أصل صـيني والمقيمين في الهند وجنوب إفريقيا ومختلف بلدان العالم بمـا فيها أمريكا. وتمكنت الصين من خلال هذه المرونـة التـي اكتسبتها من جذورها الثقافية الصينية، أن تعبـر السـنوات العجاف للصراع مع كل من الاتحاد السـوفييتي الشـيوعي وأمريكا الرأسمالية، إلي أن أمكن أخيرا تنامي العلاقات علي أسس من الندية بين الصين وأمريكا، وتوقيـع اتفـاق بـين يلتسين رئيس روسيا الاتحادية وبين رئيس الصين الشيوعية، وقد غير كل منهما ملبسه من البدلة الزرقاء الشيوعية التـي كان يرتديها كل من ستالين، وماوتسي تونج، وصارا متقبلين للبدلة والقميص ورباط العنق التي تنتمـي إلـي الحضـارة الغربية علي الرغم من أن كل منهمـا يحمـل أيديولوجيـة مختلفة، ولكنها المرونة الجديدة.

وحدث الشيء ذاته في كوبا. ذلك أن كاسترو كـان متأثرا بالثقافة السابقة للماركسية، لذلك جاء التطبيق مختلفـا، وأنتج هذا اللقاح الثقافي نموذج الزعيم جيفارا الذي أصـبح أسطورة للنقاء الثوري حتي في أمريكا وأوروبا، فلا عجـب في أن المناخ الثقافي ذاته في أمريكا اللاتينية، هـو الـذي أفرز أيديولوجية لاهوت التحرير عندما تزاوجت الماركسـية القادمة من أوروبا الغربية (وربما الاتحاد السـوفييتي) مـع المذهب الكاثوليكي (والذي كان له موقف عنيد مضاد ومقاوم للفكر الماركسـي) ولكـن فـي وجـود العامـل المسـاعد Catalyst، (هو حركة التحرر الوطني التي سادت العالم في حقبة الخمسينيات والستينيات). ظهرت هـذه الأيديولوجيـة الجديدة المسماة بـ لاهوت التحرير ولأهميـة هـذا الأمـر خصصنا له فصلا قادما مستقلا.

إن ما رغبت في أن أوضحه، هو أن الماركسية قـد تغيرت كثيرا مع انتشارها وتأثرت في كل قطر (أو وطن أو منطقة) بالتراث الحضاري السائد والسابق لأنه مـؤثر فـي سيكولوجية الشعب الذي قام بالثورة أو أيدها حتـي حققـت النصر، ولذا تولدت ظاهرة أن شكل التطبيق قد اختلف بالفعل

من شعب إلي آخر ولذا حدث ما حدث في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، بخلاف الازدهار والاستمرار والمعايشـة للفكر ذاته في الصين وكوبـا، ممـا يؤكـد أن المشـاعر الجماعية التي تتبلور في موقع معين هـي نتيجـة تفاعـل عناصر كثيرة، بما فيها الحضارات السائدة والسابقة. وهـي الفكرة المحورية التي طرحناها في الفصل الأول.

ومن ثم كانت أهمية أن نناقش النظرية الجديدة التـي اجتاحت العالم المسماة نظرية صدام الحضـارات لصـاحبها صموئيل هانتجتون والتي كتبها في مقال أكاديمي عام ١٩٩٣ ثم في كتاب كامل عام ١٩٩٦، وهو ما خصصنا له الفقـرة التالية في إطار هذا الفصل الثاني لنربط بين صراع الطبقات الذي قدمه ماركس في منتصـف القـرن ١٩ إلـي صـدام الحضارات في منتصف التسعينيات من القرن العشرين.

من صداع الطبقات إلي صدام الحضارات

عاش الكثيرون منا علي إيمان بالحتمية سواء كـانوا اشتراكيين أو من الاتجاهات الدينية، غير أن ما تـم خـلال فترة الثمانينيات وصولا لتفكك الاتحاد السوفييتي قد هز هذه المقولة وأكد بأنه لا حتمية في التـاريخ، لأن التـاريخ مـن

صناعة الإنسان، والإنسان بشـر يتحـرك وفـق مشـاعر وانفعالات، وليس آلة تتحرك وفق قوانين وقواعد فيزيائية أو ميكانيكية وضع تصميماتها مجموعة منا لمشـاعر انسـانية حسبت وحسمت مسبقا.

عندما حدث خلاف بين الثورة الاشتراكية في الصين ونظيرتها الثورية الاشتـراكيـة الأم في موسكو، ثم ـ في حقبة متقاربة معاصرة في حقبة الخمسينات أيضـا مـع الثورة الاشتراكية الشعبية في يوجوسلافيا بزعامة جوزيـف تيتو ـ كانت التحليلات عقيمة وانتهت ـ في معظمها ـ إلي أن الخلافات اسبابها شخصية بين ستالين من جانب وبين كل من ماوتسي تونج وتيتو من جانب آخر؛ ولكن أحدا لم يلتفت إلي أن القضية قد يكون لها بعـد ثقافـي وحضـاري ومجتمعـي، وظـل الأمـر كامنـا إلي صيف عام ١٩٩٣ عندما فجر صموئيل هانتجتون أستاذ التنظيـر فـي مجال العلوم السياسية بجامعة هارفارد الأمريكية فقـد نشـر دراسة أعدها بتكليف من معهد أولن للدراسات الإستراتيجية عن التغيير في مناخ الأمن والمصـالح القوميـة الأمريكيـة بعنوان: صدام الحضارات The Clash of Civilization،

وتحدث عن أنه سيكون نمط الصراع القادم، وأحدثت الدراسة هزة حين ذكر أن محرك التاريخ في الحقبة القادمة سـيكون محكوم بقضية محورها هو صراع الحضارات.

أيا ما كان الأمر، دعنا ننتقل الآن إلي نظرية صـدام الحضارات فنبدي ملاحظات أساسية وشكلية لها دلالتها. فقد جاء في تقديم هذا البحث أنه نتيجة مشروع قد عهد به إلـي معهد أولن للدراسات الإستراتيجية وهو معهد يتبـع جامعـة هارفارد الأمريكية حيث يعمل صموئيل هـانتجتون أسـتاذا لأساليب علوم الحكم Science of Govrnment.

ولابد لي قبل أن أسترسل في عرض الخطوط العامة العريضة للبحث ذاته من أن أقدم للقارئ العربـي، أسـاليب تمويل وإدارة بعض الجامعات الأمريكية وبخاصة العريقـة منها مثل جامعة هارفارد التي تعتبر المهد الأول في أمريكـا للدراسات في العلوم الإنسانية: إذ كان بعض الأثريـاء قـد وهبوا جانبا من أموالهم (بـالملايين) تخصـص إيراداتهـا للصرف علي الجامعة، مثلما كان لدينا نظام الوقـف الـذي وضع قواعده وطبقه العصر العثماني في تركيا أولا ثم فـي أنحاء الدولة العثمانية كافة فيما بعد ،وهذه الأموال الموقوفـة

يعين لها مجلس أمناء يدير الأموال ويصرف من ريعها علي الجوانب التي حددها الواقف في وصيته. وفـي حالتنـا ـ ـ جامعة هارفارد ـ كانت الإيرادات تصرف علي مـا يـدعم الفكر الإنساني في جميع ألوان المعرفة.

وعندمـ ـا تنشأ الحاجـ ـة إلي بحوث ودراسـات، يتم تكوين قسم متخصص يرأسه أستاذ كرسي، وعـادة مـا يكون القسم ومبانيه بأسمـ ـ ـاء مـن تبرعـوا لإنشـائه، وبالفعل ـ وفي حالتنا ـ أنشئ كرسي باسم ايتـون Eaton يوفـ ـ ـ ـر الاستعانـ ـ ـة بأستـ ـ ـ ـاذ قـدير يتابـ ـع الـ ـدراسـ ـة في موضـ ـ ـوع معين، ومن ثـم فـإن اللقب الرسمي لصموئيل هانتجتون هو أستاذ كرسي ايتـون لعلـوم الحكـم Eaton Professor of the Science of Government وهو بهذا التخصص تابع لجامعة هارفارد.

وعندما تجد الحاجة إلي دراسات متكاملة في قضـية كبيرة ينتظر أن تكون لها أهميتها في الحياة، ينشأ لها معهـد متخصص، وغالبا ما يطلق عليه اسم من تبرع بإنشاء هـذا المعهد، وتكون هذه المعاهد مستقلة أو تابعة للجامعات حسب الأحوال ونصوص الوصية للشخص الشخص الـذي تبـرع

بالمال، ومن خلال هذه المعاهد تتم -عادة- معظم البحوث الهائلة التي نعرفها في مجال العلوم الأساسية، مثل الطبيعة والكيمياء أو العلوم التطبيقية في مجالات الطب والهندسة والزراعة والفضاء وغيرها.

وهكذا تكون معهد باسم أولن Olin تخصص في الدراسات الإستراتيجية، وألحق بجامعة هارفارد، وقد عين هانتجتون رئيسا لهذا المعهد، علاوة علي موقعه أستاذ كرسي إيتن لعلوم الحكم كما سبق الذكر.

وتعيش هذه المعاهد علي تعاقدات من جهات ترغب في عمل بحوث ودراسات هي غير قادرة عليها، وهو الأمر الشائع في الصناعات الأمريكية كافة حيث يصادف المنتجون بعض المشكلات أو الصعوبات، فيتعاقدون مع معهد يقوم بعمل البحث، ويسمي التعاقد بين الجهة صاحبة المصلحة وبين المعهد العلمي بـ المشروع Project. ومن خلال هذه الآلية يتقدم كل أنواع المعرفة. وربما كان ابتكار أمريكا لهذه الآلية أحد أسباب تفوقها العلمي.

أيا ما كان من أمـر، فمـن الواضـح أن عنـوان المشروع الذي استخلصت منه الدراسة التي نشرها هانتجتون كان التغييرات في مناخ الأمن والمصالح القومية الأمريكية:

The Changing Security Environment and ' American National Interests س.

ومن كل هذا يتضح أن هذا البحث الذي نشـر فـي مجلة فورن أفيرز عدد صيف عام ١٩٩٣ فـي أشـهرمجلة أمريكية لبحوث السياسة الخارجية، هو في الحقيقة رؤيا تقود إلي توصيات تقدم لمتخذ القـرار الأمريكـي فـي الشـئون الخارجية. ومن هنا فهو ليس بالبحث الأكاديمي المجـرد أو النابع من فكرة شخصية لأستاذ متخصص، ولذا كان للورقة أهمية خاصة وأثارت بالفعل تداعيات كثيرة منذ عام ١٩٩٣ حتي الآن. إنها وليدة لبحث ومناقشات فريق عمل ذي طـابع سياسي، وهي بالتالي تختلف عن هذا الكتاب ـقبول الآخرـ الذي يقدم رؤية لفرد وبمبادرة شخصية.

وإذا كنت ـ في هذا الفصل ـ قد تعرضت للنظرية الماركسية التي ترتكز علي فكرة أن صراع الطبقـات هـو محرك التاريخ، فقد قدمتها في إيجاز نسبي، لأن الماركسـية

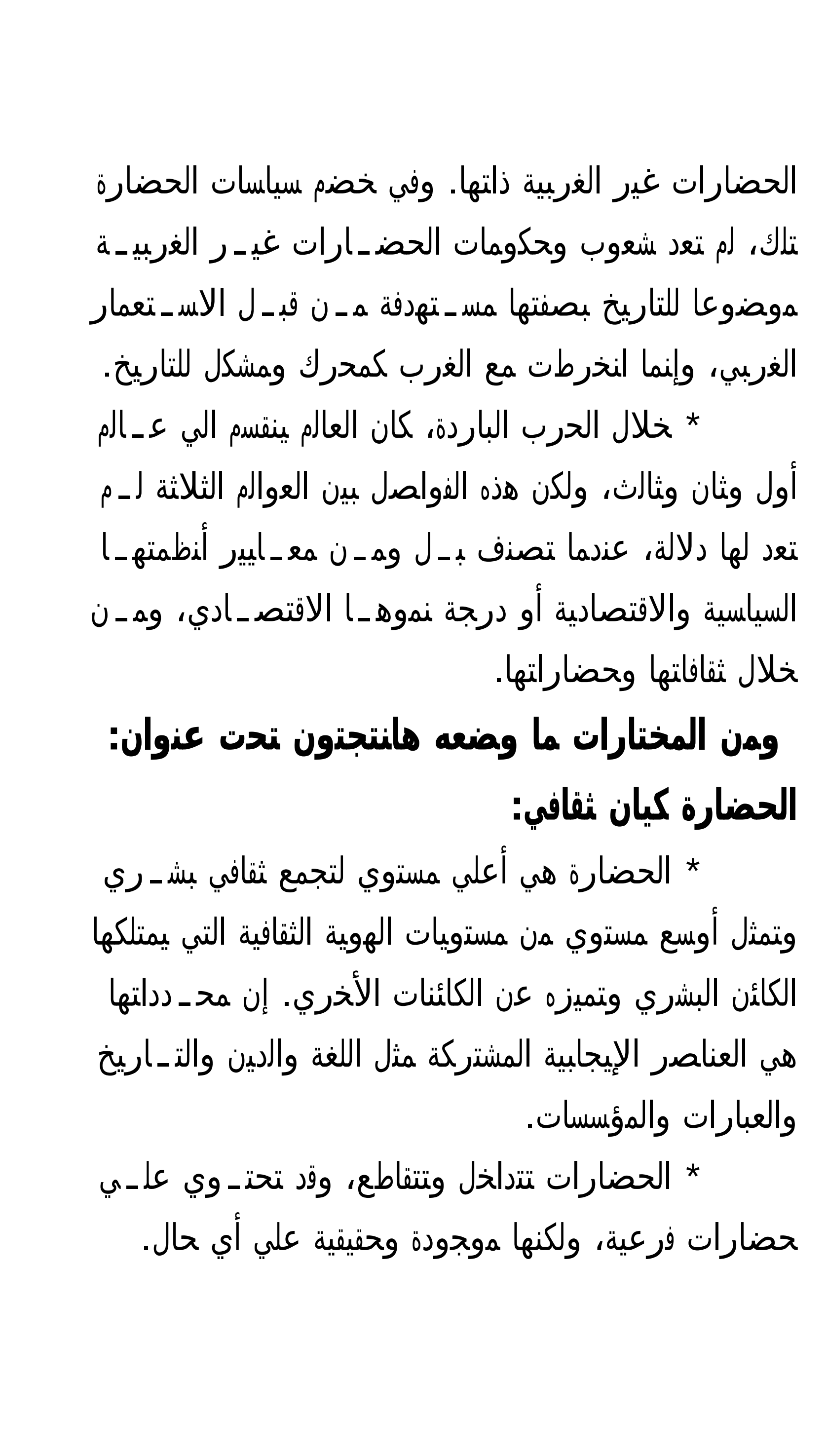
قد مضي علي نشأتها نحو قرن ونصف القرن من الزمـان، وصارت أفكارها منتشرة ومعروفـة، أمـا نظريـة صـدام الحضارات فتنطوي علي أفكار جديدة لا يزيد عمرها علـي نحو خمس سنوات، كذلك فإن ظروف نشأة النظريـة التـي احتضنتها الخارجية الأمريكية قد أوجبت أن نبـدأ بعـرض لبعض نصوصها في شيء من التفصيل، خصوصـا وأنـه توجد إشارات كثيرة في أدبيات السياسة في العـالم العربـي والغربي نفسه تدحض وتناقش مبدأ صراع الحضارات. ولذا أجد من الواجب ـ في مثل هذا الكتاب ـ أن أعود إلي نص الدراسة التي قام بها صموئيل هانتجتون ذاتها. فـي صـيف عام ١٩٩٣ في مجلة فورن أفيرز، ثم فقرات أخـري مـن الكتاب الذي نشره عام ١٩٩٦، وآثـرت ان اعتمـد علـي الترجمة العربية التي نشرتها دار 'سطور' عام ١٩٩٨ وقـام بها طلعت الشايب ثم استعين بنقد نظرية هانتجتون بفقـرات من التقديم الذي قدمه د.صلاح قنصوه للطبعة المترجمة إلي العربية.

نصوص مختارة من نظرية صدام الحضارات وفـق بحث عام ١٩٩٣

* تقوم فرضيتي علي أن المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد، لن يكـون بالدرجـة الأولـي بسـبب أيديولوجي أو اقتصادي. إن الانقسام الأكبر للجنس البشـري والعامل الحاسم في النزاعات سـيكون بسـبب الحضـارة، وستظل الدول القومية Nation states هي اللاعب الأقـوي علي مسرح الشئون الدولية، غير أن الصراعات الرئيسية في السياسة الدولية ستنشب بين الدول وبين مجموعة دول تنتمي لحضارات مختلفة.

* وستكون حدود التوتر الفاصلة بين تلك الحضارات المختلفة هي ذاتها خطوط المعارك في المستقبل. إن الصراع بين الحضارات إن هو إلا الطور الأخير في عمليـة تطـور النزاعات في العالم الحديث.

* مع نهاية الحرب الباردة تخرج السياسة الدولية من تطورها إلي مرحلة جديدة، ويغدو قوامها الرئيسي من خلال التفاعل بين حضارة الغـرب مـن جانـب وبـين مجمـل الحضارات غير الغربية من جانب آخر، وكذلك التفاعل بين



الحضارات غير الغربية ذاتها. وفي خضم سياسات الحضارة تلك، لم تعد شعوب وحكومات الحضـارات غيـر الغربيـة موضوعا للتاريخ بصفتها مسـتهدفة مـن قبـل الاسـتعمار الغربي، وإنما انخرطت مع الغرب كمحرك ومشكل للتاريخ.

* خلال الحرب الباردة، كان العالم ينقسم الي عـالم أول وثان وثالث، ولكن هذه الفواصل بين العوالم الثلاثة لـم تعد لها دلالة، عندما تصنف بـل ومـن معـايير أنظمتهـا السياسية والاقتصادية أو درجة نموهـا الاقتصـادي، ومـن خلال ثقافاتها وحضاراتها.

ومن المختارات ما وضعه هانتجتون تحت عنوان:

الحضارة كيان ثقافي:

* الحضارة هي أعلي مستوي لتجمع ثقافي بشـري وتمثل أوسع مستوي من مستويات الهوية الثقافية التي يمتلكها الكائن البشري وتميزه عن الكائنات الأخري. إن محـدداتها هي العناصر الإيجابية المشتركة مثل اللغة والدين والتـاريخ والعبارات والمؤسسات.

* الحضارات تتداخل وتتقاطع، وقد تحتـوي علـي حضارات فرعية، ولكنها موجودة وحقيقية علي أي حال.

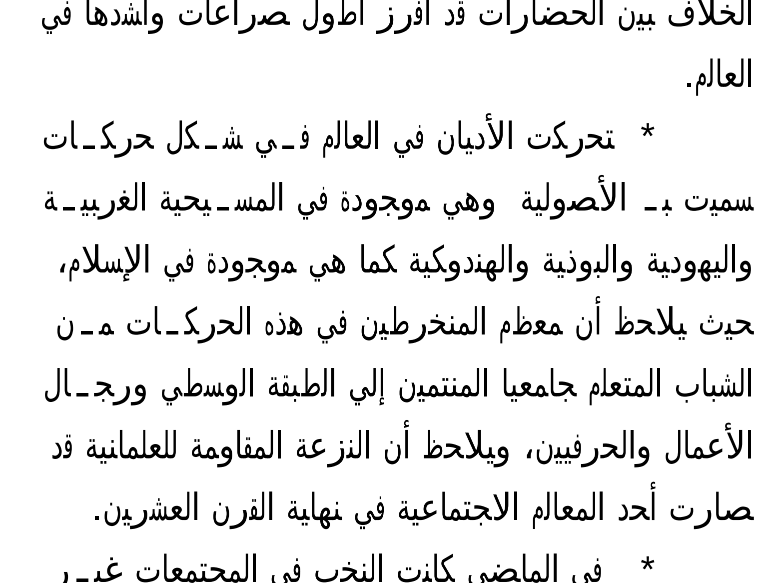
* ستكون الهوية الحضارية متزايدة الأهميـة فـي المستقبل، سيتشكل العالم إلي حد كبير نتيجة تفـاعلات بـين سبع أو ثماني حضارات رئيسية تشمل الحضـارة الغربيـة، الكنفوشـية، اليابانيـة، الإسـلامية، الهنديـة، السـلافية، الأرثوذكسية، الأمريكية اللاتينية، وربما الحضارة الإفريقية. أما الصراعات الأهم، والتي ستنشب فـي المسـتقبل، فـإن حدودها ستكون حدود التوتر الحضاري التي تفصل بين هذه الحضارات الواحدة عن الأخري.

تعداد البشر المنتمين إلي الحضارات الرئيسية في العالم عام ١٩٩٣

الصينية	١,٣٤٠مليون	أمريكا اللاتينية	٥٠٧
الإسلامية	٩٢٧ مليون	الأفريقية	٣٩٢
الهندوسية	٩١٥ مليون	الأرثوذكسية	٢٦١
الغربية	٨٠٥ مليون	اليابانية	١٢٤

* الشعوب التي تنتمي إلي حضارات مختلفـة، لهـا رؤي متباينة في العديد من القضايا مثل: العلاقـة بـين ا والإنسان، بين الفرد والجماعة، بين المواطن والدولة، بـين الآباء والأبناء، بين الزوج والزوجة. كما أن لها آراء مختلفة

عن الأهمية النسبية للحقوق والواجبات، وبين الحرية والسلطة وبين المساواة بين الأفراد. إن هذه الأخلاقيات هي تراث وتراكم قرون طويلة ولن تتغير بين عشية وضحاها. إن هذه الفروق أقوي جذورا في نفوس البشر من تلك التي تتكون نتيجة العقائد الأيديولوجية أو الأنظمة السياسية. إن الخلاف بين الحضارات قد أفرز أطول صراعات وأشدها في العالم.



* تحركت الأديان في العالم في شكل حركات سميت بـ الأصولية وهي موجودة في المسيحية الغربية واليهودية والبوذية والهندوكية كما هي موجودة في الإسلام، حيث يلاحظ أن معظم المنخرطين في هذه الحركات من الشباب المتعلم جامعيا المنتمين إلي الطبقة الوسطي ورجال الأعمال والحرفيين، ويلاحظ أن النزعة المقاومة للعلمانية قد صارت أحد المعالم الاجتماعية في نهاية القرن العشرين.

* في الماضي كانت النخب في المجتمعات غير الغربية هي الأشد ارتباطا بالغرب، إذ نالت قسطا من التعليم في أكسفورد أو السربون أو سانت هيرست فتشبعت بـالقيم الغربية، هذا في الوقت الذي ظل فيه السكان والأهالي في

البلدان غير الغربية غارقين في ثقافاتهم المحلية. أما الآن فقد صارت هذه العلاقة معكوسة تماما، فهنـاك عمليـة تفريـغ للنزعة المرتبطة بالغرب بين النخب وصارت أكثر ارتباطـا مع واقعها وجذورها الثقافية المحلية. في الوقت الذي تعـود فيه المفاهيم والثقافة الغربية بما فيها الأمريكية لتكون أكثـر انتشارا وقبولا لدي عامة الشعب.

(علي الرغم من اختلافي مـع المفـاهيم الرئيسـية لنظرية صدام الحضارات لهانتجتون كما سيأتي تفصيله فيما بعد، فإن هذه الفقرة بالذات تبدو صحيحة وواضحة في العديد من بلدان العالم العربي). المؤلف

* يحدث الدين انقسامات أكثر حـدة وعنفـا مـن الانتماء العرقي، فبوسع المرء أن يكـون نصـف فرنسـي ونصف عربي ومن ثم يكون مواطنا مقبولا فـي الـدولتين ولكن الأكثر صعوبة أن يكون المرء نصف كاثوليكي ونصف مسلم.

عن الصراع في منطقتنا العربية:

إذا كانت العبارات المنتقاة التي ذكرناها أعلاه معبرة عن جوهر الرؤية العامة لنظرية صراع الحضـارات، فـإن

هناك عبارات أخري أكثر اتصالا بمنطقتنا العربية الإسلامية تتمثل في الآتي:

* يعود تاريخ الصراع علي خط حدود التوتر بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية إلي ١٣٠٠ سنة، ففي أعقاب ظهور الإسلام لم تنته الاندفاعة غربا وشمالا إلا في مدينة تورز عام ٧٣٢م.

* بدءا من القرن الحادي عشر والثالث عشر حاول الصليبيون - بخطوط نجاح مؤقتة - أن يفرضوا المسيحية والحكم المسيحي علي الأراضي المقدسة، وبين القرن الرابع عشر والسابع عشر نجح الأتراك العثمانيون في جعل التوازن في اتجاه معاكس، وبسطوا سيطرتهم علي الشرق الأوسط والبلقان ثم علي القسطنطينية ذاتها وضربوا حصارا علي فيينا مرتين، ومع انهيار قوة العثمانيين في القرن التاسع عشر والعشرين، فرضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا السيطرة علي معظم شمالي إفريقيا والشرق الأوسط.

* وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ الغرب بدوره يتراجع، وبرزت القومية العربية ومن ثم الأصولية الإسلامية وأصبح الغرب يعتمد اعتمادا شديدا علي الخليج الفارسي [أي

الخليج العربي ومعروف أن التسمية محل خلاف ـ المؤلف]
في الحصول علي الطاقة، وتحولت الدول الإسلامية الغنيـة بالنفط إلي دول غنية بالمال وإلي دول مدججة بالسلاح متـي شاءت.

* إن هذا التفاعل العسكري الذي يعود تاريخه إلي قرون مضت بين الغرب والإسلام، لن يتلاشي بل لعله سوف يشتد ليصبح أكثر اشتعالا. لقد أدت حرب الخلـيج بـبعض العرب للشعور بالفخر لأن صدام حسـين هـاجم إسـرائيل وتحدي الغرب، مما جعـل الكثيـرين يشـعرون بـالهوان، ويستنكرون الوجود العسكري الغربي في الخلـيج الفارسـي وكذلك السيطرة العسكرية الغربية الساحقة وعدم قدرة العرب علي صياغة مصيرهم بأنفسهم.

ومن أشرس العبارات والمفاهيم التـي جـاءت فـي نظرية صموئيل هانتجتون مدعمة بأقوال مفكرين آخرين فيما يتعلق بالصراع بين الغرب والإسلام (الذي يشغل همومنا في مصر وفي المنطقة) نختار الآتي:

* إن المجابهة القادمـة مـع الغـرب ـ ـ كمـا يلاحظ ،.م. ج أكبر المؤلف الهندي المسلم ـ ـ ستبدأ مـن

جانب العالم الإسلامي. إن النضال من أجل نظـام عـالمي جديد سيتحقق بتحرك شامل للدول الإسلامية من المغرب إلي باكستان [لاحظ أنه يستشهد بقول مؤلف هندي مسلم، أو كما يقولون:وشهد شاهد من أهلها].

* يتوصل برنارد لويس إلي نتيجة مشابهة فيقول: إننا نواجه مزاجا وتحركا سيرفعان إلي حد كبير مـن نبـرة القضايا والسياسات والحكومات التي تنتهجها، وهـذا لـيس سوي صدام حضارات برد فعل عقلاني له خلفية تاريخيـة، لخصم قديم لتراثنا اليهودي ـ المسيحي وحاضرنا العلماني، وانتشارهما علي نطاق العالم [لاحظ أنه قد كون جبهة ثقافية تشمل التراث اليهودي والمسيحي والعلماني علي الرغم مـن وجود تناقضات حادة بينهم].

* علي الحدود الشمالية للإسلام، يتفجـر الصـراع علي نحو متفاقم بين الشعوب الأرثوذكسية والإسلامية، بمـا في ذلك مذابح البوسنة وسراييفو والعنف الكامن بين الصرب والألبان... والمذابح المسـتمرة بـين أرمينيـا وأذربيجـان والعلاقات المتوترة بين الروس والمسلمين في آسيا الوسطي

[كتبت هذه الفقرة عام ١٩٩٣ قبل حرب الشيشان الثانية عام ١٩٩٩].($)

* إن صراع الحضارات متجدد بعنف في أماكن مختلفة في قارة آسيا، فالصدام التاريخي بين المسلمين والهندوس في شبه القارة الهندية لا يعبر عن نفسه فقط في علاقة التنافس والعداء بين باكستان والهند، وإنما عن صراع ديني محتدم في الهند ذاتها.

وقد بلغت الذروة في الجسارة أو التجاسر عند هانتجتون حين وصل إلي هذه الفقرة الخطيرة:

* إن صدام الحضارات هذا ينطبق تحديدا علي خط حدود الكتلة الإسلامية التي تشبه الهلال وتمتد من نتوء إفريقيا إلي آسيا الوسطي، كما أن ثمة حالة عنف ناشبة بين المسلمين من جانب، وبين الصرب والأرثوذكس في البلقان ومع اليهود في إسرائيل، ومع الهندوس في الهند، والبوذيين في بورما ومع الكاثوليك في الفلبين.. حقا إن للإسلام حدودا دموية.

من كتاب هانتجتون: صدام الحضارات الصادر ١٩٩٦ وبالرجوع إلي الترجمة العربية المعتمدة والصادر

عام ١٩٩٨ نقتبس فقرات قليلة، تؤكد وتفصل ذات المفـاهيم التي طرحها المؤلف ذاته في ورقته البحثية والصـادر عـام ١٩٩٣ والسابق الاشارة إلي بعض فقراتها. جـاء فـي ص ١٦٩ من النسخة المترجمة إلي العربية العبارات الآتية:

* العودة إلي إحياء الدين ظاهرة عالمية، وقد تبدت في اوضح صورها في التوكيد الثقافي وتحديات الغرب التي جاءت من آسيا ومن الاسلام وهي الحضارات الديناميكية في الربع الأخير من القرن العشرين.

* ويتجلي التحدي الاسلامي، الصـحوة الثقافيـة والاجتماعية والسياسية العامه للاسلام في العالم الاسـلامي وما يصاحبه من رفض لقيم الغرب، كمـا يتجلـي التحـدي الأسيوي في كل حضارات الشرق الاسيوية وهي الصـينية- اليابانية- البوذية- الاسلامية، فكلها تؤكد علي الاختلافـات الثقافية بينها وبين الغرب. كل من الأسيويين والمسلمين يؤكد علي تفوق ثقافته علي الثقافـة الغربيـة. تؤكـد الحضـارة الأسيوية علي نموها الاقتصادي بينما التوكيد الاسلامي علي التعبئة الاجتماعية والنمو السكاني، وفي كثير مـن الأحيـان يكون هناك إتفاق بين الأسيويين والمسلمين.

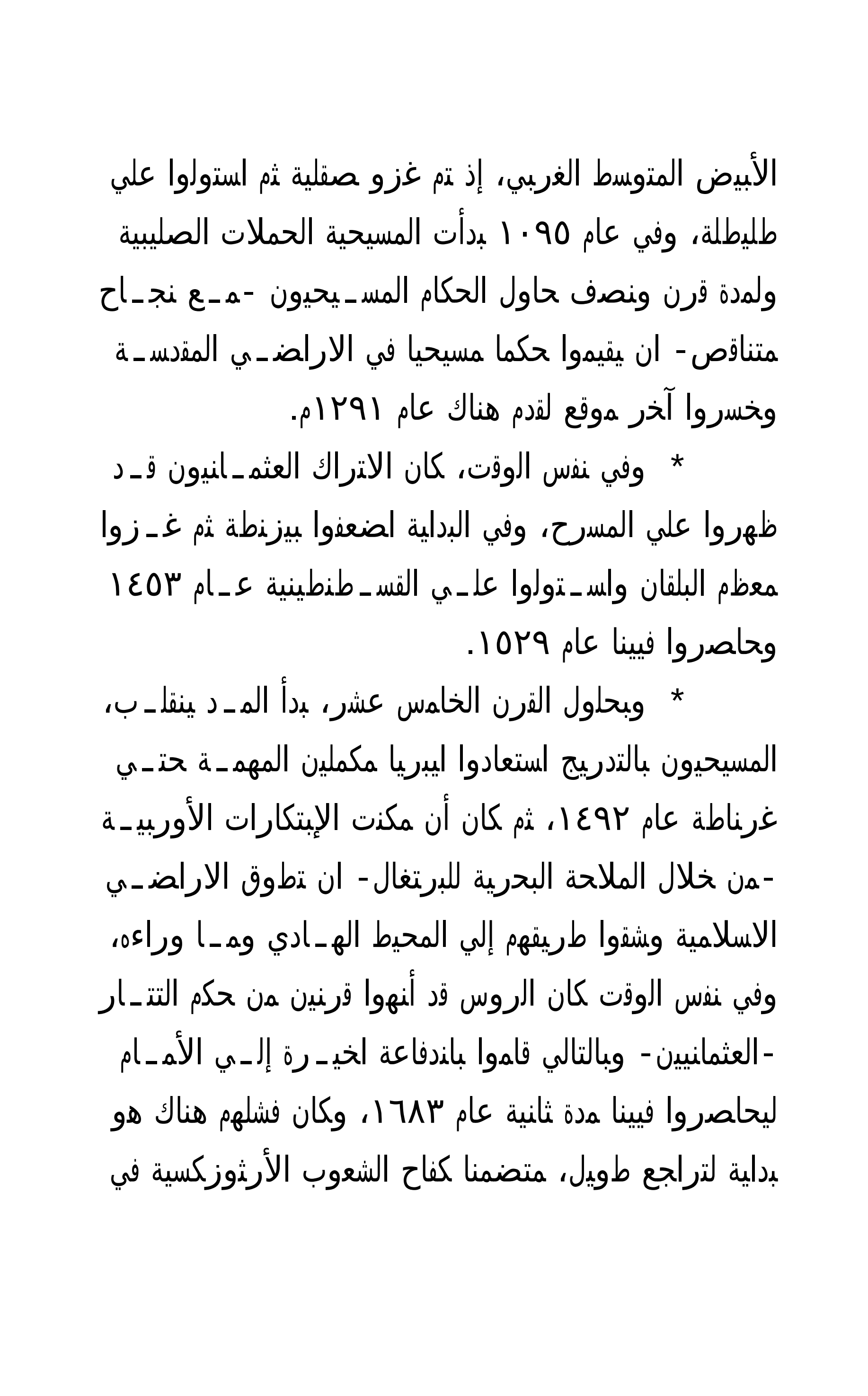
أما الحضارات الاخري: الهندوسية وامريكا اللاتينية والافريقية فإنهم ومنذ السبعينات يترددون في اعلان تفـوقهم علي الغرب.

في ص٣٣١ تحـت عنوان الاسلام والغـرب، يستكمل هانتجتون رؤيته بهذه العبارات:

* يقول بعض الغربيون بما فيهم الرئيس كلينتـون، إن الغرب ليس بينه وبين الاسلام أي مشكلة وانما المشـاكل موجودة فقط مع بعض المتطرفين الاسلامية.

* الواقع يقول انه عبر اربعة عشـر قرنـا كانـت عاصفة -في معظمها- بين الاسلام من جانب وبين المسيحية الغربية أو المسيحية الأرثوزكسية من جانب آخر، كلاهمـا كان 'الآخر' بالنسبة 'للآخر'.

* من بداية القرن السابع حتي منتصـف القـرن الثامن كان الاكتساح العربي الاسلامي في اتجـاه الخـارج، فأقام حكما إسلاميا في شـمال افريقيـا وأيبيريـا (أسـبانيا) والشرق الأوسط وشمال الهند، اعقبها نحـو قـرنين كانـت خطوط التقسيم بين الاسلام والمسيحية مستقرة، وفي أواخـر القرن الحادي عشر، أكد المسيحيون سيطرتهم علي البحـر



الأبيض المتوسط الغربي، إذ تم غزو صقلية ثم استولوا علي طليطلة، وفي عام ١٠٩٥ بدأت المسيحية الحملات الصليبية ولمدة قرن ونصف حاول الحكام المسـيحيون -مـع نجـاح متناقص- ان يقيموا حكما مسيحيا في الاراضـي المقدسـة وخسروا آخر موقع لقدم هناك عام ١٢٩١م.

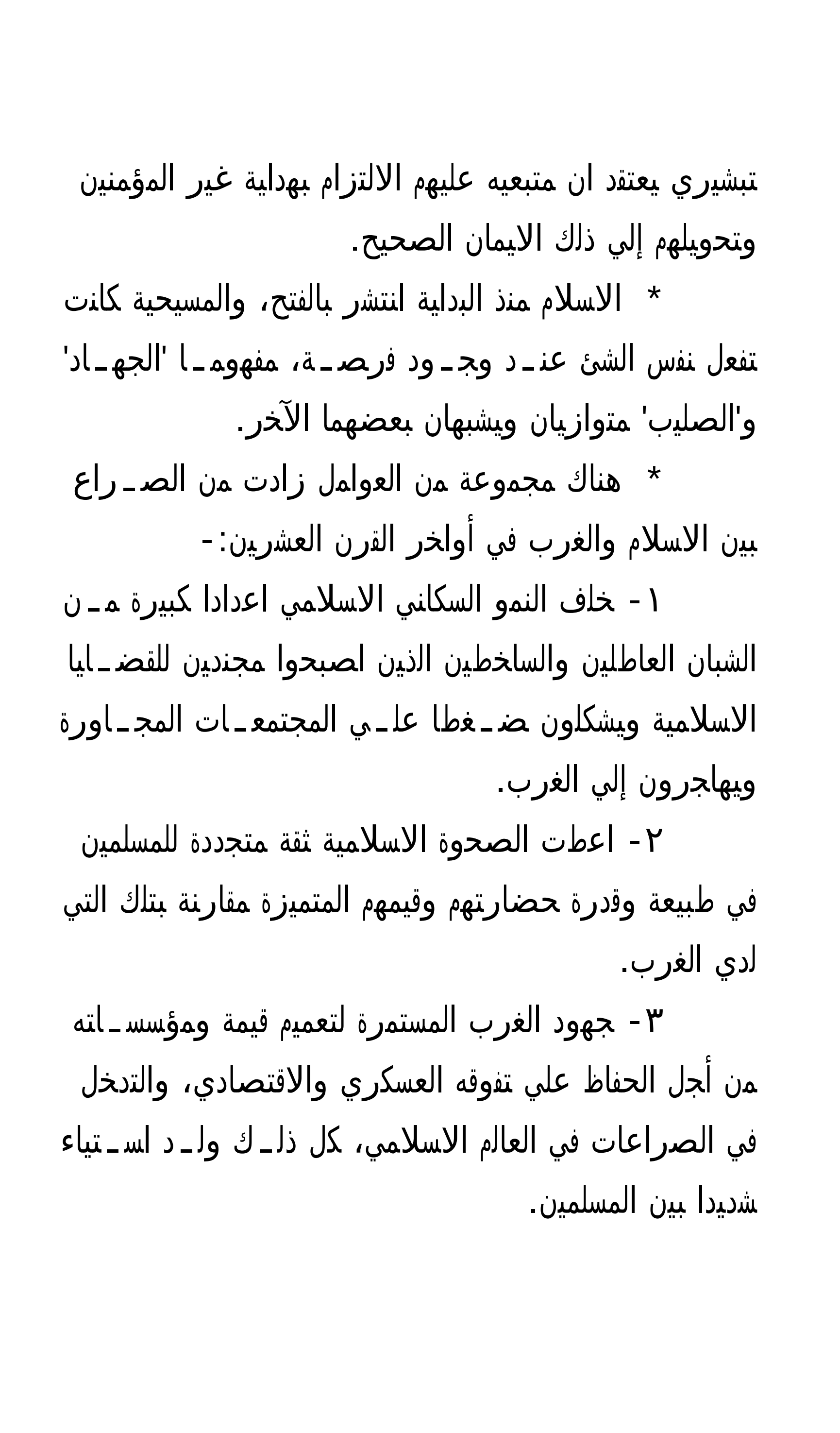
* وفي نفس الوقت، كان الاتراك العثمـانيون قـد ظهروا علي المسرح، وفي البداية اضعفوا بيزنطة ثم غـزوا معظم البلقان واسـتولوا علـي القسـطنطينية عـام ١٤٥٣ وحاصروا فيينا عام ١٥٢٩.

* وبحلول القرن الخامس عشر، بدأ المـد ينقلـب، المسيحيون بالتدريج استعادوا ايبريا مكملين المهمـة حتـي غرناطة عام ١٤٩٢، ثم كان أن مكنت الإبتكارات الأوربيـة -من خلال الملاحة البحرية للبرتغال- ان تطوق الاراضـي الاسلامية وشقوا طريقهم إلي المحيط الهـادي ومـا وراءه، وفي نفس الوقت كان الروس قد أنهوا قرنين من حكم التتـار -العثمانيين- وبالتالي قاموا باندفاعة اخيـرة إلـي الأمـام ليحاصروا فيينا مدة ثانية عام ١٦٨٣، وكان فشلهم هناك هو بداية لتراجع طويل، متضمنا كفاح الشعوب الأرثوزكسية في

البلقان لتحرير أنفسهم من الحكم العثماني، وفي ظرف قـرن تقريبا كان 'جلاد المسيحية' قد أصبح 'رجل أوروبا المريض' وبإنتهاء الحرب العالمية الأولي، أطلقت بريطانيـا وفرنسـا وإيطاليا، 'رصاصة الرحمة' فأقاموا حكمهم المباشـر وغيـر المباشر علي الاراضي العثمانية الباقية فيمـا عـدا مسـاحة الجمهورية التركية، وبحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك سوي اربع دول مستقلة علي نحو ما عن الحكم غير الاسلامي هي: تركيا- السعودية- ايران- أفغانستان.

* بين عامي ١٧٥٧ في ١٩١٩ حـدث ٩٢ حالـة أستيلاء علي أراض إسلامية من قبل حكومات غير اسلامية، وبحلول عام ١٩٩٥ كانت ٦٩ حالة من تلك المساحات قـد عادت مرة أخري تحت الحكم الاسلامي، وفـي ٤٥ دولـة مستقلة كانت الاغلبية الساحقة من السكان مسلمين.

* كان الصراع (بين المسيحية والاسلام) نابعا مـن أوجه التشابه بينهما، كلاهما دين توحيد وكلاهما ينظر إلـي العالم نظرة ثنائية: 'نحن' و'هم'، كلاهما يدعي أنـه العقيـدة الصحيحة الوحيدة التي يجب ان يتبعها الجميع، كلاهما ديـن



تبشيري يعتقد ان متبعيه عليهم الالتزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم إلي ذلك الايمان الصحيح.

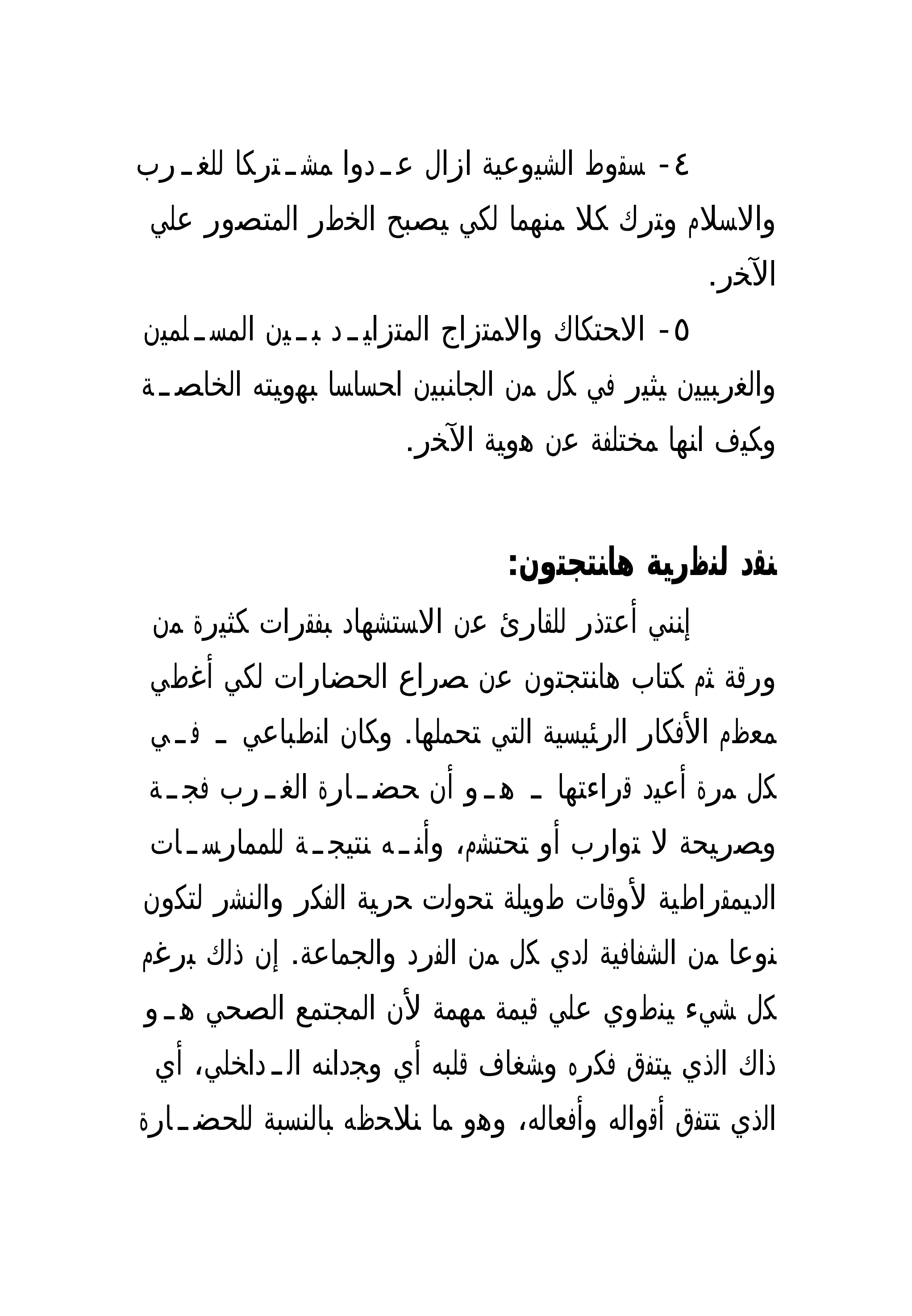
* الاسلام منذ البداية انتشر بالفتح، والمسيحية كانت تفعل نفس الشئ عنـد وجـود فرصـة، مفهومـا 'الجهـاد' و'الصليب' متوازيان ويشبهان بعضهما الآخر.

* هناك مجموعة من العوامل زادت من الصـراع بين الاسلام والغرب في أواخر القرن العشرين:-

١- خلف النمو السكاني الاسلامي اعدادا كبيرة مـن الشبان العاطلين والساخطين الذين اصبحوا مجندين للقضـايا الاسلامية ويشكلون ضـغطا علـي المجتمعـات المجـاورة ويهاجرون إلي الغرب.

٢- اعطت الصحوة الاسلامية ثقة متجددة للمسلمين في طبيعة وقدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة مقارنة بتلك التي لدي الغرب.

٣- جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمة ومؤسسـاته من أجل الحفاظ علي تفوقه العسكري والاقتصادي، والتدخل في الصراعات في العالم الاسلامي، كل ذلـك ولـد اسـتياء شديدا بين المسلمين.

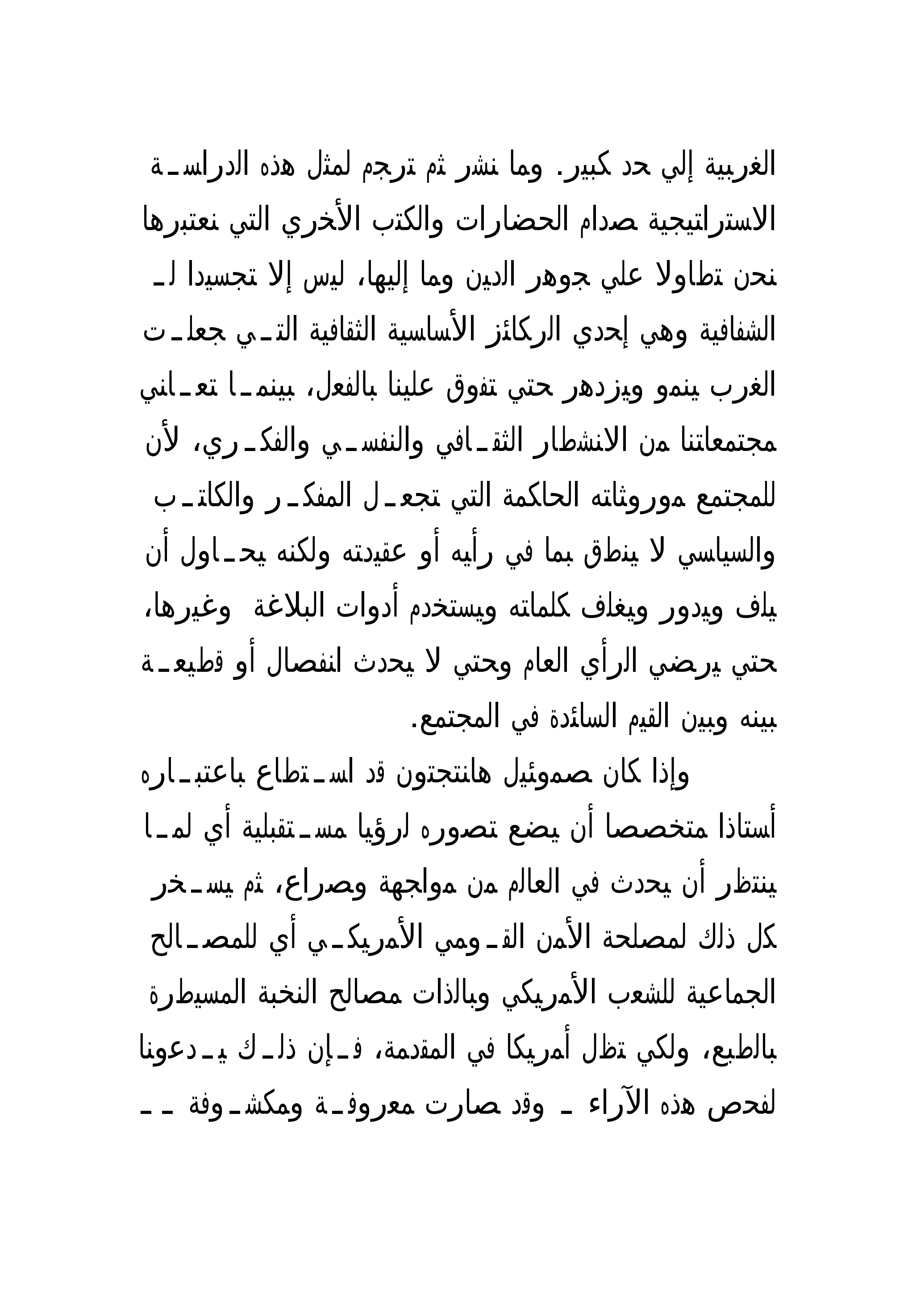


٤- سقوط الشيوعية ازال عـدوا مشـتركا للغـرب والاسلام وترك كلا منهما لكي يصبح الخطر المتصور علي الآخر.

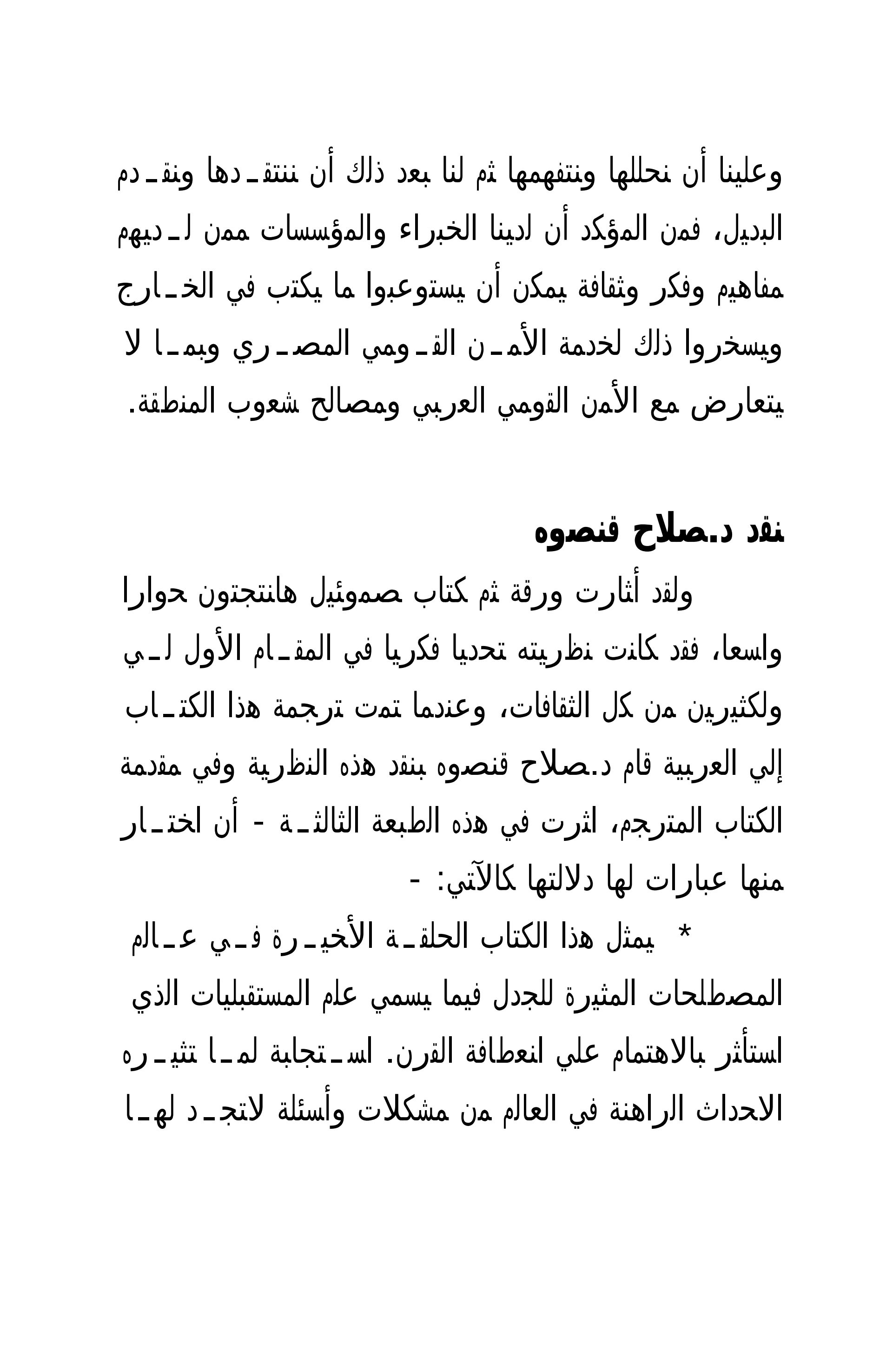
٥- الاحتكاك والامتزاج المتزايـد بـين المسـلمين والغربيين يثير في كل من الجانبين احساسا بهويته الخاصـة وكيف انها مختلفة عن هوية الآخر.

نقد لنظرية هانتجتون:

إنني أعتذر للقارئ عن الاستشهاد بفقرات كثيرة من ورقة ثم كتاب هانتجتون عن صراع الحضارات لكي أغطي معظم الأفكار الرئيسية التي تحملها. وكان انطباعي ـ فـي كل مرة أعيد قراءتها ـ هـو أن حضـارة الغـرب فجـة وصريحة لا تتوارب أو تحتشم، وأنـه نتيجـة للممارسـات الديمقراطية لأوقات طويلة تحولت حرية الفكر والنشر لتكون نوعا من الشفافية لدي كل من الفرد والجماعة. إن ذلك برغم كل شيء ينطوي علي قيمة مهمة لأن المجتمع الصحي هـو ذاك الذي يتفق فكره وشغاف قلبه أي وجدانه الـداخلي، أي الذي تتفق أقواله وأفعاله، وهو ما نلاحظه بالنسبة للحضـارة


الغربية إلي حد كبير. وما نشر ثم ترجم لمثل هذه الدراسـة الاستراتيجية صدام الحضارات والكتب الأخري التي نعتبرها نحن تطاولا علي جوهر الدين وما إليها، ليس إلا تجسيدا لـ الشفافية وهي إحدي الركائز الأساسية الثقافية التـي جعلـت الغرب ينمو ويزدهر حتي تفوق علينا بالفعل، بينمـا تعـاني مجتمعاتنا من الانشطار الثقـافي والنفسـي والفكـري، لأن للمجتمع موروثاته الحاكمة التي تجعـل المفكـر والكاتـب والسياسي لا ينطق بما في رأيه أو عقيدته ولكنه يحـاول أن يلف ويدور ويغلف كلماته ويستخدم أدوات البلاغة وغيرها، حتي يرضي الرأي العام وحتي لا يحدث انفصال أو قطيعـة بينه وبين القيم السائدة في المجتمع.

وإذا كان صموئيل هانتجتون قد اسـتطاع باعتبـاره أستاذا متخصصا أن يضع تصوره لرؤيا مسـتقبلية أي لمـا ينتظر أن يحدث في العالم من مواجهة وصراع، ثم يسـخر كل ذلك لمصلحة الأمن القـومي الأمريكـي أي للمصـالح الجماعية للشعب الأمريكي وبالذات مصالح النخبة المسيطرة بالطبع، ولكي تظل أمريكا في المقدمة، فـإن ذلـك يـدعونا لفحص هذه الآراء ـ وقد صارت معروفـة ومكشـوفة ـ ـ



وعلينا أن نحللها ونتفهمها ثم لنا بعد ذلك أن ننتقـدها ونقـدم البديل، فمن المؤكد أن لدينا الخبراء والمؤسسات ممن لـديهم مفاهيم وفكر وثقافة يمكن أن يستوعبوا ما يكتب في الخـارج ويسخروا ذلك لخدمة الأمـن القـومي المصـري وبمـا لا يتعارض مع الأمن القومي العربي ومصالح شعوب المنطقة.

نقد د.صلاح قنصوه

ولقد أثارت ورقة ثم كتاب صموئيل هانتجتون حوارا واسعا، فقد كانت نظريته تحديا فكريا في المقـام الأول لـي ولكثيرين من كل الثقافات، وعندما تمت ترجمة هذا الكتـاب إلي العربية قام د.صلاح قنصوه بنقد هذه النظرية وفي مقدمة الكتاب المترجم، اثرت في هذه الطبعة الثالثـة - أن اختـار منها عبارات لها دلالتها كالآتي: -

* يمثل هذا الكتاب الحلقـة الأخيـرة فـي عـالم المصطلحات المثيرة للجدل فيما يسمي علم المستقبليات الذي استأثر بالاهتمام علي انعطافة القرن. اسـتجابة لمـا تثيـره الاحداث الراهنة في العالم من مشكلات وأسئلة لاتجـد لهـا

حلولا أو اجابات في النماذج السابقة أو النظريات والمـذاهب المألوفه والمقبولة حتي وقت قريب.

* الوضع العالمي المعاصر الذي تمثل فيه أمريكـا وأوروبا الغربية محركه وآلته، يقدم أمام ابصارنا من تحليل أو تفسير، فلاريب اننا نواجه لخطة متفرده ليس بوسـعنا ان نسلكها في نسق تفسيري قائم أو نجعلها حادثة مضطرده في مسار تاريخي قابل للتنبؤ ومن ثم نشأت الحاجة إلـي اعـادة النظر في مسلماتنا جميعا.

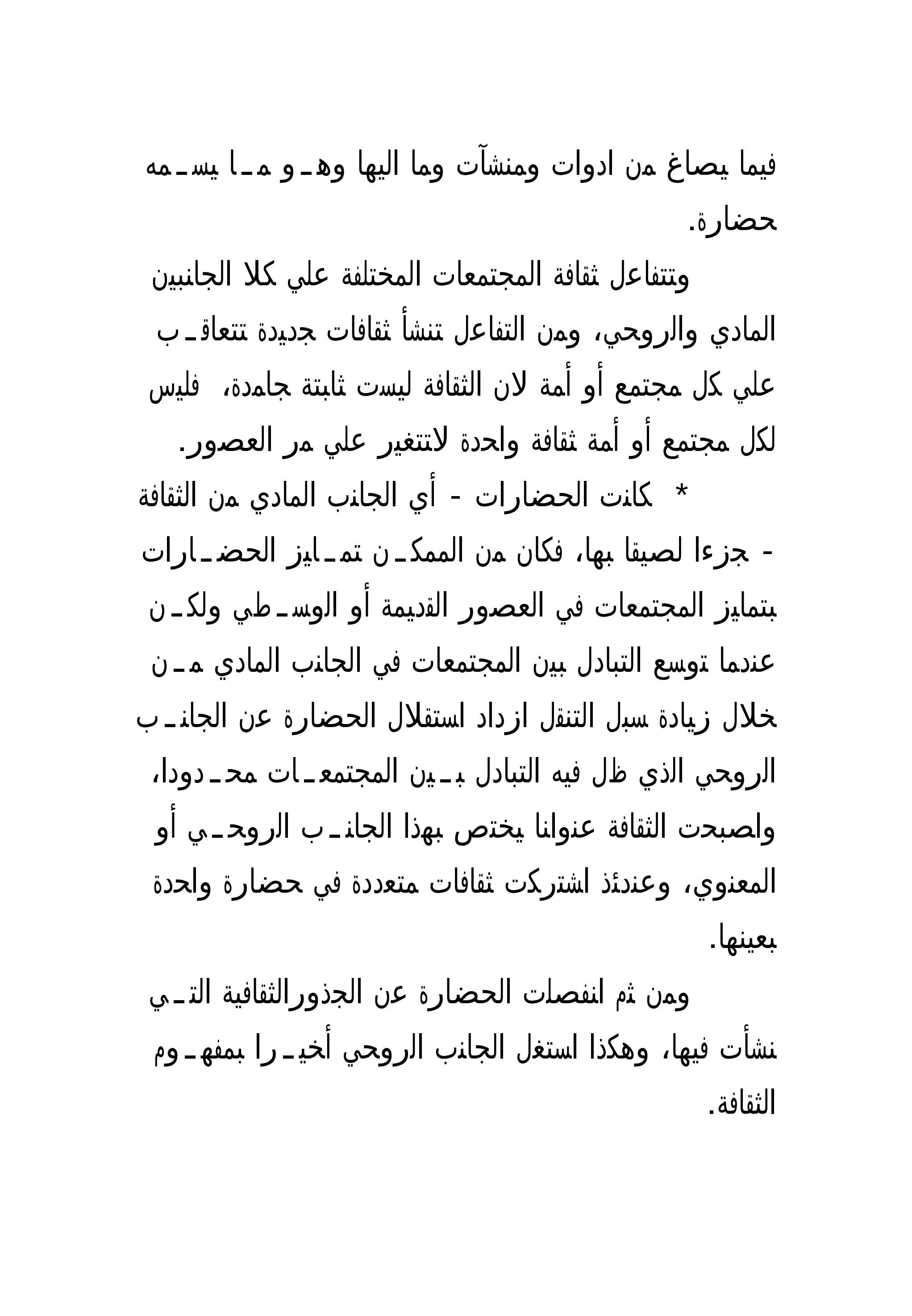
* لقد سبق أن وضع تسلسلا لمراحل الصراع فـي التاريخ، فكان قديما بين الملوك والاباطرة ثم بين الشعوب أو مـا يسـمي الـدول القوميـة Nation states ثـم بـين الايديولوجيات. ويقدم هانتجنون رؤية بـأن مرحلـة مابعـد الحرب الباردة ستنشب الصراع بين الحضارات مع حلول النظام العالمي الجديد.

* العولمة اذن هي غياب البعد الوطني أو القـومي كفاعل مؤثر، كما كان الحال في الرأسمالية السابقة، أما الآن فالمؤسسات أو الشركات العابرة للقارات تـود ان تختـرق وحدة الدول القومية ومن ثم تقوم باضعاف قدرات الدول علي

مواجهة الغزو الجديد، بتضـخيم الصـراعات والنزعـات المناوئة للدولة مثل المشكلات العنصرية والدينيـة لصـالح تفكيك الدول أي تحويلها إلي دويلات عـاجزة أمـام سـيادة السوق العالمية، وهنا تتفاقم مظاهر الفوضي وانعدام اليقـين ويؤدي هذا بالضرورة إلي اسـتجابات انفعاليـة متضـاربة ابرزها واعلاها صوتا هو البحث عن حضن دافيء في برد العراء الذي يحيط بنا نتيجة انحسار وضمور الذات القوميـة وهكذا يتورط الجميع في التفتـيش عـن جماعـة أوليـة أو مرجعية تكون الاصل والملاذ معا، فيكـون التعصـب لهـا والعنف مع غيرها، بمثابة الثوب الذي يستر العري في خلاء العولمة..!!

* الثقافة هي الكل المعقد المتشابك مـن أسـاليب الحياة الانسانية، المادية وغير الماديـة معـا، أي الفكريـة والمعنوية والروحية التي ابتدرها الانسان واكتسبها وسـيظل يكتسبها عبر رحلة الحياة.

وللثقافة جانبان، روحي أي غير مادي وهـو الـذي يضم القيم والمعايير والنظم والمعتقدات والتقاليد، أما الجانب المادي فهو التجسيد الملموس للجانب الروحي أو المعنـوي

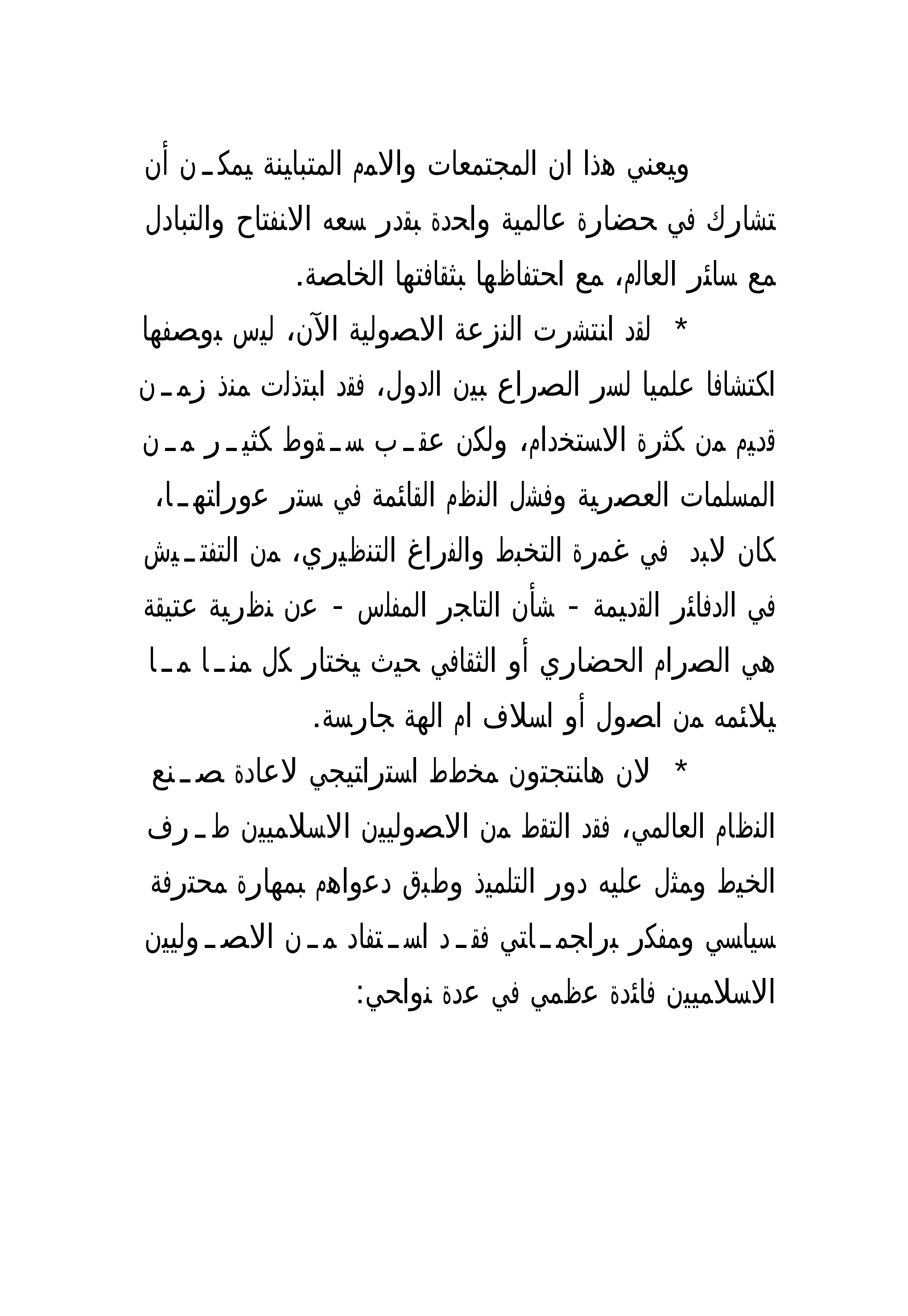


فيما يصاغ من ادوات ومنشآت وما اليها وهـو مـا يسـمه حضارة.

وتتفاعل ثقافة المجتمعات المختلفة علي كلا الجانبين المادي والروحي، ومن التفاعل تنشأ ثقافات جديدة تتعاقـب علي كل مجتمع أو أمة لان الثقافة ليست ثابتة جامدة، فليس لكل مجتمع أو أمة ثقافة واحدة لاتتغير علي مر العصور.

* كانت الحضارات - أي الجانب المادي من الثقافة - جزءا لصيقا بها، فكان من الممكـن تمـايز الحضـارات بتمايز المجتمعات في العصور القديمة أو الوسـطي ولكـن عندما توسع التبادل بين المجتمعات في الجانب المادي مـن خلال زيادة سبل التنقل ازداد استقلال الحضارة عن الجانـب الروحي الذي ظل فيه التبادل بـين المجتمعـات محـدودا، واصبحت الثقافة عنوانا يختص بهذا الجانـب الروحـي أو المعنوي، وعندئذ اشتركت ثقافات متعددة في حضارة واحدة بعينها.

ومن ثم انفصلت الحضارة عن الجذورالثقافية التـي نشأت فيها، وهكذا استغل الجانب الروحي أخيـرا بمفهـوم الثقافة.



ويعني هذا ان المجتمعات والامم المتباينة يمكـن أن تشارك في حضارة عالمية واحدة بقدر سعه الانفتاح والتبادل مع سائر العالم، مع احتفاظها بثقافتها الخاصة.

* لقد انتشرت النزعة الاصولية الآن، ليس بوصفها اكتشافا علميا لسر الصراع بين الدول، فقد ابتذلت منذ زمـن قديم من كثرة الاستخدام، ولكن عقـب سـقوط كثيـر مـن المسلمات العصرية وفشل النظم القائمة في ستر عوراتهـا، كان لابد في غمرة التخبط والفراغ التنظيري، من التفتـيش في الدفائر القديمة - شأن التاجر المفلس - عن نظرية عتيقة هي الصرام الحضاري أو الثقافي حيث يختار كل منـا مـا يلائمه من اصول أو اسلاف ام الهة جارسة.

* لان هانتجتون مخطط استراتيجي لاعادة صـنع النظام العالمي، فقد التقط من الاصوليين الاسلاميين طـرف الخيط ومثل عليه دور التلميذ وطبق دعواهم بمهارة محترفة سياسي ومفكر براجمـاتي فقـد اسـتفاد مـن الاصـوليين الاسلاميين فائدة عظمي في عدة نواحي:

١ -تخدم فكرته عن صدام الحضارات في تشـجيع الاصوليين الاسلاميين الذين تطوعوا لضرب اقتصاد بلادهم أو اضعافه.

٢ -يؤكد أنشطة الاصـوليين الاسـلاميين صـدق نظريته، فتعمق الكراهية بين الغرب والاسلام

٣ -تعبئة الرأي العام الاوروبي والامريكـي ضـد الاسلام، بذات التوجهات التـي اسـتخدمت فـي العصـور الوسطي لاثارة حروب صليبية جديدة، وليكون الاسلام هـو البديل كامبراطورية الشر - عن الشـيوعية والـذي انتهـي مفعوله كغراء يوحد جماهير بسطاء المقهورين في الغرب..

$ فالكتاب - في مجمله - تذكير ملح لنشر وتثبيـت الكراهية بين البشر، فنظرية صدام الحضارات ليست اكثـر من ثوب قشيب لفكرة أو ممارسة مقوله عتيقة هي فرق تسر.

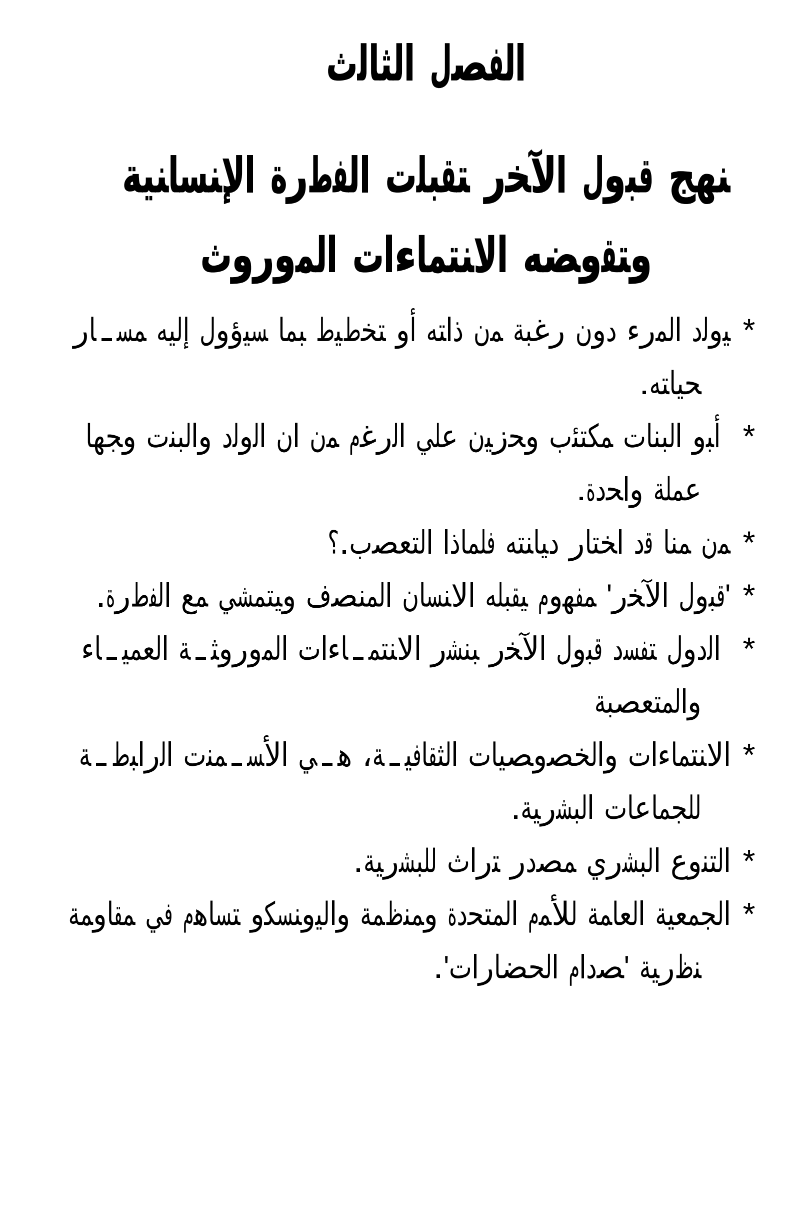
***

ان كل الشواهد والصراعات والحـروب تؤكـد ان التوجه الرئيسي للسياسة الامريكية نابع مـن فكـر نظريـة صراع الحضارات وهو الامر الذي جعلنا نستطرد في سرد فقرات كثيرة من دراسة صموئيل هانتجنون المنشورة عـام

١٩٩٣ وكذلك الكتاب المنشور عام ١٩٩٦ والمتـرجم إلـي العربية عام ١٩٩٨، ثم قدمنا فقرات من نقد النظرية الـذي كتبه د. صلاح قنصوه في تقديمه للترجمة العربية ولكن يظل السؤال مطروحا هل يستسلم العالم لهذا الفكر الذي اكتسـب قبولا عاما لدي مواقع اتخاذ القرار حتي في بعـض الـدول التي تعاني من الحروب الاهلية مما يعني ان بعضهم قد وقع في شباك تلك النظرية.

ومن هنا كانت أهمية ان يتضافر اهـل الفكـر فـي مواقع مختلفة من العالم ووفق رؤى لثقافات مختلفة، فـي أن يقدموا البديل أو البدائل، وسيجد القاريء في الفصل الرابـع المفاهيم والنهج الفلسفي والانساني الذي ترتكز عليـه ثقافـة وفكر قبول الآخر ثم توضح الأسباب التي لاتجعل هذا التوجه سائدا علي الرغم من ان الفطرة الإنسانية الخيرة والمنصـفة تنحاز لقبول الآخر، ولكن قناعة البشر بالرؤي الجديدة تأخـذ وقتا حتي يقنع النخبة أولا ثم الكافة بعد ذلك.

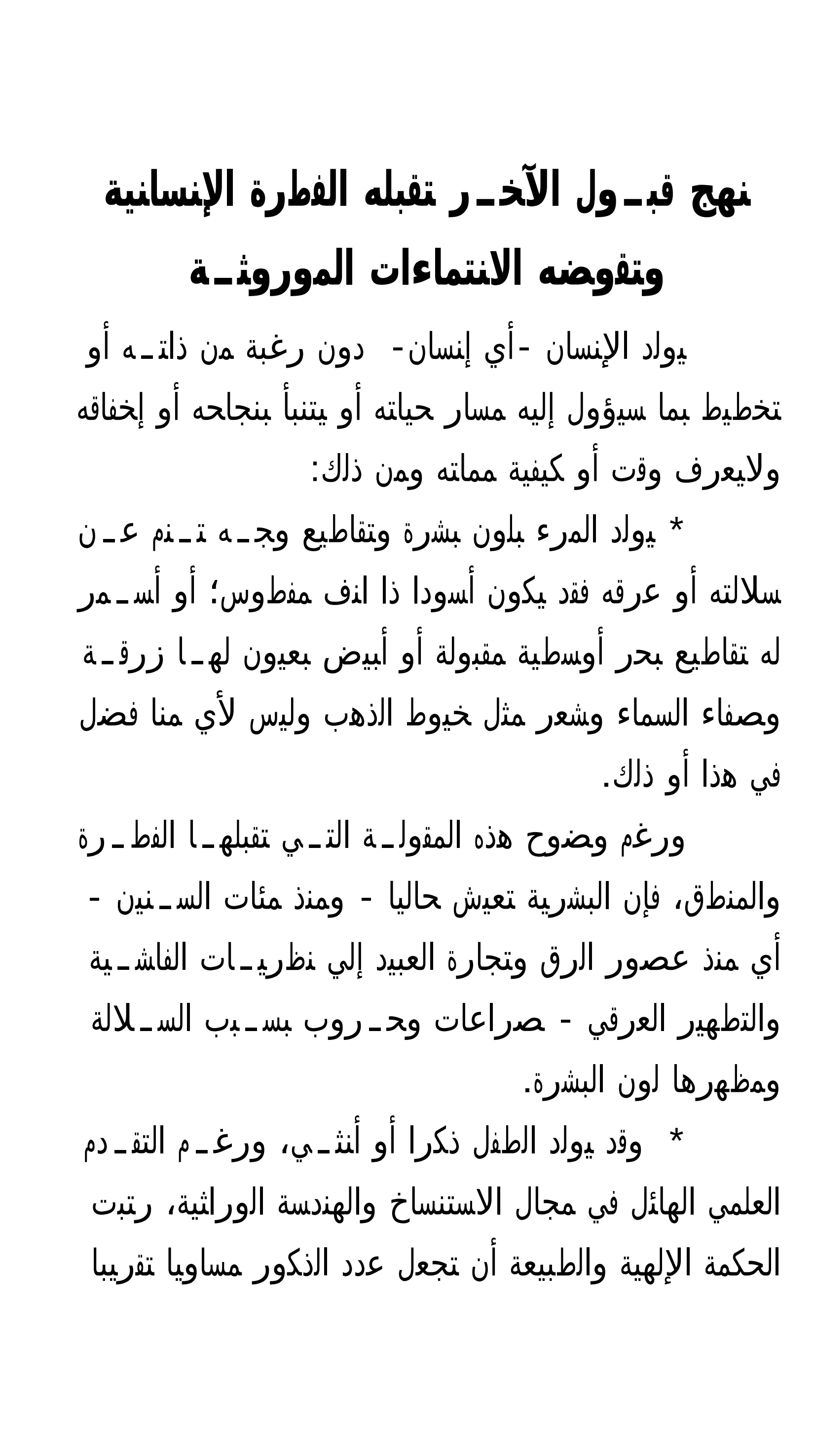
وهو ما جعل الجمعية العامة للأمم المتحدة تخصص سنة ٢٠٠١ للحوار بين الحضارات (نص تقريـر الأمـين العام في ملاحق نهاية الكتاب).



الفصل الثالث

نهج قبول الآخر تقبلات الفطرة الإنسانية وتقوضه الانتماءات الموروث

* يولد المرء دون رغبة من ذاته أو تخطيط بما سيؤول إليه مسـار حياته.
* أبو البنات مكتئب وحزين علي الرغم من ان الولد والبنت وجها عملة واحدة.
* من منا قد اختار ديانته فلماذا التعصب.؟
* 'قبول الآخر' مفهوم يقبله الانسان المنصف ويتمشي مع الفطرة.
* الدول تفسد قبول الآخر بنشر الانتمـاءات الموروثـة العميـاء والمتعصبة
* الانتماءات والخصوصيات الثقافيـة، هـي الأسـمنت الرابطـة للجماعات البشرية.
* التنوع البشري مصدر تراث للبشرية.
* الجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظمة واليونسكو تساهم في مقاومة نظرية 'صدام الحضارات'.



نهج قبـول الآخـر تقبله الفطرة الإنسانية وتقوضه الانتماءات الموروثـة

يولد الإنسان -أي إنسان- دون رغبة من ذاتـه أو تخطيط بما سيؤول إليه مسار حياته أو يتنبأ بنجاحه أو إخفاقه ولايعرف وقت أو كيفية مماته ومن ذلك:

* يولد المرء بلون بشرة وتقاطيع وجـه تـنم عـن سلالته أو عرقه فقد يكون أسودا ذا انف مفطوس؛ أو أسـمر له تقاطيع بحر أوسطية مقبولة أو أبيض بعيون لهـا زرقـة وصفاء السماء وشعر مثل خيوط الذهب وليس لأي منا فضل في هذا أو ذاك.

ورغم وضوح هذه المقولـة التـي تقبلهـا الفطـرة والمنطق، فإن البشرية تعيش حاليا - ومنذ مئات السـنين - أي منذ عصور الرق وتجارة العبيد إلي نظريـات الفاشـية والتطهير العرقي - صراعات وحـروب بسـبب السـلالة ومظهرها لون البشرة.

* وقد يولد الطفل ذكرا أو أنثـي، ورغـم التقـدم العلمي الهائل في مجال الاستنساخ والهندسة الوراثية، رتبت الحكمة الإلهية والطبيعة أن تجعل عدد الذكور مساويا تقريبا

لعدد الإناث في كل قرية وقطر وقارة، وخلال رحلة الحياة - وفي كثير من دول العالم حتي المتقدم منها- تكتشف المـرأة أن فرصتها في الحياة والوظائف وأماكن اتخاذ القرار أقل من الرجل، وتنشأ حركات تطالب بحقوق متساوية مع الرجـل، علي الرغم من انها تتمتع -عادة- بالاعفاء من التجنيـد أي تتجنب مخاطر الحرب والأعمال الشاقة، وأحيانا نسمع عـن أن رب أسرة قد أصابه الحزن وسوء الحظ لان 'خلفته' كلها بنات ويتولد لديه إحساس بأنه أقل حظا في الحيـاة، وربمـا يتزوج بأخري ليكون له ولد..!

وليس لأبو البنات فضل أو مدعاة للاكتئاب، فالولـد والبنت وجها عملة واحدة، وليس للحياة طعم أو اسـتمرارية بدون أي منهما.

* وقد يولد المرء في وطن متحضـر لـه وزنـه العالمي فيعطيه ذلك ميزة الحصول علي جواز سفر يفتح لـه كل الأبواب الموصدة، أما مواطنو دولة أخري فقيـرة فـإن شبابها يناضل من أجل الحصول علي تأشيرة دخول لـدول قريبة ثرية لعله يهرب من طابور العاطلين الطويل، فيحقـق ذاته بالعمل والثراء الشريف، وقد يولد طفل ثالث في معسكر

لاجئين فلا يحصل علي جواز سفر أصلا، ويمـنح مجـرد ورقة تثبت انه بدون جنسية، فيتعـالي الأول علـي الثـاني والثالث، ويحاول الأخير النضال بالعلم والتفوق ليقبل للهجرة لدولة اخري تمكنه من الحصول علي 'جواز سفر'. وليس من سبب منطقي للتفرقة بين هذا وذاك، لتوافر فرص غير عادلة بين البشر ونكتفي بمقولات غيبية غير مقنعة!!

* وقد يولد إنسان من أسرة ثرية لها وضع اجتماعي مرتفع، وتسخر الثروة والنفوذ لكي يحصل الطفل علي أحسن فرص في التعليم ثم الوظائف والرفاهية، بينما يولد آخر من أسرة فقيرة، ويناضل أبوه لإعطائه فرص تعليم حرم هو ذاته منها، لعل الابن من خلال التعليم يتخطي خط الفقـر، وقـد يتغير الوضع الطبقي والاجتماعي إذا كان الطفـل موهوبـا وذكيا، وتسمي الماركسية هذه الظاهرة بالصـراع الطبقـي، لانه يولد لدي الفقير 'البروليتاري الرغبة في تخطي طبقتـه ويسمونه علماء الانثروبولوجيا بـالحراك المجتمعي وعندما تصبح الظاهرة منتشرة تتحول لتولد مشاعر جماعية تتكاتف لاختراق حاجز الفقر أو الحرمان من التعليم جماعيا وهو أمر أشرنا إليه في الفصل الأول كمحرك للتاريخ.

* وحتي اسم الإنسان ولقبه -ويصير مـع الـزمن جزءا من ذاته- لم يختره أي منا، وقد يكون اسما لطيفا خفيفا له نغم ويسهل حفظه، وقد يكون اسما مركبا معقدا وعليه أن يتعايش معه علي الرغم من إدراكه أنه يعوق حركتـه فـي المجتمع عند التقدم لوظائف، ونادرا ما يقبل الـبعض علـي تغيير اسمه بعد فوات الأوان.

* ولا يختار أي منا الحقبة الزمنية التي سيعاصرنا، ففي بعض الاوطان يتصادف أن يعيش جيل زمن حـرب أو أوبئة أو أزمات اقتصادية وبطالة، وقد يولد المرء فـي ذات الوطن والموقع (ريفي أو حضـر) ولكنـه زمـن رفاهيـة ونجاحات وطنية أو ارتفاع أسعار البترول والنفط.

إن أحدا منا لم يختر الحقبة التـي سيقضـيها علـي الأرض ولا في أي ارض سيولد أو في أي أرض يموت.

وعلي سبيل المثال، لقد ولدت عام ١٩٢٤، في مصر ومن قراءاتي لتاريخ مصر تمنيت لو كان مولدي قبل ذلـك بعشر سنوات (مثلا) حتي أتذوق بشكل أوسع وأكبـر طعـم الحركة الوطنية المصرية وكم كنت أتمني -لو كـان الأمـر بيدي- أن أعاصر سعد زغلول وحركة الانصهار الـوطني

التي جلبت استقلالا جزئيـا مبكـرا لمصـر عـام ١٩٢٢، وكثيرون سعداء بأنهم عاصروا حقبة الناصـرية أو عاشـوا احداث حرب أكتوبر ١٩٧٣، وآخرون يجترون العلقم كلمـا تذكروا الأيام الستة لحرب حزيران عام ١٩٦٧..؟!!

* وهناك عشرات العوامل الأخري، ربما كان فـي مقدمتها الانتماء إلي الدين، فهذا يهودي يزهو بأنـه ضـمن 'شعب ا المختار'، وذاك مسلم ينتمي 'لخير أمـة أخرجـت للناس، دون ان يدرك هذا الشخص أو ذاك، انه فـي واقـع الامر، لم يختر ديانته أو مذهبه إلا في أحوال نادرة لا يقاس عليها ومن ثم فإن كل الاديان تنادي بشكل أو بآخر علـي أن لا فضل ليهودي علي مسلم أو مسيحي إلا بالتقوي أي فعـل الخير.

***

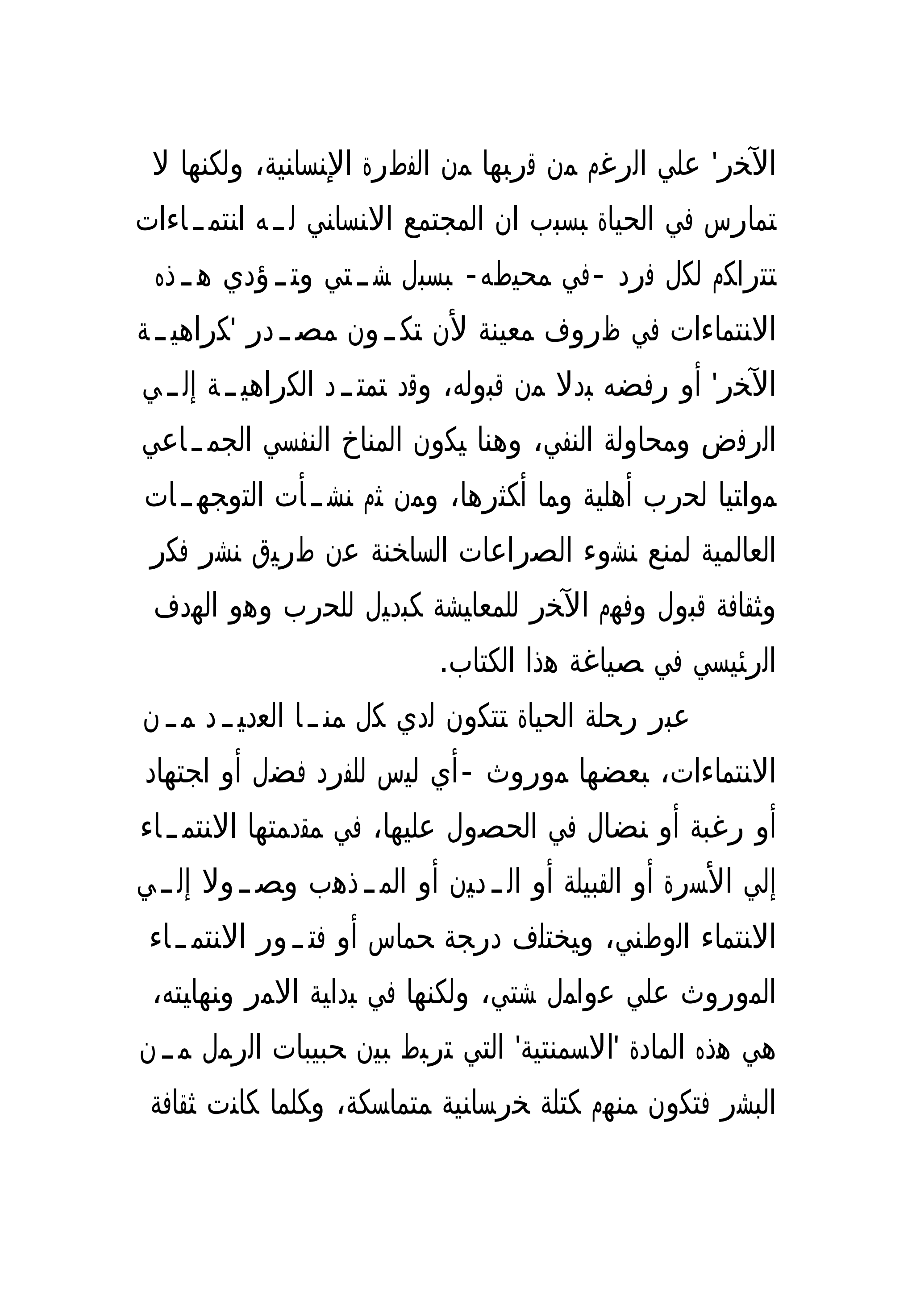
هذه مجرد أمثلة قليلة، لعشـرات مـن الخصـائص والتمايزات والاختلاطات بين البشر، ليس لإنسان فضل فـي ان يتمتع بها او لآخر في ان يقهر بسببها، ومـن ثـم فـإن 'الفطرة' تدعونا لان نقبل بعضنا بعضا كما نحن..

كما سبق ان شرحت في الفصول السابقة كيـف ان ثقافة وفكر ومفاهيم 'قبول الآخر' ينبغي ان تقدم للعامة لانهـا تتفق مع الفطرة الإنسانية ويقبلها الإنسان اذا كـان منصـفا ومجردا عن المصالح والعقد النفسية والهوي..!!

فالمشاهد هو ان أي انسان سوي 'قابل للآخر'، مـن المفترض فيه ان يكون أولا قابلا لنفسه ففاقد الشئ لا يعطيه، فالعديد من البشر -لأسباب نفسية أو مجتمعية أو شخصية - ليس هذا موضعها- يكون في حالة غضب أو نكد أو حـزن أو انطواء مستمر بسبب انه لا يتمتع بهدوء وتوازن نفسـي، حتي يصير رافضا حتي لنفسه، وفي الأغلب الأعم، يكـون رافضا للآخرين حتي وان كانوا منتمين لـذات الأسـرة أو الوطن أو الديانة وهو أمر يدرسه المتخصصون فـي علـم النفس وكيفية تفسير أو تصحيح السلوك الانساني الفردي.

منشأ الكراهية الجماعية:

ومن الناحية العملية والمشاهد علي الساحة السياسية داخل الوطن الواحد أو بين الاعراق والحضارات والاديـان في اوطان مختلفة، وما نسمعه كل يوم من أخبار الحـروب الأهلية أو الصراعات الطائفية، كلها تؤكد أن نظرية 'قبـول



الآخر' علي الرغم من قربها من الفطرة الإنسانية، ولكنها لا تمارس في الحياة بسبب ان المجتمع الانساني لـه انتمـاءات تتراكم لكل فرد -في محيطه- بسبل شـتي وتـؤدي هـذه الانتماءات في ظروف معينة لأن تكـون مصـدر 'كراهيـة الآخر' أو رفضه بدلا من قبوله، وقد تمتـد الكراهيـة إلـي الرفض ومحاولة النفي، وهنا يكون المناخ النفسي الجمـاعي مواتيا لحرب أهلية وما أكثرها، ومن ثم نشـأت التوجهـات العالمية لمنع نشوء الصراعات الساخنة عن طريق نشر فكر وثقافة قبول وفهم الآخر للمعايشة كبديل للحرب وهو الهدف الرئيسي في صياغة هذا الكتاب.

عبر رحلة الحياة تتكون لدي كل منـا العديـد مـن الانتماءات، بعضها موروث -أي ليس للفرد فضل أو اجتهاد أو رغبة أو نضال في الحصول عليها، في مقدمتها الانتمـاء إلي الأسرة أو القبيلة أو الـدين أو المـذهب وصـولا إلـي الانتماء الوطني، ويختلف درجة حماس أو فتـور الانتمـاء الموروث علي عوامل شتي، ولكنها في بداية الامر ونهايته، هي هذه المادة 'الاسمنتية' التي تربط بين حبيبات الرمل مـن البشر فتكون منهم كتلة خرسانية متماسكة، وكلما كانت ثقافة

هذا الانتماء مزدهرة ومنتعشة سياسيا واقتصاديا كلما كانـت قوة التماسك بين الحبيبات أقوي وتنتج نوعية خرسانة عاليـة الجودة، أي مجتمعا متماسكا غير مفكك.

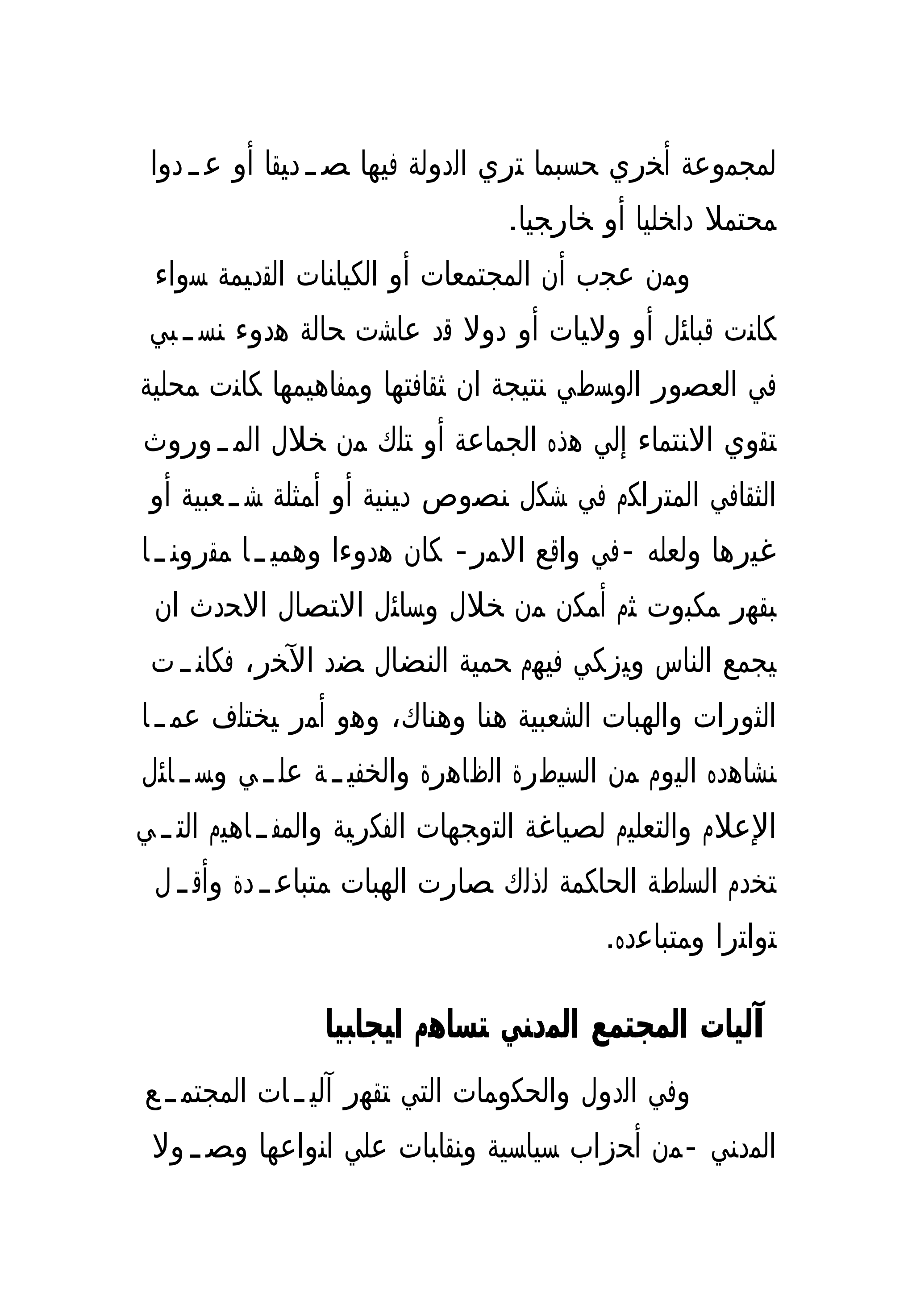
وقد يزيد من قوة التماسك، احساس الجماعـة بـأن هناك خطرا عليها من جماعة اخري ولذا فلا يقتصر الأمـر علي تقوية انتماء الجماعة الداخلي (الـوطني أو الـديني أو القبلي أو غيرها) وانما تكون الدعوة لكراهية الانتماء الآخر لجماعة مختلفة 'عنا'، فتظهر عبارة نحن وهم' وهذه العبـارة هي البداية لرفض الآخر المختلف عنا في السلالة أو الدين أو الوطن أو غيرها.

وهذه العملية أي التماسك من خلال القبول أو توليـد الدفء الاجتماعي تكون عملا إيجابيا وصـحيا مـن خـلال حماس وزيادة الاعتزاز بالانتماء الموروث بأدبيات وثقافـة توفر الأرضية الفكرية للترابط، وهي غالبا كتـب 'التفسـير الديني' أو غيرها وهو أمر لا غبار عليه ولكن الجانب السلبي هو عندما يظهر فكر يعادي أو 'يكفر' الانتماء 'الآخر' لكـي يقوي 'إيمان' الجماعة بفكرها، وهو ما قد يؤدي إلي تصـاعد الصراعات بين الجماعات العرقية أو الدينية المختلفة ومـن

هنا جاء مفهوم ان الانتماءات الموروثة غالبـا مـا تكـون متعصبة أو 'غيبية' وفي عالمنا العربي يكون السب والشتيمة مكروها وربما يعاقب القانون عليها إذا كان الازدراء لـلأب أو الأم أي إهانة الانتماء الأسري وأحيانا يكون بسبب سـب الدين وهو انتماء موروث أيضا.

وفي المقابل هناك انتماءات مكتسبة وهي بشكل عام أرقي من تلك الموروثة، بل لعلها ترقق الذوق وترفـع مـن مشاعر الإنسان خصوصا إذا توجهت إلي منـاطق الثقافـة الرفيعة، مثل الانتماء إلي فريق يمارس الموسيقي الكلاسـيك أو أنصار المسرح أو جماعة الفنانين التشكيليين أو ممارسـة رياضة بعينها.

وإضافة إلي عامل الانتماءات الموروثة والمكتسـبة والتي تقوض نهج قبول الآخر هناك ظاهرة تسود الدول التي بها نسبة عالية من الأمية، فمعظم حكومات هذه الدول تفرض سيطرتها وتحتكر وسائل الإعلام ليكون في قبضتها تشـكيل الوجدان الوطني أو المحلي ويوجه الاعلام إما ليدعم قبـول الآخر بإعتباره حليفا أو مسـاندا، وقـد يغـذي الكراهيـة

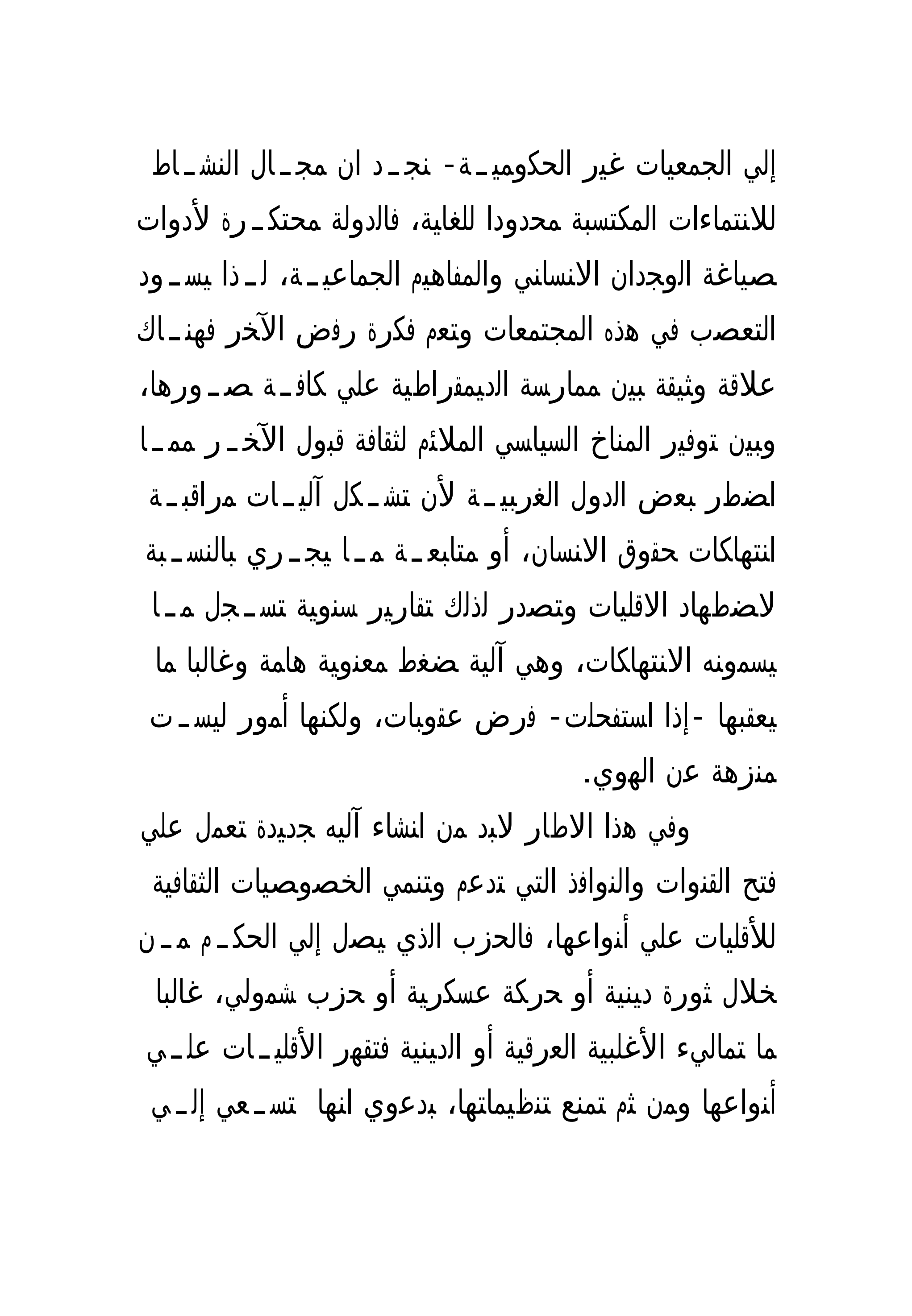


لمجموعة أخري حسبما تري الدولة فيها صديقا أو عدوا محتملا داخليا أو خارجيا.

ومن عجب أن المجتمعات أو الكيانات القديمة سواء كانت قبائل أو ولايات أو دولا قد عاشت حالة هدوء نسبي في العصور الوسطي نتيجة ان ثقافتها ومفاهيمها كانت محلية تقوي الانتماء إلي هذه الجماعة أو تلك من خلال الموروث الثقافي المتراكم في شكل نصوص دينية أو أمثلة شعبية أو غيرها ولعله -في واقع الامر- كان هدوءا وهميا مقرونا بقهر مكبوت ثم أمكن من خلال وسائل الاتصال الاحدث ان يجمع الناس ويزكي فيهم حمية النضال ضد الآخر، فكانت الثورات والهبات الشعبية هنا وهناك، وهو أمر يختلف عما نشاهده اليوم من السيطرة الظاهرة والخفية علي وسائل الإعلام والتعليم لصياغة التوجهات الفكرية والمفاهيم التي تخدم السلطة الحاكمة لذلك صارت الهبات متباعدة وأقل تواترا ومتباعده.

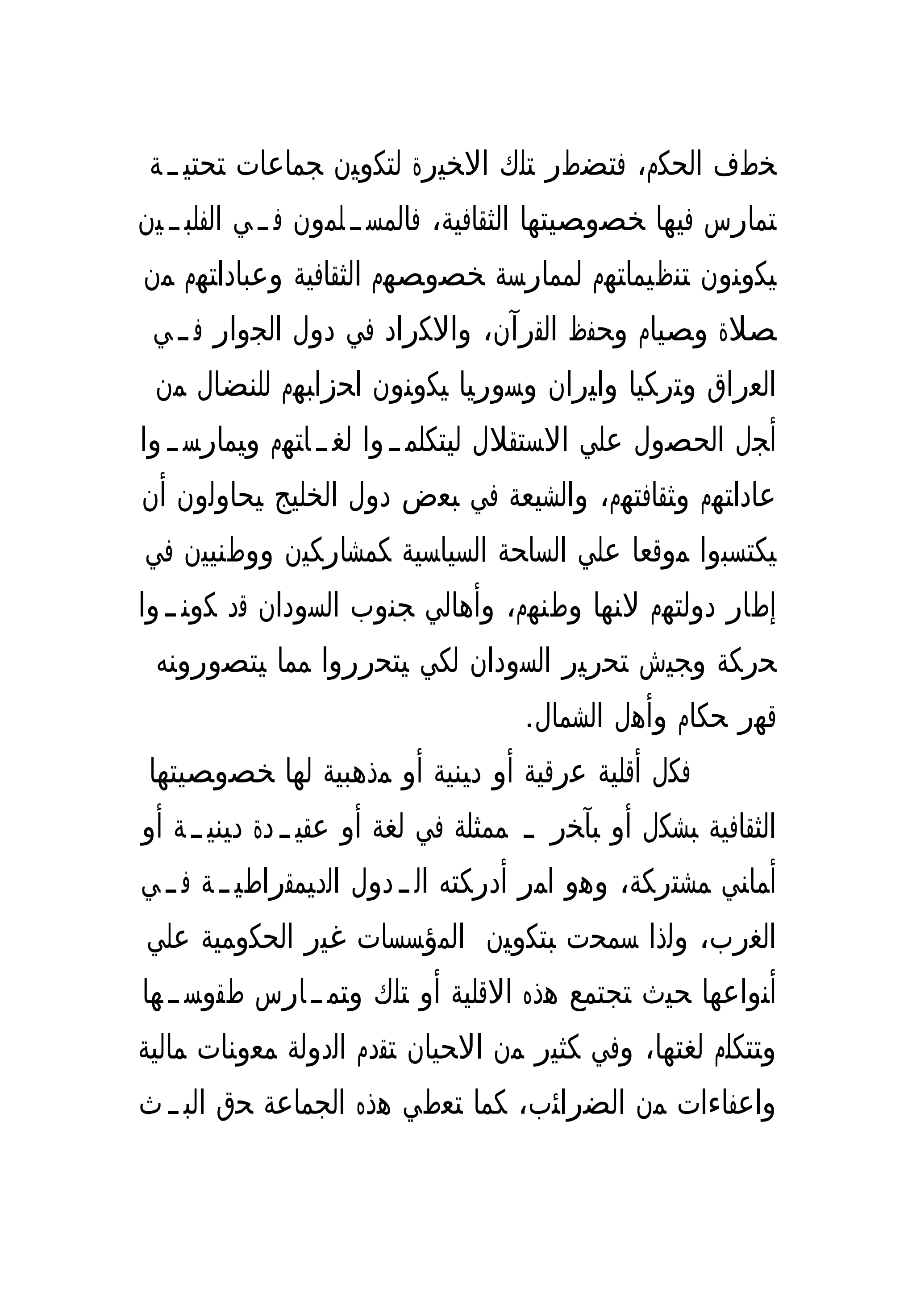
آليات المجتمع المدني تساهم ايجابيا

وفي الدول والحكومات التي تقهر آليات المجتمع المدني -من أحزاب سياسية ونقابات علي انواعها وصولا



إلي الجمعيات غير الحكوميـة- نجـد ان مجـال النشـاط للانتماءات المكتسبة محدودا للغاية، فالدولة محتكـرة لأدوات صياغة الوجدان الانساني والمفاهيم الجماعيـة، لـذا يسـود التعصب في هذه المجتمعات وتعم فكرة رفض الآخر فهنـاك علاقة وثيقة بين ممارسة الديمقراطية علي كافـة صـورها، وبين توفير المناخ السياسي الملائم لثقافة قبول الآخـر ممـا اضطر بعض الدول الغربيـة لأن تشـكل آليـات مراقبـة انتهاكات حقوق الانسان، أو متابعـة مـا يجـري بالنسـبة لاضطهاد الاقليات وتصدر لذلك تقارير سنوية تسـجل مـا يسمونه الانتهاكات، وهي آلية ضغط معنوية هامة وغالبا ما يعقبها -إذا استفحلت- فرض عقوبات، ولكنها أمور ليسـت منزهة عن الهوي.

وفي هذا الاطار لابد من انشاء آليه جديدة تعمل علي فتح القنوات والنوافذ التي تدعم وتنمي الخصوصيات الثقافية للأقليات علي أنواعها، فالحزب الذي يصل إلي الحكـم مـن خلال ثورة دينية أو حركة عسكرية أو حزب شمولي، غالبا ما تماليء الأغلبية العرقية أو الدينية فتقهر الأقليـات علـي أنواعها ومن ثم تمنع تنظيماتها، بدعوي انها تسـعي إلـي



خطف الحكم، فتضطر تلك الاخيرة لتكوين جماعات تحتيـة تمارس فيها خصوصيتها الثقافية، فالمسـلمون فـي الفلبـين يكونون تنظيماتهم لممارسة خصوصهم الثقافية وعباداتهم من صلاة وصيام وحفظ القرآن، والاكراد في دول الجوار فـي العراق وتركيا وايران وسوريا يكونون احزابهم للنضال من أجل الحصول علي الاستقلال ليتكلمـوا لغـاتهم ويمارسـوا عاداتهم وثقافتهم، والشيعة في بعض دول الخليج يحاولون أن يكتسبوا موقعا علي الساحة السياسية كمشاركين ووطنيين في إطار دولتهم لانها وطنهم، وأهالي جنوب السودان قد كونـوا حركة وجيش تحرير السودان لكي يتحرروا مما يتصورونه قهر حكام وأهل الشمال.

فكل أقلية عرقية أو دينية أو مذهبية لها خصوصيتها الثقافية بشكل أو بآخر ـ ممثلة في لغة أو عقيـدة دينيـة أو أماني مشتركة، وهو امر أدركته الـدول الديمقراطيـة فـي الغرب، ولذا سمحت بتكوين المؤسسات غير الحكومية علي أنواعها حيث تجتمع هذه الاقلية أو تلك وتمـارس طقوسـها وتتكلم لغتها، وفي كثير من الاحيان تقدم الدولة معونات مالية واعفاءات من الضرائب، كما تعطي هذه الجماعة حق البـث



الإذاعي أو التليفزيون لمدد قصيرة أو طويلة اسبوعيا حسب وزنها ونضالها والمناخ العام السائد ومن عجـب أن أقبـاط المهجر لهم حق في الاذاعة والتليفزيون في كندا وأسـتراليا وبعض الولايات في أمريكا، ولكـن خصوصـيتهم الثقافيـة مقهورة في ان تتواجد علي المستوي القومي العام في مصر.

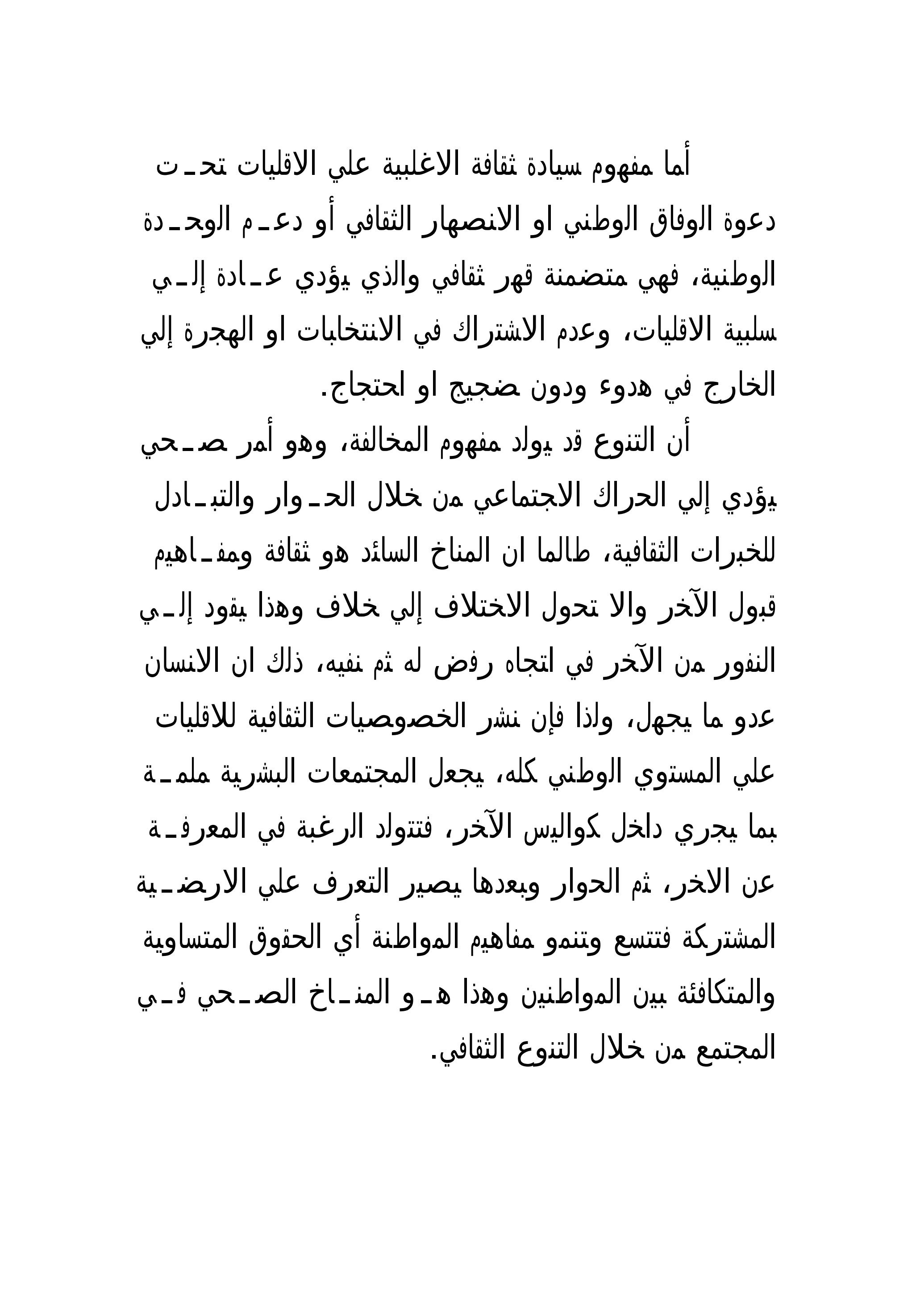
الخصوصيات الثقافية والتنوع البشري الخلاق

يتوهم البعض أن تقوية ودعم الخصوصيات الثقافيـة للأقليات قد يؤدي إلي تفكك المجتمـع بـدلا مـن وحدتـه، فيفرضون ثقافة الاغلبية علـي جميـع الاقليـات، بـدعوي الانصهار الثقافي الذي غالبا ما يتحول إلي نوع مـن القهـر الثقافي، ويتم ذلك باسم الوحدة الوطنية، وهو أمـر أدركتـه منظمات الأمم المتحدة، ففي يناير عام ١٩٨٨ اصدر خافيير بيريز ديكويار الأمين العام للأمم المتحـدة بالاشـتراك مـع فيدريكو مايور المدير العام لليونسكو، وقتها إعلانا بأن يكون العقد من ١٩٨٨ إلي عام ١٩٩٧ هو العقد العـالمي للتنميـة الثقافية، بعد ان تلاحظ ان مجهودات التنمية لم تنجح بالقـدر الكافي، لان أهمية العنصر البشري ــ ذاك المزيج المعقـد

من العلاقات والمعتقدات والقيم والدوافع الذي يكمن في قلب الثقافة - لم يقدر حق قدره في كثير من مشروعات التنمية.

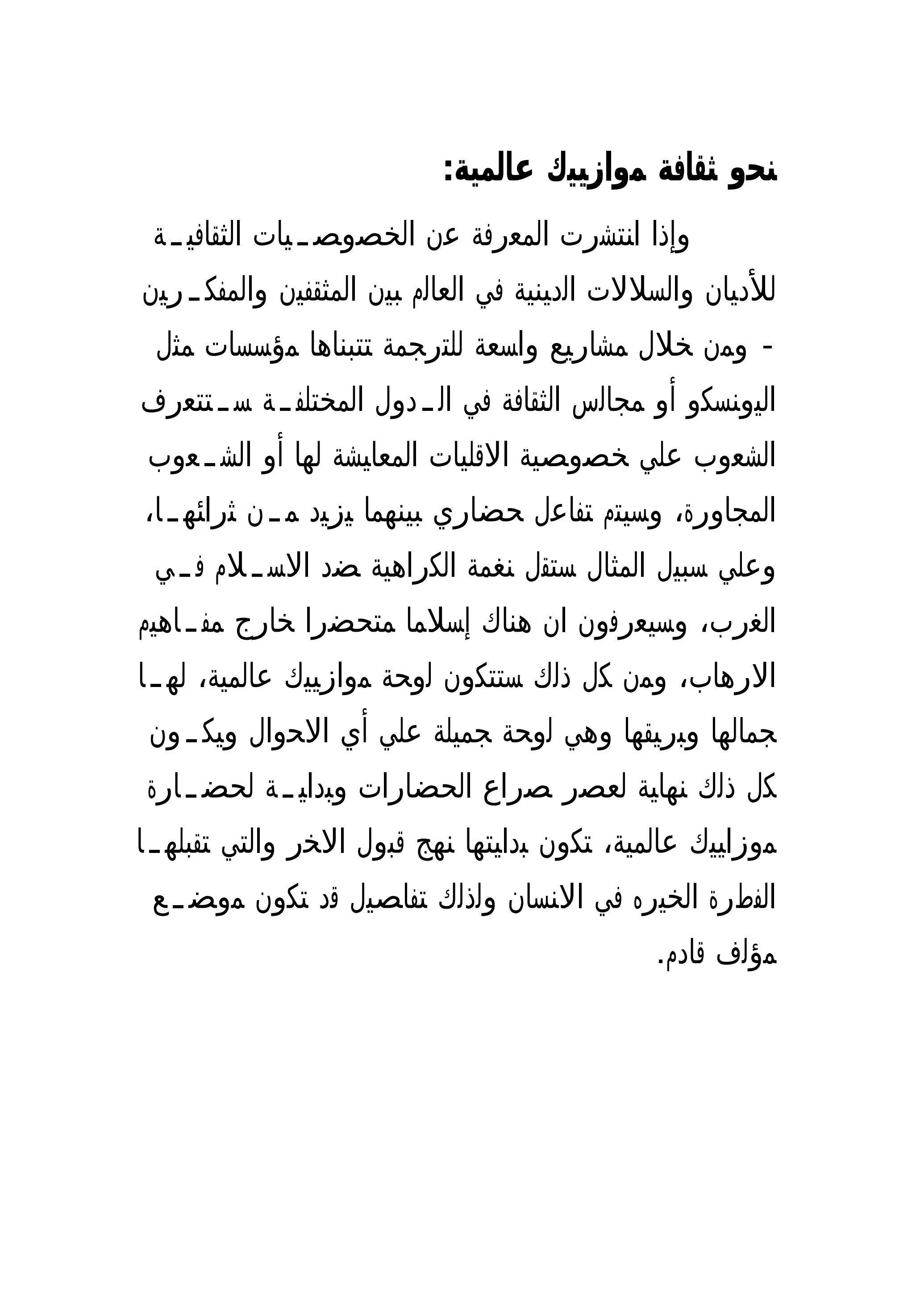
وخلال عام ١٩٩١ ، اتخذ المؤتمر العـام لمنظمـة اليونسكو قرارا يطالب فيه المدير العـام فيـدريكو مـايور بالتعاون مع الأمين العام للأمم المتحدة بانشاء لجنة عالميـة مستقلة تدرس قضيـ ـ ـ ـة الثقافة والتنمية، وفي نـوفمبر ١٩٩٢ صدر قرار مشترك من د.بطرس غالي وقـد صـار الامين العام للأمم المتحدة من جانب مع فيـدريكون مـايور المدير العام لليونسكو (والذي استمر من عام ١٩٧٧ حتـي عام ١٩٩٩) بتكليف خافيير بيرز ديكويـار برئاسـة هـذه اللجنة، حيث عكفت اللجنة المكونة من رئيسـها ومعـه ١٢ عضوا مختارين بعناية علي العمل الجاد عدة سنوات ثم كان ان أصدرت عام ١٩٩٥ تقريرها الرائـع بعنـوان تنوعنـا الخلاق وقد قام المجلس الاعلي للثقافة في مصر بترجمة هذا التقرير مع تطوير عنوانه قليلا ليكون اكثر وضـوحا وهـو التنوع البشري الخلاق وصدر ذلك التقرير البديع بالعربيـة عام ١٩٩٧.

وفي ذات المسار فإنني أضيف مفهوما ثقافيـا آخـر وهو ان الوحدة ممكنة وثرية من خـلال التنـوع بـاحترام الخصوصيات الثقافية، فلا يوجد تنوع أكثر من ذاك الموجود في مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية، وربما كان ذلـك ان سر قوتها كمجتمع -حتي صارت الدولة العظمي في العـالم. ان هذا الثراء في التنوع الثقافي والحضاري هو الذي جعـل منها بوتقة انصهار لمجمل للحضـارة الانسـانية تاريخيـا وجغرافيا، ويقوم نظامها كمجتمع علي احترام الخصوصيات الثقافية لكل السلالات: أبيض - أسود - أصفر - ولكل دين سماوي مسيحي - مسلم - يهودي ، بل وكل مذهب داخـل كل دين ولكل انتماء وطني أو ديني، فهناك علي سبيل المثال رابطة العرب الامريكية وهناك أقباط المهجـر الممارسـين لحقهم في استخدام الآليات والقنـوات الديمقراطيـة لطـرح مشاكلهم المحلية وربما كان اليهود كأقليـة دينيـة أول مـن هاجروا من أوروبا هربا من الفاشية في مرحلة الثلاثينـات واستفادوا مما هو متاح من آليات تكوين الجمعيات الأهليـة، وكونوا أقوي لوبي في أمريكا ساهم في إنشاء دولة اسرائيل.



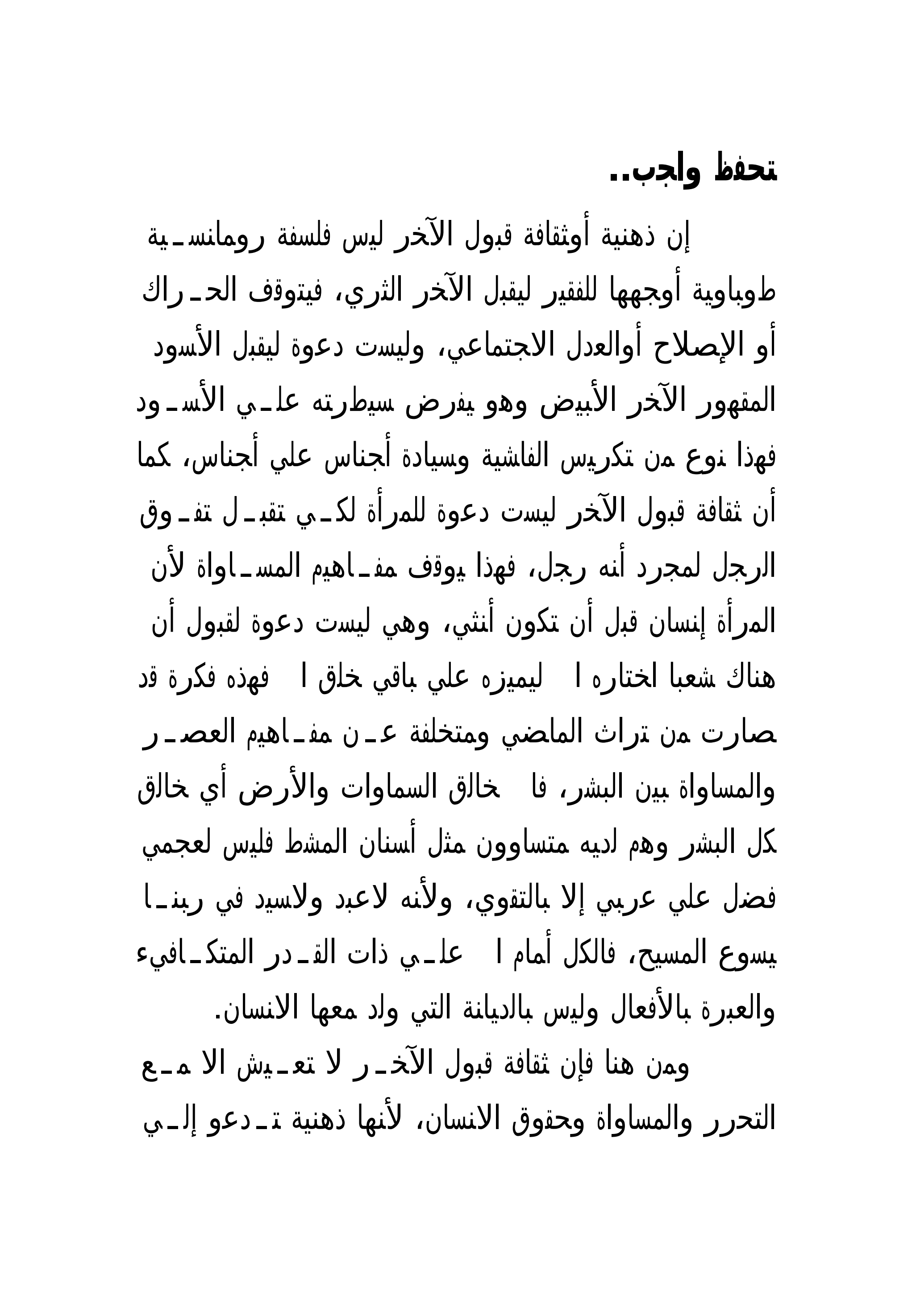
أما مفهوم سيادة ثقافة الاغلبية علي الاقليات تحـت دعوة الوفاق الوطني او الانصهار الثقافي أو دعـم الوحـدة الوطنية، فهي متضمنة قهر ثقافي والذي يؤدي عـادة إلـي سلبية الاقليات، وعدم الاشتراك في الانتخابات او الهجرة إلي الخارج في هدوء ودون ضجيج او احتجاج.

أن التنوع قد يولد مفهوم المخالفة، وهو أمر صـحي يؤدي إلي الحراك الاجتماعي من خلال الحـوار والتبـادل للخبرات الثقافية، طالما ان المناخ السائد هو ثقافة ومفـاهيم قبول الآخر والا تحول الاختلاف إلي خلاف وهذا يقود إلـي النفور من الآخر في اتجاه رفض له ثم نفيه، ذلك ان الانسان عدو ما يجهل، ولذا فإن نشر الخصوصيات الثقافية للاقليات علي المستوي الوطني كله، يجعل المجتمعات البشرية ملمـة بما يجري داخل كواليس الآخر، فتتولد الرغبة في المعرفـة عن الاخر، ثم الحوار وبعدها يصير التعرف علي الارضـية المشتركة فتتسع وتنمو مفاهيم المواطنة أي الحقوق المتساوية والمتكافئة بين المواطنين وهذا هـو المنـاخ الصـحي فـي المجتمع من خلال التنوع الثقافي.



نحو ثقافة موازييك عالمية:

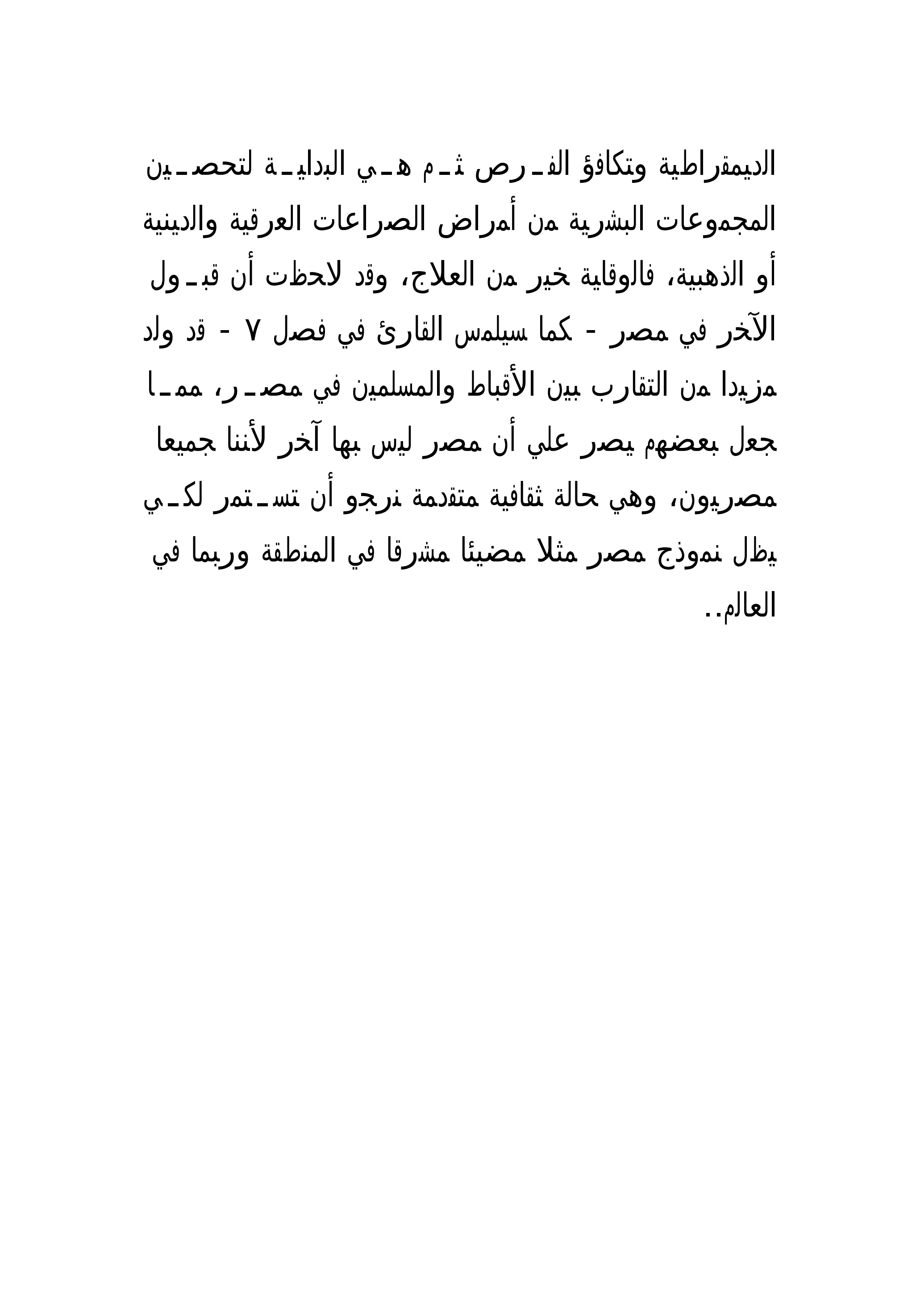
وإذا انتشرت المعرفة عن الخصوصـيات الثقافيـة للأديان والسلالات الدينية في العالم بين المثقفين والمفكـرين - ومن خلال مشاريع واسعة للترجمة تتبناها مؤسسات مثل اليونسكو أو مجالس الثقافة في الـدول المختلفـة سـتتعرف الشعوب علي خصوصية الاقليات المعايشة لها أو الشـعوب المجاورة، وسيتم تفاعل حضاري بينهما يزيد مـن ثرائهـا، وعلي سبيل المثال ستقل نغمة الكراهية ضد الاسـلام فـي الغرب، وسيعرفون ان هناك إسلاما متحضرا خارج مفـاهيم الارهاب، ومن كل ذلك ستتكون لوحة موازييك عالمية، لهـا جمالها وبريقها وهي لوحة جميلة علي أي الاحوال ويكـون كل ذلك نهاية لعصر صراع الحضارات وبدايـة لحضـارة موزاييك عالمية، تكون بدايتها نهج قبول الاخر والتي تقبلهـا الفطرة الخيره في الانسان ولذلك تفاصيل قد تكون موضـع مؤلف قادم.



تحفظ واجب..

إن ذهنية أوثقافة قبول الآخر ليس فلسفة رومانسـية طوباوية أوجهها للفقير ليقبل الآخر الثري، فيتوقف الحـراك أو الإصلاح أوالعدل الاجتماعي، وليست دعوة ليقبل الأسود المقهور الآخر الأبيض وهو يفرض سيطرته علـي الأسـود فهذا نوع من تكريس الفاشية وسيادة أجناس علي أجناس، كما أن ثقافة قبول الآخر ليست دعوة للمرأة لكـي تقبـل تفـوق الرجل لمجرد أنه رجل، فهذا يوقف مفـاهيم المسـاواة لأن المرأة إنسان قبل أن تكون أنثي، وهي ليست دعوة لقبول أن هناك شعبا اختاره ا ليميزه علي باقي خلق ا فهذه فكرة قد صارت من تراث الماضي ومتخلفة عـن مفـاهيم العصـر والمساواة بين البشر، فا خالق السماوات والأرض أي خالق كل البشر وهم لديه متساوون مثل أسنان المشط فليس لعجمي فضل علي عربي إلا بالتقوي، ولأنه لاعبد ولاسيد في ربنـا يسوع المسيح، فالكل أمام ا علـي ذات القـدر المتكـافيء والعبرة بالأفعال وليس بالديانة التي ولد معها الانسان.

ومن هنا فإن ثقافة قبول الآخـر لا تعـيش الا مـع التحرر والمساواة وحقوق الانسان، لأنها ذهنية تـدعو إلـي



الديمقراطية وتكافؤ الفـرص ثـم هـي البدايـة لتحصـين المجموعات البشرية من أمراض الصراعات العرقية والدينية أو الذهبية، فالوقاية خير من العلاج، وقد لاحظت أن قبـول الآخر في مصر - كما سيلمس القارئ في فصل ٧ - قد ولد مزيدا من التقارب بين الأقباط والمسلمين في مصـر، ممـا جعل بعضهم يصر علي أن مصر ليس بها آخر لأننا جميعا مصريون، وهي حالة ثقافية متقدمة نرجو أن تسـتمر لكـي يظل نموذج مصر مثلا مضيئا مشرقا في المنطقة وربما في العالم..

الفصل الرابع

ثقافـة الآخـر بين الفـردي والجماعـي

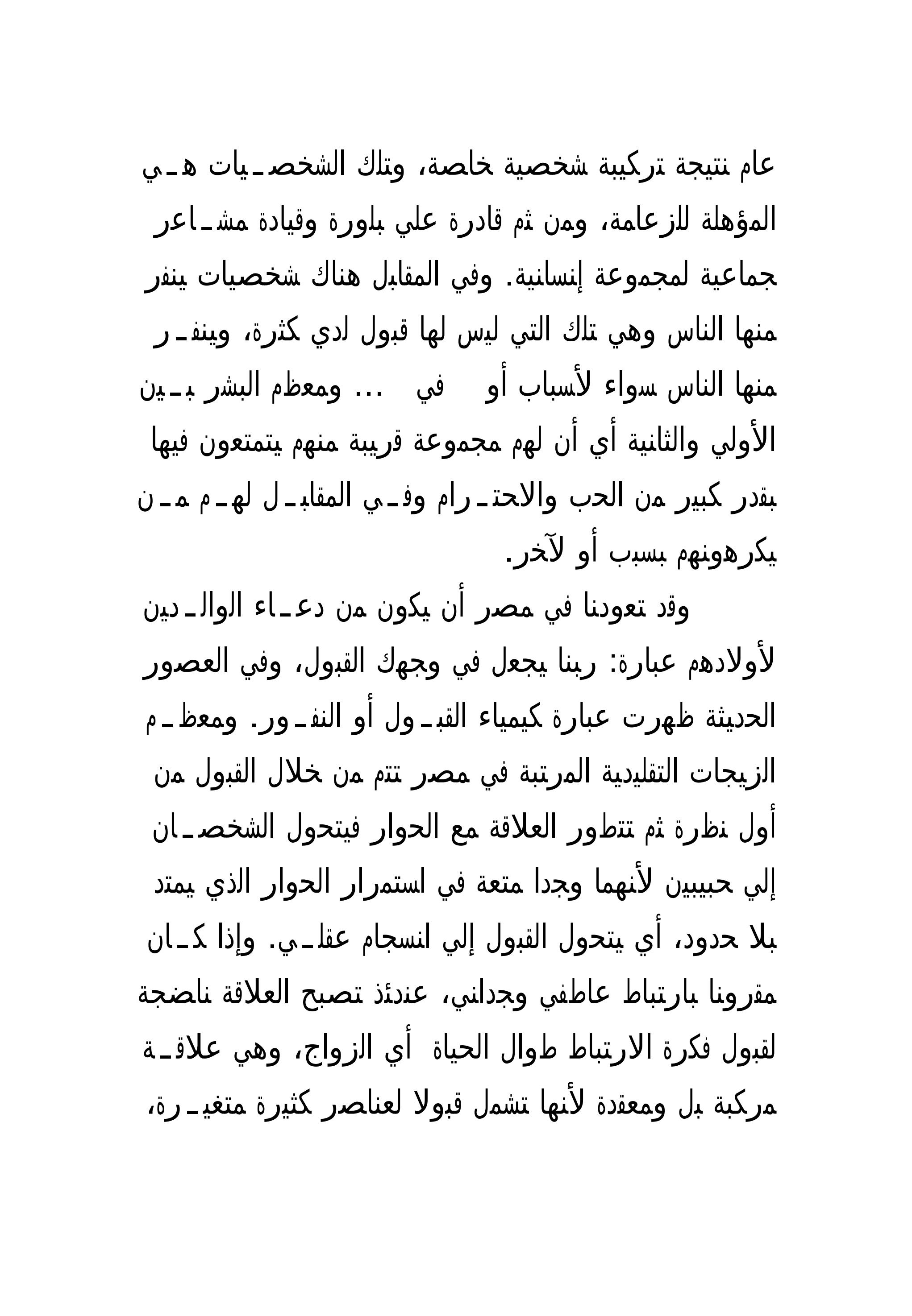
* الإنسان كائن مجتمعي مركب يمكن فهم بعـض جوانـب تركيبتـه. ولاتزال جوانب أخري غامضة.
* الإسلام لن يقهر الغرب.. كما أن الغرب الرأسمالي لن يقهر الإسلام. فليس من سبيل إلا المعايشة.
* تعلمت من زميل الدراسة الصيني فـي أسـكتلندا أن الأديـان غيـر السماوية - أيضا - لها قيم في غاية السمو....!
* لون بشرتي الأسمر تسبب لي في مشكلات لكنني الآن أتابع بإعجاب الأغاني عن السمر..
* تشكيل الوجدان صناعة ثقيلة لكن هذا لايمنع من التأثير الجزئي مـن خلال مصانع ثقافية صغيرة .
* في مصر - كما في الاتحاد السوفييتي (السابق) - لعب غياب عملية التصويب الذاتي دورا في انهيار الاشتراكية.
* نظرية القطاعات الثلاثة في أمريكا وأهمية دور العمل التطوعي فـي القطاع الأهلي الذي لايهدف للربح. تحقق التـوازن المجتمعـي؛ الثلاثي القطاعات!
* تفرق أنصار حقوق الإنسان شيعا في مصر. فضاعت فرصة خلـق حركة وطنية شعبية لحقوق الإنسان.
* نشر الثقافة العلمية ومفاهيم سيادة العقل يخلق المناخ الثقـافي لقبـول الآخر.

ثقافة الآخر بين الفردي والجماعي

عن القبول الشخصي والقبول الجماعي:

الإنسان كائن مجتمعي لايستطيع أن يعيش بمفـرده، ولذا فإنه يندمج مع من حوله. وبقدر ما تمتد وتتسع صـلاته بأقارب وجيران وزملاء وأصدقاء ومعارف، بقدر ما يشـعر الإنسان بالطمأنينة وبالأمان لأنه قادر علي أن يلجأ لأي منهم وقت الحاجة والضرورة.

ومن الطبيعي أن تكون درجة الود والأخوة مختلفـة من شخص لآخر، وهي أمور يدرسها أساتذة علـم الـنفس لتحليل السلوك الإنساني. وبرغم ذلك يظـل هنـاك أسـوار مجهولة تكتنف العلاقات بين الأفراد علي تباينهم فهي خلـيط من الحب والكراهية بدرجاتهما المختلفة، ولـذلك تحلـيلات وأسباب يمكن إدراكها وتفسيرها أحيانا، ولكن فـي معظـم الأحيان نقف عاجزين عن تعليل سبب الحـب أو الكراهيـة. فهناك أشخاص محبوبون من كثرة وهذه منحة ربانية.. ومن هنا ظهرت عبارة الشخصية الكاريزمية أي التي لها قبـول



عام نتيجة تركيبة شخصية خاصة، وتلك الشخصيات هي المؤهلة للزعامة، ومن ثم قادرة علي بلورة وقيادة مشاعر جماعية لمجموعة إنسانية. وفي المقابل هناك شخصيات ينفر منها الناس وهي تلك التي ليس لها قبول لدي كثرة، وينفر منها الناس سواء لأسباب أو   في   ... ومعظم البشر بين الأولي والثانية أي أن لهم مجموعة قريبة منهم يتمتعون فيها بقدر كبير من الحب والاحترام وفي المقابل لهم من يكرهونهم بسبب أو لآخر.

وقد تعودنا في مصر أن يكون من دعاء الوالدين لأولادهم عبارة: ربنا يجعل في وجهك القبول، وفي العصور الحديثة ظهرت عبارة كيمياء القبول أو النفور. ومعظم الزيجات التقليدية المرتبة في مصر تتم من خلال القبول من أول نظرة ثم تتطور العلاقة مع الحوار فيتحول الشخصان إلي حبيبين لأنهما وجدا متعة في استمرار الحوار الذي يمتد بلا حدود، أي يتحول القبول إلي انسجام عقلي. وإذا كان مقرونا بارتباط عاطفي وجداني، عندئذ تصبح العلاقة ناضجة لقبول فكرة الارتباط طوال الحياة أي الزواج، وهي علاقة مركبة بل ومعقدة لأنها تشمل قبولا لعناصر كثيرة متغيرة،

ولكن البشرية لم تتعـرف حتـي الآن علـي شـكل أمثـل للاستمرار العاطفي والجنسي في العلاقة بين ذكـر وأنثـي أفضل وأرقي من تكوين أسرة.

كل هذه أمور طبيعية تتضمن ممارسات اجتماعيـة يومية، ولكن الصعوبة والخطر المجتمعي ينشآن عندما يكون الحب أو الكراهية ليس علي أسـاس شخصـي أي تحكمـه كيمياء الأفراد كما سبق التوضيح، ولكن تحكمـه الكيميـاء الجماعية كأن يكون حبا أو كراهية لجماعة بعينهـا بسـبب اختلاف الدين أو السلالة أو المذهب، علي غرار أن يقـول المرء: أنا لا أحترم أو أقبل أي أسود، أو أن كل الزنوج لهم رائحة لا أتحملها، أو يقول فرنسـي متعصـب: إن جميـع العرب متطرفون أو بعبارة مخففة كلهـم متخلفـون. هـذه العبارات الجماعية التي تتضمن نعت جـنس أو سـلالة أو دين أو مذهب بـالدونية وأحيانا يكـون النعـت بالامتيـاز والتفوق الجماعي هي أمور موجـودة بالفعـل فـي تـاريخ البشرية، لكن خطورتها في أنها ـفي أحيان كثيرةـ ـ تظـل تنمو وتتجمع وتجد زعيما أو قائدا يتبني وينظـر للكراهيـة

الجماعية الي أن يحدث الصدام، وهو ما طرحنا لـه أمثلـة كثيرة في مناطق مختلفة من العالم.

ولذلك خصصنا هذا الفصل لنناقش هذه الظاهرة لعلنا نهتدي لعلاجها علي المستوي الشخصي أولا أي للفرد، ثـم علي المستوي الجماعي أي وجود هـذه الظـاهرة بالنسـبة للأكراد أو السود أو الهنود أو المسلمين أو غيرهم.



إن قبول الآخر علي المستوي الشخصي مسألة مفيدة، ومن غير الممكن أن يكون لها أي ضرر، وعلمتنا الأمثال أن حب الناس كنز، فكلما قبلت الآخر - كمـا هـو بمميزاتـه وعيوبه -ففي الأغلب الأعم ستجد رد الفعل طبيعيـا لـدي آخرين وبعدها ستجد لنفسك قبولا لديهم، فتتسع دائرة الصداقة والمعارف، وهذا مكسب كبير علي أي حال، ولك بعد ذلـك، أن تنتقي من هذا العدد الكبير الذي صار حولك، بعضا منهم ليكونوا أصدقاء أقرب إلي قلبك، ذلـك أن الكيميـاء بينكمـا فعالة، وكلما ازددت قربا من هذه القلة المختارة أقبل بعـض منهم إليك بشكل أكثر فاعلية، عندئـذ ستصـبحون بالفعـل أصدقاء. ومن بين الأصدقاء ستجد قلة، قد لاتزيد علي عـدد

أصابع اليد الواحدة أو اليدين، فهؤلاء يكونون بمثابة الأخـوة ومن هنا كانت المقولة رب أخ لك لم تلده أمك أي أنك لاتجد حرجا في أن تفضي إليهم بشغاف قلبك بل وأسرارك دون أن تخاف من تسربها أو استخدامها - في أي يوم أو تحـت أي ظرف - ضد مصالحك. إن من الخطر أن تتحول الأخوة إلي عداوة لأنها في هذه الحالة ستكون عـداوة شرسـة وربمـا مدمرة وهو حال نسمع عنه كل يوم.

أما العداوة أو الكراهية الجماعية فهي أمر مختلـف تماما وغير مقبول بشكل عام لأنه مقوض لإطار التوازنـات السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع. فمن منا قد اختار عرقه أو سلالته؟ ليس للأبيض فضل في أنـه ولـد أبـيض البشرة، وقد انهارت النظريات الفاشية التي تبنـي حركتهـا علي تفوق جنس أو عرق أو دين، وكانت قمتها قبل الحـرب العالمية الثانية، حيث زعم هتلر بأن الأنجلو ساكسـون هـم أرقي السلالات في الجنس الأبيض، وأن رقـائق السـلالات داخل العرق الأبيض تتفوق علي باقي الأعراق، ودرجهـا - أي صنفها - من أعلي إلي أسفل، وهي تحمل المعاني ذاتها التي يطرحها صموئيل هـانتجتون مـن خـلال عبـارات

وصياغات أخري تحتوي المفاهيم ذاتها وهي سيادة الجـنس الأبيض ويسمونها الآن حضارة الغرب، وقد طرحنـا هـذا النهج في الفصل الثاني.

وهناك جميع ألوان الطيف من السـلالات، ولـذلك تفاصيل معروفة في علم الأنثروبولوجي وكلها تدور حـول الأعراق التي تميز من خلال ألوان البشرة. فهنـاك الأسـود والأصفر والأبيض، ونتيجة الاختلاط عبـر آلاف السـنين تكونت تدرجات في البشرة ليس فقط لألوانها ولكن للمفـاهيم الحضارية أيضا، وهي التـي تكـون مـا صـار يعـرف بـالخصوصية السلالية للشعوب، وغالبا مـا يكـون هـذا الانتماء أو ذاك هو الأسمنت الرابط المكون للأمة أو القومية أو الوطني وما إليها وقد أشرنا إلي ذلك في مواقع كثيرة.

ولقد نشأت الحضارات الزراعية في وديان الأنهـار في مصر وبين النهرين (العراق) والهند والصين، ولم تكـن البشرية وقتها ومنذ آلاف السنين تعرف الفروق العرقية ويدل علي ذلك ألوان البشرة السمراء علي أوجه جدودنا الفراعنة.

وهناك تصنيفات أحدث مرتبطة بالانتمـاء الـديني. وبذات الفهم نقول: من منا قد اختار ديانته؟ فكل منا يرضـع

مع لبن الأم الانتماء إلي الدين وهو من أقـوي الانتمـاءات، وكلما ارتقي الإنسان يتحول الانتماء الـديني مـن المفهـوم الجماعي أي الجمعي إلي الشخصي. والصراعات الدينية أو المذهبية منتشرة في أماكن كثيرة من العالم، ولكن أشرسـها علي مستوي العالم ما بلوره صموئيل هانتجتون من حتميـة الصراع بين الإسلام والغرب.

وقد عقد في القاهرة مؤتمر عالمي في شهر يوليـو ١٩٩٧ هذا المؤتمر يعقد كل عام برعاية رئيس الجمهوريـة وتحت مظلة الأزهر والمجلس الأعلي للشـئون الإسـلامية، ويناقش قضية محددة. غير أنه في الدورات الثلاث الأخيـرة ركز بصفة خاصة علي حوار الأديان وحـوار الحضـارات وبالذات بين الإسلام والغرب، نقول عقد المؤتمر ليناقش هذه القضية المعقدة والتي برزت بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠ وكأن الغرب لايستطيع أن يعيش دون وجـود عـدو يصارعه. فما أن اختفي خطر الشيوعية حتي كان البديل هو خطر الإسلام ووجهة نظري الشخصية: إنه صراع غبـي، لأنه صراع غير قابل للحسم وينطوي علي الكثير من سـوء الفهم المتعمد. فعبر نحو نصف قرن كـان الصـراع بـين

الشيوعية والرأسمالية، ثم كان الحسم فـي صـالح النظـام الرأسمالي، ولكن كثيرين يتوقعون أن يكون حسما مؤقتا، أما الصراع بين الغرب والإسلام فلا يمكن أن يحسم لمصلحة أي طرف، فمن العبث تصور أن الغرب قادر علي قهر الاسلام أو تغيير عقيدته بالضغوط علي أنواعها. فهنـاك عشـرات الدول التي يدين أغلب شعوبها بالإسلام، وهي سعيدة بـذلك متمسكة بهذا الدين الذي عاشت في إطاره الوجداني والثقافي لقرون عديدة متصلة، وسوف تستمر كذلك لسنوات طويلـة قادمة.

من الخطأ أيضا أن يتصور العالم الإسلامي أنه قادر علي قهر الغرب أي تحويله إلي الإسلام، علي الـرغم مـن الانتشار الجزئي للإسلام في الغرب، فهذا أيضا خيار غيـر ممكن ولايسمح به توازن القوي العالمي، عسكريا واقتصاديا وثقافيا في المرحلة المعاصـرة ، ولا فـي إطـار الـرؤي المستقبلية.

إن هذا الصراع الجديد من وجهة نظري، يبدو وكأنه إمتداد لصراعات قديمة تعود لنحو ألفي عام. كانت البدايـة عندما قامت المسيحية وأقبل علي اعتناقها بسـطاء النـاس

وفي مقدمتهم فئة العبيد فقامـت الإمبراطوريـة الرومانيـة القديمة باضطهاد أتباع هذا الدين الجديد وكان - كما نقـول بلغة العصر - القتل علي الهوية. فقد عانت مصر حين كانت إحدي ولايات الإمبراطورية الرومانية القديمة وفـي عصـر دقلديانوس من هذا الاضطهاد، وجعـل المصـريون الـذين اعتنقوا المسيحية من عام ٢٨٤م - حـين كـان الاستشـهاد بالآلاف - بداية للتقويم القبطي، ولذا نسب هذا التقويم إلـي سنة كذا للشهداء.

وفي عام ٣٨٩م أصـدر ثيودوسـيوس إمبراطـور الرومانية الشرقية المسماة بالبيزنطية والتي صارت مسيحية مرسومه المشهور بإغلاق المعابد الوثنية وإعلان المسـيحية دينا للدولة. ومن عجب أن يتحول الصراع الديني ليكون من داخل الإمبراطورية البيزنطية أي داخل الديانـة المسـيحية البازغة وهو خلاف أو صراع مذهبي أو لاهوتي بلغـة ذاك الزمان من خلال أفكار لاهوتية وقد ذكرت تفاصيل ذلك في مؤلفي الأعمدة السبعة للشخصية المصرية.

كان الانقسام الكبير حول إشكالية لاهوت وناسـوت المسيح، وهل هي طبيعتان ومشيئتان، وهـو الـرأي الـذي

انحازت إليه القيادة السياسية أي الملك، ومن ثم سميت هذه العقيدة بالملكانية وأطلق علي أتباعها لقب الملكانيين. أما الرأي أو العقيدة المغايرة فرأت أن للسيد المسيح طبيعة ومشيئة واحدة وهو ما أصرت عليه عدة كنائس بما فيها الكنيسة المصرية، ولذا سميت في مجموعها بالأرثوذكسية لأنها بقيت علي تمسكها بالعقيدة القديمة الثابتة. وجاء مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م مجسدا لقمة الصراع والانشقاق، وقام الإمبراطور البيزنطي باضطهاد المغايرين له في المذهب إلي أن جاءت حقبة حكم الإمبراطور هرقل الذي أطلقوا علي مدة حكمه عصر الاضطهاد العظيم. ثم تصادف أن كان ذلك مصاحبا لظهور الإسلام، فكان أن رحب قبط مصر بمقدم عمرو بن العاص عام ٧٤٢م فدخلت مصر عصرا جديدا من التعايش أو قبول الآخر بين الأقباط الذين تمسكوا بالأرثوذكسية المسيحية وبين المصريين الذين تحولوا إلي الإسلام ولذلك تفاصيل كثيرة واردة في عدد من الكتابات التي سجلها كتاب مصريون، بعضهم مسلمون والبعض الآخر أقباط، كلها مأخوذة من مصادر تاريخ إسلامية.

بصفة عامة استمر الصراع بين المسيحية والإسلام عدة قرون، تم فيها فتح أو غزو دول وشعوب كثيرة تحولت إلي الإسلام الذي وصل إلي الأندلس في إسبانيا غربا ثم إلي الهند والصين شرقا.

وفي عام ١٠٩٥م قامت أوروبا بحملة شرسة طويلة عرفت بالحروب الصليبية لغزو البلاد العربية، إلي أن كان انتصار صلاح الدين الأيوبي، ولكن ذلك لم يوقف الحرب طويلا وبدأت حرب عكسية. وفي عام ١٤٥٣م تم فتح الأتراك للإمبراطورية البيزنطية المسيحية وتحولت لتكون مركز قيادة الخلافة العثمانية، وتم غزو بعض دول أوروبا، وما حرب البوسنة والهرسك وما جري في يوجوسلافيا إلا امتداد لمشاعر جماعية مكبوتة من تلك الحقبة التاريخية كما يري البعض.

وفي عصور النهضة الأوروبية من القرن الخامس عشر وما بعدها، ظهرت وانتشرت البروتستانتية بقيادة مارتن لوثر لتقهر الكاثوليكية، واعتنقت بعض دول أوروبا الغربية المذهب البروتستانتي، وتم اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ وانتقل الصراع بين الكثلكة والبروتستانتية إلي أمريكا

الشمالية والجنوبية، ولكن أحد هذه المذاهب لم يقهر الآخـر، واستمرت الكثلكة والبروتستانتية حتي الآن في بقـاع ودول مختلفة، كما استمرت الأرثوذكسية في بلدان شرقي أوروبـا وروسيا واليونان وغيرها.

استمرت الطريقة ذاتها التي استمر بهـا الإسـلام والمسيحية، علي الرغم من الصـراع والحـروب لقـرون طويلة. ولكل ذلك تفاصيل طويلة معروفة، ولكن ما رغبـت في أن أؤكده هو أن الحروب لاتحل المشكلات ولاتقهـر أو تحسم الاختيارات الدينية، ومن هنا كانت المقولة الشهيرة بأن أحدا منا لايملك الحكمة وحده، ومن ثم فلا سـبيل إلا قبـول الآخر أي المعايشة وتحويل صراع الحضارات إلـي ثقافـة الموزاييك لأن التنوع ظاهرة كونية، ولأن الجمال في الطبيعة وفي الحياة هو من خلال الحوار بين الأديان والأيديولوجيات والتفاعل بين المذاهب والمعتقدات، من أجل خلق ثقافة جديدة في عالم جديد وقد يتحقق ذلك خلال ربع قرن مثلا.

ثقافة وتدريب قبول الآخر للفرد

يولد كل منا بتركيبة إنسانية مختلفة نتيجة ظـروف وراثية ومجتمعية تجعل له نكهة وطعما خاصا، ثـم تتطـور

هذه التركيبة إما بالصقل وإما بالتدهور وفق الظروف التـي يعيشها كل منا، فقد تكون تركيبة إنسان ما جامـدة متزمتـة تؤدي غالبا لأن يكون منطويا علي نفسـه، وهـذا الإنسـان معرض لمرض كراهية الآخر، ويكون ذلك نتيجة أنه يلقـي اللوم علي الآخرين عما يحدث له من صعوبات ومعوقـات، بينما تكون نفسية آخر، بحبوحة منطلقة تحمـل طموحـات مشروعة ويخطط لحياته فيقبل علي الآخرين في يسر ويكون صداقات بسهولة، وهذا الإنسان مؤهل لقبول الآخر بالطبيعة، وبعدها -وبالثقافة والقراءة وتفهـم الآخـر- تتسـع دائـرة صداقاته، فتقل عداواته ولايجد صعوبة في اقتحام مجموعات بشرية مختلفة عنه في السلالة أو الدين أو المذهب.

ودعني أذكر خبرة ذاتية، وهي أنني نشأت في أسرة تنتمي للطبقة الوسطي بحي شبرا بالقاهرة، وفي بيت متدين، وكان طبيعيا أن يكون انتمائي الديني متزمتا بعض الشيء في بداية رحلة الحياة.

دفعتني أسرتي -في سن مبكرة- لأن أكون شماسا [1] في الكنيسة التي كانت تقع خلـف منـزل جـدي مباشرة، ولذلك كان مطلوبا مني أن أقرأ الإنجيـل وأحفـظ الصلوات بما فيها معرفة ألحان الكنيسة الأرثوذكسية، وكنت أرددها باللغة العربية بفهم، ولكنني أحفظها عن ظهـر قلـب وأرددها مثل الببغاء باللغة القبطية، وفي سن الصبا والشباب انخرطت في صفوف مدارس الأحد التي جعلتني أكثر فهمـا للدين المسيحي، ودفعني حب الإستزادة مـن المعرفـة لأن أدرس وأتعمق لما يسمي طقوس الكنيسة وأسرارها السـبعة، ونتيجة كل ذلك زاد انحيازي إلي المسيحية عموما والقبطيـة خصوصا أي الأرثوذكسية، ولكننـي اسـتوعبت أن هنـاك الأديان السماوية الثلاثة والتي أدركت أنها مترابطة تاريخيا، فالمسيحية منذ نشأتها ـ لدي كل المذاهب ـ قد جعلت الكتاب

---

[1] الشماس هو أول درجات السلم الكهنوتي ، وغالباً ما يكون متطوعا في الكنيسة في سن مبكرة ويقوم بالمشاركة في الصلوات ليكون همزة وصل " المردات " بين الكاهن والشعب ،وهذه الوظيفة غير موجودة في الكنائس البروتستانتية.

المقدس مكونا من جزءين: الأول هو العهد القديم أي التوراة الخاصة بالديانة اليهودية، أما الجزء الثاني (وهو أقل حجمـا بكثير) فيطلق عليه عبارة العهد الثاني أو الإنجيل والتي تعني البشارة، ومن ثم فمن غير الممكن دراسـة المسـيحية دون الإلمام باليهودية، وهذا هو سر تعاطف كثرة مـن مسـيحيي أمريكا مع إسرائيل، ولذلك تفاصـيل وآثـار هامـة ثقافيـة وسياسية ليس هذا موقعها، كما أن المسيحي الذي يعيش فـي مصر، لابد أن يلم بالإسلام ويحفظ آيات من القرآن والحديث بل يتأثر بهما باعتبارهما جزءا من تكوينه الثقـافي. ومـن المعروف أن قصص ونصوص القرآن تشير إلي كـل مـن اليهودية والمسيحية، ولذلك ترابطت في وجداني هذه الديانات الثلاث.

ولكن انتمائي إلي الأرثوذكسية قد جعلني أضعها في مقدمة المذاهب والفرق المختلفة في المسيحية بوصفها الرأي المستقيم، الذي لم يتبدل أو يتغير أو علي الأقل، هكذا وضعوا ذلك في عقولنا في سن مبكرة وجعلونا نعتقد ونـؤمن بـذلك إيمانا يقينيا.

ظللت علي هذا اليقين سـنوات التكـوين والصـبا والشباب إلي أن سافرت في بعثة دراسية عام ١٩٤٧ بعـد الحرب العالمية الثانية إلي جامعة سانت أندروز باسـكتلندا، وكنا ثلاثة مصريين، أكبرنا هو المرحوم د.علي كامل وكان أول من استقر قبلنا في مدينة داندي حيـث كليـة الهندسـة التابعة للجامعة. وبعد وصولي بأشهر لحق بنـا د.مصـطفي الحفناوي الذي صار وزيرا للإسكان عـام ١٩٧٩ وصـرنا نعرف هناك بعبارة الفرسان الثلاثة من مصـر. وأصـبحنا بالفعل مثل الأخوة، لأنه لاشيء يربط الناس مثل الغربة، وقد رحنا نتعاون ونتآخي خلال الوجود في دولـة أخـري ذات حضارة مختلفة. وقد برز فينا الانتماء الوطني ورابطة اللغة المشتركة وتفوقت علي الانتماء الديني، وهذه هي خصوصية مصر.

ثم إذا بنا نفاجأ بزميل رابع يـدرس معنـا لدرجـة الدكتوراه تحت إشراف الاستاذ مارشال ذاته والذي كان أخـا أكبر لنا جميعا يعاملنا علي قدم المساواة وكان إنجليزيا متدينا يذهب كل أحد مع زوجته وأولاده إلي الكنيسة. وكـان هـذا الزميل الرابع صيني الجنسية ومازلت رغـم مضـي نحـو

نصف قرن أذكر اسمه وهو شـانج نـانج هـوو ' Chung Nung Hooس ومع الزمن امتزجنا وعرفنا بعضنا بعضـا، وكان ذلك هو أول اختلاطي مع حضارة وديانة بعيدة تمامـا عنا. وإذا بي أجد في هذا الشاب الصيني شخصـية ممتـازة فاضلة فهو قليل الكلام، خفيض الصوت لايؤذي أحدا، يقـدم المعونة طواعية وبكل الحب لكل مـن يطلبهـا، متواضـع وبسيط.

ومع الزمن بدأت مفاهيمي القديمة التي خرجت بهـا من مصر تتغير والتي كانت تتلخص فـي أن الأرثوذكسـية تحتل المركز الأول بين المذاهب المسيحية كما سبق القـول، ثم تتميز المسيحية بين الأديان السماوية الثلاثة. وهذه الأديان السماوية - رغم خلافاتها الجزئية فيما بينها - هي وحـدها التي تحتكر وحدانية ا وبالتالي هي المؤهلـة دون غيرهـا للحياة الأبدية الأسعد، ومن ثم فإن الأديان غيـر السـماوية لاترقي لأن تكون أديانا بل لعلها تقترب من أن تكون مذاهب فكرية أو فلسفات. ولكن كل ذلك بدأ يهتز ويتغير من خـلال زميلي الصيني شانج نانج هوو، إذ بدأت بصيرتي تدرك أن التصنيف الديني الذي أخدته من حي شبرا، ليس بالضـرورة

هو التصنيف الصحيح، وأن العالم مملوء بالبشر مـن كـل جنس ودين.

وهكذا وجدت شهيتي الثقافية مفتوحة لأن أقرأ عـن الأديان، وعرفت أن المختصين في علوم الأديان قد صـنفوا اليهودية والمسيحية والإسلام باعتبارها الأديان الإبراهيميـة، لأنها كلها تنتمي في جذورها إلي سيدنا إبـراهيم خليـل ا . ومن وقتها - وحتي الآن - فإنني أسـتخدم ذات التوصـيف ذاته عن الأديان الإبراهيمية، ووجدت في ذلك سموا ورقيـا، لأن تصنيف الأديان الأخري بأنها ديانات وثنية كان تصـنيفا ظالما وغير دقيق، خصوصا عندما حاولت أن أقتـرب مـن أشهرها مثل البوذية والكنفوشية والشنتو، فوجدت أنهـا مـن خلال ممارستها في شبه جزيرة الهند وكذا شـعوب الشـرق الأقصي، قد أوجدت قيما ومفاهيم متحضرة قـدمت نمـاذج لعلاقات مجتمعية راقية، قـد لاتقـل سـموا عـن الأديـان الإبراهيمية، إن لم تفوقها في نواح. وقد تأكد لي وللعـالم - وبعد أن مضي نحو نصف قرن علي مقابلتي للشاب الصيني في مدينة داندي - أن شعوب الشرق الأقصي التي تدين بغير الأديان الإبراهيمية حققـت تقـدمها الاقتصـادي والعلمـي

والتكنولوجي، وأصبح بروزها الحضاري واضحا، حتي ليشار إليها بأنها تمثل الخطر الأصفر علي الرأسمالية الغربية، ويطلقون عليها وصف النمور الاقتصادية تعبيرا عن قفزتها الرائعة في النمو الاقتصادي، نتيجة قيم مجتمعية راقية، وواضح أن العالم الغربي لايحاول الصدام معها بقدر ما يعادي ويقهر الدول العربية والإسلامية كما سبق القول.

وخلال الفترة التي عشتها في اسكتلندا ثم إنجلترا أقبلت علي قراءات في الفلسفة وتاريخ الشعوب والأديان فتخلصت تماما من الدوجما التي حاصرتني في سنوات الصبا في مصر، وازددت تفهما للأديان الأخري. ومن الطبيعي أن كانت قراءتي الأوسع في تاريخ الإسلام، فمن منا - وهو يعيش علي أرض مصر ويعشقها - لايعرف جذوره ومفاتيح الإسلام علي جميع عصوره المشرقة والمظلمة علي حد سواء.

وليس معني هذا أن المطلوب أن يسافر كل منا إلي الخارج حتي يقابل صينيا أو هنديا أو أمريكيا فيتعرف علي حضارات وثقافات وأديان أخري حتي يقبل الآخر، فقد صار الكوكب مثل القرية الصغيرة لكثرة التنقلات التي صارت

متاحة لكثيرين. فبعد أن كان السفر خارج حدود الوطن - أي وطن - أمر لايتمتع به إلا قلة قليلة، وذلك حتي نحو نصف قرن مضي- أصبح أمرا عاديا يوميا.

ويجب ألا ننسي أنه منذ قرون قليلة، كـان معظـم البشر في العالم يولدون ويموتون في القريـة ذاتهـا، وإذا رحلوا ففي إطار الإقليم ذاته أو المحافظة من خلال ركوب الدواب، إلي أن اخترع القطار الـذي يسـير بالبخـار فـي منتصف القرن ١٩ ، ثم السيارة عند مطلع القرن العشـرين. وجاءت وسائل الاتصالات الأحدث مـن خـلال التليفـون والفاكس والمحمول والإنترنت وغيرها، لكـي تـوفر سـبل الاختلاط دون ضرورة التنقل. ثم ظهر التليفزيون والأطباق اللاقطة - المسماة بالدش Dish - المستقبلة لموجات الأقمار الصناعية المعلقة في الفضاء والمرسلة بالصـواريخ لتنقـل المعرفة بالصوت والصورة الملونـة الـي أربعـة أركـان الأرض، ولم يعد الإنسان الأمي معزولا عن المعرفة ويعيش في الظلمات، كالسابق وإنما وصلت المعرفـة بـالتليفزيون والفيديو الي أصغر نجع أو عزبة.

ومن هنا فإن فرصة زيادة المعرفة عـن الأجنـاس والشعوب صارت متاحة بما فيها من ديانة وثقافة ومـذهب وحضارة الآخر، ولكن تظل نقطة البداية هي الرغبة الداخلية في هذا التوجه الرئيسي في الحياة، والإطار الذي تجر فـي ظله عمليات التبادل الثقافي، وبمعني آخر ما يولد معنا ومـا نأخذه من خلال ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد.

***

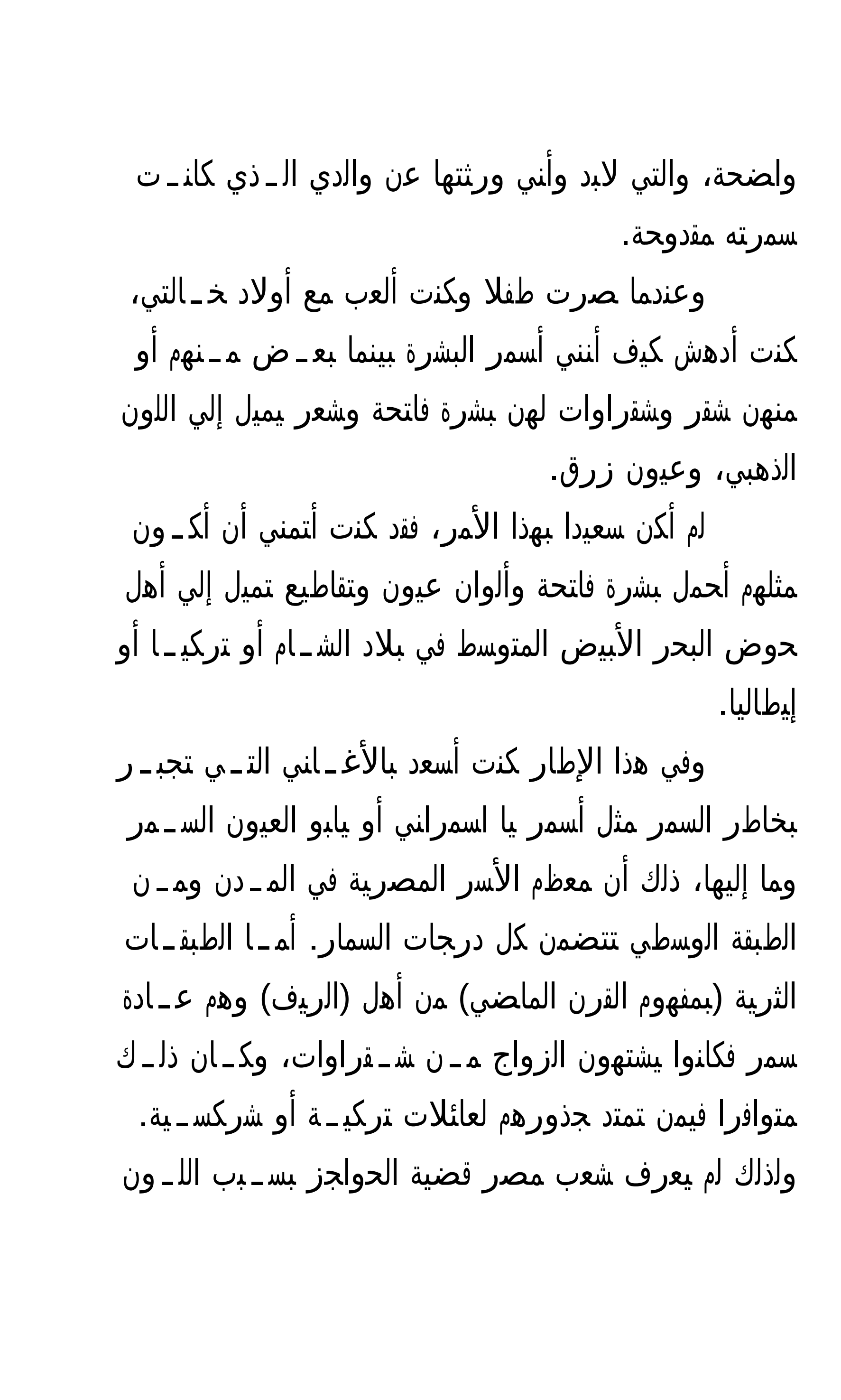
وإذا كنت قد طرحت في الصفحات القليلة الماضـية خبرة شخصية جعلتني أقتنع بقبول الآخر في مجال الأديـان والمذاهب، فإن لي خبرة شخصية تتعلق بقبول الآخـر فـي مجال السلالات أي لون البشرة. ذلك ان الإنسان -كلما تقدم في السن- لا يجد غضاضة في أن يطرح خبرته حتـي وأن كانت متضمنة ما قد يتصوره أسرارا شخصية، ولكن الكاتب يسعد أحيانا بأن يعري نفسه وأسراره [٢] ، إذا كان في ذلـك ما قد يعود بالنفع علي آخرين وبالذات بالنسبة للشباب، لكـي تنتقل الخبرة من جيل لآخر من خلال الكتاب.

---

[٢] ليحي حقي عبارة تقول : " قدر الكاتب أن يتعرى ليكتس الآخرون".

تصادف أن كانت والدتي وكانت اسـمها وشـهرتها الحاجة حكيمة وكانت اسمها علي مسمي شاهقة البياض فهي من والدين شقراوين، وكانت جدتي أي أمها آجية والتي تعني باللغة القبطية القديسة، (وكانت أيضا اسمها علـي مسـمي). شاهقة البياض وكما يقولون لونها مثل القشطة. أما جدي أي أبوها الخواجا جرجس متري فكان له عينان في لون الخـرز الأزرق، مع احمرار ممزوج بالسمرة للون البشرة ومثله كل أخوته الستة الذكور، وكأنهم خواجات وكنت أدهـش لـذلك، فجذوره من قرية شنري مركز الفشن وهي قرية بسيطة فـي حضن الجبل أي في أقصي الجهة الغربية مـن وادي النيـل الأخضر، وكنا نتندر بأن هذا الأمر لابد راجع لأن العسـكر الفرنساوية قد مروا من هذه الجهة إبان الحملة الفرنسية فـي أواخر القرن ١٨. وبينما كان أجدادي وأمي كذلك جئت أنـا أسمرانيا.

وكان الجيران يتندرون -هكذا سمعت فيمـا بعـد- عندما كانت أمي ترضعني ويجدون الفارق الهائل بين لـون ثديها شاهق البياض، ولون وجهي الذي يحمل سمرة خمرية



واضحة، والتي لابد وأني ورثتها عن والدي الذي كانت سمرته مقدوحة.

وعندما صرت طفلا وكنت ألعب مع أولاد خالتي، كنت أدهش كيف أنني أسمر البشرة بينما بعض منهم أو منهن شقر وشقراوات لهن بشرة فاتحة وشعر يميل إلي اللون الذهبي، وعيون زرق.

لم أكن سعيدا بهذا الأمر، فقد كنت أتمني أن أكون مثلهم أحمل بشرة فاتحة وألوان عيون وتقاطيع تميل إلي أهل حوض البحر الأبيض المتوسط في بلاد الشام أو تركيا أو إيطاليا.

وفي هذا الإطار كنت أسعد بالأغاني التي تجبر بخاطر السمر مثل أسمر يا اسمراني أو يابو العيون السمر وما إليها، ذلك أن معظم الأسر المصرية في المدن ومن الطبقة الوسطي تتضمن كل درجات السمار. أما الطبقات الثرية (بمفهوم القرن الماضي) من أهل (الريف) وهم عادة سمر فكانوا يشتهون الزواج من شقراوات، وكان ذلك متوافرا فيمن تمتد جذورهم لعائلات تركية أو شركسية. ولذلك لم يعرف شعب مصر قضية الحواجز بسبب اللون

Colour Bar، وكنا ندهش عندما نقرأ عن اضطهاد السـود في أمريكا وكيف أن مارتن لوثر كيـنج الـزعيم الزنجـي المعروف كان يناضل من أجل الحقوق المدنية ضد التمييـز العنصري الذي ساد الولايات الأمريكية في الجنوب، منذ أن كان أصحاب المزارع البيض يستوردون العبيد من إفريقيـا السوداء للعمل في مزارعهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد استمرت هذه التفرقة العنصـرية ضـد السـود لسنوات طويلة حتي الستينيات من هذا القرن مقننة وممارسة بقوانين أو أعراف فالتفرقة في مرافق الحياة. في الأتـوبيس وجميع وسائل النقل، وفي المدارس والجامعات وحتـي فـي الكنائس مع أنني أتخيل أن السيد المسيح كان -أغلب الظن- يحمل درجة من السمار أو ما يسمونه قمحـي وأن صـورة السيد المسيح التي تصوره وكأنه رجل أشقر راجعـة إلـي ابداعات وخيال مايكل أنجلو في كنيسة القديس بطرس فـي الفاتيكان بروما.

القصد، ظلت هذه العقدة محفـورة فـي وجـداني، ولكنني لم أشعر بها طوال أيام حياتي في مصـر، فـبعض الإسكندرانية سمر، وقد تجد في أسيوط عائلات لدي بعـض

أفرادها عيون زرقاء، أما أهالي الصـعيد جنـوبي أسـيوط والمسمي الجواني فلهم لون أسمر مقدوح وصولا الي بـلاد النوبة حيث لون البشرة داكن، وتستمر درجة السمار جنوبـا خلال أقاليم شمالي السودان وصولا إلي السلالة الزنجية فـي جنوبي السودان. من أجل كل ذلك وصـفت مصـر - فـي كتابي الأعمدة السبعة للشخصية المصـرية - بأنهـا بوتقـة انصهار الأجناس والسلالات (وليست أمريكا).

وعندما سافرت إلي إنجلترا أول الأمر ثم أمريكا بعد ذلك، كنت أشعر بالقلق والحرج معا، وفي إحـدي المـرات وجدت صعوبة في الحصول علي مسكن. فعندما كنت أضع إعلانا في مدخل الجامعة أو في الجريدة المحلية طالبا غرفة مع عائلة لمصري، كنت أجد استجابة عبر الهاتف، ولكن ما أن يفتح الباب لمقابلتي، حتي أجد امتعاضـا مغلفـا بـأدب مكبوت، فأدركت أن الاعتراض ليس علي الجنسـية ولكـن علي لون البشرة، فقد يكون في ذلك حرج لهم مع الجيـران. وكنت ألمس كيف أن زميلي علي كامل لـم يكـن يجـد أي صعوبة في الحصول علي مسكن بسبب أن بشرته كانت أميل للحمرة والبياض مثل أهل أسكتلندا ذاتهم. لأن جذور والدتـه

كانت تعود إلي روسيا المسماة البيضاء، بينما كـان والـده محمد بك كامل له بشرة سمراء في لون بشرة والدي.

ولذلك، وعندما حصلت علي منحة لاستكمال الدراسة لمرحلـة مابعـد الـدكتوراه Research Fellow عـام ١٩٥٣بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا أشهر معهد هندسي في أمريكا والمعروف عالميا واختصـارا بـالحروف M.I.T.، ذكرت في خطابي ردا علي رسالتكم لي: بأنني فخـور بـأن اخترت لهذه المنحة رفيعة المستوي، ذكرت أنني أسمر اللون وكيف أنني لا أود أن أتعرض لمتاعب الملونين، وكـان أن خصصوا لي إقامة في منازل الطلبة للدراسات العليـا مـع رئيس الفريق الراعي لهذه المنحة، ومازلـت أذكـر اسـمه Sandy Wolf ومعه زملاء أمريكان من بيـنهم Martha Goodway فشعرت أنهما يعاملانني برقة خاصة ويتحاشيان أن أتعرض لاضطهاد الملونين، وبالفعـل لـم أشـعر بـأي مضايقة. ولكن ما لمسته - وكما ذكرت كان ذلك عام ١٩٥٣ أي قبل أن يحصل السود علي الحقوق المدنية - من تفرقـة عنصرية كانت تقززني ولم أكن أتصور أن مجتمعا متقـدما مثل أمريكا به هذه التفرقة، ولذلك عندما عرضوا علي العمل

فـــي بعض المكاتب الاستشارية، بسبب تخصصي فـي تصميمات المنشآت القشرية Shell Structures، آثـرت أن أعمل في إنجلترا وليس في أمريكا، لأن الشيطان الذي تعرفه أفضل من الشيطان الذي لاتعرفه، ووقتهـا فـي منتصـف الخمسينات لم تكن إنجلترا (وربما لندن بالذات) مزدحمة بهذا الكم من الملونين الذين هاجروا من جاميكـا غربـا والهنـد وباكستان شرقا.

وهكذا علمتني الحياة أن قضية اخـتلاف السـلالات قديمة بل ومتوقعة، وأن البشر لن يكونوا متساوين تماما، وأن الفروق في السلالات ستظل قائمة -لـيس بسـبب نظريـة صموئيل هانتجتون- خصوصا بعد أن هاجر ملايين العرب والأتراك وأهالي يوجوسلافيا ثم بلدان الشرق الأقصي إلـي أوروبا وأمريكا، وأن هذه الفروق لا ترتب ويجب ألا ترتـب لإنسان امتيازا علي الآخرين. وفي ظل هذه الموجـات مـن الهجرة المتدفقة علي الغرب من الملونين والصفر فلا عجب أن صارت هناك أحزاب سياسية يمينية فاشية تطالب بطـرد غير البيض من أوروبا. أما في أمريكا فذلك أمر غير ممكن بسبب أن كل أهالي أمريكا من المهاجرين، وإن كانت هنـاك

الفروق واضحة وظاهرة للعيان بسبب الفروق فـي ألـوان البشرة وتقاطيع الوجه وستظل قائمة لأحقاب قادمـة كثيـرة وفي مقدمة هذه السلالات تلك المجموعة المسماة اختصـارا بـ WASP'S White, Anglo Saxon Protestants.

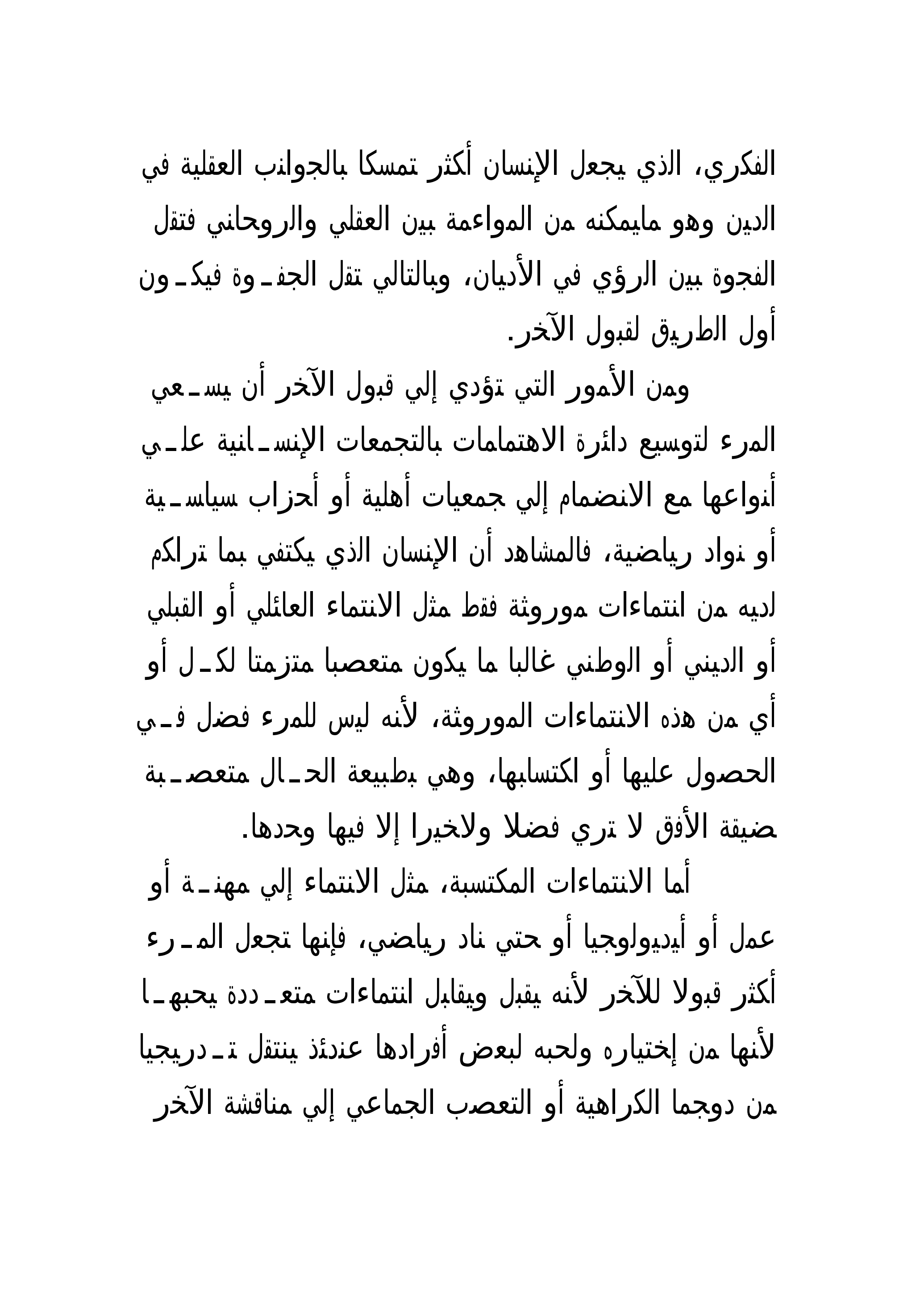
تنمية قبول الآخر للفرد:

علي الرغم - وكما سبق أن ذكرنا - من أن التركيبة العقلية والنفسية والوجدانية للفرد هي التي تحدد توجهه العام تجاه الآخرين وهي إما أن تؤدي إلي التقوقع والخـوف مـن الآخر أو بالانطلاق والعمل علي كسـب وده، نقـول علـي الرغم من ذلك، فإن التوجهات الشخصية لقبول الآخـر قـد تنمو أو تضمر وفق مسيرة الحياة أو من خلال القرار الـذي يتخذه المرء في هذا الأمر المهم، وقد تتأثر بالظروف والثقافة السائدة في المجتمع.

وعلي سبيل المثال تنمو ثقافة قبول الآخر بـالقراءة والثقافة فكلما اتسعت رقعة المعرفة علـي أنواعهـا، اتجـه الإنسان الي معرفة الآخر، خصوصـا إذا كانـت المعرفـة والاهتمام في مجال الأدب والفنون، فقراءة القصص الأدبيـة علي سبيل المثال تجعل المرء متعرفا علي شخصيات متنوعة

من البشر ممثلة في شخوص القصة وتجعله أكثر فهما للطبيعة الإنسانية علي تنوعاتها، كما أن القراءة في علوم الأديان علي أنواعها تجعل الإنسان أكثر فهما - ومن ثم تفهما - للأديان الأخري ومقدرا للفوارق بينها، وذلك إذا كانت القراءة بهدف البحث عن الأرضية المشتركة وليس بهدف اصطياد الأخطاء أو التعرف علي نقط الضعف في الإديان الأخري.. إن الكثير من المتخصصين في الشئون الدينية لدين ما، يقرءون ويدرسون الديانات الأخري بهدف تجريحها، وهذا يؤدي إلي مزيد من التعصب ويجعل قضية قبول الآخر أكثر صعوبة.

فهناك كتاب مستشرقون يدرسون الإسلام بهدف تجريحه وليس بهدف التفاهيم والقبول. أما إذا كانت القراءة أو المعرفة في مجال العلوم الفيزيائية، فإنها تنمي - عادة - القدرات العقلية والتي تبني علي المنطق أو التسلسل الرياضي، وغالبا ما يكون إثبات النظريات في مجال العلوم الفيزيائية والكيمياء وعلوم الحيوان والنبات وتطبيقاتها مبنيا علي تجارب معملية وبحوث تجري ربما لسنوات بهدف معرفة حقائق الحياة علي تنوعها، وعندئذ يكون النضج



الفكري، الذي يجعل الإنسان أكثر تمسكا بالجوانب العقلية في الدين وهو مايمكنه من المواءمة بين العقلي والروحاني فتقل الفجوة بين الرؤي في الأديان، وبالتالي تقل الجفـوة فيكـون أول الطريق لقبول الآخر.

ومن الأمور التي تؤدي إلي قبول الآخر أن يسـعي المرء لتوسيع دائرة الاهتمامات بالتجمعات الإنسـانية علـي أنواعها مع الانضمام إلي جمعيات أهلية أو أحزاب سياسـية أو نواد رياضية، فالمشاهد أن الإنسان الذي يكتفي بما تراكم لديه من انتماءات موروثة فقط مثل الانتماء العائلي أو القبلي أو الديني أو الوطني غالبا ما يكون متعصبا متزمتا لكـل أو أي من هذه الانتماءات الموروثة، لأنه ليس للمرء فضل فـي الحصول عليها أو اكتسابها، وهي بطبيعة الحـال متعصـبة ضيقة الأفق لا تري فضلا ولاخيرا إلا فيها وحدها.

أما الانتماءات المكتسبة، مثل الانتماء إلي مهنـة أو عمل أو أيديولوجيا أو حتي ناد رياضي، فإنها تجعل المـرء أكثر قبولا للآخر لأنه يقبل ويقابل انتماءات متعـددة يحبهـا لأنها من إختياره ولحبه لبعض أفرادها عندئذ ينتقل تـدريجيا من دوجما الكراهية أو التعصب الجماعي إلي مناقشة الآخر

ثم قبوله وصولا إلي المعايشة، ذلك أن الأفراد داخـل كـل جماعة يتباينون في الصفات ومن ثم يصبح الحب والكراهية مسألة فردية شخصية وليس جماعية، وهذه هي نقطة البداية في مسلسل قبول الآخر والتي تقود إلي الحوار مـع الآخـر لاكتشاف الأرضية المشتركة، وهنا بداية المعايشة مع الآخر.

وبشكل عام يكون قبول الآخر واردا فـي الحضـر أكثر منه في الريف حيث يكتفي المرء بالانتماء إلي العائلـة أو أهل القرية، فهي كل حياتهم، ولذا ظهرت مقولة أنا وأخي علي ابن عمي، وأنا وابن عمي علي الغريب. ولكـن أهـل الحضر يتحركون في مجتمع أكبر يمثل خليطا مـن البشـر المتباينين وعليهم اكتساب مهارة التعرف علـي الآخـر ثـم التعامل معه ومن ثم تنمو تدريجيا ثقافة قبول الآخر.

كذلك من يحبون الأسفار ويقبلون علـي الـرحلات الجماعية غالبا ما يتعرفون علي مجتمعات أخري، فيعرفون أن العالم هو جملة شعوب لكل منها ثقافة، ومن ثم يجدون أنفسهم ويحققون ذواتهم، بتوسيع دائرة الأصدقاء المـرافقين لهم في الرحلة الجماعية مما يتضمن قبول الآخر.

مجمل القول هو أن كل فرد يقرر أن يوســع دائــرة المعارف والأصدقاء، يجد ويكتشف لنفسه طرقا وسبلا لتنمية ثقافة قبول الآخر فيجد في ذلك السعادة والحبور والانتشار ثم الأمان، فيدخل في نهج وطريــق Process الإقبــال علــي الآخر، ويصير محبوبا ويعرف أن ذلك كنز ما بعــده كنــز ويفوق كل كنوز المال.

تشكيل الوجدان للفرد ليس حكرا للدولة

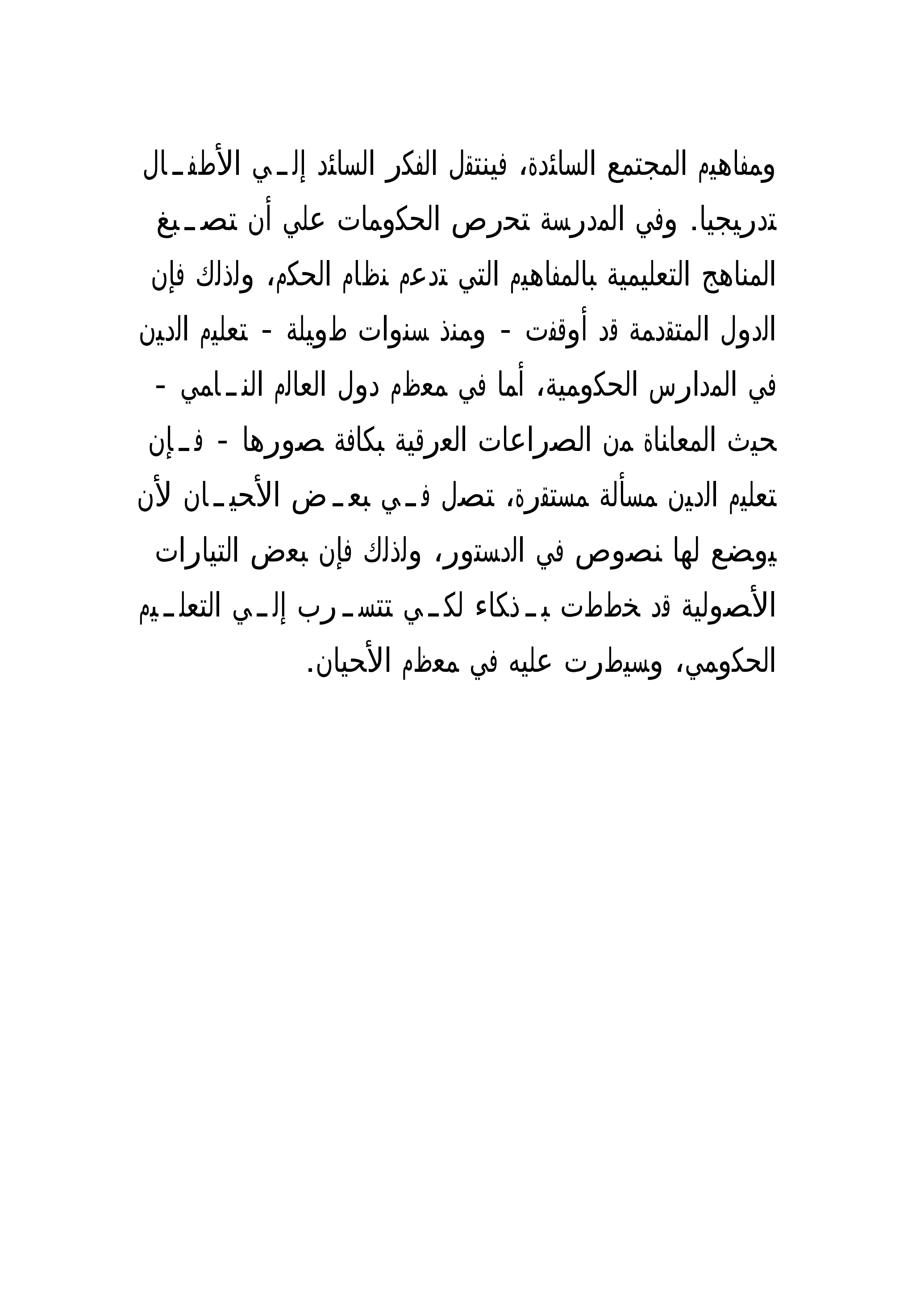
إن تشكيل الوجدان الثقافي العام - وهو غالبا الركيزة الأساسية في قضية قبول أو كراهية الآخر - قد صار خلال النصف الثاني من القرن العشــرين صــناعة متخصصــة، تحرص الدول علي المساهمة في صياغتها، وقد يتحول هــذا الحرص -وتحديدا في دول العالم النامي- إلي مشكلة، حيث الحكومات - في الأغلب الأعــم - شــمولية أو عســكرية يحكمها فرد أو حزب واحد له أيديولوجية سائدة. وفي قــديم الزمان - أي منذ قرون قليلة - كان الاهتمام الأساسي للملك أو الحاكم بوزارات السيادة، وهي التــي تنــاظر الداخليــة والخارجية والدفاع في عصرنا، وتســيطر علــي الأجهــزة القابضة لحركة الناس وتسيطر علي توجههم العام، ولكن في

النصف الثاني من القرن العشرين توافرت لـدي كـل دول وحكومات العالم النـامي أدوات ابتكرهـا التقـدم العلمـي والتكنولوجي في العالم الغربي، ممثلة في الإذاعة أول الأمر ثم التليفزيون وصولا إلي الأقمار الصناعية، وبذلك صـارت وزارة الإعلام (أو أي وزارة تحمل اسما آخر ولكنها تسيطر علي أجهزة الإعلام) من أهم الـوزارات السـيادية وصـار وزيرها من أعمدة الحكم ويعرف ما يجري فـي الكـواليس ويحمي الحاكم من بعض تصريحاته المنفلتة.

وفي إطار انتشار الأمية في قطاعات عريضة مـن البشر، فإن نفوذ الصحف قد صار مقصورا علي القلة التـي تقرأ وتكتب، ولديها فائض اقتصـادي يمكنهـا مـن شـراء الصحف، أما الكتب فقد صارت سلعة ثقافية مقصورة علـي فئة خاصة من المثقفين، التي تثمن حرية الفكـر والتعبيـر. ولذلك عملت الدول علي نشر أفكار تبث من خلال وسـائل الاعلام الجماعية مثل الاذاعة والتليفزيون في شكل أخبار أو حوارات وأحيانا في شـكل غيـر مباشـر مثـل الـدراما والمسلسلات، وكلها تخدم الوضع السياسـي القـائم، بشـكل مباشر فج أحيانا وبشكل ذكي في معظم الأحيان، لأنه يتسرب

إلي وجدان بسطاء الناس والذين ليس لديهم مـن متعـة إلا الإذاعة والتليفزيون حتي صار لصناعة وجدان البشر خبراء ومتخصصون. وعادة ما تستمر الحكومات فـي دول العـالم الثالث لفترات أطول ولايكون من سبيل لتغييرها إلا بقـرار إلهي، بحكم كبر السن ثم الرحيل، أو مـن خـلال انقـلاب عسكري أو اغتيال سياسي، وكلها أمور لاتحـدث التغييـر المطلوب في الوجدان الجماعي، لأنه أمر فـي حاجـة إلـي وجود قنوات ديمقراطية غالبا ما لا تكون متوافرة أو فعالـة، وفي حاجة لتوافر واستقرار أساليب ثقافة الحوار بـدلا مـن ثقافة التلقين. وذلك لا يتم بقرار لأنه تراث ثقافي يتراكم عبر آليات مختلفة ويحتاج تعديله لوقت طويـل. وفـي الوضـع الشمولي فإن من أهم الكيانات المؤثرة في تشكيل الوجـدان المؤسسات الدينية والتي تستمد نفوذها من خـلال نصـوص تراثية، تؤثر من خلال تفسيرات رجال الـدين لهـا بطـرق معينة وكل ذلك يسري في دماء البشر عبر رحلـة الحيـاة والتدين.

يبدأ تشكيل الوجدان مع الطفل في الأسـرة، وهنـا تختلف الأمور باختلاف مفاهيم وقيم الأبوين الحاملين لأفكار



ومفاهيم المجتمع السائدة، فينتقل الفكر السائد إلـي الأطفـال تدريجيا. وفي المدرسة تحرص الحكومات علي أن تصـبغ المناهج التعليمية بالمفاهيم التي تدعم نظام الحكم، ولذلك فإن الدول المتقدمة قد أوقفت - ومنذ سنوات طويلة - تعليم الدين في المدارس الحكومية، أما في معظم دول العالم النـامي - حيث المعاناة من الصراعات العرقية بكافة صورها - فـإن تعليم الدين مسألة مستقرة، تصل فـي بعـض الأحيـان لأن يوضع لها نصوص في الدستور، ولذلك فإن بعض التيارات الأصولية قد خططت بـذكاء لكـي تتسـرب إلـي التعلـيم الحكومي، وسيطرت عليه في معظم الأحيان.

ثقافة قبول الآخر " جماعيا"

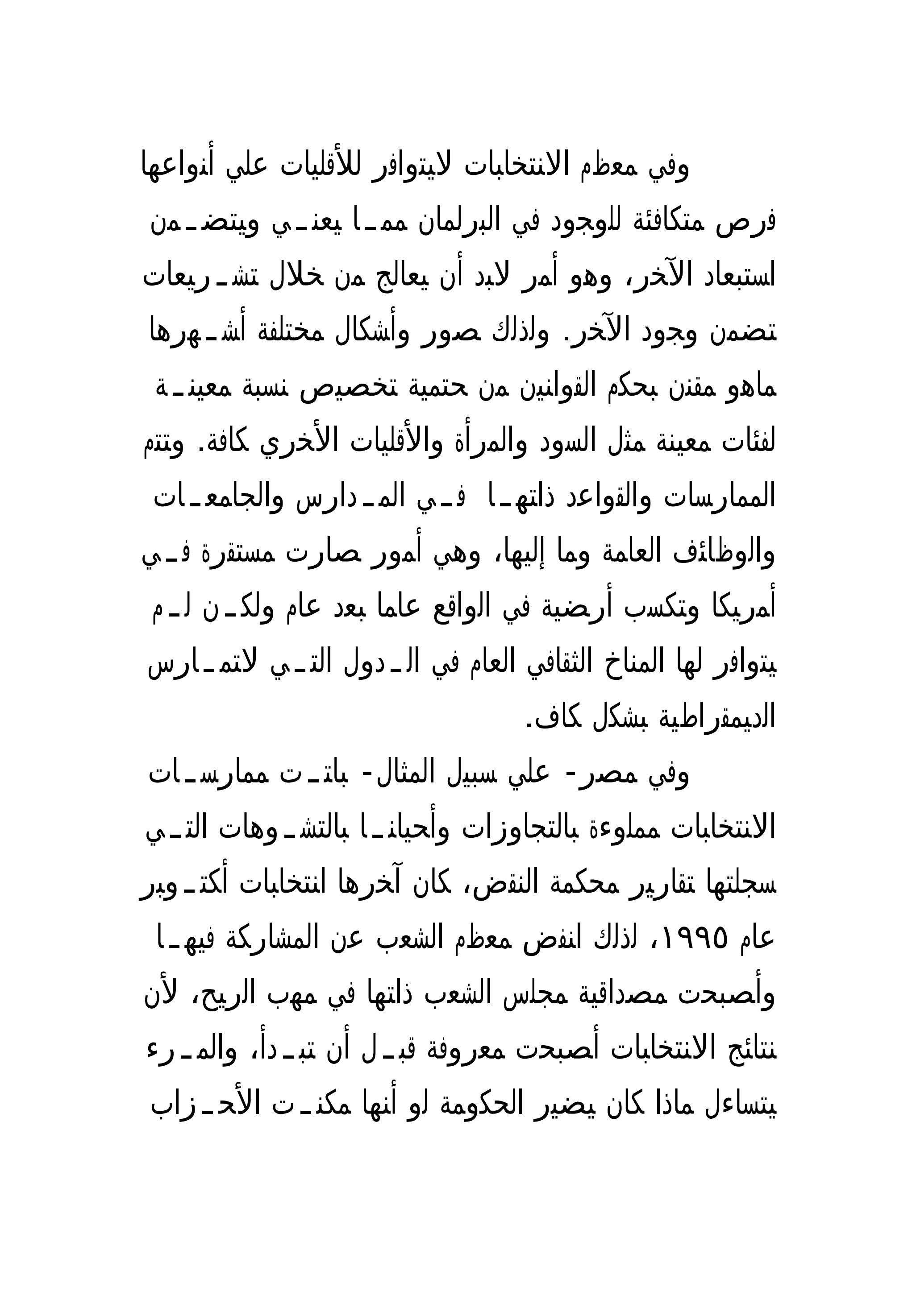
أولا: دولة مؤسسات تصوب ذاتها بذاتها:

معظم دول العالم تدعي أن نظام حكمها ديمقراطـي ولكن في التطبيق فإن الأمر يختلف كثيرا بل غالبا ما تكـون الممارسات مناقضة للنصوص الواردة في الدساتير المكتوبة، ولكن بشكل عام كلما كان النظام ديمقراطيا بالفعـل -كمـا سنتولي بالشرح في هذا الجزء- كانت ممارسة قبول الآخـر أمرا ممكنا ومتاحا وقابلا للتطور. فالنظم الدكتاتورية أو مـا صارت تسمي الشمولية غالبا ما تقـوم أيـديولوجيتها علـي مفاهيم الاعتزاز بالانتماء إلي سـلالة أو قبيلـة أو ديـن أو مذهب، ويبدو ذلك واضحا في بعض دول إفريقيا، فالصراع بين القبائل هو الأساس في الحروب الأهلية في معظـم دول إفريقيا شرقا وغربا وحول منطقة البحيرات. وتتجمـع فـي السودان كل التناقضات المؤدية إلي كراهية الآخـر بسـبب الأنتماء الجغرافي شمال وجنوب والانتماء العرقـي: عـرب وأفارقة، والانتماء الديني: أسلام ومسـيحية، فضـلا عـن الصراعات بين القبائل وتعالي كل منها علي الآخري، ولـذا

فكل طرف في صراع مع الآخرين وإيران كانت تدعو إلــي الثورة الإسلامية وتحاول أن ينتشر نموذجها إلي بلدان أخري باسم تصدير الثورة وإن كانــت التغيــرات الأخيــرة بعــد الانتخابات تبشر بمبدأ قبول الآخر. والجماهيرية تلتف حول الكتاب الأخضر باعتباره البديل لكل فكر وتــراث البشــرية السابق له.

وفي هذا الأمر يبدو أن المفاهيم الثقافيــة المرتبطــة بالبوذية وديانات الشرق الأقصي لا تقوم علي التمييــز بــين الأنا والآخر، وعلي سبيل المثال لا تنص علي دونية المرأة، وصارت المرأة رئيسة الدولة وهو أمر لم يحدث في البلــدان العربية.

إن معظم الدساتير الحديثة قد استقرت علــي مبــدأ وجود السلطات الثلاث المعروفة: التشريعية - التنفيذيــة - القضائية، وكلها تنص علي أشكال من الانتخابات، ولكنها في كثير من البلدان تكون انتخابات مملوءة بالتجــاوزات التــي تصل أحيانا لحد التزوير الفاضح، ومن هنا ظهــرت فكــرة وجود الرقابة علي الانتخابات بواسطة هيئــات دوليــة لهــا مصداقيتها.



وفي معظم الانتخابات لايتوافر للأقليات علي أنواعها فرص متكافئة للوجود في البرلمان مما يعني ويتضمن استبعاد الآخر، وهو أمر لابد أن يعالج من خلال تشريعات تضمن وجود الآخر. ولذلك صور وأشكال مختلفة أشهرها ماهو مقنن بحكم القوانين من حتمية تخصيص نسبة معينة لفئات معينة مثل السود والمرأة والأقليات الأخري كافة. وتتم الممارسات والقواعد ذاتها في المدارس والجامعات والوظائف العامة وما إليها، وهي أمور صارت مستقرة في أمريكا وتكسب أرضية في الواقع عاما بعد عام ولكن لم يتوافر لها المناخ الثقافي العام في الدول التي لاتمارس الديمقراطية بشكل كاف.

وفي مصر- علي سبيل المثال- باتت ممارسات الانتخابات مملوءة بالتجاوزات وأحيانا بالتشوهات التي سجلتها تقارير محكمة النقض، كان آخرها انتخابات أكتوبر عام ١٩٩٥، لذلك انفض معظم الشعب عن المشاركة فيها وأصبحت مصداقية مجلس الشعب ذاتها في مهب الريح، لأن نتائج الانتخابات أصبحت معروفة قبل أن تبدأ، والمرء يتساءل ماذا كان يضير الحكومة لو أنها مكنت الأحزاب

الأخري في مجملها لكي يكون لها نحو ٦٠ إلي ٧٠ مقعـدا من جملة المقاعد الحالية التـي تصـل إلـي ٤٤٤ مقعـدا بالانتخابات وعشرة مقاعد بالتعيين وفق نص الدستور منـذ زمن عبد الناصر؟

ولأن الشئ بالشئ يذكر، فقد ارتكب الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم الذي يدير الانتخابات بالتنسيق مع أجهزة الدولة ممثلة في المحـافظين والادارات المحليـة والعمـد، مخالفات سياسية صارخة عام ١٩٩٥ عندما امتنع الحـزب عن ترشيح قبطي واحد أو امرأة واحدة ضمن القوائم التـي رشحها الحزب بعد تمحيص وفحص ودراسة ثم بعد اعتمـاد هذه القوائم من كافة مستوياته علـي تعـددها، فجـاء ذلـك انعكاسه للمناخ الثقافي الذي يبشر بالمساواة دون تفرقة وفق المادة ٤٠ من الدستور المصري ولولا رسوخ تراث قبـول الآخر في مصر، لكانت مشكلة يمكن ان تتفاقم.

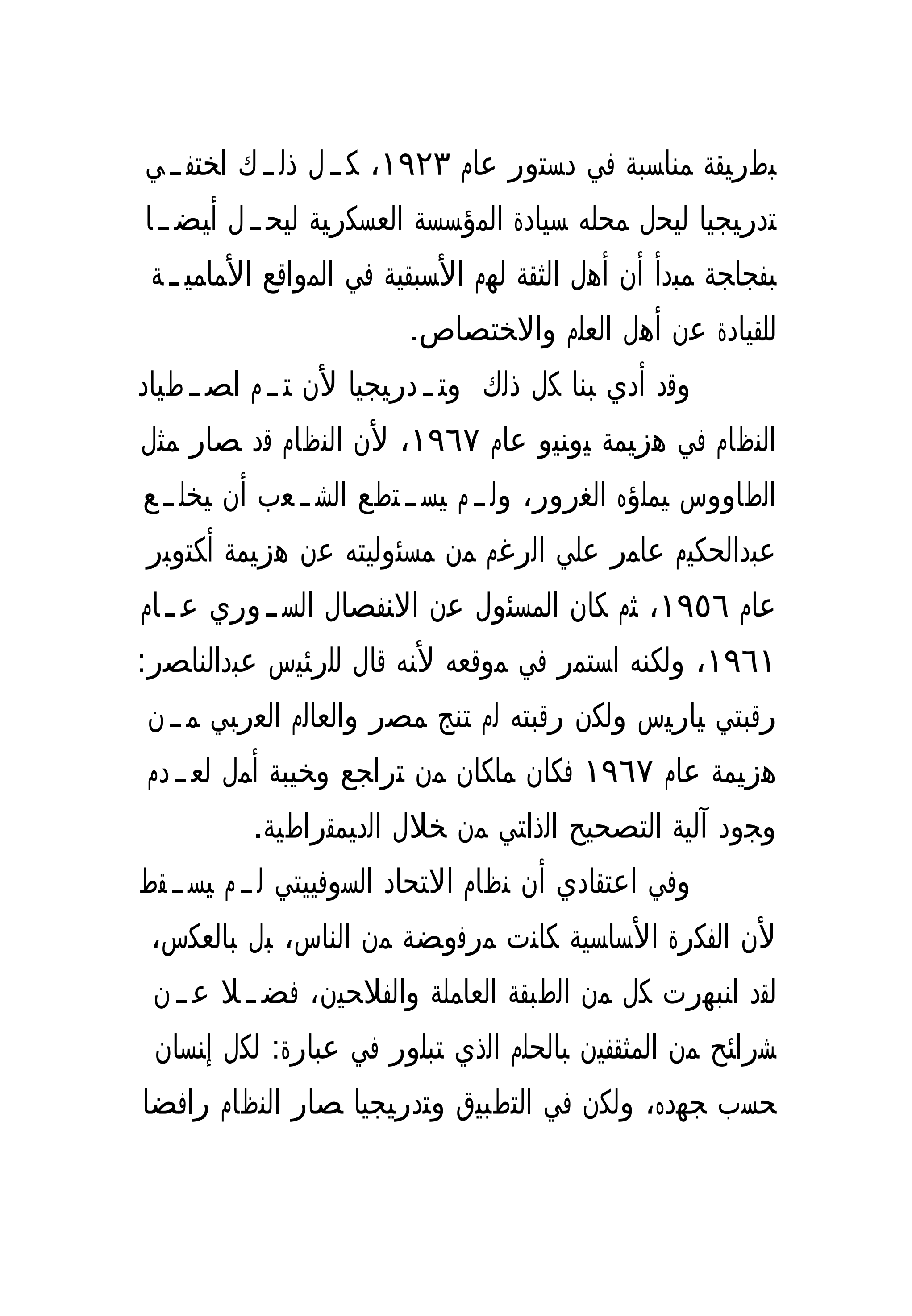
ولذلك فإن الدعوة لأن تكون المواقع القياديـة فـي الحكم المحلي أي المحافظين ورؤساء المدن والقري لتكـون بالانتخابات وليس بالتعيين دعوة مقبولة وإن كانت مكبوتـة وكامنة في صدور الناس دون إفصاح لأنها قد توصل -مـع

الزمن- ومع عوامل أخري سنشير إليها فيما بعـد - إلـي إمكانية تداول السلطة ومـن خـلال ذلـك يتـوافر المنـاخ الديمقراطي الذي يسمح بثقافة قبول الآخر.

كذلك فإن أي نظام يدعي أنـه ديمقراطـي دون أن يحمـل آليـات التصـويب الـذاتي Self -Correcting System، محكوم عليه بالضعف والهوان، وربما يدمر نفسه بنفسه، كما حدث في يونيو عام ١٩٦٧ ولذلك يقـوم النظـام السياسي الأمريكي علي قاعدتي: التوازن والرقابة Check & Balance System، أي أن الكونجرس يوازن ويراقـب ماتقوم به المؤسسة الرئاسية ثم تقوم المحكمة الفيدرالية العليا بتصحيح الأوضاع وفض المنازعات بين الأفراد والسـلطات الدستورية، فيما يتعلق بالتجاوزات في استخدام السلطة وفـي ضوء ذلك تضع مبادئ عامة وكان إنشاء المحكمة الدستورية العليا في مصر خطوة في هذا الاتجاه وفي إطـار أحكامهـا يهتدي المجتمع ويلتزم بتطبيقهـا، وهكـذا يصـحح النظـام الأمريكي نفسه بنفسه ويتقدم للأمام. وقد اكتشفوا أن مدة أربع سنوات كافية لأن يقدم الرئيس أفكاره التي التـزم بهـا فـي برنامجة الانتخابي وله أن يستمر مدة أخري، فثماني سنوات

هي حد أقصي معقول لأي فرد ينفذ فيها خططه وبرنامجـه ويتضح للناس قدراته، فتداول السلطة علي كافـة مسـتوياته يجدد شباب النظام، وهذا يقدم باستمرار فكرا متجددا.

وفي مصر -علي سبيل المثال- كان النظام الثوري الناصري موضع تأييد عام من المجتمع لأنه - ومنذ البدايـة - كان يحاول تغيير الأوضاع المختلـة التـي سـادت فـي السنوات الأخيرة من حكم الملك فاروق، فقرب الفوارق بـين الطبقات وقام بإصلاحات كثيرة. ولكنه كان متأثرا بالمنـاخ التنظيمي للاتحاد السوفيتي وممارسات الاحـزاب فـي دول أوروبا الشرقية وبالذات في يوجوسلافيا، حتي وصل الأمـر إلي أن الدساتير المتعاقبة كانـت تسـتلهم الفكـر الشـمولي وتكرسه، فضلا عن الهيكل التنظيمي للاتحاد الاشتراكي ثـم القبضة الحديدية الثورية للسلطات الرقابية مـن مخـابرات وأجهزة الأمن والرقابة الإدارية وغيرها، وحتي الشـعارات العامة مثل تحالف قوي الشـعب العامـل وأفكـار الميثـاق الأساسية وغيرها، كلها مأخوذة من يوجوسـلافيا السـابقة، وكان ذلك مجسدا في الصداقة الوطيدة بين تيتو وعبدالناصر، وفقدت مصر تدريجيا ماتبقي من أفكار ليبرالية كانت مصاغة



بطريقة مناسبة في دستور عام ١٩٢٣، كل ذلك اختفي تدريجيا ليحل محله سيادة المؤسسة العسكرية ليحل أيضا بفجاجة مبدأ أن أهل الثقة لهم الأسبقية في المواقع الأمامية للقيادة عن أهل العلم والاختصاص.

وقد أدي بنا كل ذلك وتدريجيا لأن تم اصطياد النظام في هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، لأن النظام قد صار مثل الطاووس يملؤه الغرور، ولم يستطع الشعب أن يخلع عبدالحكيم عامر علي الرغم من مسئوليته عن هزيمة أكتوبر عام ١٩٥٦، ثم كان المسئول عن الانفصال السوري عام ١٩٦١، ولكنه استمر في موقعه لأنه قال للرئيس عبدالناصر: رقبتي ياريس ولكن رقبته لم تنج مصر والعالم العربي من هزيمة عام ١٩٦٧ فكان ماكان من تراجع وخيبة أمل لعدم وجود آلية التصحيح الذاتي من خلال الديمقراطية.

وفي اعتقادي أن نظام الاتحاد السوفييتي لم يسقط لأن الفكرة الأساسية كانت مرفوضة من الناس، بل بالعكس، لقد انبهرت كل من الطبقة العاملة والفلاحين، فضلا عن شرائح من المثقفين بالحلم الذي تبلور في عبارة: لكل إنسان حسب جهده، ولكن في التطبيق وتدريجيا صار النظام رافضا

لفكرة التصويب الذاتي باعتبارها قيمة برجوازية مصدرة من الغرب بهدف دعم الثورة المضادة. وحتي مبدأ وفكرة النقـد الذاتي التي أنشأها لينين ماتت تدريجيا وصارت شكلا بغيـر مضمون إلي أن كان ماكان....!

ومن هنا، فإن تعميق الديمقراطية من خلال آليـات الرقابة بين السلطات، ووجود حريات في التعبير، وشـفافية في توافر المعلومات، تمكن النظام الديمقراطي من أن يصحح ذاته ويعمق ويطور أشكال وحدود الديمقراطية، وفـي هـذا المناخ الديمقراطي يكون قبول الآخر جماعيا أمرا ميسورا... ولا يتكرر ما قام به الحزب الوطني من خطئيـه فـي حـق المرأة والأقباط عند تجهيزه قوائم ترشيح الحزب لانتخابـات عام ١٩٩٥. ويتجه إلي مشاركة فعلية من كل الفئات المؤثره (كالمرأة والأقباط وغيرهم) عند أختيارات المواقع الرئيسـية لاتخاذ القرار مثل مواقع المحـافظين ومـديري الجامعـات وعمداء الكليات والسفراء وغيرهم كثير.

ثانيا: أدوات المجتمع المدني:

تظهر بين الحين والآخر نظريات سياسية تعبر عـن أشكال مختلفة لفهم تطور المجتمع وأسـس تغييـره، ففـي الماركسية كانت نظرية المادية التاريخية ثم مفهوم صـراع الطبقات وكيف أنه المحرك للتاريخ، وقد ثبت أن هذا الأمـر وحده- رغم أهميته - ليس كافيا لأن يكون محركا للتـاريخ، وبالتالي ظهرت آراء ونظريات أخري جديدة وهـي أمـور تعرضنا لها في فصول سـابقة. إن الماركسـية قالـت: إن المجتمع الاشتراكي الذي يتلخص في شعاره من كل حسـب جهده ولكل حسب عمله سوف يمهد لمجتمع آخر أطلقوا عليه عبارة المجتمع الشيوعي الذي يتلخص هدفه في عبارة مـن كل حسب جهده ولكل حسب احتياجه، وقيل وقتهـا إن هـذه الأفكار رومانسية ولاتتفق مع الطبيعة البشرية حيث الأنانيـة أي حب الإنسان لذاته أولا وقبل كل شيء.....!

ولأن المجتمع الأمريكي قد بنـي تحركـه وفلسـفته الفكرية علي أساس إمبريقي أو براجمـاتي Pragmatic أي أنهم يقومون بدراسة ما يجري علي أرض الواقـع بالفعـل،

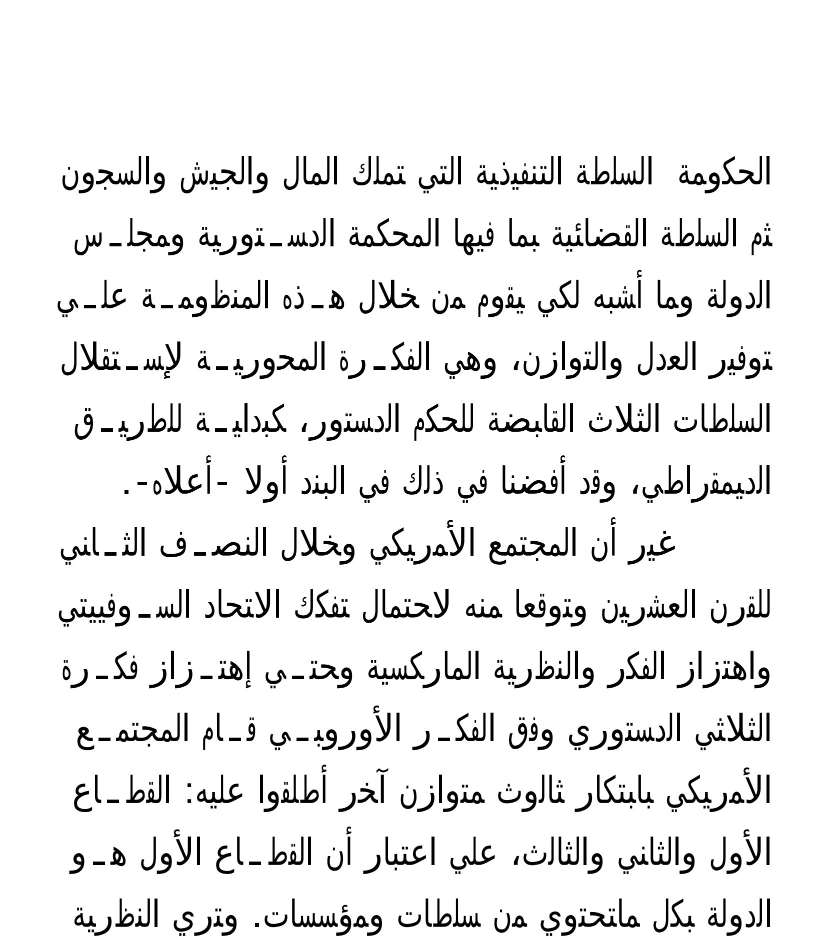
ويطورون هذا الواقع أي يمارسون مفهوم التصويب الذاتي، حتي أنهم استفادوا من الأفكار الماركسية والاشتراكية ذاتها، فقد ابتكروا نظرية وجود قطاعات ثلاثة في المجتمع تتنـافس وتراقب وتصحح مسار المجتمع، وكان ذلـك بـديلا لفكـرة ضمور الدولة withering of the State والتي كانت تنادي بأن التقدم يسير حتما صوب المجتمع الشيوعي حيث تتآكـل الدولة، وأن الطبيعة الأنانية بين البشر سوف تختفي حـدتها وهي أمور لم يقدر للبشرية أن تمر بها وبالتالي تدخل مرحلة الاختبار الفعلي.

وفي هذا الإطار، كان الإبـداع الأوروبـي- أولا- نتيجة ثمرات الارهاصات الأولي التي بدأت بالوثيقة الكبري المعروفة بعبارة ماجنا كارتا [1]

وبعدها بعدة قرون قامت الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، وبعدها كان ظهور الدستور الديمقراطي المبني علي الاستقلال بين السلطات وهو المثلث المتربع فـي قمـة السلطة ممثلا في البرلمان أي السلطة التشريعية والرقابية ثم

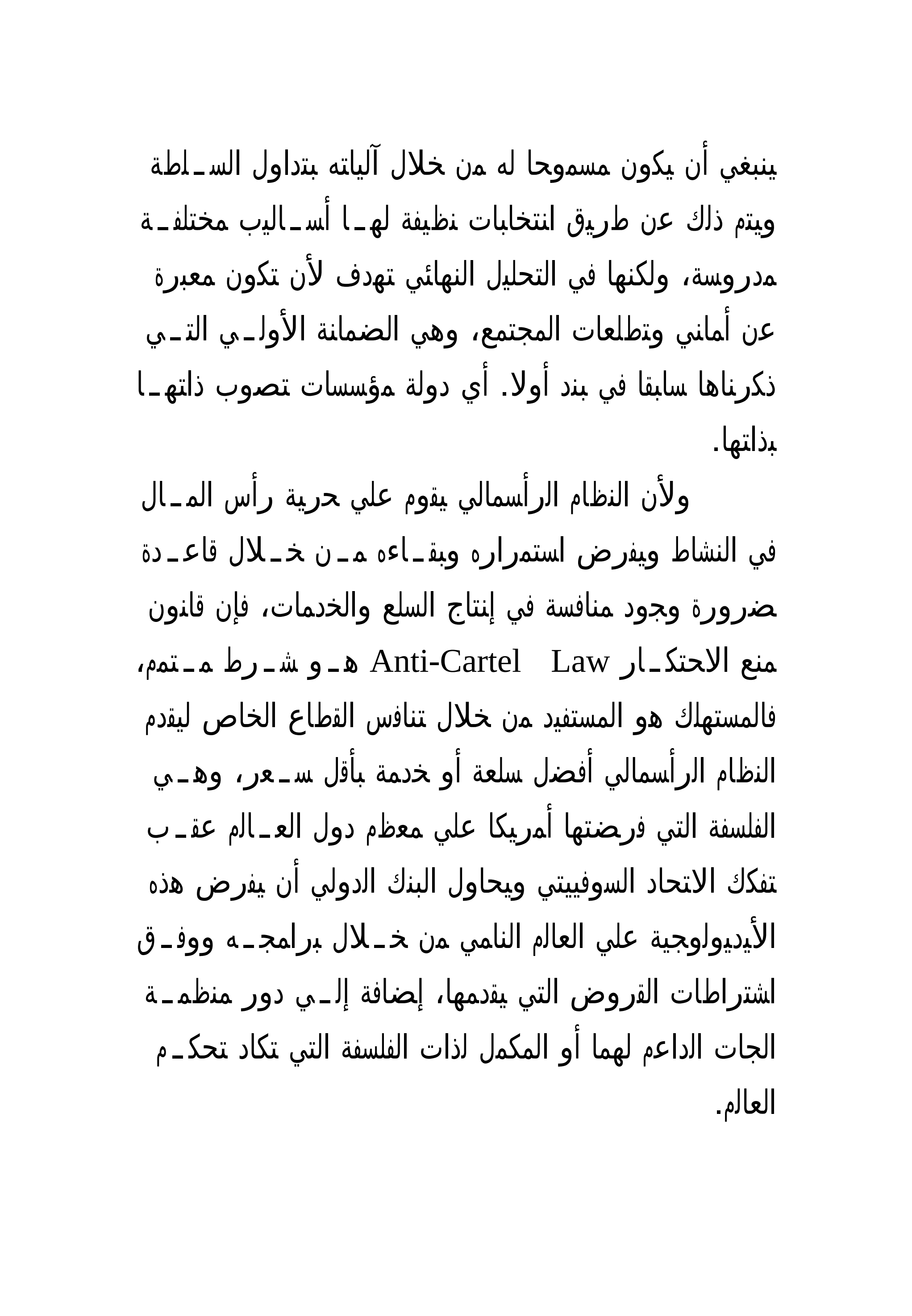
---

[1] Magna Carta في مطلع القرن ١٣ في انجلترا فـي عهد الملك جون يوم ١٩ يونيو ١٤١٥م.



الحكومة السلطة التنفيذية التي تملك المال والجيش والسجون ثم السلطة القضائية بما فيها المحكمة الدستورية ومجلس الدولة وما أشبه لكي يقوم من خلال هذه المنظومة علي توفير العدل والتوازن، وهي الفكرة المحورية لإستقلال السلطات الثلاث القابضة للحكم الدستور، كبداية للطريق الديمقراطي، وقد أفضنا في ذلك في البند أولا -أعلاه-.

غير أن المجتمع الأمريكي وخلال النصف الثاني للقرن العشرين وتوقعا منه لاحتمال تفكك الاتحاد السوفييتي واهتزاز الفكر والنظرية الماركسية وحتي إهتزاز فكرة الثلاثي الدستوري وفق الفكر الأوروبي قام المجتمع الأمريكي بابتكار ثالوث متوازن آخر أطلقوا عليه: القطاع الأول والثاني والثالث، علي اعتبار أن القطاع الأول هو الدولة بكل ماتحتوي من سلطات ومؤسسات. وتري النظرية أن هذا القطاع هو الذي يسيطر علي المجتمع ليضمن سلامته وعدم تفككه، ومن الناحية النظرية يحاول أيضا أن يكون عادلا ومتوازنا بين فرق وطبقات ومصالح الفئات والمجموعات البشرية المختلفة التي تعيش في إطار رقعة جغرافية لها حدود، وهي الدول العصرية. وهذا القطاع الأول



ينبغي أن يكون مسموحا له من خلال آلياته بتداول السلطة ويتم ذلك عن طريق انتخابات نظيفة لها أساليب مختلفة مدروسة، ولكنها في التحليل النهائي تهدف لأن تكون معبرة عن أماني وتطلعات المجتمع، وهي الضمانة الأولي التي ذكرناها سابقا في بند أولا. أي دولة مؤسسات تصوب ذاتها بذاتها.

ولأن النظام الرأسمالي يقوم علي حرية رأس المال في النشاط ويفرض استمراره وبقاءه من خلال قاعدة ضرورة وجود منافسة في إنتاج السلع والخدمات، فإن قانون منع الاحتكار Anti-Cartel Law هو شرط محتم، فالمستهلك هو المستفيد من خلال تنافس القطاع الخاص ليقدم النظام الرأسمالي أفضل سلعة أو خدمة بأقل سعر، وهي الفلسفة التي فرضتها أمريكا علي معظم دول العالم عقب تفكك الاتحاد السوفييتي ويحاول البنك الدولي أن يفرض هذه الأيديولوجية علي العالم النامي من خلال برامجه ووفق اشتراطات القروض التي يقدمها، إضافة إلي دور منظمة الجات الداعم لهما أو المكمل لذات الفلسفة التي تكاد تحكم العالم.

وقد أطلق الأمريكان علـي هـذا النشـاط للقطـاع الرأسمالي عبارة قطاع الأعمال Business أو عبارة القطاع الثاني والذي يتنافس وينمو من أجل الحصول علـي الـربح ويطلق عليه أحيانا عبارة المنظمات التي تسعي إلي الـربح Organizations For Profit، ولتحقيق هذا الهـدف فـإن التنافس التجاري ليس له أخلاقيات محكمة منضبطة بل غالبا مايكون الصراع مريرا، وتكون الضحية هي المسـتهلك أو المواطن العادي، فالغرور قد حاق بهذا القطاع إلي حـد أن المفكر الأمريكي الذي تعود جذوره إلي اليابـان فرانسـيس فوكوياما قد عبر بوضوح عن رؤياه في أن النظام الرأسمالي قد انتصر بغير رجعة من خلال مؤلفه الشهير نهاية التـاريخ مما يشير إلي مدي زهو هذا المعسكر بما وصل إليـه مـن نجاحات برغم الأضرار التي تلحق بقطاعات واسـعة مـن بسطاء الناس والتي يعترف هو نفسه بها.

وفي هذا الإطار كان ابتكار ما أسموه القطاع الثالث الذي يقيم التوازن مع القطاع الأول أي الحكومة لأنها قاهرة فارضة نفسها ووجودها من خلال أدواتها الباطشة، ثـم مـع القطاع الثاني الذي يسعي ويخطط للوصول إلي أقصي ربح،

حتي وإن اقتضي ذلك العدوان علـي حريـة الآخـرين أو الإضرار بمصالح بعض الفئات الاجتماعية المقهورة، ولـذا ابتكروا التوازن من خـلال إنشـاء ودعـم قطـاع ثالث يشار إليه بالفعل في الأدبيات المعاصرة بعبـارة The Third Sector وأحيانا يطلق عليه عبـارة القطـاع المستقل The independent Sector، وهذا النشـاط قـد صار معروفا بعبارة هـي المجتمـع المـدني The Civil Society، حتي مختلفة عن مجتمـع القـوات المسـلحة أي السلطة العسكرية أو مجتمع رجال الدين أو السلطة المدنيـة وما إلي ذلك.

وفاعلية المجتمع المدني- في التحليل النهائي، وبرغم كثرة الأدبيات في هذا الأمر- يعني ببساطة حريـة تكـوين ونشاط الجمعيات الأهلية، وهي مايسمونها أحيانا الجمعيـات غير الحكوميـة وهـي ترجمـة حرفيـة لعبـارة Non-Governmental Organizations.وإمعانا في التفرقة بينه وبين القطاع الثاني الذي يعمل من أجل الربح، والربح وحده، يطلقون علي هذه الجمعيات الأهلية توصيفا آخر وهي أنهـا

ليســت بهـــــدف الربـــــح . Non- Profit Organizations

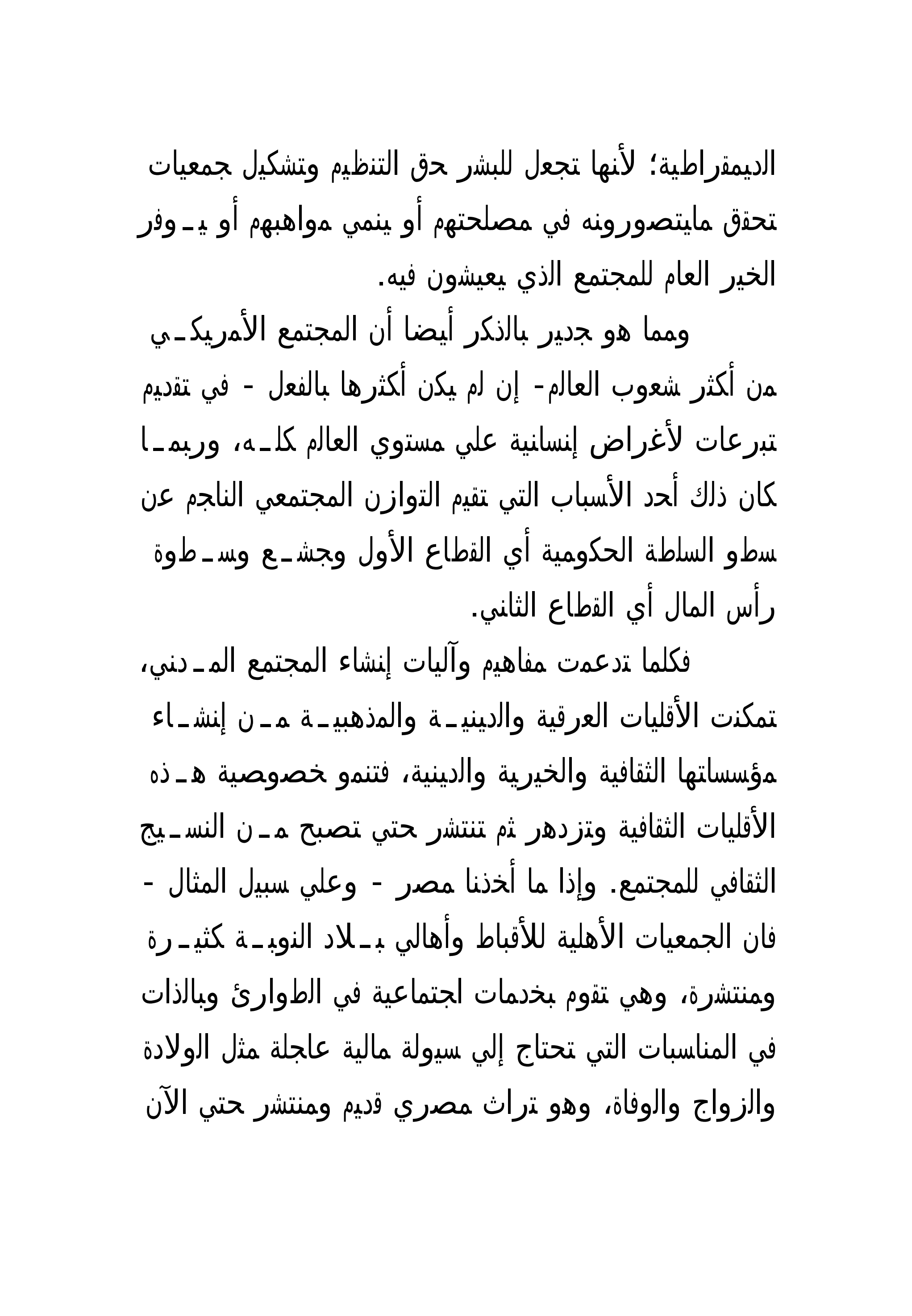
وتقوم الفكرة المحورية فـي التـوازن بـين هـذه القطاعات الثلاثة علي أن يقوم القطاع الثاني - ومن خـلال تراكم الأرباح الهائلة لديه - بتخصـيص جـزء مـن هـذه الأموال يتم تجميدها أو تجنيبها في شكل وقفيات ويسـمونها المؤسسات Foundations حيث توضع هذه الأموال تحـت تصرف مجموعة أمناء عليها، ولذا يسمونها مجالس أو لجان أمناء Board Of Trustees من منطلق أنهم يشرفون علي حسن إدارة هذه الأموال باستثمارها في مجالات عديدة، منها شراء عقارات أو أسهم في شركات أو البورصة أوغيرها من أوجه الاستثمار المشروعة التي تضمن تدفق الأرباح والعائد. ومن خلال هذه الأرباح أوالريع أو العائـد أو الفائـدة، يـتم الصرف علي جميع الجمعيات الأهلية أو غير الحكومية التي تخدم المجتمع بهدف إيجاد التـوازن لأنشـطة لا تسـتهوي القطاع الثاني الذي يسعي للربح وحده، فتقام المستشـفيات أو الجامعات أو البحوث أو جمعيات المحافظة علـي البيئـة أو حقوق الإنسان أو ترميم الآثار القديمـة أو إنشـاء متـاحف

لأغراض شتي، أو دعم الفنون وجميع أوجه الفكر والثقافـة، أو رعاية المسنين أو المعوقين، وهي أهداف اهتمـت بهـا البشرية علي نطاق واسع في العصور الحديثة.

ومن الطبيعي أن تخصص بعض الأموال للأغراض الخيرية التقليدية مثل رعاية بسطاء الناس (وكانوا يسـمونها في السابق بعبارة الفقراء أو المعوزين أو المستضعفين فـي الأرض) أو الأيتام والأرامل وغيرها من تسميات تتغير وفق التغيرات الاجتماعية المختلفة التي تناسب مفاهيم العصر.

وجدير بالذكر أن المؤسسات الأمريكية أو الأوروبية مثل فورد وروكفلر وفولبرايت وغيرهـا كثيـر، مـاهي إلا تطبيق أكثر ملاءمة للعصر، للفكرة التي انتشرت علي نطاق واسع في العصر العثماني وأسموها نظام الوقف وأتصـور- دون أن أغوص كثيرا في مراجع تاريخية - أن هذا النظـام الوقف ربما يعود إلي عصور الفراعنة عندما كـان الملـوك والأثرياء يخصصون أراضي زراعية تدار لحساب الإنفـاق علي المعابد والكهنة.

أيا ما كان من أمر، فإن تنشيط القطـاع الثالـث أي العمل التطوعي هي أحد العناصـر المهمـة التـي تـدعم



الديمقراطية؛ لأنها تجعل للبشر حق التنظيم وتشكيل جمعيات تحقق مايتصورونه في مصلحتهم أو ينمي مواهبهم أو يـوفر الخير العام للمجتمع الذي يعيشون فيه.

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن المجتمع الأمريكـي من أكثر شعوب العالم- إن لم يكن أكثرها بالفعل - في تقديم تبرعات لأغراض إنسانية علي مستوي العالم كلـه، وربمـا كان ذلك أحد الأسباب التي تقيم التوازن المجتمعي الناجم عن سطو السلطة الحكومية أي القطاع الأول وجشـع وسـطوة رأس المال أي القطاع الثاني.

فكلما تدعمت مفاهيم وآليات إنشاء المجتمع المـدني، تمكنت الأقليات العرقية والدينيـة والمذهبيـة مـن إنشـاء مؤسساتها الثقافية والخيرية والدينية، فتنمو خصوصية هـذه الأقليات الثقافية وتزدهر ثم تنتشر حتي تصبح مـن النسـيج الثقافي للمجتمع. وإذا ما أخذنا مصر - وعلي سبيل المثال - فان الجمعيات الأهلية للأقباط وأهالي بـلاد النوبـة كثيـرة ومنتشرة، وهي تقوم بخدمات اجتماعية في الطوارئ وبالذات في المناسبات التي تحتاج إلي سيولة مالية عاجلة مثل الولادة والزواج والوفاة، وهو تراث مصري قديم ومنتشر حتي الآن

بين أهالي بلاد النوبة تحديدا، حيث لديهم تقاليد عمل جمعية كاتفاق جماعة منهم علي جمع مبلغ معين متساو من النقود- ولتكن عشرة جنيهات شهريا - ويكون الاتفاق بـين عشـرة أشخاص مثلا، وعند أول كل شهر يتم جمع مائة جنيه مـن هؤلاء العشرة، تدفع لمن هو أكثرهم حاجة لهذا المبلغ والذي تقام الجمعية لمساعدته، فيقبض الجمعية في أول الشهر عنـد بداية الاتفاق فيفك أزمته. وفي الشهر التالي تكون الجمعيـة من نصيب من يليه في الاحتياج وهكذا، وهو أمر مازال يتم كل يوم بمقتضي الثقة بين هذه المجموعة أو تلك.

ولعل هذا هو الذي فرض عبارة جمعية حتـي الآن، وهي إحدي وسائل الادخار الشعبي الجبري المنتشرة بالتحديد بين فئات الموظفين والعمال في القري والاحياء الشعبية، أما الأثرياء فلديهم مدخراتهم كما يمكن الحصول علي قـروض من خلال ما يملكون من عقارات وأراضي.

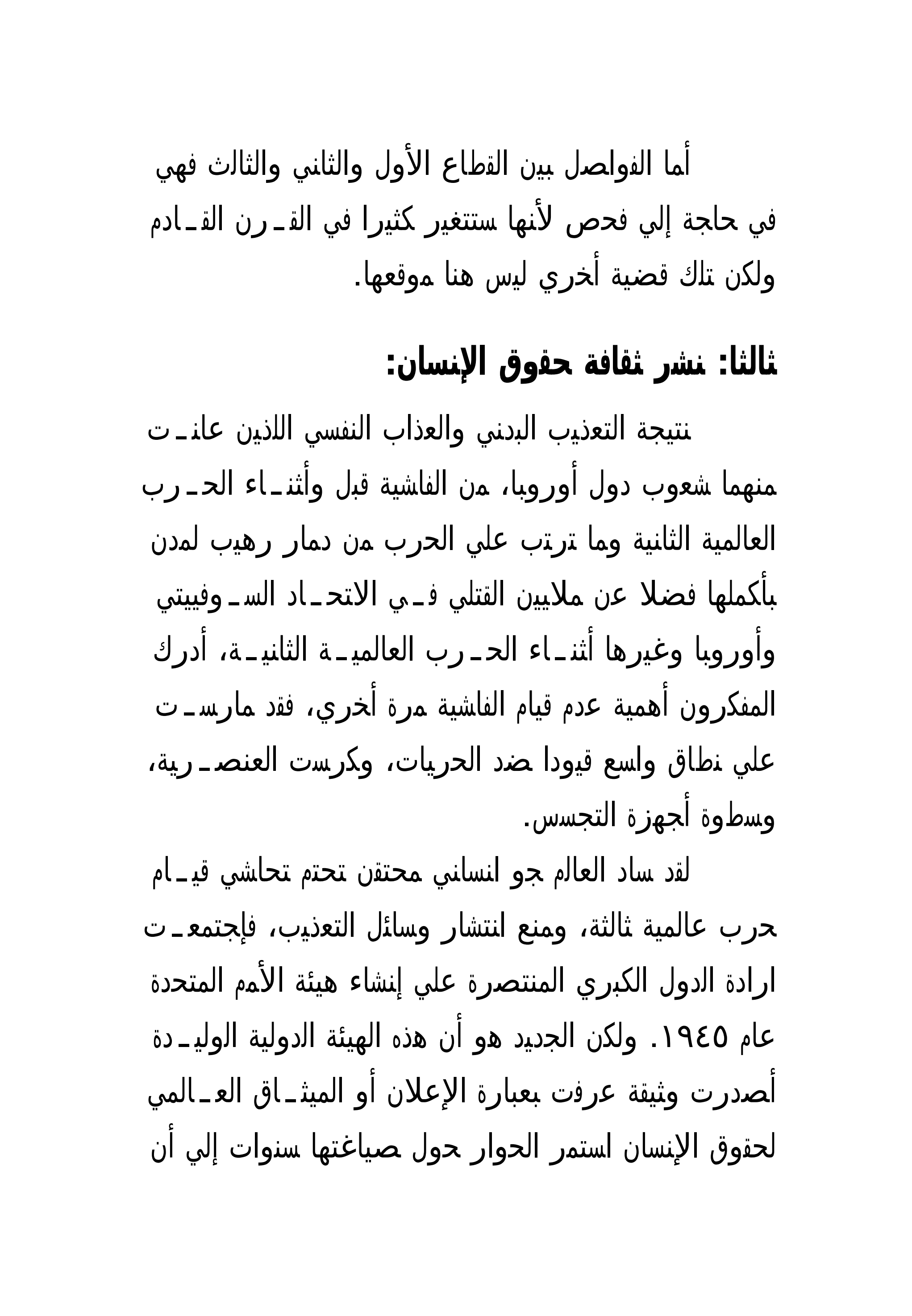
وكان الأقباط أول من أنشـأوا الجمعيـات الخيريـة القبطية في نهاية القرن التاسع عشر ثم تمسكوا بنشاطها لأنها بمثابة الأسمنت الذي يحـافظ علـي تـرابطهم الاجتمـاعي ومقاومة غوادر الزمن وتضمن التكافل الاجتمـاعي، ولكـن

للأسف الشديد فإن هذه الجمعيات القبطية في مجملها كانت - ومازالت- لأسباب خيرية فقط أو مساعدة الفقراء والـوعظ ولم يكن بها إلا جمعية الآثار القبطية ذات توجـه ثقـافي أي لنشر الخصوصية الثقافية التراثية للوثائق والمخطوطات فـي الكنائس والاديرة.

ما رغبت في أن أصل إليه هو أنه كلمـا تـدعمت صور المجتمع المدني [٢] والمشـاركة الشـعبية فـي حـل مشكلات البشر تدعم النسيج الوطني وامتزج الناس وشاركوا في حل مشكلاتهم فينسون أو يتناسون الانتماء إلي الـدين أو اللغة أو المذهب، وهكذا يصبح قبول الآخر أو رفضه مبنيـا علي كيمياء الأفراد أكثر منه علي أسس فروق جماعية.

---

[٢] كانت بداية تكوين الجمعيات الأهلية في مصـر علـى أساس ديني وكان الحراك الاجتماعي من خلال المنافسة بين هذه الجمعيات في الانشطة الخيرية ويوجد توجـه الأرقـى حالياً بأن يكون انشاء الجمعيات بنكهة مصرية تفرقة بسـبب الانتماء المدني.



أما الفواصل بين القطاع الأول والثاني والثالث فهي في حاجة إلي فحص لأنها ستتغير كثيرا في القـرن القـادم ولكن تلك قضية أخري ليس هنا موقعها.

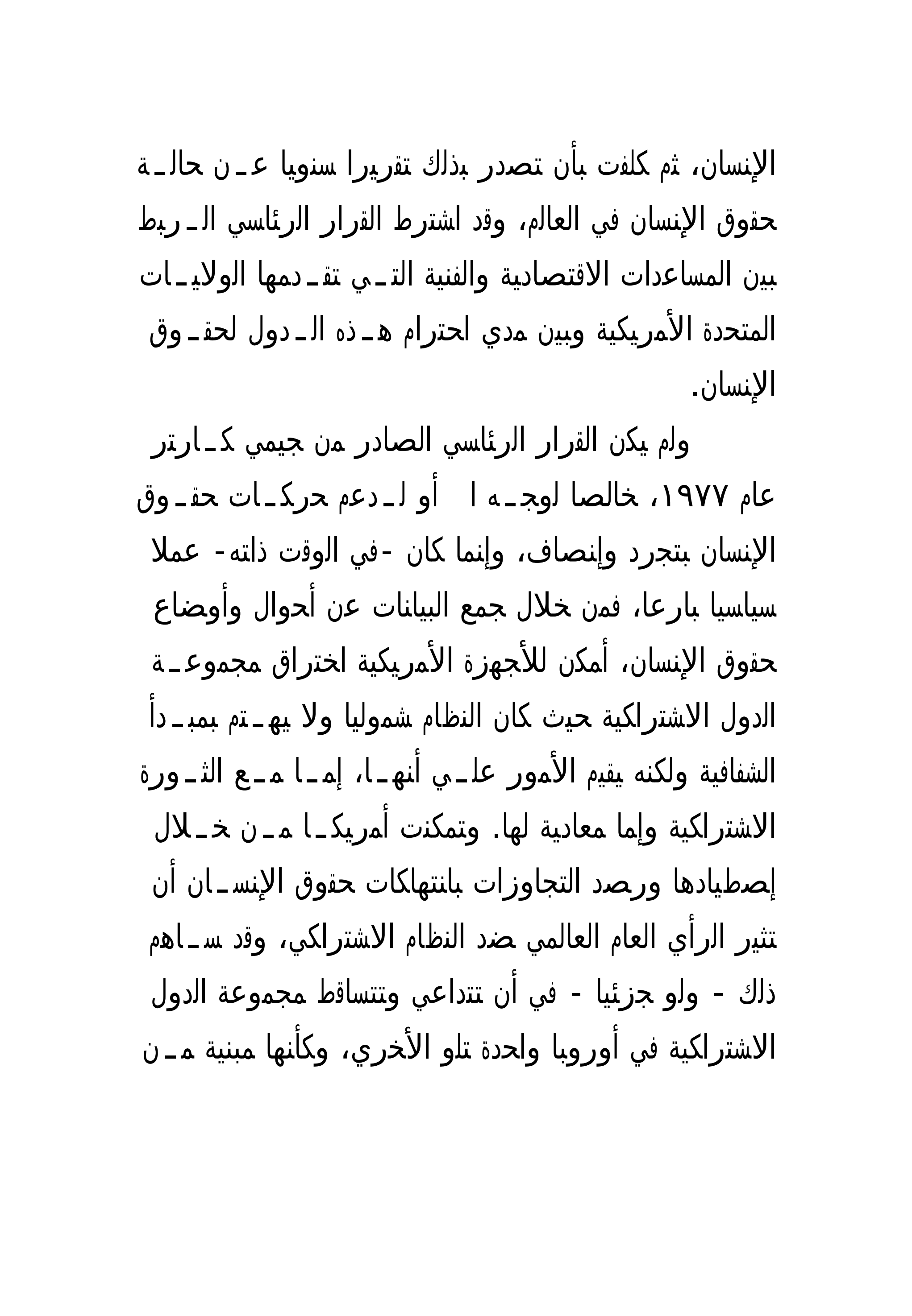
ثالثا: نشر ثقافة حقوق الإنسان:

نتيجة التعذيب البدني والعذاب النفسي اللذين عانـت منهما شعوب دول أوروبا، من الفاشية قبل وأثنـاء الحـرب العالمية الثانية وما ترتب علي الحرب من دمار رهيب لمدن بأكملها فضلا عن ملايين القتلي فـي الاتحـاد السـوفييتي وأوروبا وغيرها أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، أدرك المفكرون أهمية عدم قيام الفاشية مرة أخري، فقد مارسـت علي نطاق واسع قيودا ضد الحريات، وكرست العنصـرية، وسطوة أجهزة التجسس.

لقد ساد العالم جو انساني محتقن تحتم تحاشي قيـام حرب عالمية ثالثة، ومنع انتشار وسائل التعذيب، فإجتمعـت ارادة الدول الكبري المنتصرة علي إنشاء هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. ولكن الجديد هو أن هذه الهيئة الدولية الوليـدة أصدرت وثيقة عرفت بعبارة الإعلان أو الميثـاق العـالمي لحقوق الإنسان استمر الحوار حول صياغتها سنوات إلي أن

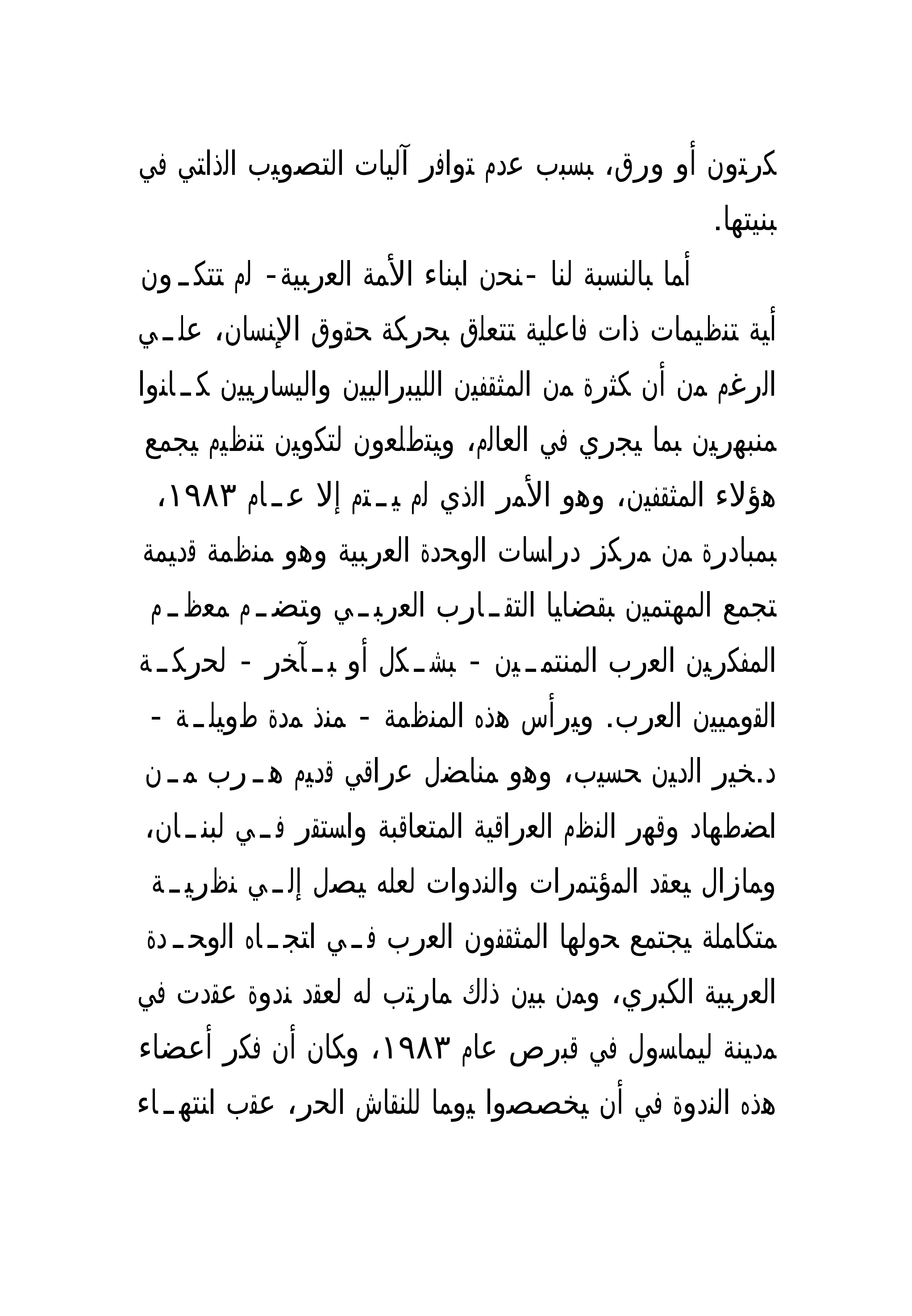
وافقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحـدة فـي ١٠ مـن ديسمبر عام ١٩٤٨، وإذ بهذا الميثاق يصـبح نقطـة بدايـة لسلسلة هائلة من مواثيق وإعلانات دولية كثيرة في مجـالات متعددة، نذكر منها علي سبيل المثـال: الإعـلان العـالمي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ثـم تـلاه آخـر بالحقوق المدنية والسياسة، ثم صـدرت الاتفاقيـة الدوليـة لمناهضة التعذيب، وقبل أن يتفجر العالم بما نحن فيـه مـن صراعات عرقية ودينية، أصدرت الأمـم المتحـدة إعلانـا للقضاء علي جميع أشكال التمييز العنصري فقد كانت مشكلة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا - وقتها - موضع اهتمام عالمي (يمكن الرجوع إلي نماذج من هـذه المواثيـق فـي الملاحق في نهاية الكتاب).

وتدريجيا تحولت هذه المواثيق والإعلانات الدوليـة لتكون حركة عالمية لحقوق الإنسان تنشر ثقافتها، أو تراقب أي ترصد ماصار يسمي انتهاكات حقوق الإنسـان، وربمـا كان القرار الرئاسي الذي أصدره جيمي كارتر عـام ١٩٧٧ علامة مهمة علي الطريق، فقد كلف الخارجيـة الأمريكيـة بإنشاء إدارة خاصة لترصد أوضـاع وتجـاوزات حقـوق



الإنسان، ثم كلفت بأن تصدر بذلك تقريرا سنويا عن حالة حقوق الإنسان في العالم، وقد اشترط القرار الرئاسي الربط بين المساعدات الاقتصادية والفنية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية وبين مدي احترام هذه الدول لحقوق الإنسان.

ولم يكن القرار الرئاسي الصادر من جيمي كارتر عام ١٩٧٧، خالصا لوجه ا   أو لدعم حركات حقوق الإنسان بتجرد وإنصاف، وإنما كان -في الوقت ذاته- عملا سياسيا بارعا، فمن خلال جمع البيانات عن أحوال وأوضاع حقوق الإنسان، أمكن للأجهزة الأمريكية اختراق مجموعة الدول الاشتراكية حيث كان النظام شموليا ولا يهتم بمبدأ الشفافية ولكنه يقيم الأمور علي أنها، إما مع الثورة الاشتراكية وإما معادية لها. وتمكنت أمريكا من خلال إصطيادها ورصد التجاوزات بانتهاكات حقوق الإنسان أن تثير الرأي العام العالمي ضد النظام الاشتراكي، وقد ساهم ذلك - ولو جزئيا - في أن تتداعي وتتساقط مجموعة الدول الاشتراكية في أوروبا واحدة تلو الأخري، وكأنها مبنية من



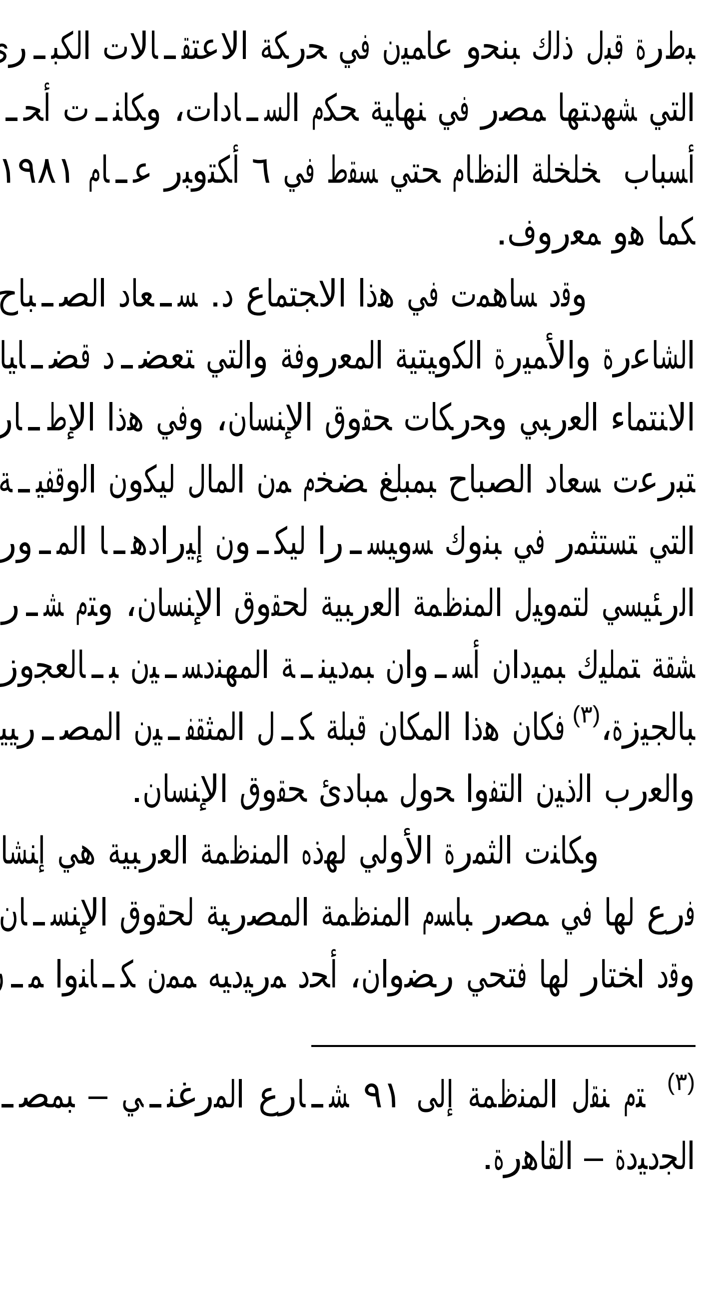
كرتون أو ورق، بسبب عدم توافر آليات التصويب الذاتي في بنيتها.

أما بالنسبة لنا -نحن ابناء الأمة العربية- لم تتكـون أية تنظيمات ذات فاعلية تتعلق بحركة حقوق الإنسان، علـي الرغم من أن كثرة من المثقفين الليبراليين واليساريين كـانوا منبهرين بما يجري في العالم، ويتطلعون لتكوين تنظيم يجمع هؤلاء المثقفين، وهو الأمر الذي لم يـتم إلا عـام ١٩٨٣، بمبادرة من مركز دراسات الوحدة العربية وهو منظمة قديمة تجمع المهتمين بقضايا التقـارب العربـي وتضـم معظـم المفكرين العرب المنتمـين - بشـكل أو بـآخر - لحركـة القوميين العرب. ويرأس هذه المنظمة - منذ مدة طويلـة - د.خير الدين حسيب، وهو مناضل عراقي قديم هـرب مـن اضطهاد وقهر النظم العراقية المتعاقبة واستقر فـي لبنـان، ومازال يعقد المؤتمرات والندوات لعله يصل إلـي نظريـة متكاملة يجتمع حولها المثقفون العرب فـي اتجـاه الوحـدة العربية الكبري، ومن بين ذلك مارتب له لعقد ندوة عقدت في مدينة ليماسول في قبرص عام ١٩٨٣، وكان أن فكر أعضاء هذه الندوة في أن يخصصوا يوما للنقاش الحر، عقب انتهـاء

الندوة التي خصصت لفحص قضية مستقبل الديمقراطية فـي العالم العربي فكان أن ناقشوا في هذا اليوم الآخيـر فكـرة إنشاء منظمة عربية لحقوق الإنسان لتكون نقطة بداية لتعميق ماهو متاح من مسطح للديمقراطية في بلاد متفرقة من العالم العربي.

وأذكر -وقتها- أن فتحي رضوان الزعيم المصـري المرحوق الذي له إسهامات فكرية وعملية في الفكر القـومي والإسلامي، والذي كان لي شرف أن عرفتـه خـلال فتـرة الاعتقالات الكبري في سبتمبر عام ١٩٨١ وكنت زميلا لـه في إحدي الزنازين فيما يسمي ملحق سجن مزرعة طرة - اختير منا بالإجماع في هذا الاجتماع عام ١٩٨٣ ليكون أول رئيس للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، فقصة حياته ونضاله واعتقالاته المتكررة تؤهله لهذا الموقع الرفيع.

وأذكر أنه من بين من جالوا وصالوا فـي اجتمـاع ليماسول عام ١٩٨٣ المرحومان د.عصمت سـيف الدولـة ود.حلمي مراد، وكان مستلفتا للنظر أن عـددا كبيـرا مـن المشاركين في تلك الندوة (من مصر) هـم ممـن تزاملـوا ضيوفا علي الدولة تحت عبارة متحفظ عليهم فـي السـجن



بطرة قبل ذلك بنحو عامين في حركة الاعتقالات الكبري التي شهدتها مصر في نهاية حكم السادات، وكانت أحد أسباب خلخلة النظام حتي سقط في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ كما هو معروف.

وقد ساهمت في هذا الاجتماع د. سعاد الصباح الشاعرة والأميرة الكويتية المعروفة والتي تعضد قضايا الانتماء العربي وحركات حقوق الإنسان، وفي هذا الإطار تبرعت سعاد الصباح بمبلغ ضخم من المال ليكون الوقفية التي تستثمر في بنوك سويسرا ليكون إيرادها المورد الرئيسي لتمويل المنظمة العربية لحقوق الإنسان، وتم شراء شقة تمليك بميدان أسوان بمدينة المهندسين بالعجوزة بالجيزة،[٣] فكان هذا المكان قبلة كل المثقفين المصريين والعرب الذين التفوا حول مبادئ حقوق الإنسان.

وكانت الثمرة الأولي لهذه المنظمة العربية هي إنشاء فرع لها في مصر باسم المنظمة المصرية لحقوق الإنسان وقد اختار لها فتحي رضوان، أحد مريديه ممن كانوا من

---

[٣] تم نقل المنظمة إلى ٩١ شارع المرغني – بمصر الجديدة – القاهرة.

شباب الحزب الوطني القديم وهو د.محمد إبراهيم كامل الذي كان -وهو في ريعان الشباب وأثناء الحرب العالمية الثانية- قد اتهم بأنه مشارك في عملية اغتيال أمـين باشـا عثمـان (وكان وزيرا لمالية مصر في حكومة الوفـد ولكنـه كـان معروفا بولائه للإنجليز). وقد اتهم محمد إبـراهيم كامـل -وقتها- بأنه قد شارك محمد أنور السادات الضابط بـالجيش المصري في محاولة اغتيال أمين عثمـان، ولـذلك اختـار الرئيس أنور السادات د.محمد إبراهيم كامـل عـام ١٩٧٨ ليكون وزيرا للخارجية ويستكمل المفاوضات مـع إسـرائيل بهدف الوصول إلي اتفاقية سلام، ولكنه استقال قبل أن يكمل المشوار لأن ضميره الوطني لم يكن مرتاحا لأن يقوم بهـذا العمل وفق الطريقة الساداتية.

المهم في ظل هذا المناخ، وفي عام ١٩٨٥ أصـبح السفير محمد إبراهيم كامل وكان قبلها سفير مصر في السويد فصار وزير الخارجية الأسبق أول رئيس للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، وانتخبت نائبا للرئيس عدة دورات، وظللنـا نعمل معا تحت مظلة المنظمة الأم المنظمة العربية لحقـوق الإنسان وفي مقر ضيافتها ومن خلال تمويلها، إلي أن عرف

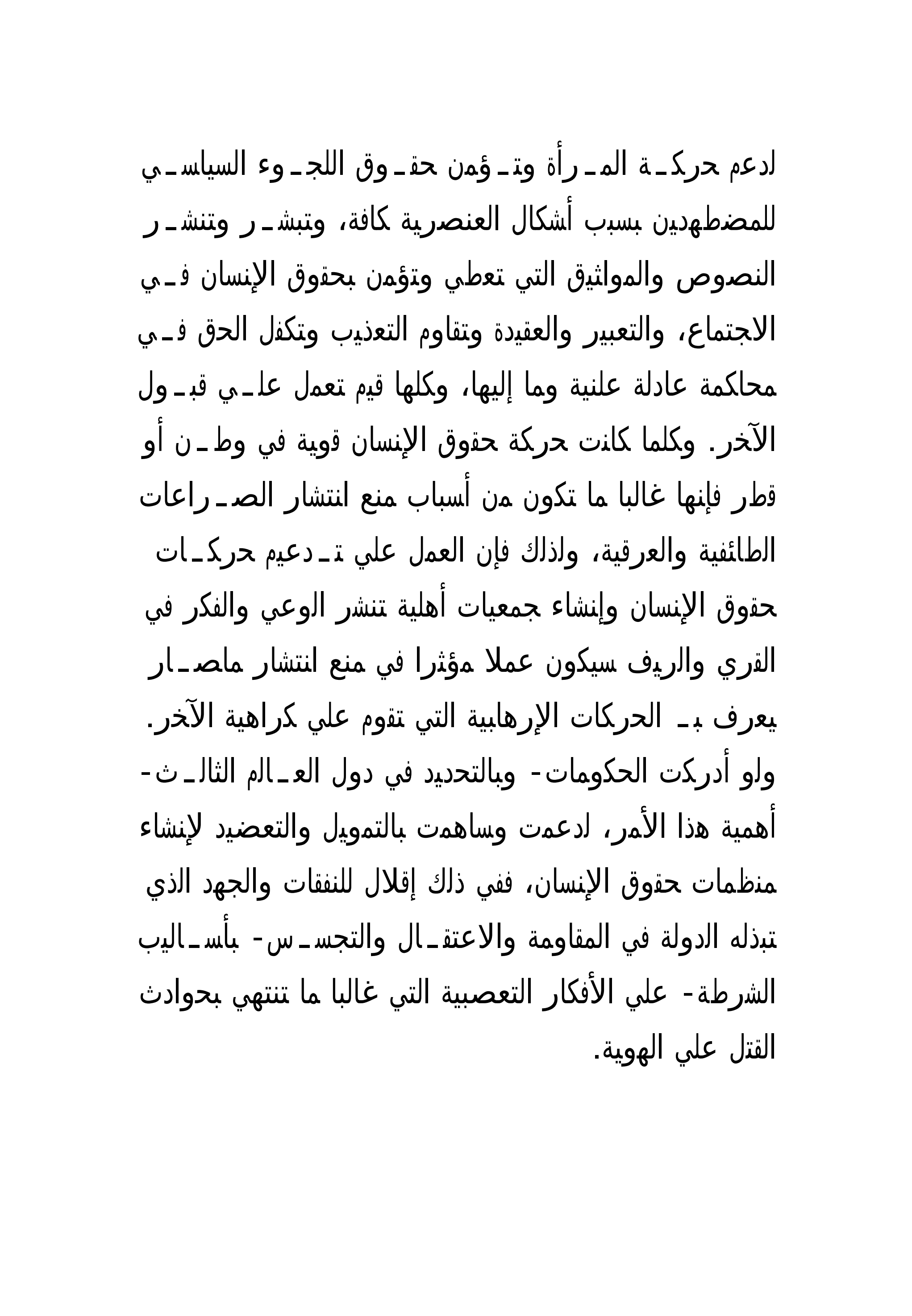
بعض الشباب من أعضاء مجلس إدارة المنظمة المصرية بأن هناك مصادر تمويل تتدفق من هيئات أجنبية تسعى لإنشاء نقط ارتكاز لها داخل مصر. وفي هدوء ودون إعلان تم التخطيط لكي تنسلخ المنظمة المصرية عن المنظمة الأم العربية، مكانا وتمويلا ونهجا وفكرا وممارسة، فكان ذلك بداية مشجعة لأفراد آخرين لكي يتبعوا النهج ذاته.

وبدلا من أن تكون هذه المنظمات في شكل جمعيات أهلية، تحاول أن تسجل في إطار القانون ٣٢ لعام ١٩٦٤ والمنظم لإنشاء الجمعيات الأهلية لتكون تحت رقابة أجهزة وزارة الشئون الاجتماعية، اختصروا الطريق، واكتشفوا أن حقوق الإنسان ترقي لأن تكون تخصصا مهنيا مثل الطب والهندسة والمحاماة، فأنشأوا لها مراكز دراسات وبشكل قانوني مختلف تماما عن الجمعيات الأهلية فصارت وكأنها مكاتب تقدم استشارات في مجال حقوق الإنسان. وتسرب من كانوا أمناء المنظمة المصرية واحدا بعد الآخر، وفي سرية وهدوء دعموا علاقتهم الشخصية مع منظمات التمويل الأجنبية كل حسب مواهبه وضميره وخطوطه الحمراء. وهكذا وخلال حقبة التسعينيات تكونت عدة مراكز لحقوق

الإنسان بعضها تخصص في التدريب لحقوق الإنسان والآخر في التبشير بالديموقراطية ومراقبة الانتخابات أو للمساعدة القانونية أو لدعم الوحدة الوطنية، وغيرها كثير وقد أدي كل ذلك لأن حاصرت الحكومة هذه المنظمات عند تعديل القانون كله عام ١٩٩٩.

وهكذا تكونت ثم تشرذمت حركة حقوق الإنسان، وبدلا من أن تصبح حقوق الإنسان حركة شعبية تلتف حولها جماهير غفيرة تحميها وتؤمن بها، إذ بأغلبها شلل أو جزر، عرفت مصادر التمويل واحتكرت العمل في هذا المجال وبشكل سري وكأنها تعيد إنتاج التنظيمات اليسارية والدينية والراديكالية السرية القديمة.

وإذا عدنا من هذه الجولة التاريخية إلي المسار الرئيسي الذي يربط هذا الكتاب بعضه ببعض، نقول إن وجود حركة حقوق إنسان شعبية ووطنية، وهو إحدي الضمانات لنشر ثقافة وفكر قبول الآخر، ذلك أن مواثيق وبيانات حقوق الإنسان في مجملها تدعو إلي نبذ التعصب وكافة أشكال التمييز العنصري، ليس لحماية الأقليات علي أنواعها فحسب، وإنما لتحقيق المساواة والعدالة للكافة وتدعو



لدعم حركـة المـرأة وتـؤمن حقـوق اللجـوء السياسـي للمضطهدين بسبب أشكال العنصرية كافة، وتبشـر وتنشـر النصوص والمواثيق التي تعطي وتؤمن بحقوق الإنسان فـي الاجتماع، والتعبير والعقيدة وتقاوم التعذيب وتكفل الحق فـي محاكمة عادلة علنية وما إليها، وكلها قيم تعمل علـي قبـول الآخر. وكلما كانت حركة حقوق الإنسان قوية في وطـن أو قطر فإنها غالبا ما تكون من أسباب منع انتشار الصـراعات الطائفية والعرقية، ولذلك فإن العمل علي تـدعيم حركـات حقوق الإنسان وإنشاء جمعيات أهلية تنشر الوعي والفكر في القري والريف سيكون عملا مؤثرا في منع انتشار ماصـار يعرف بـ الحركات الإرهابية التي تقوم علي كراهية الآخر. ولو أدركت الحكومات- وبالتحديد في دول العـالم الثالـث- أهمية هذا الأمر، لدعمت وساهمت بالتمويل والتعضيد لإنشاء منظمات حقوق الإنسان، ففي ذلك إقلال للنفقات والجهد الذي تبذله الدولة في المقاومة والاعتقـال والتجسـس- بأسـاليب الشرطة- علي الأفكار التعصبية التي غالبا ما تنتهي بحوادث القتل علي الهوية.

رابعا: الفكر والمنطق العلمي:

مازال أمام العالم سنوات طويلة حتي يسوده الفكـر والمنطق العلمي، ذلك أن العديد مـن دول العـالم النـامي مازالت ترزح تحت قسوة الأمية الأبجدية. وفي بلـد مثـل مصر،وبرغم الإنجازات الظاهرة في مجال التعليم الجـامعي والبحوث العلمية وما إليها، فإن نصف المجتمـع لايعـرف القراءة والكتابة وهو أمر مأساوي كنا نتمني أن يكون موضع اهتمامات كل من عصور عبدالناصر والسـادات ومبـارك، وكنا نتمني أن نرفع شعارات مثل إقلال نسبة الأميـة بـين الكبار إلي ٢٥% في بحر خمس سنوات وقد طرحـت دول نامية كثيرة شعارات مماثلة وحققتها. ويعزي المحللون نهضة اليابان إلي خطة أسرة ميجي التعليمية في القـرن الماضـي حيث جنت اليابان ثمرة غرسها جيل مضي. أما اليونسكو فقد رفعت عام ١٩٩٥ هدف محو الأميـة فـي مجـال العلـم والتكنولوجيا فيما سمي مشروع ٢٠٠٠، أي ينبغي تحقيقه مع مطلع القرن ٢١ عن طريق الإلمام كثقافـة عامـة للشـعب المبادئ والإنجازات الأساسية للعلوم الفيزيائية فضـلا عـن

تطبيقاتها في مجالات الطب والزراعة والهندسة أي ماصرنا نطلق عليه عبارة التقدم التكنولوجي.

الصورة المقابلة هي أن معظم الدول النامية تخضـع لسطوة الفكر الخرافي وسـيادة مفـاهيم الحسـد والتواكـل والقدرية وصولا إلي استخدام السحر أحيانـا، وكـل هـذه المفاهيم تكون مرتبطة بالتعصب علي أشكاله ومن ثم إلقـاء اللوم علي الآخر متوهمين أن هذا الآخر هو سبب التعاسـة والفقر. فالطبيعة البشرية تميل عادة إلي إعفاء الـذات مـن اللوم، ومن ثم ينظر كل منا حوله ويعلل لنفسـه أن تعاسـته وعدم نجاحه إنما تعود إلي الزميل أو الجار أو الرئيس الذي يضطهده. وأحيانا قد يكون اللوم موجها إلي أقرب الناس إليه أي إلي الزوجة أو الوالدين أي باختصار إلي الآخر أي آخر وعلي المستوي الجمعي يلقي اللوم علي المجتمع كله أو فريق منه أو دولة مجاورة، ثم يمتد الأمر ليسود فكر: أن الآخرين يتآمرون علينا وأن جيراننا لايبغون لنا الخيـر ويخططـون لزرع الفتن وما إلي ذلك، وهي أمور واردة ونعيشـها كـل يوم، بيد أنها لاتعفي أبدا من الحساب مـع الـنفس وداخـل الوطن وليس خارجه.

ولذا فإذا ساد التفكير العلمي -الذي يرتكـز علـي تراكم الثقافة بفروعها والمعلومات علـي أنواعهـا سنصـل كشعب أو أفراد إلي سيادة العقل فإنه عندما يجد -اي منـا- قصورا في أدائه يسائل نفسه أولا عن أسباب عدم نجاحه ثم يمارس مفاهيم التصحيح الذاتي، فقد يكـون العيـب داخلـه فيصحح ذاته. وعلي المستوي الجمعي عند ظهور قصـور في مجموعة بشرية يكون السؤال: لماذا تتخلف بلادنا ويتقدم آخرون؟ وهو أمر ثقافي لاينطبق علـي المـواطن العـادي فحسب ولكنه - وبالدرجة الأولي- ينطبق علـي القيـادات السياسية، فما هم إلا بشر مثلنا تكونوا وتربوا ورضعوا لبنا ثقافيا سائدا في الحقبة التي يعيشونها، ومن هنا كانت أهميـة سيادة الفكر والمنطق العلمي في المجتمع، وهي عملية صعبة ومعقدة، لأن هناك مؤسسات أقوي تنشر وتدعم الفكر الغيبي، ولذا فإن سيادة الفكر العلمي والثقافـة العلميـة فـي حاجـة لمخطط واضح تتبناه الأحزاب السياسية والمؤسسات الثقافية مثل الجامعات والجمعيات الثقافية بأنواعها.

وسيظل الصراع قائما ومستمرا بين التيار الذي يدعو للتفكير العلمي (وهو عادة التيار الليبرالي والتقـدمي وهـو

ذاته الذي يدعو إلي ديمقراطية حقيقية تقود إلي تداول سلمي للسلطة، وهو أيضا التيار ذاته الذي يدفع آليات دعم المجتمع المدني وحقوق الإنسان) وبين التيار الآخر حيـث تتحـالف قوي ومؤسسات مبنية علي الفكر الغيبي (وهي عادة متحالفة مع قوي مقاومة الديمقراطية ودعم النظم القائمة ولو بشـكل غير مباشر وتقاوم إنشـاء الجمعيـات الأهليـة والنقابـات باعتبارها نتاجا للحضارة الغربية التي تقدم لنا حقوق الإنسان بهدف السيطرة علينا). وهذا الصراع بين التيارين والفلسفتين قائم وسوف يستمر -في مصر وفـي غيرهـا مـن الـدول المماثلة- لفترة طويلة من الزمن [٤]

.

ومن منطلق موقعي كمؤسس للجنة الثقافة العلمية في المجلس الأعلي للثقافة، أحاول مع زملائي الأعزاء أعضـاء اللجنة - وفي إطار المتـاح والممكـن- أن ننشـر الثقافـة العلمية، من خلال عقد ندوات ومؤتمرات ليتحدث فيها أساتذة مرموقين يقدمون الجديد في دنيا العلم وتطبيقاته في الطـب والهندسة والزراعة بما فيها الهندسة الوراثية، لأنـه عنـدما

---

[٤] هناك مناطق رمادية، فيما بين هذين التيارين بطبيعة الحال.

تنتشر الثقافة العلمية من خلال تشويق الإنسان لمعرفة كل ما هو جديد في مجال العلم وتطبيقاته، كلما نما لدي الفرد الفكر والمنطق العلماني، وعندئذ سيتولد تلقائيا مفهوم قبول الآخر.

الفصل الخامس
الاشتراكية الديمقراطية
أيديولوجيـة مناسبـة لقبول الآخر

* الصراع قديم بين الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية.
* الأحزاب النازية والفاشية تقوم علي كراهية الآخر.
* النظم الشمولية يمينا ويسارا لا تساعد علي قبول الآخر.
* الليبرالية والاشتراكية الديمقراطية تحـث علـي حـق الاخـتلاف والتعددية.
* الاشتراكية الديمقراطية لها نكهة أوروبية وليست مقبولة ثقافيا فـي العالم العربي.
* قدم حزب السادات طلبا للاشتراكية الدولية ورفـض بـرغم وعـد كرايسكي.
* الحزب الوطني الديمقراطي، لا هو بالديمقراطي ولا بالاشتراكي.
* الاشتراكية الديمقراطية تطور نفسها حتي لا تصيبها لعنة الشيوعية
* الطريق الثالث مصطلح جديد للاشـتراكية الديمقراطيـة ينـاسـب العولمة والألفية الثالثة.

الاشتراكية الديمقراطية أيديولوجية مناسبة لقبول الآخر

إن كل العوامل التي سبق أن طرحناها لتوفير قبـول الآخر مجتمعيا يمكن أن تبلور في شكل أيديولوجيـة تـوفر المناخ العام لقبول الآخر، ذلك أن كل النظم أو الأيديولوجيات الشمولية تقوم في الأساس علي كراهية الآخر. وعلي سـبيل المثال، فإن الفكر الفاشي أو النازي - كما تم بالفعـل فـي السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية - قام علـي أسـاس كراهية الآخر، أو تعليق مشكلات المجتمع علي الآخر. ففي ألمانيا النازية كانت الركيزة الأولي هـي أن ألمانيـا فـوق الجميع وفي ذلك الوقت نشروا فكرة أن اليهـود هـم سـبب المشكلات في المجتمع، فظهرت عبـارة معـاداة السـامية، وهرب الآلاف منهم بالفعل إلي خارج ألمانيا وقتل آخـرون دون محاكمة عادلة علنية، وكان ذلك أحد المبررات لإنشـاء إسرائيل، ودفع عرب فلسطين ثمن أخطاء النازية الألمانيـة كما هو معروف.

وعلي الرغم من أن الشيوعية أيديولوجيـة نقـيض للفاشية تماما، فإن الممارسـات التـي تمـت فـي الاتحـاد

السوفييتي عبر نحو ٧٠ عاما (١٩١٧ - ١٩٨٩) كانت تدعو لكراهية الرأسمالية، وبالتالي ناصبت مجمـل دول أوروبـا الغربية وأمريكا العداء باعتبارها دولا رأسمالية، وكـان رد الفعل هو كراهية مقابلة من أمريكا وأوروبا للشـيوعية فـي حملة ضارية مخططة وفاعلة، وهو الأمر الذي سـاد حقبـة الحرب الباردة. وسخرت أمريكا ممارساتها لزيادة الكراهيـة بين الاديان والشيوعية، وقام الفاتيكان بوسائل معلنة وأخري تحتية لتعضيد ذلك، كان أبرزها مـاتم مـن خـلال نقابـة التضامن في بولندا التي أنشأها ليخ فاونسا ويري كثيرون أن مناهضة عمال بولندا الكاثوليك كانت بدايـة تحلـل الـنظم الشيوعية في بولندا، إلي أن صار ليخ فاونسا نفسـه (وهـو عامل بسيط لايعرف أية لغة أجنبية) رئيسا للدولـة ثـم تـم الاستغناء عنه بعد أن أدي دوره.

قبل ذلك خطط جون فوستر دالاس وزير خارجيـة أمريكا، في مرحلة الخمسينيات- لاشعال نار الحرب الباردة، فكريا، ووجد أن مجمل الأديان في العالم يمكـن أن تكـون حليفا له في صراعه مع الشيوعية، فأنشأ تنظيما -باسم معبد التفاهم The Temple Of Understanding، وكان هـذا

التنظيم مظلة لتحالف الأديان كلهـا فـي مواجهـة خطـر الشيوعية. وربما كان هذا الأمر نقطة البدايـة فـي تقويـة جماعات الإسلام السياسي من خلال تمويل أمريكي، إلي أن كانت الذروة في تنظيم المتطوعين من كل البلدان الإسـلامية في فرق المجاهدين الذين تدربوا في باكستان بواسطة خبراء أمريكان، بهدف العمل مع التنظيمات الإسلامية المسماة أيضا المجاهدين الأفغان في مواجهة النظام الشيوعي الـذي كـان مواليا للسوفييت. وعندما قرر جورباتشوف الانسحاب مـن أفغانستان، تفجر الصراع الداخلي بـين فـرق المجاهـدين الأفغان، ومازال الأمر كذلك حتي الآن. ونشأ مرض الحرب بين الفرق التي كانت متحالفة لعل أشهرها هو الصراع بـين طالبان ومسعود حتي صار الخطر المسمي التمزق الأفغـاني واردا في دول أخري فقيرة كانت تتمني الاستقرار.

ومن سخريات القدر أن الأمريكان والنظم العربيـة والإسلامية التي قدمت المتطوعين للعمل فـي أفغانسـتان، كانوا أول من اكتووا بنار كراهية الآخر من خلال الارهاب فعندما تفكك الاتحاد السوفييتي، وانتهي دور المتطـوعين أو المجاهدين في تحرير أفغانستان، انتشر هؤلاء الشباب الـذين

تدربوا تحت مظلة وكالـة المخـابرات الأمريكيـة C.I.A. وصاروا مصدر خطر، وأداة لتصدير الإرهـاب إلـي دول كثيرة.

وعلي جانب آخر نجد ظاهرة مماثلة وهي أن اليهود الذين اضطهدوا من النازية تحت أيديولوجية معاداة السامية، (أي كراهية الآخر المسبقة دون سبب شخصي إلا لأن المرء ينتمي إلي دين معين)، قد صار منهم أحزابا معادية للعـرب بعد أن حصلوا علي الهوية أو الجنسية الإسـرائيلية، أي أن النظم السياسية يمكن أن تجد ضالتها في أيديولوجية كراهيـة الآخر، باعتبارها وصفة سحرية للتماسك الداخلي.

وللأسف الشديد، فقد كان درس التاريخ فـي حقبـة ماقبل الحرب العالمية الثانية عند تحليل واقعة تسليم شامبرلن رئيس وزراء انجلترا لهتلر النازي في ميونخ عـام ١٩٣٨، هو أن أي تنازلات للنظم الفاشية، تؤدي إلي زيـادة قوتهـا وطغيانها. ولم يكن في الاستطاعة قهـر الـنظم الفاشـية أو النازية إلا من خلال الحرب العالمية الثانيـة وبـثمن بـاهظ للأرواح والممتلكات علي أنواعها. والعبرة والعظة أن النظم الفاشية لاتترك مواقعها بسهولة ومن ثم تفرض الحرب نفسها

بديلا وحيدا ونهائيا، ويوجد في العالم الآن نظم فاشية كثيـرة - كما في السودان وغيرها- وإن كانت تأخذ أسماء مختلفة.

***

صراع فكري قديم:

وحقيقة الأمر، أنه كان هناك صراع فكري، بدأ فـي النصف الثاني من القرن التاسع عشـر بـين الماركسـيين أنفسهم، إذ انقسموا إلي تيار المتشددين والذين أسموا أنفسـهم شيوعيين وتيار آخر أكثر اعتدالا وليبرالية، لأنه جمع بـين الاشتراكية والديمقراطية، ومن هنا صار يعرف بالاشتراكية الديمقراطية، وهي أيديولوجية سادت وتطورت من حقبة إلي أخري، ولكنها مازالت باقية، وسـائدة بالتحديـد فـي دول أوروبا الغربية. ووصلت أحزاب الاشتراكية الديمقراطية إلي الحكم في معظم دول أوروبا الغربية وإن كانت قـد تمكنـت (في دول إسكندنافيا بالتحديد: السويد - النرويج - الدانمارك) من أن تستمر في الحكم لسنوات طويلة حتي صارت ثقافـة الاشتراكية الديمقراطية هي السائدة في المجتمـع. ووصـل الأمر لأن تصور البعض - وربما أكون بينهم - أن النموذج

الثقافي والسياسي لمجتمعات دول الشمال هو الشكل الأرقـي للمجتمع الذي يعبر عن تطبيق الاشتراكية الديمقراطية وربما كان ذلك أحد أسباب ارتباطي الوجداني بالسويد.

جاء تعريف الاشتراكية - الديمقراطية فـي معجـم الشيوعية العلمية (من إصدارات دار التقدم - موسكو)، علي أنها تيار في الحركة العمالية العالمية المعاصرة ينطلق مـن مواقـع الاشـتراكية الإصـلاحية (الارتقائيـة). وتتميـز الاشـتراكية-الديمقراطيـة باختيارهـا الطرائـق السـلمية والتدريجية فقـط، أي الإصـلاحية، والسـعي لأن يسـتبدل النضال الطبقي بالتعاون الطبقي، وتصوير الدولة علي أنهـا فوق الطبقية وفهم الاشتراكية باعتبارها مقولة أخلاقية أدبية. والأطروحات الفكرية السياسـية للاشـتراكية الديمقراطيـة تتعارض مع الاشتراكية البروليتارية الثورية، أي مع النظرية الماركسية اللينينية.

ويستكمل المعجم التعريف، فيتطرق إلي تاريخ نشوء مصطلح الاشتراكية الديمقراطية وإلي أساس الحركة الحزبية التي قامت عليه وتطورها. وهنا نجد صفات مثل:الانتهازية / التحريفية / طبيب لدي سرير الرأسمالية المريضـة/ تغلـب

اليمينية والشوفينية/ التخلي نهائيا عـن الماركسـية لصـالح الأيديولوجيا الاصطفائية (التعددية)/ التبعية للنظام الرأسمالي.

وبرغم كل هذه الأوصاف فإن التعريف ينتهي بعبارة جاءت في تقرير برجنيف السكرتير العـام إلـي المـؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي يقول فيهـا: لاريب أننا لن نقبل حتي بمجرد التطـرق إلـي أي تقـارب أيديولوجي بين الشيوعية العلمية وبين إصلاحية الاشتراكيين الديمقراطيين .... بيد أن هناك مايمكن أن يوحد بيننا وبـين الاشتراكيين الديمقراطيين الذين يعون مسئوليتهم حيال قضية السلام، إذ يجمعنا وإياهم الحرص علي أمن الشعوب والسعي لكبح جماح التسلح وردع الفاشية والعنصرية والاستعمار.

وهناك تفاصيل كثيرة تحكي تاريخ هذا الصراع غير المبرر غالبا بين الشيوعية أي الماركسية - اللينينيـة وبـين الاشتراكية أي الماركسية الممزوجة بالليبرالية، والتي نشأت وترعرعت في أوروبا الغربية لنحـو قـرن مـن الزمـان ووصلت إلي الحكم بطرق سلمية شرعية دون عنـف فـي العديد من دول أوروبا الغربية، ومازالت كذلك. فقد عاد عام ١٩٩٧ توني بلير لقيادة حزب العمال البريطاني إلي الحكـم

ولكن برؤية جديدة، وكذلك الحال في فرنسا، وينتظر أن يفوز الحزب الاشـتراكي الـديمقراطي SPD فـي ألمانيـا فـي الانتخابات عام ١٩٩٨[١]. ولذا فإن الأمر قد يستدعي إلقـاء بعض الأضواء علي التغيرات التي حدثت، وينتظر أن تحدث في أيديولوجية الاشتراكية الديمقراطية إلي ما صار يعـرف بالطريق الثالث فقد اختفت الطبقة العاملة المتشددة حتي فـي دول أوروبا وحل محلها طبقة وسطي أكثر رفاهية.

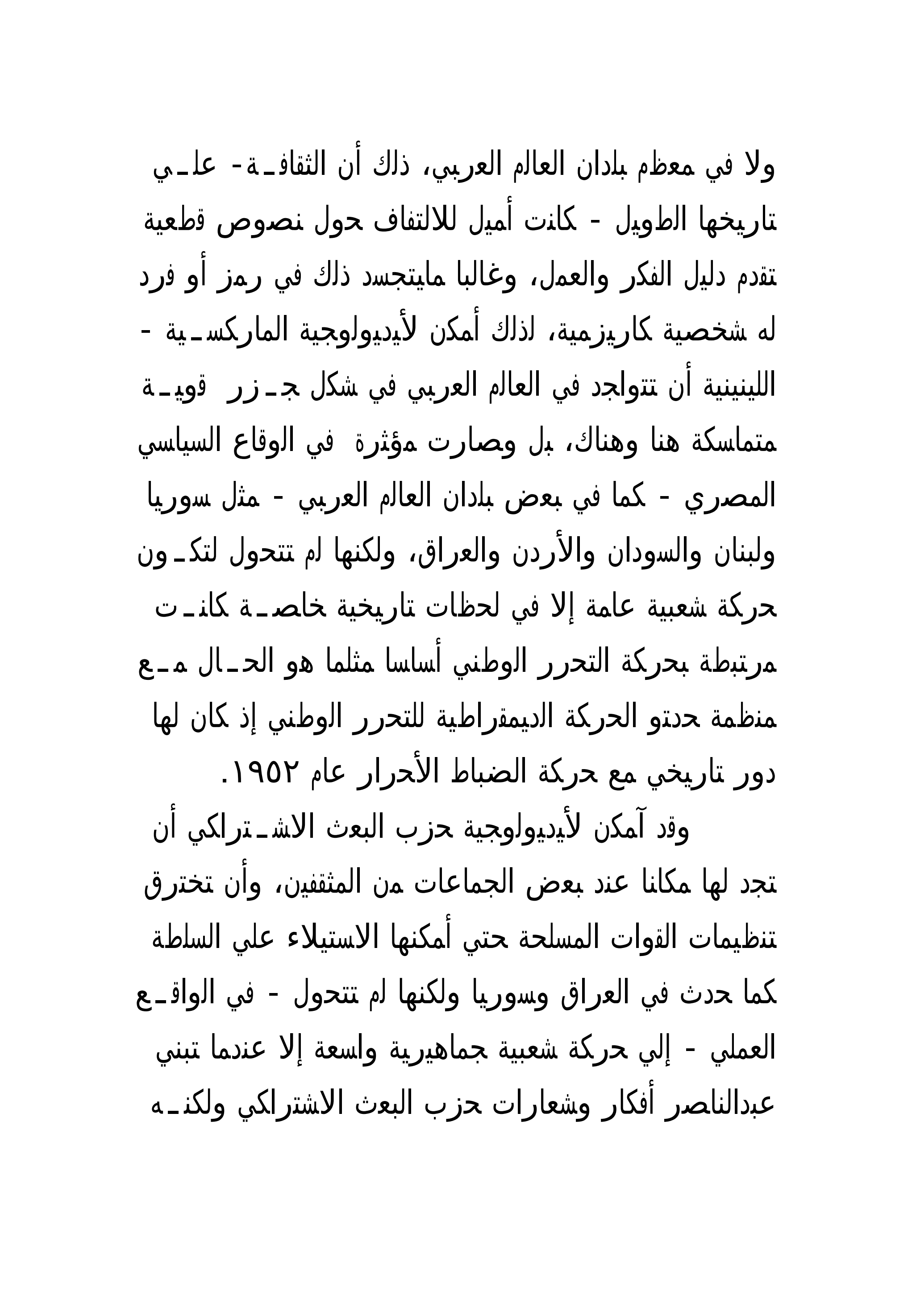
دعني أقطع هذا السياق التاريخي الأوروبـي لكـي أروي ماذا جري في مصـر فيمـا يتعلـق بـ ـالاشتراكية الديمقراطية لأن هذه الجزئية التاريخية لم يلق عليها ضـوء كاف وقد تندثر مع التاريخ بين طيات الحركات الأصولية من جانب وتفجر ثم تعثر الليبرالية في معظم بلدان العالم العربي.

هل توجد جذور للاشتراكية الديمقراطية في مصر؟

واقـع الأمـر، هـو أن أيديولوجيـة الاشـتراكية الديمقراطية ليس لها جذور أو قواعد جماهيرية، لا في مصر

---

[١] كتبت هذه المقولة قبل إجراء الانتخابات وقد فاز الحزب بالفعل عام ١٩٩٩.

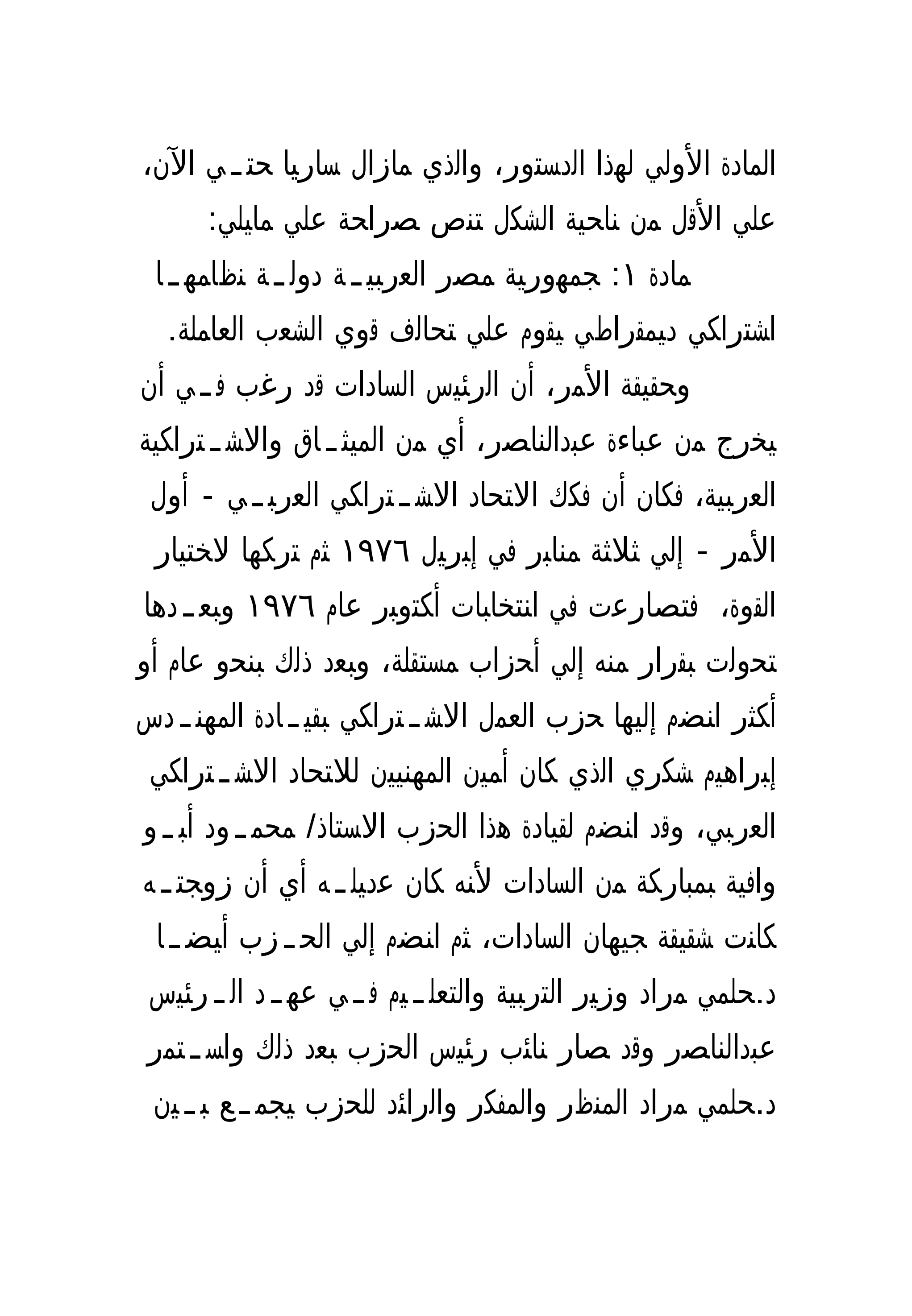


ولا في معظم بلدان العالم العربي، ذلك أن الثقافـة- علـي تاريخها الطويل - كانت أميل للالتفاف حول نصوص قطعية تقدم دليل الفكر والعمل، وغالبا مايتجسد ذلك في رمز أو فرد له شخصية كاريزمية، لذلك أمكن لأيديولوجية الماركسـية - اللينينية أن تتواجد في العالم العربي في شكل جـزر قويـة متماسكة هنا وهناك، بل وصارت مؤثرة في الوقاع السياسي المصري - كما في بعض بلدان العالم العربي - مثل سوريا ولبنان والسودان والأردن والعراق، ولكنها لم تتحول لتكـون حركة شعبية عامة إلا في لحظات تاريخية خاصـة كانـت مرتبطة بحركة التحرر الوطني أساسا مثلما هو الحـال مـع منظمة حدتو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني إذ كان لها دور تاريخي مع حركة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢.

وقد آمكن لأيديولوجية حزب البعث الاشـتراكي أن تجد لها مكانا عند بعض الجماعات من المثقفين، وأن تخترق تنظيمات القوات المسلحة حتي أمكنها الاستيلاء علي السلطة كما حدث في العراق وسوريا ولكنها لم تتحول - في الواقـع العملي - إلي حركة شعبية جماهيرية واسعة إلا عندما تبني عبدالناصر أفكار وشعارات حزب البعث الاشتراكي ولكنـه

طورها عندما قام الأستاذ محمد حسنين هيكل بتمصيرها في نصوص الميثاق الذي صار الوثيقة الفكرية لحزب أو تنظـيم الاتحاد الاشتراكي العربي، ثم قام بتغيير هذه الايديولوجيـة فأسماها بـ الاشتراكية العربية وعندئذ تحولـت لأن تكـون أيديولوجية ناصرية. وقـد نلاحـظ أن تنظيمـات الاتحـاد الاشتراكي العربي في الستينيات كانت متأثرة - إلي حد كبير - بما مارسه الرئيس جوزيف بروز تيتو في يوجوسلافيا قبل ذلك.

وفي هذا الإطار، عندما وصل الرئيس السادات إلـي الحكم ثم قام بالانفراد بالسلطة وعزل ثم حاكم رفاقـه فـي رحلة عصر عبدالناصر، رغب في أن يبني حزبـه وعهـده بفكر جديد، وقد ساعده في ذلك بعض المثقفـين المصـريين ممن عايشوا الناصرية وتنظيماتها، ولكنهم خرجوا عليها مع السادات، ولذلك - وبعد نجاحه في الحركة التي أسماها ثورة التصحيح في ١٥ من مايو عـام ١٩٧١ - قـام بصـياغة الدستور المصري الجديد في ١١ سبتمبر عـام ١٩٧١ وتـم تعديله باستفتاء آخر في ٢٢ مايو عام ١٩٨٠. ومن عجب أن


المادة الأولي لهذا الدستور، والذي مازال ساريا حتـي الآن، علي الأقل من ناحية الشكل تنص صراحة علي مايلي:

مادة ١: جمهورية مصر العربيـة دولـة نظامهـا اشتراكي ديمقراطي يقوم علي تحالف قوي الشعب العاملة.

وحقيقة الأمر، أن الرئيس السادات قد رغب فـي أن يخرج من عباءة عبدالناصر، أي من الميثـاق والاشـتراكية العربية، فكان أن فكك الاتحاد الاشـتراكي العربـي - أول الأمر - إلي ثلاثة منابر في إبريل ١٩٧٦ ثم تركها لاختيار القوة، فتصارعت في انتخابات أكتوبر عام ١٩٧٦ وبعـدها تحولت بقرار منه إلي أحزاب مستقلة، وبعد ذلك بنحو عام أو أكثر انضم إليها حزب العمل الاشـتراكي بقيـادة المهنـدس إبراهيم شكري الذي كان أمين المهنيين للاتحاد الاشـتراكي العربي، وقد انضم لقيادة هذا الحزب الاستاذ/ محمـود أبـو وافية بمباركة من السادات لأنه كان عديلـه أي أن زوجتـه كانت شقيقة جيهان السادات، ثم انضم إلي الحـزب أيضـا د.حلمي مراد وزير التربية والتعلـيم فـي عهـد الـرئيس عبدالناصر وقد صار نائب رئيس الحزب بعد ذلك واسـتمر د.حلمي مراد المنظر والمفكر والرائد للحزب يجمـع بـين

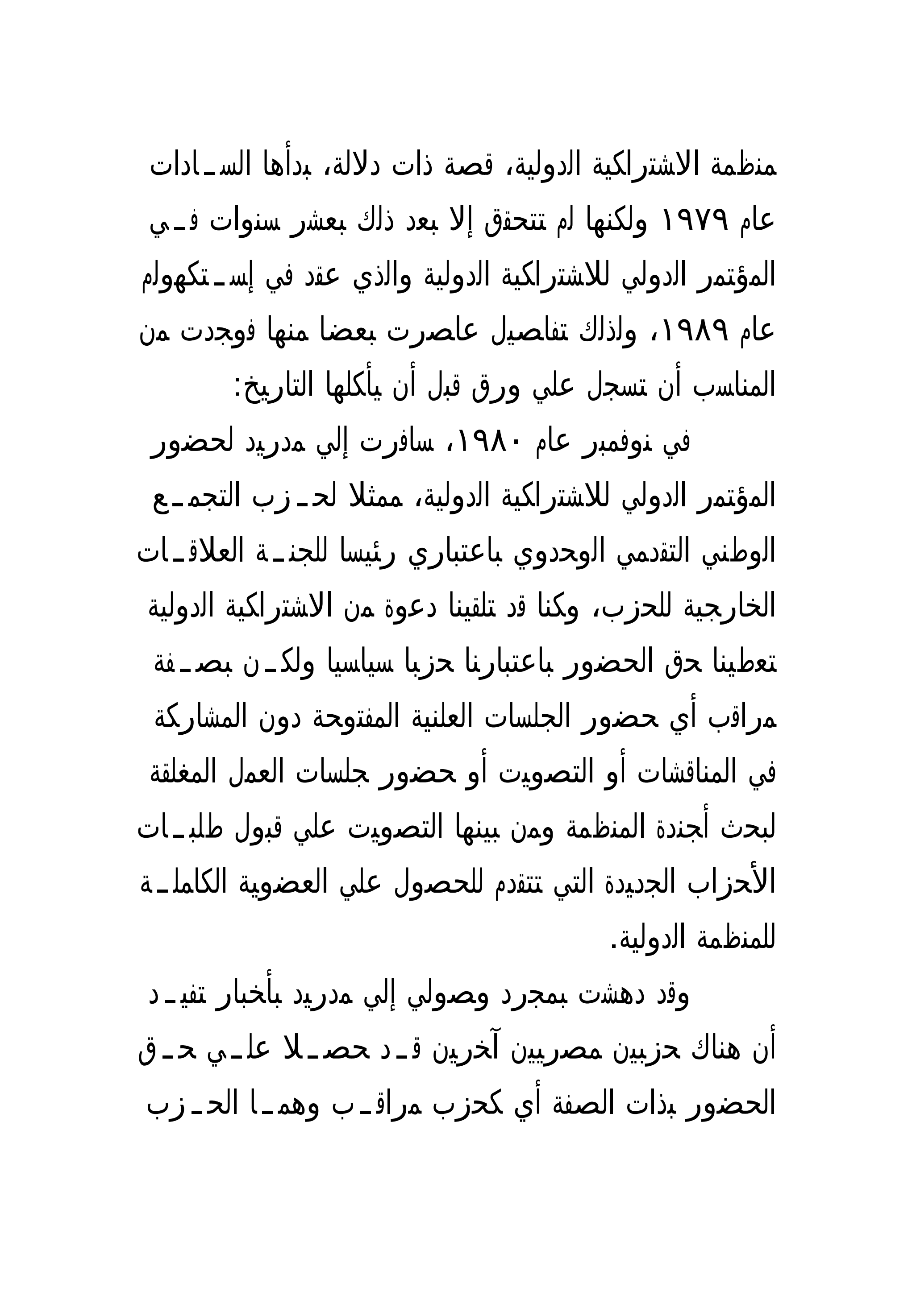
الفكر الليبرالي القانوني الممـزوج باشـتراكية ذات نكهـة إسلامية إلي أن مات عام ١٩٩٨.

ثم كان أن وافق السادات علي إعادة إنشـاء حـزب الوفد عام ١٩٧٨ وأخذ اسم الوفد الجديد برئاسة فؤاد باشـا سراج الدين. ومن خلال انتخابات تكميلية في دائرة الجمرك بالإسكندرية كانت هناك مبارزة كلامية عبر خطب عامة بين السادات وفؤاد سراج الدين حيث تبادلا الاتهامات والعبارات العنيفة وكلاف السادات مستشاره الصحفي موسي صبري بأن يفتح النيران علي فؤاد سراج الدين.

وفي ١٧، ١٨ يناير ١٩٧٧ كانـت الهبـة الشـعبية التلقائية نتيجة صدور قرارات رفع أسعار المـواد الغذائيـة الأساسية بشكل مفاجئ ودون إعداد الرأي العام لقبول هـذا القرار الخطير، فكانت المظاهرات التي عمت مصر كلها من الإسكندرية إلي أسوان. كل ذلك جعل السادات يشـعر بـأن تجربة الديمقراطية قد لاتحمد عقباهـا، فكـان أن قـال إن للديمقراطية أنيابا. وفي الوقت ذاته كان في حاجة إلي واجهة ديمقراطية تجمل شكل الحكم، وكان الحل هـو فـي تبنـي الاشتراكية الديمقراطية والتي اعتقد السـادات أنهـا البـديل

لعبارة الناصرية أو الاشتراكية العربية ومالي ذلك. وكـان علي اتصال مستمر بقيادات أوروبا في مجملها من تيتو فـي يوجوسلافيا إلي تشاوشسكو في رومانيا - والذي زيـن لـه مغامرة زيارة القدس في ١٩ من نوفمبر عام ١٩٧٧ - إلـي كرايسكي رئيس ومستشار النمسا وهو يهودي ومن قيـادات الاشتراكية الديمقراطية في أوروبا والذي أقنعه بأنـه قـادر علي أن يجعل الحزب الوطني الديمقراطي (الحـزب الـذي أسسه ورأسه السادات عام ١٩٧٩) عضوا، فـي المنظمـة الدولية لأحزاب الاشتراكية الديمقراطيـة، وهـي المسـماة الاشتراكية الدوليـة Socialist International لأن هـذه العضوية كفيلة بأن تقدم السادات بأنه رئيس حزب له نكهـة اشتراكية فلا يهاجم من الناصريين أو الشيوعيين، كما أنهـا تعطيه خاتم النسر الدولي بأنه قد صار ديمقراطيـا، وهـذا الأمر يؤكد أنه قد خرج عن عبـاءة الشـمولية التـي كـان عبدالناصر يتصف بها، وبالتالي يكون له قبـول عـام فـي الغرب.

علي أن قصة دخول الحزب الوطني الـديمقراطي - الحزب الحاكم في مصر- ليكون عضوا كامل العضوية فـي



منظمة الاشتراكية الدولية، قصة ذات دلالة، بدأها السادات عام ١٩٧٩ ولكنها لم تتحقق إلا بعد ذلك بعشر سنوات في المؤتمر الدولي للاشتراكية الدولية والذي عقد في إستكهولم عام ١٩٨٩، ولذلك تفاصيل عاصرت بعضا منها فوجدت من المناسب أن تسجل علي ورق قبل أن يأكلها التاريخ:

في نوفمبر عام ١٩٨٠، سافرت إلي مدريد لحضور المؤتمر الدولي للاشتراكية الدولية، ممثلا لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي باعتباري رئيسا للجنة العلاقات الخارجية للحزب، وكنا قد تلقينا دعوة من الاشتراكية الدولية تعطينا حق الحضور باعتبارنا حزبا سياسيا ولكن بصفة مراقب أي حضور الجلسات العلنية المفتوحة دون المشاركة في المناقشات أو التصويت أو حضور جلسات العمل المغلقة لبحث أجندة المنظمة ومن بينها التصويت علي قبول طلبات الأحزاب الجديدة التي تتقدم للحصول علي العضوية الكاملة للمنظمة الدولية.

وقد دهشت بمجرد وصولي إلي مدريد بأخبار تفيد أن هناك حزبين مصريين آخرين قد حصلا علي حق الحضور بذات الصفة أي كحزب مراقب وهما الحزب

الوطني الديمقراطي وكان يمثله كل من د.بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية وقتها ويرافقه الاستاذ كمال الشاذلي و د. مصطفي السعيد- والذي صار وزيرا للاقتصـاد عـام ١٩٨٤ - ثم د. محمد عبد الـلاه رئـيس لجنـة العلاقـات الخارجية بمجلس الشعب وهو وفد ضخم ليؤكد الاتفاق مـع كرايسكي -أن الحزب سيصير له العضوية الكاملـة، وهـو الأمر الذي لم يتم في مؤتمر عام ١٩٨٠. وكان ممثلا لحزب العمل الاشتراكي الدكتورة ليلي تكلا، وكانت متحمسـة لأن ينضم حزبها (حزب العمل الاشتراكي) والذي كانت له نكهة اشتراكية في تلك الحقبة ثم تحول تدريجيا ليكون أحد ألـوان الطيف في مجمل التيار الإسلامي السياسي). وكانت د. ليلي تكلا قد بذلت جهدا هائلا في ترجمة وثائق الحزب وبرامجـه لكي تؤهله للارتقاء من موقع مراقب إلي موقـع العضـوية الكاملة في الاشتراكية الدولية، وهو الأمر الذي لم يتحقق عند التصويت علي الأحزاب الجديدة المقبولة.

والحزب الوحيد الذي كان قد قبل من المنطقة العربية هو الحزب الاشتراكي التقدمي في لبنان والـذي يتزعمـه - ولايزال- وليد جنبلاط، وكان يمثله في هذه الاجتماعات دريد

ياغي، وهذا الحزب - في مجمله - ينتمي أغلب أعضائه إلي طائفة الدروز. وقد انضم خلال السنوات العشر الأخيرة كذلك الحزب الحاكم في تونس الحزب الدستوري وكذلك حزب التجمع الاشتراكي للقوي الشعبية في المغرب وكذلك قبل حزبان بصفة استشارية هما جبهة القوي الاشتراكية التي يرأسها حسين آية أحمد في الجزائر وحركة الوحدة الشعبية التونسية.

وكان الأستاذ خالد محيي الدين قد أوصاني بأن أتصل فور وصولي بالأستاذ عصام سرطاوي [٢] وكان ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية في تلك الحقبة الدقيقة من حلقات الصراع العربي- الإسرائيلي، وكانت له شبكة اتصالات واسعة مع معظم قيادات الأحزاب في أوروبا، وأتصور أنه كان ممن مهدوا في وقت مبكر لحوار الكواليس غير المعلن مع بعض الشخصيات الإسرائيلية. وقد عرفت أنه كان من بين الأشخاص الذين قاموا بجهد في هذا الحوار

---

[٢] اغتيل سرطاوي عند حضوره مؤتمر الاشتراكية الدولية في لشبونة عام ١٩٨٣ ففقدت برحيله منظمة التحرير الفلسطينية فارسا وطنيا ليبراليا عظيما.

هانس يـوجن فشنفسـكي HANS J . WISCHENSKY
والذي كان ممثلا للحزب الاشتراكي الألماني ورئيس لجنـة
الشرق الأوسط بالحزب وكان له موقعـه فـي الاشـتراكية
الدولية، وعبر السنين كون صداقات واتصالات بكـل مـن
بلدان العالم العربي وإسرائيل، ولـذلك كنـت متصـورا أن
فشنفسكي كان أكثر قدرة وديناميكية ليصل إلي اتفاق ينـاظر
ما صار يعرف الآن باتفاقيات أوسلو، ووقتها كان من الممكن
الوصول إلي مذكرة تفاهم بـون مـثلا.. ذلـك أن مجـال
الاشتراكية الدولية كان مناسبا لإجراء حوارات مـع حـزب
العمل الاشتراكي في إسرائيل، ذلك أن شيمون بريز كان أحد
نواب الرئيس في المنظمة الأم أي الاشتراكية الدوليـة، وأن
إسرائيل كانت من الـدول القليلـة الممثلـة بحـزبين فـي
الاشتراكية الدولية أعني بهما حزب العمل الإسرائيلي الـذي
كان يقوده إسحق رابين إلي أن تم اغتياله في أواخـر عـام
١٩٩٥ وحزب، آخر باسم اتحـاد العمـال فـي إسـرائيل
المعروف اختصارا باسم مابام MAPAM، ولكن ليس لـه
الشهرة السياسية ذاتها مثل حزب العمل الإسرائيلي.

أيا ما كان من أمر، فإن عصام سرطاوي - والذي تـم اغتياله في أوروبا بعد ذلك بسنتين أو ثلاث- قد قدمني إلي العديد من قيادات الاشتراكية الدولية من بينهم أولف بالم [٣] OLOF PALME رئيس وزراء السويد والذي اغتيل عام ١٩٨٦ وهو يغادر دار سينما معبراعن بساطة الحياة لأي رئيس وزراء فـي العالم، وفيللي برانت رئيس الاشتراكية الدولية حتي مماته عقـب انعقاد المؤتمر التاسع عشر في برلين في سبتمبر ١٩٩٢، وكان هذا هو أمله الذي سعي إليه لأنه كان عمدة برلين طوال سنوات الحرب الباردة، وعاش إلي أن تحطم هذا الحائط البالغ الدلالـة، وعادت برلين غير مجزأة إلي العالم الغربي، وتعرفت كذلك علي كرايسكي، وهو شخصية فذة نفاذة، والذي سألني: لقد تقدم كـل من الحزب الوطني الديمقراطي (حزب الرئيس السادات) بطلب عضوية كاملة للمنظمة الدولية، كـذلك تقـدم حـزب العمـل الاشتراكي (والذي نسمع أن له نكهة إسلامية) فلماذا لـم يتقـدم حزب التجمع التقدمي بطلب مماثل؟ فقد سمعت أن حزبكم واضح في انتمائه إلي الاشتراكية وربما كان طلبه سيمر بشـكل أكثـر يسرا فيما لو كان قد تقدم، ولم أستطع أن أجيبه، إذ أنني لم أكـن

---

[٣] الطبعة الأولي من هذا الكتاب كانت مهداة لهذا الرجل العظيم.

علي يقين بأن الحزبين المصريين الآخرين قـد قـدما طلبـات انضمام للعضوية الكاملة، وظل السؤال معلقـا إلـي أن عـدت للقاهرة، وطرحت الأمر علي الأستاذ خالد محيي الدين الذي علل الأمر: بأن الاشتراكية الدولية منحازة بشكل واضح لإسـرائيل، وتقديم طلب انضمام من حزبنا قد لا يرحب به في العالم العربي، لأن موقف حزب التجمع واضح في أنه يسعي للوحدة العربيـة ومن هنا كانت عبارة الوحدوي ضمن توصيفاته في عنوانه.

ومن خلال عصام سرطاوي، تعرفت إلي أحزاب أخري أصغر، وكانوا يسألونني: مارأيك في حـزب السـادات؟ وهـل تتناغم أو تتفق برامجه وتوجهاته مـع الأيديولوجيـة العامـة للاشتراكية الدولية؟ وكانت إجابتي في عبارة قصيرة وهـي: أن هذا الحزب ليس ديمقراطيا (لأن للديمقراطيـة أنيابـا فيصـادر الصحف ويضطهد الأحزاب الأخري)، ولا هو باشتراكي (لأن سياسته الاقتصادية تقوم علي الانفتاح الاقتصادي الذي يتضـمن العودة إلي النظام الرأسمالي علـي حسـاب إقـلال المكاسـب الاشتراكية التي تحققت أيام جمال عبد الناصر).

وعلي أي حال، فإن الحزب الوطني الـ ديمقراطي - عند التصويت في جلسات العمل المغلقة- لم يحصـل علـي الأصوات التي تؤهله لأن يقبل عضوا كامل العضـوية فـي الاشتراكية الدولية، وظل الأمرعلي هذا النحو إلي أن تم ماتم في سبتمبر عام ١٩٨١ من حركة اعتقالات واسعة ثم رحيل الرئيس السادات في ٦ من أكتـوبر عـام ١٩٨١، وتـولي الرئيس مبارك المسئولية. ثم صرت رئيس لجنـة الإسـكان بمجلس الشعب في ٢٤ من يونيو عام ١٩٨٤.

في عام ١٩٨٧ صار مطروحـا فـي الكـواليس إمكانية القيـام بمحاولـة ثانيـة ليكـون الحـزب الـوطني الديمقراطي عضوا في الاشتراكية الدوليـة، وكـان المنـاخ مواتيا، وتم التصويت في مؤتمر الاشتراكية الدولية الذي عقد في إستكهولم عام ١٩٨٩، وهكذا أصبح الحـزب الـوطني المصري عضوا في الاشتراكية الدولية. وقد حضر مـؤتمر برلين - حسبما جاء في وثائق المـؤتمر - كـل مـن : د. مصطفي خليل، أباظة فهمي ، فـاروق رخـا، عبـدالرحمن شديد، محمد الزرقاني (ولا أعتقد أن أيا منهم - فيما عدا د. مصطفي خليل - معروف لدي الرأي العام المصري بأن له

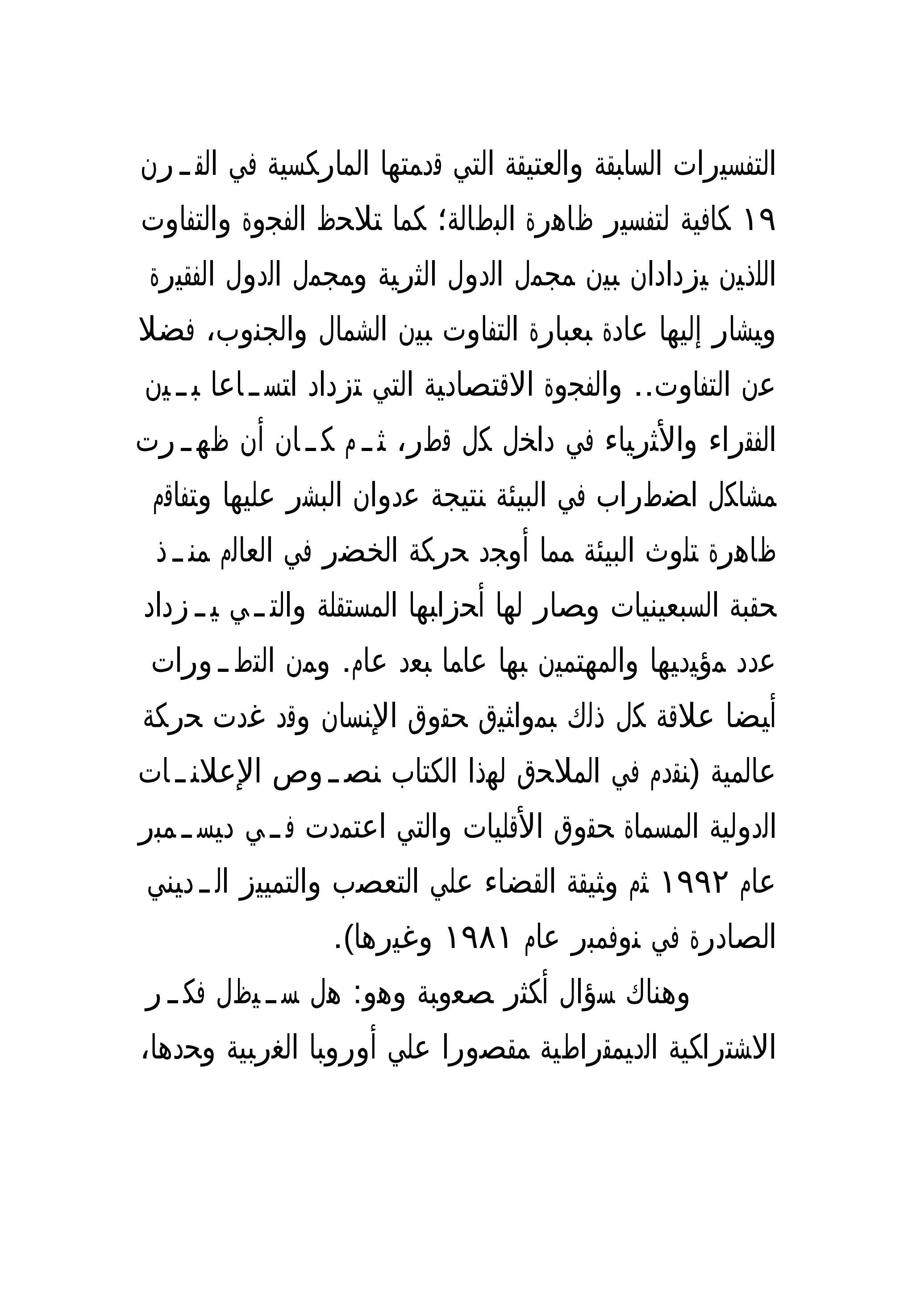
نشاطا سياسيا، أو أنه عضو في الحزب الوطني الديمقراطي، أو أنه ينتمي إلي فكر ومبادئ الاشتراكية الديمقراطية).

ومن عجب أن الحزب الوطني الديمقراطي بدلا مـن أن يتحول لأن يكون حزبا له أيديولويجة في اتجاه الاشتراكية الديمقراطية إذا به يتحول لأن يكون وكأنـه إدارة أو تنظـيم تابع ومرتبط ومتداخل مع أجهزة الدولة، ينشط بالفعـل فـي مواسم الانتخابات وتنتهي مأموريته بانتهـاء إعـلان نتـائج الانتخابات المحلية أو لمجلس الشعب أو لمجلس الشـوري. ولأن فاقد الشيء لايعطيه، ولأن المواقع المختلفة في الحزب هي بالاختيار، لذا لا تجري داخل الحزب انتخابات بالمعني الحقيقي، فكان أن اختفت الديمقراطية في مصر كلها، كما أن شعارالاشتراكية غير موجود إلا فـي المـادة الأولـي مـن الدستور - كما سبق الذكر - لذلك فـإن ارتبـاط الحـزب الوطني بالاشتراكية قد ضمر حتي أصابه السكون والموات، فيما عدا هذه العضوية الورقية والموسمية مـع الاشـتراكية الدولية عندما ينعقد مؤتمر عالمي كل عدد من السنين، وهـو أمر مظهري يتضمن سفرات وبدل سفر دون أي فاعليـة أو تفاعل.

هكذا تكون أيديولوجية الاشتراكية الديمقراطية غيـر موجودة في مصر- ولاحتي من ناحية الشكل -وتبقي قضية أعم وأهم وهي: مامصير هذه الأيديولوجية علـي مسـتوي العالم؟ وهل ستتطور لتواكب المتغيرات العالمية، أم يكـون مصيرها كمصير الأيديولوجية الشيوعية؟ وهو الأمر الـذي نختم به هذا الفصل.

نحو أيديولوجية اشتراكية - ديمقراطية تناسب العصر.

أمام أيديولوجية الاشتراكية - الديمقراطية تحد مهـم يتلخص في قدرتها علي أن تطور نفسها وفـق المتغيـرات الدولية الجديدة التي حدثت في النصف الثـاني مـن القـرن العشرين، أي التقدم التكنولوجي ثم ثورة المعلومات فضـلا عن التغيرات التي نجمت عن كل ذلك، ومنهـا الاستعاضـة عن القوي البشرية للعمال- وحتي الموظفين أصحاب الياقات البيضاء - بمعدات إلكترونية تتقدم عاما بعد عام، ثم ماحدث من العولمة الاقتصادية، فكان أن استقرت ظاهرة البطالة في معظم دول العالم والتي تبدو كأنها بلا حل جذري. ولم تعـد



التفسيرات السابقة والعتيقة التي قدمتها الماركسية في القـرن ١٩ كافية لتفسير ظاهرة البطالة؛ كما تلاحظ الفجوة والتفاوت اللذين يزدادان بين مجمل الدول الثرية ومجمل الدول الفقيرة ويشار إليها عادة بعبارة التفاوت بين الشمال والجنوب، فضلا عن التفاوت.. والفجوة الاقتصادية التي تزداد اتسـاعا بـين الفقراء والأثرياء في داخل كل قطر، ثـم كـان أن ظهـرت مشاكل اضطراب في البيئة نتيجة عدوان البشر عليها وتفاقم ظاهرة تلوث البيئة مما أوجد حركة الخضر في العالم منـذ حقبة السبعينيات وصار لها أحزابها المستقلة والتـي يـزداد عدد مؤيديها والمهتمين بها عاما بعد عام. ومن التطـورات أيضا علاقة كل ذلك بمواثيق حقوق الإنسان وقد غدت حركة عالمية (نقدم في الملاحق لهذا الكتاب نصـوص الإعلانـات الدولية المسماة حقوق الأقليات والتي اعتمدت فـي ديسـمبر عام ١٩٩٢ ثم وثيقة القضاء علي التعصب والتمييز الـديني الصادرة في نوفمبر عام ١٩٨١ وغيرها).

وهناك سؤال أكثر صعوبة وهو: هل سـيظل فكـر الاشتراكية الديمقراطية مقصورا علي أوروبا الغربية وحدها،

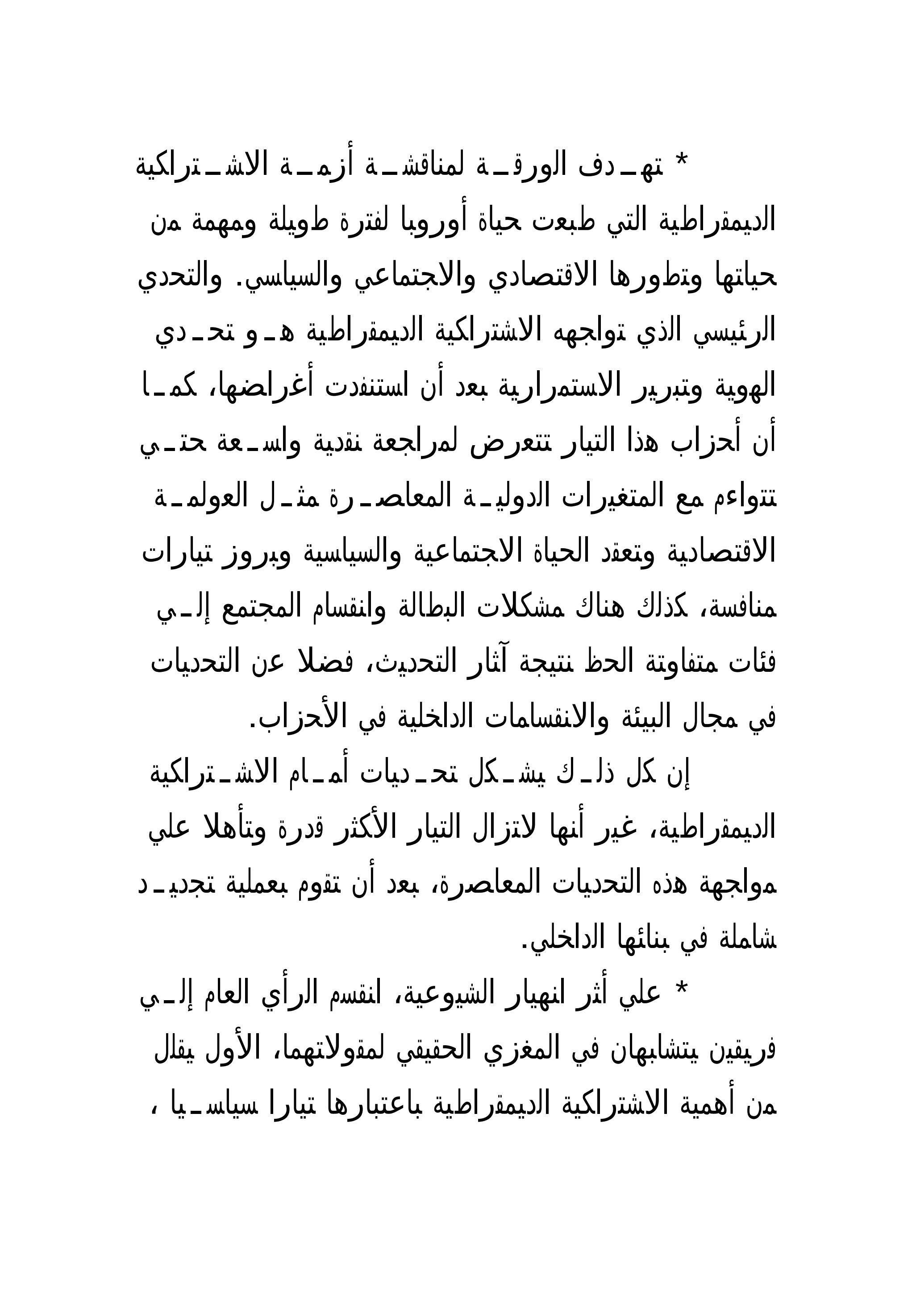
أم سوف ينتشر ليكون مقبولا عالميا شرقا في أوروبا الشرقية ثم غربا في أمريكا ثم جنوبا في الدول النامية...؟

وقد تحتاج الإجابة عن هذه الأسئلة إلي عرض لمـا يجري علي سـاحة فكـر المهتمـين بتطـوير أيديولوجيـة الاشتراكية - الديمقراطية وهو جهد نظري ممتد ومتبـاين، ولكنني أكتفي هنا بالإشارة إلي توماس ماير وقد صار أستاذ العلوم السياسية بجامعة درتموند عام ١٩٩٤ بعد أن ساهم في عهد فيللي برانت في تطوير توجهات الاشـتراكية الدوليـة وربط بين الأفكار السياسية والتطبيق، إذ عمل لسنوات مديرا لأكاديمية جوستان هينيمان التابعة لمؤسسة فريدريك إيبـرت وهو التنظيم المنتشر في بلدان كثيرة (من بينها مصر) لتقدم خدمات ثقافية مرتبطة بتوجهات الحزب الاشتراكي الألماني.

وفي دراسة نشرت أخيرا فـي يوليـو عـام ١٩٩٦ بعنوان التحديات المعاصرة للاشتراكية الديمقراطية كتبها د. توماس ماير [١] ، نقتبس منها العبارات الآتية:

---

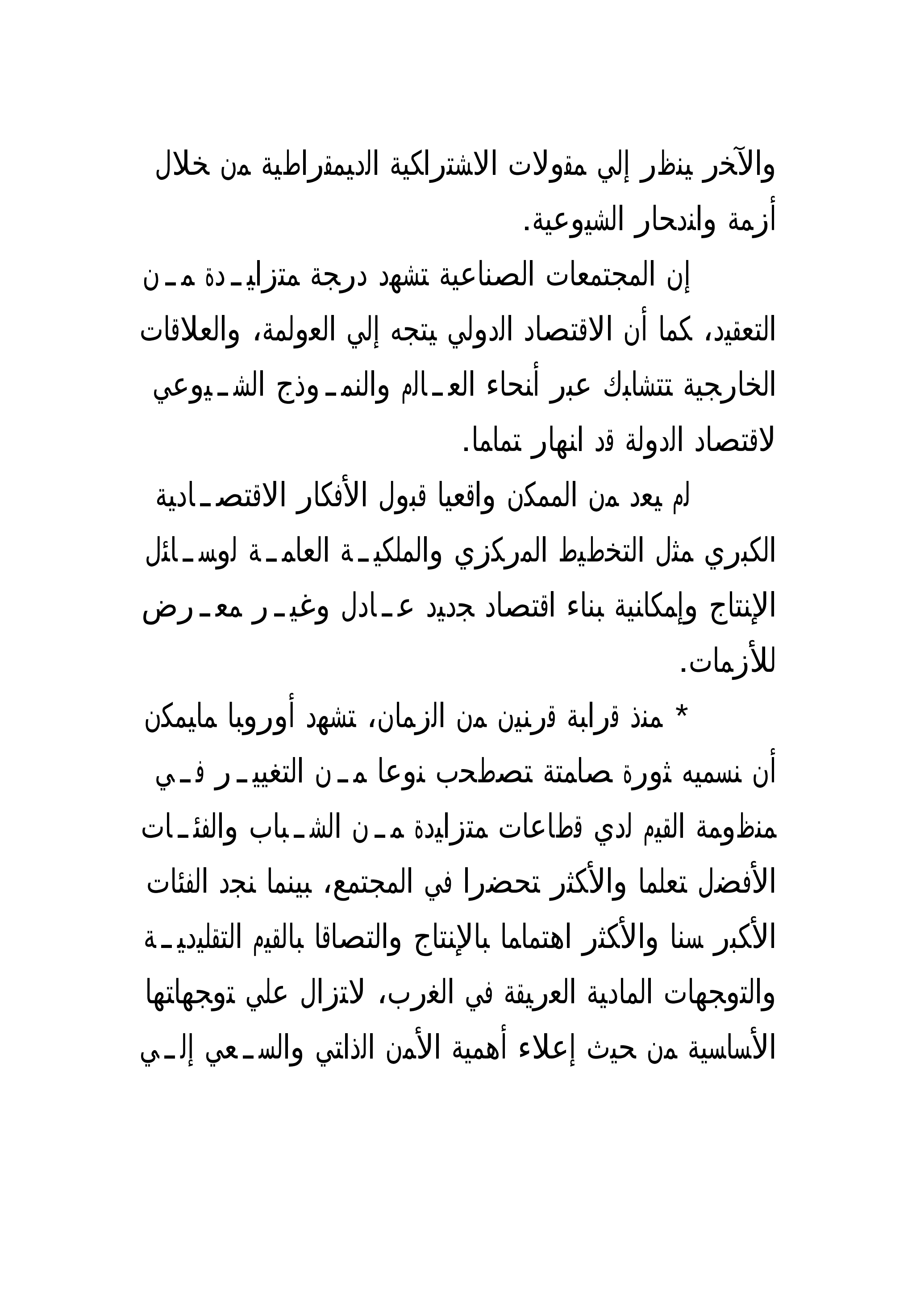
[١] نشرت هذه الدراسة باللغة العربية مؤسسة فريدريك إيبرت الألمانية في مصر ،وهذه المؤسسة تقـدم الخـدمات ذات النكهـة الاشـتراكية الديمقراطية.



* تهـدف الورقـة لمناقشـة أزمـة الاشـتراكية الديمقراطية التي طبعت حياة أوروبا لفترة طويلة ومهمة من حياتها وتطورها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. والتحدي الرئيسي الذي تواجهه الاشتراكية الديمقراطية هـو تحـدي الهوية وتبرير الاستمرارية بعد أن استنفدت أغراضها، كمـا أن أحزاب هذا التيار تتعرض لمراجعة نقدية واسـعة حتـي تتواءم مع المتغيرات الدوليـة المعاصـرة مثـل العولمـة الاقتصادية وتعقد الحياة الاجتماعية والسياسية وبروز تيارات منافسة، كذلك هناك مشكلات البطالة وانقسام المجتمع إلـي فئات متفاوتة الحظ نتيجة آثار التحديث، فضلا عن التحديات في مجال البيئة والانقسامات الداخلية في الأحزاب.

إن كل ذلـك يشـكل تحـديات أمـام الاشـتراكية الديمقراطية، غير أنها لاتزال التيار الأكثر قدرة وتأهلا علي مواجهة هذه التحديات المعاصرة، بعد أن تقوم بعملية تجديـد شاملة في بنائها الداخلي.

* علي أثر انهيار الشيوعية، انقسم الرأي العام إلـي فريقين يتشابهان في المغزي الحقيقي لمقولاتهما، الأول يقلل من أهمية الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها تيارا سياسـيا ،



والآخر ينظر إلي مقولات الاشتراكية الديمقراطية من خلال أزمة واندحار الشيوعية.

إن المجتمعات الصناعية تشهد درجة متزايـدة مـن التعقيد، كما أن الاقتصاد الدولي يتجه إلي العولمة، والعلاقات الخارجية تتشابك عبر أنحاء العـالم والنمـوذج الشـيوعي لاقتصاد الدولة قد انهار تماما.

لم يعد من الممكن واقعيا قبول الأفكار الاقتصـادية الكبري مثل التخطيط المركزي والملكيـة العامـة لوسـائل الإنتاج وإمكانية بناء اقتصاد جديد عـادل وغيـر معـرض للأزمات.

* منذ قرابة قرنين من الزمان، تشهد أوروبا مايمكن أن نسميه ثورة صامتة تصطحب نوعا مـن التغييـر فـي منظومة القيم لدي قطاعات متزايدة مـن الشـباب والفئـات الأفضل تعلما والأكثر تحضرا في المجتمع، بينما نجد الفئات الأكبر سنا والأكثر اهتماما بالإنتاج والتصاقا بالقيم التقليديـة والتوجهات المادية العريقة في الغرب، لاتزال علي توجهاتها الأساسية من حيث إعلاء أهمية الأمن الذاتي والسـعي إلـي

زيادة الدخول والاستهلاك وتطوير المستقبل المهني والتأييـد الجامح للأشكال التقليدية للسياسات الحزبية.

نلاحظ أن قوي معسكر اليسار قـد انقسـمت علـي نفسها، فهناك فريق من اليسار لايزال يحـافظ علـي القـيم المادية مع تغليف مقولاته بمسحة يسارية، وهناك فريق آخر - وهو الذي يضم الفئات الشابة في الأغلب - يتحدث عـن قيم مابعد المادية، وهم يعملـون فـي المجـالات الثقافيـة (حوالي ٢٠%).

* إن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية ليست مطالبة بالتجديد السياسي فحسب وإنما هي أيضا مطالبة بالتغلب علي نوعية جديدة من التحديات الثقافية الاجتماعية التي تشـهدها أوروبا اليوم ولاتوجد إستراتيجية واضحة المعالم وفعالة في مواجهتها.

* إن الجمهـور المسـتهدف بالنسـبة لأحـزاب الاشتراكية الديمقراطية يضم نوعين من الأفراد، وهم عمـال النقابات المنظمين وممثلـو الفئـات الاقتصـادية الوسـطي والموظفون والبيروقراطيون، والثـاني يمثلـه المدرسـون والمثقفون والطلاب والمشتغلون بالحقـل الثقـافي والعمـل

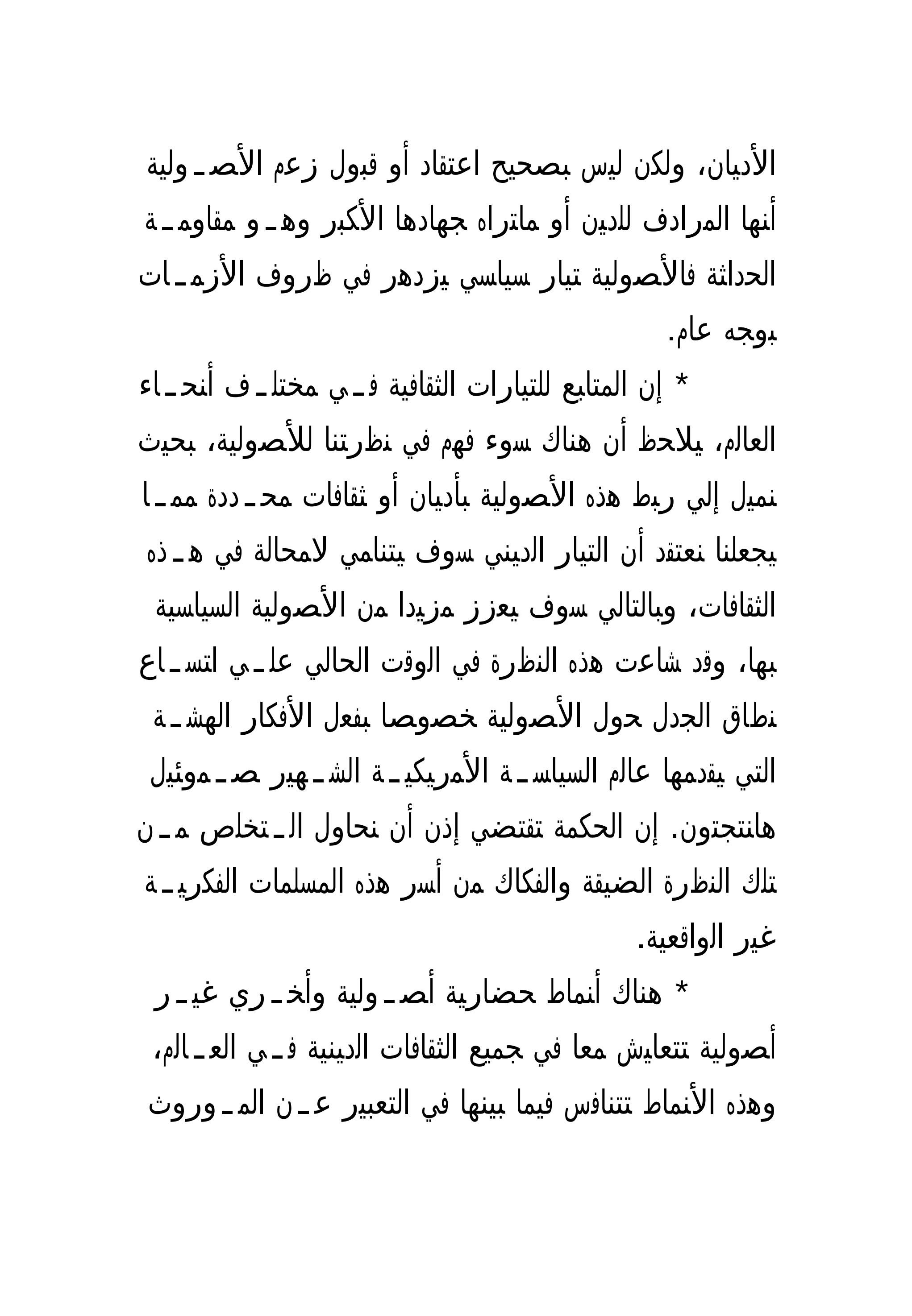
الاجتماعي وطلاب المدارس الثانوية.... وهؤلاء ينتمون في أغلبهم إلي منظومة قيم مابعد المادية.

***

إن هذه العبارات -كنماذج- تدل علي الأزمة التـي تواجهها الاشتركية الديمقراطية في أوروبا، وهو أمر يحتاج إلي طرح في بلادنا حتي نفهم ماذا يجري من حولنا..

وهناك ورقة أخري المنظر ذاته د. توماس مـاير بعنوان الأصولية السياسية في العالم المعاصر، ربما تكـون أكثر دلالة بالنسبة للقضية المطروحة في هذا الكتـاب فيمـا يتعلق بـ قبول الآخر نقتبس منها العبارات التي تعطي وجهة النظر الأوروبية ذات النكهة الاشتراكية الديمقراطيـة نـذكر منها:

* تسعي هذه الورقة لمراجعة ما تعتبره سـوء فهـم حول العلاقة بين الثقافة الدينية والأنماط الحضارية من ناحية وتيارات أصولية دينية ذات طابع سياسي متشدد من ناحيـة أخري. هناك دائما عدة أنماط ثقافية سياسية متنافسة داخـل الحضارة الواحدة أهمها الاتجاهات الليبرالية والتقليديـة ثـم الأصولية. فالأصولية تيار ونمط حضاري يوجد في أغلـب



الأديان، ولكن ليس بصحيح اعتقاد أو قبول زعم الأصـولية أنها المرادف للدين أو ماتراه جهادها الأكبر وهـو مقاومـة الحداثة فالأصولية تيار سياسي يزدهر في ظروف الأزمـات بوجه عام.

* إن المتابع للتيارات الثقافية فـي مختلـف أنحـاء العالم، يلاحظ أن هناك سوء فهم في نظرتنا للأصولية، بحيث نميل إلي ربط هذه الأصولية بأديان أو ثقافات محـددة ممـا يجعلنا نعتقد أن التيار الديني سوف يتنامي لامحالة في هـذه الثقافات، وبالتالي سوف يعزز مزيدا من الأصولية السياسية بها، وقد شاعت هذه النظرة في الوقت الحالي علـي اتسـاع نطاق الجدل حول الأصولية خصوصا بفعل الأفكار الهشـة التي يقدمها عالم السياسـة الأمريكيـة الشـهير صـموئيل هانتجتون. إن الحكمة تقتضي إذن أن نحاول الـتخاص مـن تلك النظرة الضيقة والفكاك من أسر هذه المسلمات الفكريـة غير الواقعية.

* هناك أنماط حضارية أصـولية وأخـري غيـر أصولية تتعايش معا في جميع الثقافات الدينية فـي العـالم، وهذه الأنماط تتنافس فيما بينها في التعبير عـن المـوروث

الثقافي، وهذا الأمر المهم قد أبرزته الدراسة المهمـة التـي أجراها مارتن مارتي وسكوت آبليبي تحت مظلة الأكاديميـة الأمريكية للعلوم والآداب.

وهكذا فإن مختلف ثقافات العالم تحتوي علـي ذلـك التمايز والتنافس بين الأنماط الحضارية التي تعيش داخلهـا، سواء أكانت الثقافة كنفوشية أم بوذية أو هندوكية أم إسلامية أم مسيحية. [لاحظ هنا الفرق الواضح بين هذا التوجه الراقي المبني علي قبول الآخر وعلي الخلاف والتمايز بين الأنماط الحضارية لكل ثقافة أو حضارة وبـين مفهـوم صـموئيل هانتجتون الذي يبـث الكراهيـة بحتميـة الصـراع بـين الحضارات] [٢]:-

* في معظم ثقافات العالم توجد ثلاثة أنماط حضارية أساسية هي:

أولا: النمط التقليدي:

وهو نمط حضاري يعلي من شأن التقاليد وأسـاليب الحياة الموروثة عبر مراحل التطور التاريخي ويدافع عنهـا

---

[٢] العبارات التي بين القوسين تعليق من مؤلف الكتاب.

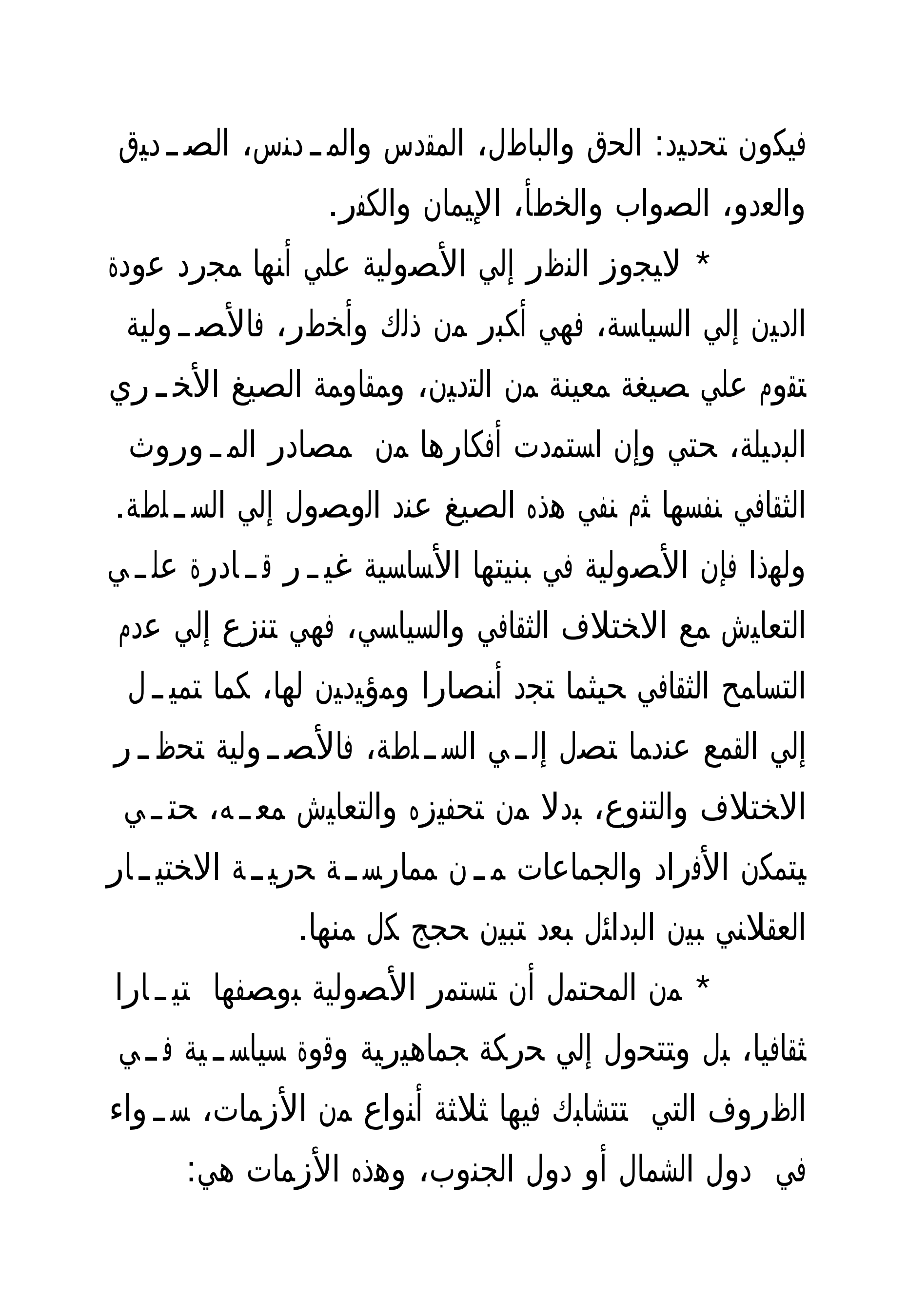
ضد الاتجاهات التحررية والتحديثية وفي مواجهة التـأثيرات الأجنبية.

ثانيا: نمط الحداثة أو الليبرالية:

وهي تأخذ من الموروث الثقافي بالقدر الذي يعـزز نطاق الحرية الفردية ويدعم اتجاهات العقلانية والتعددية (أي قبول الآخر).

ثالثا: نمط الأصولية

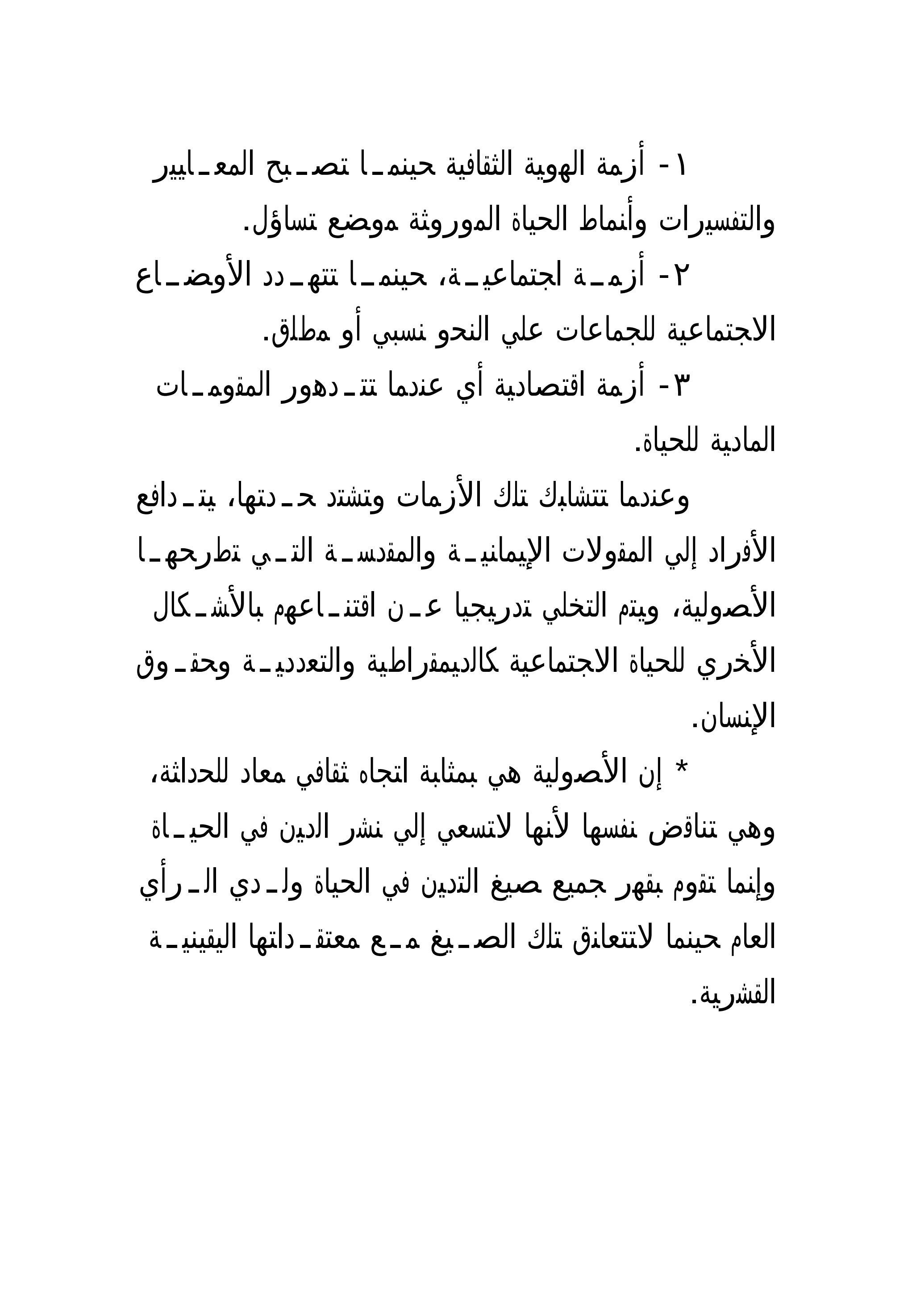
وهو نمط حضاري يرتكز علي أحـد المنظـورات العتيقة [والتي يتصورها عريقة] في الموروث الثقافي، ومـن ثم تكون العقيدة الأساس المطلق [والوحيد]، لتحديد الهويـة وتبرير المقولات التراثية، ولذا فهي منزهة عن الشك ويسعي أصحاب الأصولية لفرضها علي الآخرين وإعـادة تشـكيل الحياة الثقافية والسياسية بأسرها وفقا لهذا المنظور، وعـادة مايترتب علي هذا النمط المغلق تحريم القيام بأي محـاولات تفسيرية بديلة واستبعاد الاختلاف في الـرأي فـي الحيـاة السياسية، مقابل هيمنة وجهة النظر الدينية، فيكون النظر إلي الأمور من خلال ثنائيات وتصنيفات حادة يطرحها هذا النمط



فيكون تحديد: الحق والباطل، المقدس والمدنس، الصديق والعدو، الصواب والخطأ، الإيمان والكفر.

* لايجوز النظر إلي الأصولية علي أنها مجرد عودة الدين إلي السياسة، فهي أكبر من ذلك وأخطر، فالأصولية تقوم علي صيغة معينة من التدين، ومقاومة الصيغ الأخري البديلة، حتي وإن استمدت أفكارها من مصادر الموروث الثقافي نفسها ثم نفي هذه الصيغ عند الوصول إلي السلطة. ولهذا فإن الأصولية في بنيتها الأساسية غير قادرة علي التعايش مع الاختلاف الثقافي والسياسي، فهي تنزع إلي عدم التسامح الثقافي حيثما تجد أنصارا ومؤيدين لها، كما تميل إلي القمع عندما تصل إلي السلطة، فالأصولية تحظر الاختلاف والتنوع، بدلا من تحفيزه والتعايش معه، حتي يتمكن الأفراد والجماعات من ممارسة حرية الاختيار العقلاني بين البدائل بعد تبين حجج كل منها.

* من المحتمل أن تستمر الأصولية بوصفها تيارا ثقافيا، بل وتتحول إلي حركة جماهيرية وقوة سياسية في الظروف التي تتشابك فيها ثلاثة أنواع من الأزمات، سواء في دول الشمال أو دول الجنوب، وهذه الأزمات هي:



١- أزمة الهوية الثقافية حينمـا تصـبح المعـايير والتفسيرات وأنماط الحياة الموروثة موضع تساؤل.

٢- أزمـة اجتماعيـة، حينمـا تتهـدد الأوضـاع الاجتماعية للجماعات علي النحو نسبي أو مطلق.

٣- أزمة اقتصادية أي عندما تتـدهور المقومـات المادية للحياة.

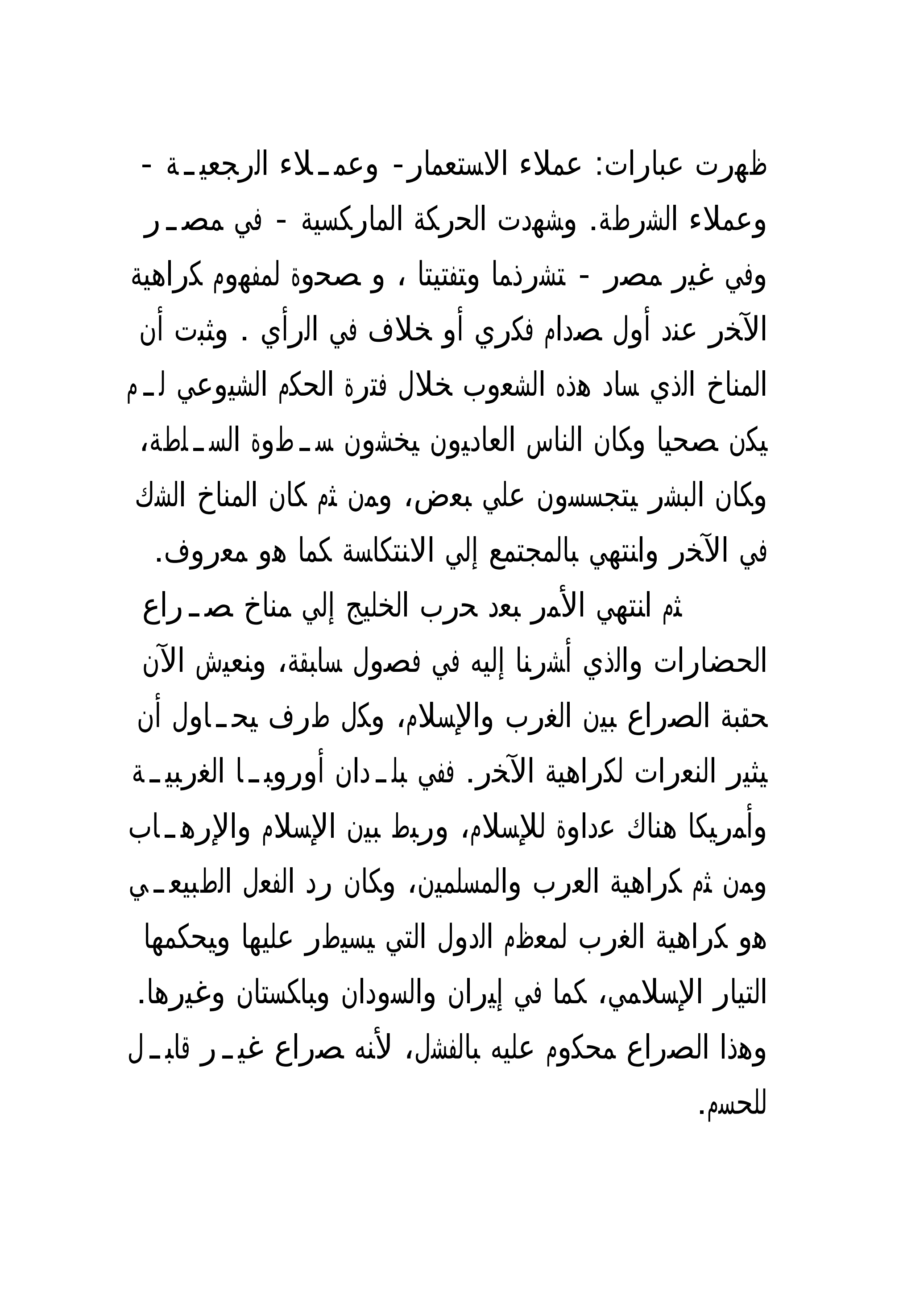
وعندما تتشابك تلك الأزمات وتشتد حـدتها، يتـدافع الأفراد إلي المقولات الإيمانيـة والمقدسـة التـي تطرحهـا الأصولية، ويتم التخلي تدريجيا عـن اقتنـاعهم بالأشـكال الأخري للحياة الاجتماعية كالديمقراطية والتعدديـة وحقـوق الإنسان.

* إن الأصولية هي بمثابة اتجاه ثقافي معاد للحداثة، وهي تناقض نفسها لأنها لاتسعي إلي نشر الدين في الحيـاة وإنما تقوم بقهر جميع صيغ التدين في الحياة ولـدي الـرأي العام حينما لاتتعانق تلك الصـيغ مـع معتقـداتها اليقينيـة القشرية.

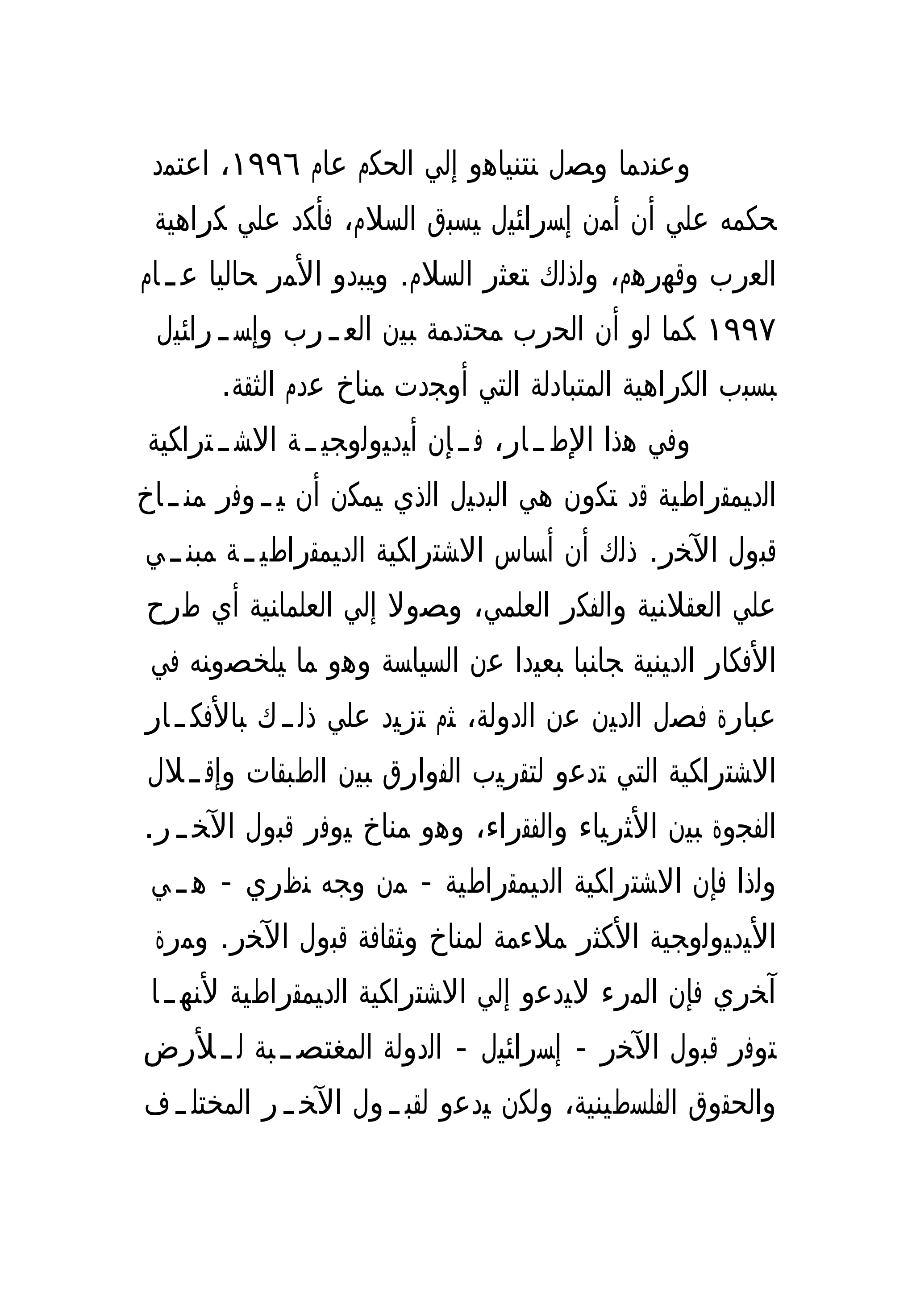
* إن الأصولية لاتزدهر إلا في ظروف الأزمـات، وربما تنجح ولو جزئيا في إبراز المشكلات، ولكنها بطبيعتها غير قادرة علي حل هذه المشكلات أبدا.

الاشتراكية الديمقراطية نهج مناسب لقبول الآخر:

هناك ربط وعلاقة بين الأيديولوجيـة السـائدة فـي المجتمع وثقافة قبول الآخر، فالنظم الشمولية فـي مجملهـا تدعو لكراهية الآخر، فقد قامت النظرية الفاشية علي أسـاس أن السلالة العرقية هي التي تحدد مكانة الإنسـان، فـالجنس الأبيض هو أرقي الأجناس ويتربع العرق الأنجلوسكسـوني علي قمة هذا الجنس. ولم يكن ممكنا قهر الفاشـية إلا مـن خلال الحرب العالمية الثانية، ودفعت البشرية ثمنـا باهظـا للقضاء علي الفاشية، من خلال تحالف النظـام الرأسـمالي الليبرالي في أوروبا الغربية وأمريكا مع النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. ثم جاءت حقبـة الحـرب البـاردة بـين الأيديولوجية الليبرالية الرأسمالية وبين الماركسية التي تتبني النظام الشمولي، وقد انتهت بتفكك الاتحـاد السـوفييتي لأن الأيديولوجية التي كانت تتبناها تقوم - رغم معادتها للفاشـية - علي تقسيم البشر إلي ثوريين ومعـادين للثـورة، ولـذا


ظهرت عبارات: عملاء الاستعمار- وعمـلاء الرجعيـة - وعملاء الشرطة. وشهدت الحركة الماركسية - في مصـر وفي غير مصر - تشرذما وتفتيتا ، و صحوة لمفهوم كراهية الآخر عند أول صدام فكري أو خلاف في الرأي . وثبت أن المناخ الذي ساد هذه الشعوب خلال فترة الحكم الشيوعي لـم يكن صحيا وكان الناس العاديون يخشون سـطوة السـلطة، وكان البشر يتجسسون علي بعض، ومن ثم كان المناخ الشك في الآخر وانتهي بالمجتمع إلي الانتكاسة كما هو معروف.

ثم انتهي الأمر بعد حرب الخليج إلي مناخ صـراع الحضارات والذي أشرنا إليه في فصول سابقة، ونعيش الآن حقبة الصراع بين الغرب والإسلام، وكل طرف يحـاول أن يثير النعرات لكراهية الآخر. ففي بلـدان أوروبـا الغربيـة وأمريكا هناك عداوة للإسلام، وربط بين الإسلام والإرهـاب ومن ثم كراهية العرب والمسلمين، وكان رد الفعل الطبيعـي هو كراهية الغرب لمعظم الدول التي يسيطر عليها ويحكمها التيار الإسلامي، كما في إيران والسودان وباكستان وغيرها. وهذا الصراع محكوم عليه بالفشل، لأنه صراع غيـر قابـل للحسم.



وعندما وصل نتنياهو إلي الحكم عام ١٩٩٦، اعتمد حكمه علي أن أمن إسرائيل يسبق السلام، فأكد علي كراهية العرب وقهرهم، ولذلك تعثر السلام. ويبدو الأمر حاليا عـام ١٩٩٧ كما لو أن الحرب محتدمة بين العـرب وإسـرائيل بسبب الكراهية المتبادلة التي أوجدت مناخ عدم الثقة.

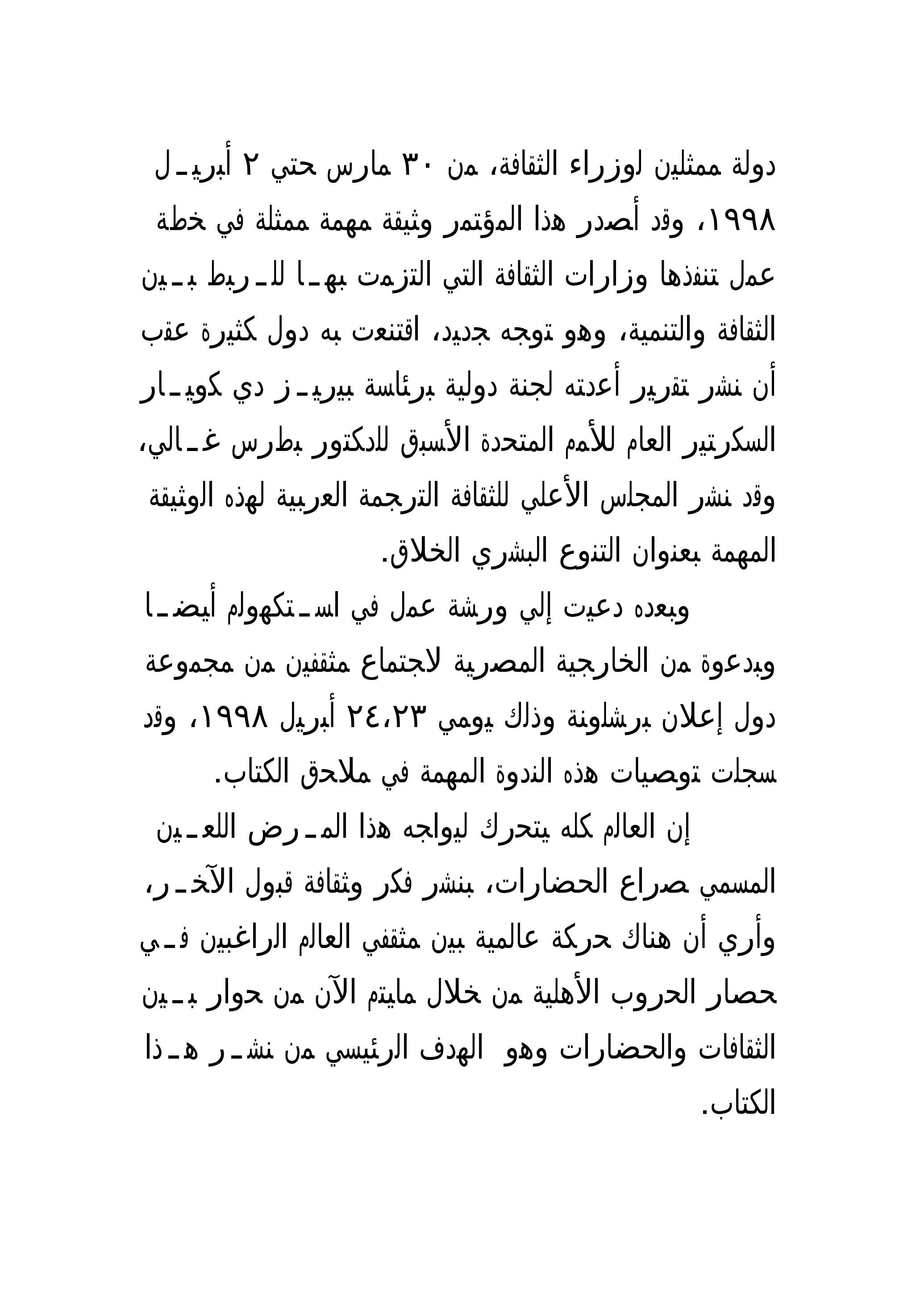
وفي هذا الإطـار، فـإن أيديولوجيـة الاشـتراكية الديمقراطية قد تكون هي البديل الذي يمكن أن يـوفر منـاخ قبول الآخر. ذلك أن أساس الاشتراكية الديمقراطيـة مبنـي علي العقلانية والفكر العلمي، وصولا إلي العلمانية أي طرح الأفكار الدينية جانبا بعيدا عن السياسة وهو ما يلخصونه في عبارة فصل الدين عن الدولة، ثم تزيد علي ذلـك بالأفكـار الاشتراكية التي تدعو لتقريب الفوارق بين الطبقات وإقـلال الفجوة بين الأثرياء والفقراء، وهو مناخ يوفر قبول الآخـر. ولذا فإن الاشتراكية الديمقراطية - من وجه نظري - هـي الأيديولوجية الأكثر ملاءمة لمناخ وثقافة قبول الآخر. ومرة آخري فإن المرء لايدعو إلي الاشتراكية الديمقراطية لأنهـا توفر قبول الآخر - إسرائيل - الدولة المغتصـبة لـلأرض والحقوق الفلسطينية، ولكن يدعو لقبـول الآخـر المختلـف

اقتصاديا واجتماعيا وفي الديانة والثقافة والتشكيل، لعل ذلـك في جانب منه يفيد الطرفين في الوصول إلي صيغة مقبولـة وعادلة، دون إكـراه أو إمـلاء، لحـل الصـراع العربـي الإسرائيلي.

***

وكما ذكرت في مقدمة الطبعة الأولي هذا الكتاب، أنه قد سطر عبر ١٩٩٦، ١٩٩٧ ، والمناخ الثقافي العالمي قـد تغير كثيرا خلال هذه الأعوام، فقد تحركـت دول أوروبيـة كثيرة في اتجاه نشر ثقافة قبول الآخر، وفي مقـدمتها دولـة السويد حيث تسود بالفعل أيديولوجية الاشتراكية الديمقراطية، وقد دعيت في خريف عام ١٩٩٧ لإلقاء محاضـرات عـن أفكاري ورؤيتي المناقضة لنظرية صراع الحضارات والتي كنت قد نشرت بعضا منها في مقالاتي وكتبي، وكـان مـن نتيجة ذلك أن منحني جلالة ملك السويد - بناء علي ترشـيح الحكومة - وسام النجم القطبي بدرجـة كومانـدور فـي ٩ فبراير ١٩٩٨.

بعد ذلك دعيت إلي مؤتمرين تصادف أن عقدا فـي مدينة استكهولم، الأول دولي حيث اجتمع ممثلو نحـو ١٥٠



دولة ممثلين لوزراء الثقافة، من ٣٠ مارس حتي ٢ أبريـل ١٩٩٨، وقد أصدر هذا المؤتمر وثيقة مهمة ممثلة في خطة عمل تنفذها وزارات الثقافة التي التزمت بهـا للـربط بـين الثقافة والتنمية، وهو توجه جديد، اقتنعت به دول كثيرة عقب أن نشر تقرير أعدته لجنة دولية برئاسة بيريـز دي كويـار السكرتير العام للأمم المتحدة الأسبق للدكتور بطرس غـالي، وقد نشر المجلس الأعلي للثقافة الترجمة العربية لهذه الوثيقة المهمة بعنوان التنوع البشري الخلاق.

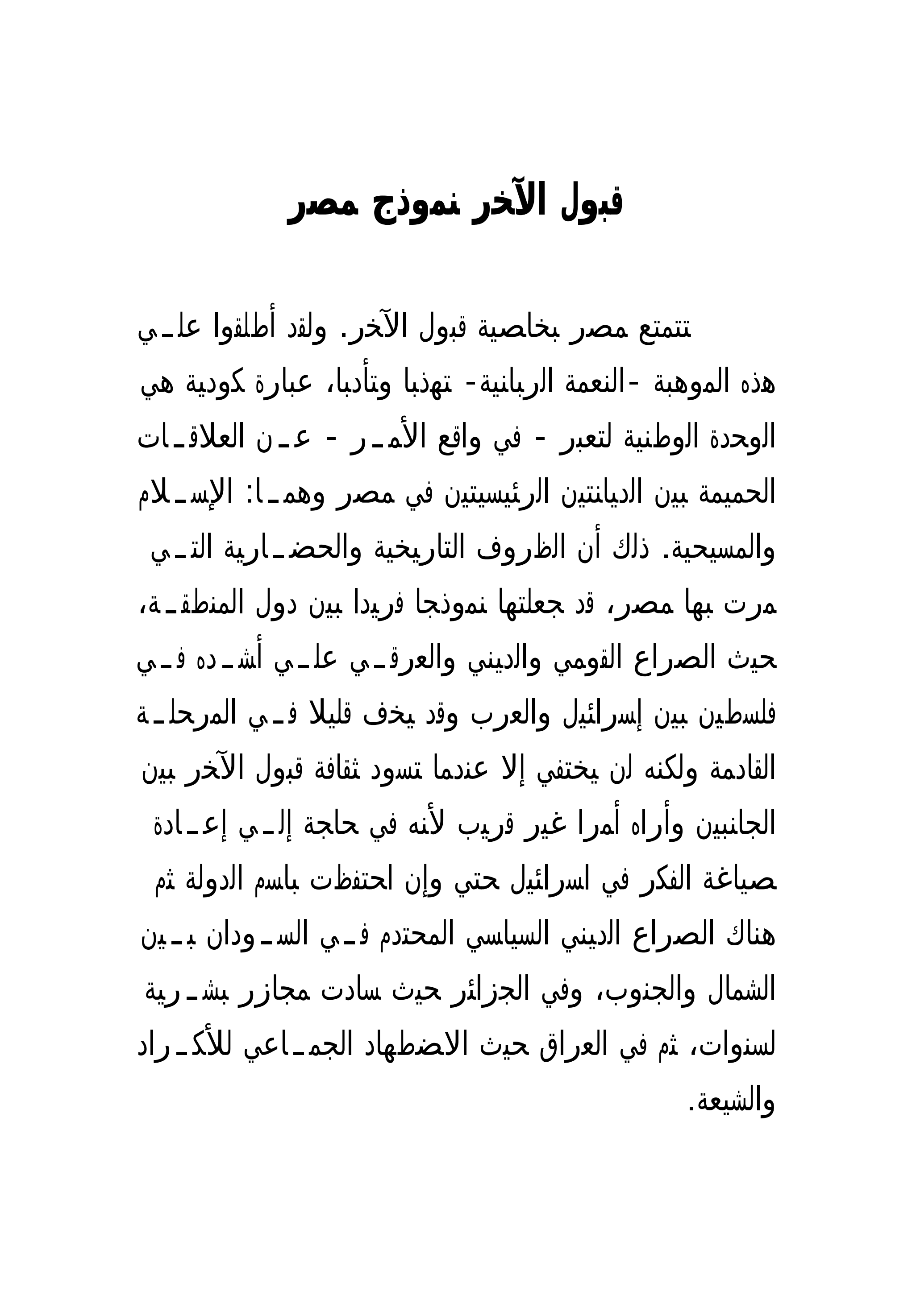
وبعده دعيت إلي ورشة عمل في اسـتكهولم أيضـا وبدعوة من الخارجية المصرية لاجتماع مثقفين من مجموعة دول إعلان برشلونة وذلك يومي ٢٣،٢٤ أبريل ١٩٩٨، وقد سجلت توصيات هذه الندوة المهمة في ملاحق الكتاب.

إن العالم كله يتحرك ليواجه هذا المـرض اللعـين المسمي صراع الحضارات، بنشر فكر وثقافة قبول الآخـر، وأري أن هناك حركة عالمية بين مثقفي العالم الراغبين فـي حصار الحروب الأهلية من خلال مايتم الآن من حوار بـين الثقافات والحضارات وهو الهدف الرئيسي من نشـر هـذا الكتاب.

الفصل السادس

قبول الآخر نموذج مصر

* قبول الآخر يحمل في مصر اسما كوديا هو الوحدة الوطنية
* ثقافة قبول الآخر في مصر نتاج لتراكم الرقائق الحضـارية التـي مرت بها مصر.
* التسامح في مصر يجب ألا يؤخذ بوصفه قضية مسلما بها، وعلينـا أن ندعمه ونرعاه وإلا تعثر.
* لعبة التبادل بين الوطنية والانتماء الديني فـي التـاريخ المصـري الحديث.
* حول رؤي القيادات الدينية (شيخ الأزهر والبابا ود.زقزوق والقـس د.صموئيل حبيب والأب يوحنا قلته) في قضية الاستنارة الدينية.



قبول الآخر نموذج مصر

تتمتع مصر بخاصية قبول الآخر. ولقد أطلقوا علـي هذه الموهبة -النعمة الربانية- تهذبا وتأدبا، عبارة كودية هي الوحدة الوطنية لتعبر - في واقع الأمـر - عـن العلاقـات الحميمة بين الديانتين الرئيسيتين في مصر وهمـا: الإسـلام والمسيحية. ذلك أن الظروف التاريخية والحضـارية التـي مرت بها مصر، قد جعلتها نموذجا فريدا بين دول المنطقـة، حيث الصراع القومي والديني والعرقـي علـي أشـده فـي فلسطين بين إسرائيل والعرب وقد يخف قليلا فـي المرحلـة القادمة ولكنه لن يختفي إلا عندما تسود ثقافة قبول الآخر بين الجانبين وأراه أمرا غير قريب لأنه في حاجة إلـي إعـادة صياغة الفكر في اسرائيل حتي وإن احتفظت باسم الدولة ثم هناك الصراع الديني السياسي المحتدم فـي السـودان بـين الشمال والجنوب، وفي الجزائر حيث سادت مجازر بشـرية لسنوات، ثم في العراق حيث الاضطهاد الجمـاعي للأكـراد والشيعة.

ويعود قبول الآخر في مصر إلي أن بهـا تاريخيـا تراكمات لرقائق من الحضارات، أولها وأطولها زمنا ومدي رقيقة الحضارة المصرية القديمة المدونة، والتي تعود - وفق تقديرات علماء الآثار الأوروبيين - لنحو ٣٢٠٠ عـام ق.م عندما توحدت مصر في عصر الملك مينا (نارمر) فكانـت بالنسبة لهم بداية للتاريخ المكتوب. وعمومـا فـداخل كـل مصري فرعون صغير أو كبير، وربما يكون ذلك هو السبب في وجود واستمرار شخصية سي السيد التي رسمها باتقـان نجيب محفوظ في ثلاثيته المشهورة. ويشترك في هذا الأمـر كل شعب مصر بصرف النظر عن انتمائه الديني، إن الرقيقة الفرعونية المتمثلة في آثار وعلم وفنون وحضارة مصر هي - بوعي أو بدون وعي - الركيزة المشتركة والثقافة الموحدة التي تربط بين أبناء الوطن جميعا، ومن ثـم تكونـت هـذه الأساسات لـ قبول الآخر تاريخيا وصار من الممكن إقامـة البناء الحضاري فوقه.

وتلا هذه الرقيقة الحضارية العريقة عميقـة الأثـر، رقيقة أخري هشة وأقل سمكا، وهي الحقبة المسماة اليونانية الرومانية، والتي يمكن أن تؤرخ من الناحية الرسمية بعـام

٣٣٢ق.م، وهي السنة التي دخل فيها الإسكندر الأكبر مصر فرحب به المصريون لأنه خلصهم من قهر واستعباد الفرس. ولكن سرعان مااستوعب المصريون كل حكامهم المنتمـين من ناحية العرق والسلالة إلي اليونان، من بطليمـوس الأول المسمي سوتير وتعني المخاص حتي بطليموس الثالث عشر (ويمكن الرجوع للتواريخ والتفاصيل فـي كتـاب الأعمـدة السبعة للشخصية المصرية) فقد كـان الحكـام اليونـانيون يعبدون الإله آمون، وقد أقـاموا عشـرات المعابـد لآلهـة المصريين القدماء، حتي صارت هذه المعابد (من دندرة فـي قنا إلي كوم أمبو ومعبد فيلة في أسـوان) امتـدادا للتـراث الفرعوني ذاته، ولايمكن التفرقة بينها وبين حضارة الفراعنة ذاتها، بل وفي عصرهم ازدهرت الحضارة، حتي صـارت الإسكندرية مركزا لحضارة المصريين بل مركـز إشـعاع للمنطقة كلها متجسدا فيما صار يعرف بمكتبة الإسكندرية - والتي كان لحريقها أثر سلبي في انقطاع وتواصل الحضـارة المصرية -وأغلب الظن - حضارات المنطقة كلهـا. ولـو كانت وثائق وبرديات ووثائق مكتبة الإسكندرية قـد أمكـن العثور عليها ولم تحرق، ربما كان تاريخ الفراعنة واليونـان

والرومان والآشوريين وغيرها من حضارات العـالم القـديم (حول المتوسط والذي كان يسمي وقتها بحر الروم) قـد تـم توثيقه بما أثري التاريخ القديم كله.

والجدير بالذكر في هذه المقام أنني أود أن أسجل في هذا الكتاب اقتراحا تحمست له أخيرا، وأتمني أن يتحقق قبل الرحيل وهو عن أهمية أن نعكف - ومن خـلال مجموعـة خبراء أكثرهم مصريين -علي إعادة فحص تـاريخ مصـر القديم لنحدد ونعمل- علي قدر ما تسمح به الوثائق والأدلـة التاريخية المتاحة -علي رصد التاريخ القديم ملكا ملكا ومدة حكم كل منهم سنة سنة، لكي نصـل إلـي بدايـة التقـويم الفرعوني ليكون مواكبا لبداية تسـجيل التـاريخ المكتـوب لمصر، أي مع بداية -توحيد مصر أي عندما تكونت أقـدم دولة مركزية في التاريخ، لأن إعلان هذا التقويم- وقد كتبت ذلك مرارا في الأهرام - وفي مقدمة الطبعة الرابعة لكتـابي الأعمدة السبعة للشخصية المصرية - سيكون تأكيـدا علـي وحدة الثقافة والتاريخ المصري ويزيـد مـن الربـاط بـين المسلمين والأقباط، أي يدعم قضية قبول الآخـر، ويجعـل مصر متفردة بتقويمها الخاص بها، ويرد علي التقويم العبري

الذي يبدأ مع بداية الخليقة كما هو وارد في الإصحاح الأول من سفر التكوين مع قصة آدم وحواء، وسـيكون الخـلاف الجوهري بين التقويمين في أن التقويم الفرعوني سيكون مبنيا علي حقائق علمية موثقة، بينما التقويم العبري يرتكز علـي مصادر مختلفة، معظمها قصص وأساطير شفوية تم تناقلهـا من جيل إلي آخر ولا تستند إلي حقائق موثقة.

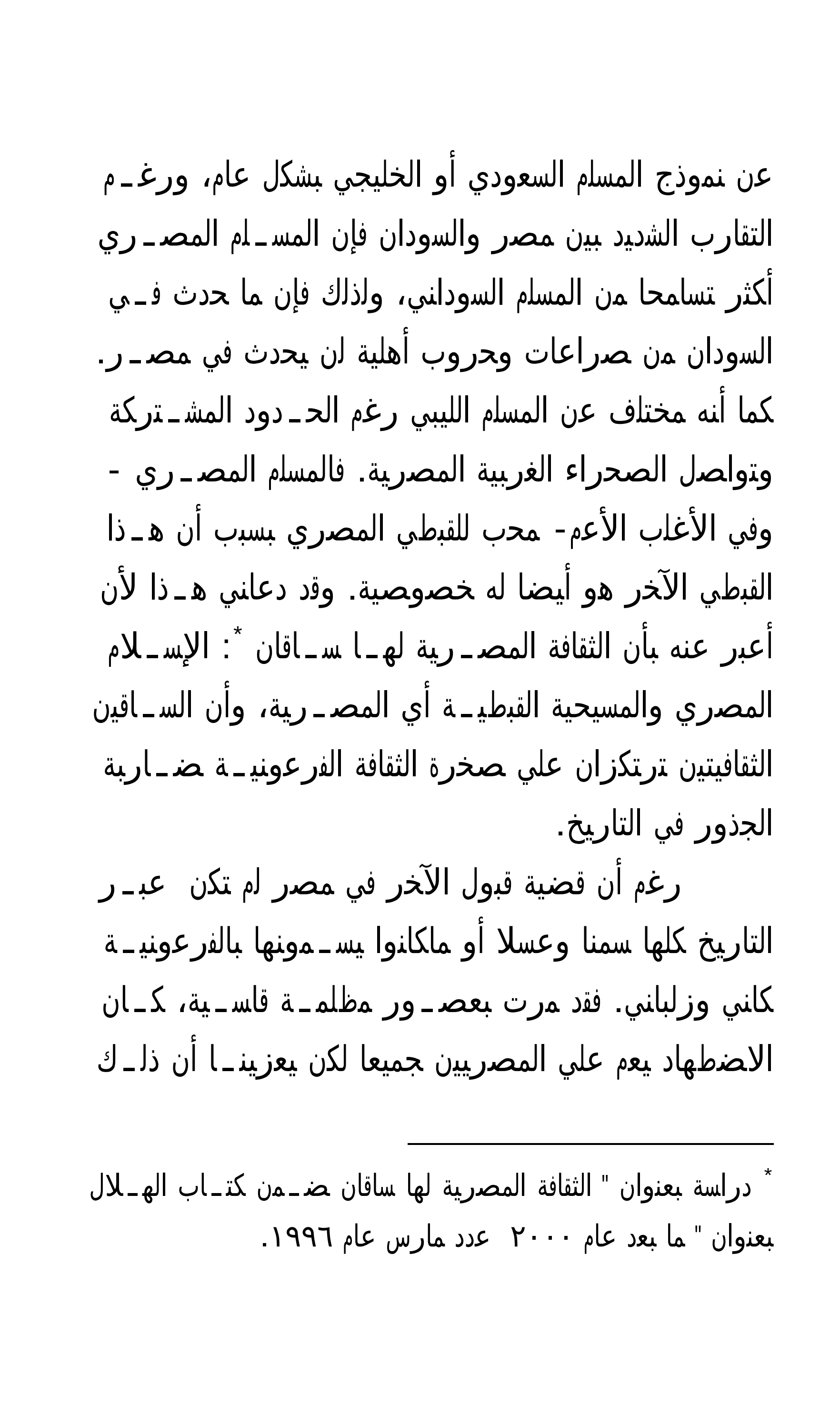
فكتاب التوراة قد كتب أكثره في حقبة سبي اليهـود إلي بابل أي في القرن السادس قبل الميلاد أي بعـد أحداثـه الرئيسية بنحو ألف عام.

وفوق كل من الرقيقة الفرعونية السـميكة والرقيقـة اليونانية - الرومانية تأتي الرقيقة الثالثة التي مرت بها مصر وهي الرقيقة القبطية التي تعبر عن الحقبة التي اعتنقت فيهـا مصر المسيحية تدريجيا وعبر قرون. وقد بدأت مع القـرن الأول الميلادي وظلت مستمرة حتـي الآن، أي أن تـاريخ المسيحية المصرية يعود إلي عشرين قرنـا مـن الزمـان، فكنيسة الإسكندرية التي أنشأها مرقص الرسول (كاتب إنجيل مرقص وأحد السبعين تلميذا من الحواريين) تأسست في نحو منتصف القرن الأول الميلادي، قد مرت بمراحل وظـروف

مختلفة متباينة (ليس هذا موقع ذكرها). وهي أقدم كنيسة في العالم المسيحي ولا ينازعها تاريخيا في ذلك إلا كنيسة روما الكاثوليكية.

وهذه الرقيقة القبطية التي عاشت ٢٠ قرنا ومازالت مستمرة، متداخلة مع الرقيقة السابقة لها وهـي اليونانيـة - الرومانية. فنقطة البداية للحقبـة القبطيـة يمكـن تحديـدها تاريخيا، ولعل الاتفاق بأنها كانت في القرن الثالث المـيلادي عام ٢٨٤ ميلادية حيث بداية التقويم القبطـي للشـهداء ثـم تفاعلت وتعايشت مع الرقيقة الأخيرة وهي الحقبة الإسـلامية التي بدأت في القرن السابع مع دخول العرب مصـر عـام ٦٤١م، ومازالت موجودة حية ونشيطة ومستمرة حتـي الآن وإن كانت قد مرت بظروف مختلفة عبـر ١٤ قرنـا مـن الزمان؛ ولذلك تفاصيل ذكرتها في كتابي الأعمـدة السـبعة للشخصية المصرية.

في هذا الإطار، فإن للإسلام المصري خصوصية في أنه قد تأثر بكل رقائق الحضارات السابقة عليه، ومن ثم فله نكهة خاصة به يلمسها المرء في ارتفاع درجة التسامح عنـد المصري بشكل عام، وتراه مختلفا حضاريا ومنهجيا وقيميـا

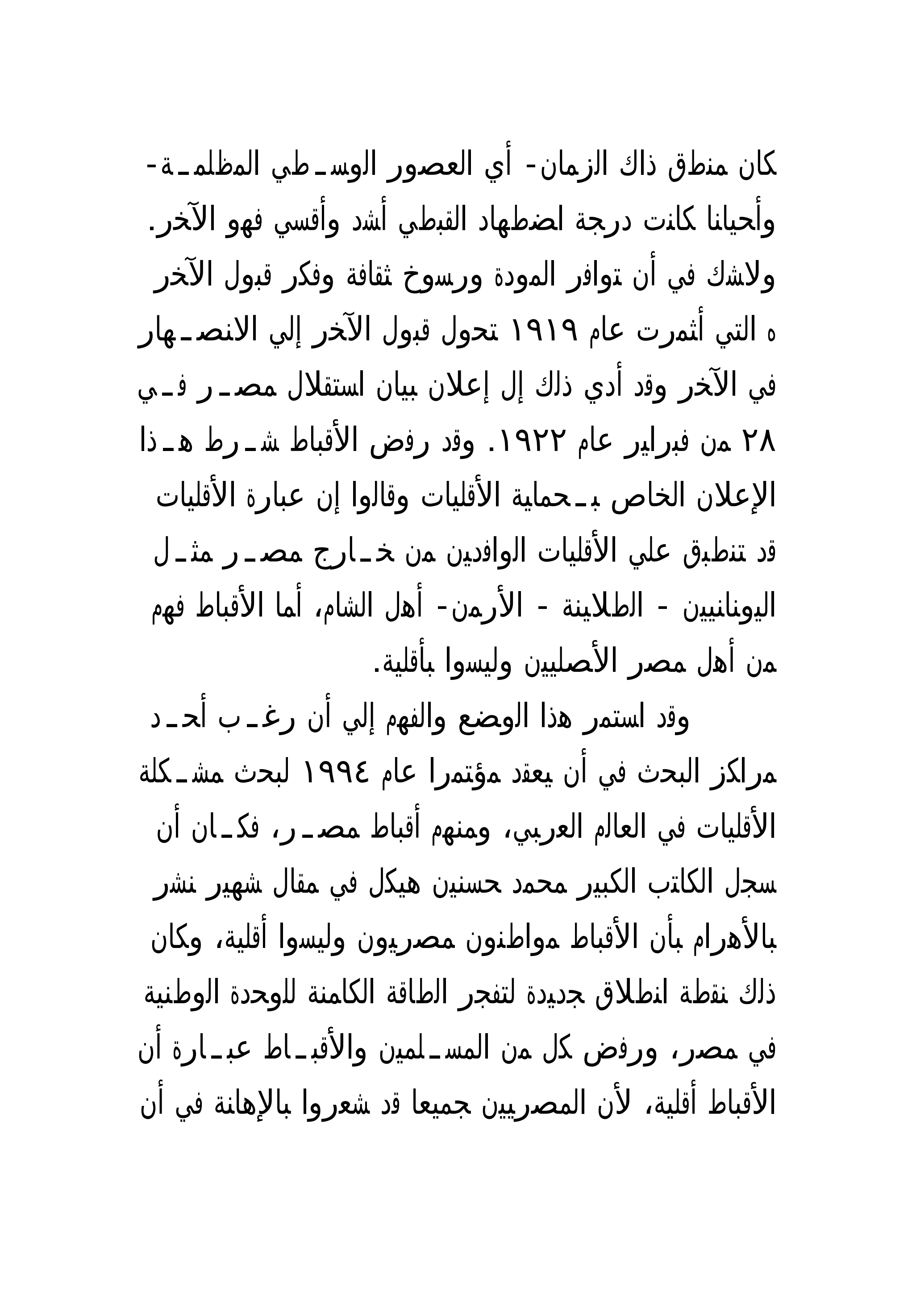


عن نموذج المسلم السعودي أو الخليجي بشكل عام، ورغـم التقارب الشديد بين مصر والسودان فإن المسـلم المصـري أكثر تسامحا من المسلم السوداني، ولذلك فإن ما حدث فـي السودان من صراعات وحروب أهلية لن يحدث في مصـر. كما أنه مختلف عن المسلم الليبي رغم الحـدود المشـتركة وتواصل الصحراء الغربية المصرية. فالمسلم المصـري - وفي الأغلب الأعم- محب للقبطي المصري بسبب أن هـذا القبطي الآخر هو أيضا له خصوصية. وقد دعاني هـذا لأن أعبر عنه بأن الثقافة المصـرية لهـا سـاقان *: الإسـلام المصري والمسيحية القبطيـة أي المصـرية، وأن السـاقين الثقافيتين ترتكزان علي صخرة الثقافة الفرعونيـة ضـاربة الجذور في التاريخ.

رغم أن قضية قبول الآخر في مصر لم تكن عبـر التاريخ كلها سمنا وعسلا أو ماكانوا يسـمونها بالفرعونيـة كاني وزلباني. فقد مرت بعصـور مظلمـة قاسـية، كـان الاضطهاد يعم علي المصريين جميعا لكن يعزينـا أن ذلـك

---

* دراسة بعنوان " الثقافة المصرية لها ساقان ضـمن كتـاب الهـلال بعنوان " ما بعد عام ٢٠٠٠ عدد مارس عام ١٩٩٦.



كان منطق ذاك الزمان- أي العصور الوسـطي المظلمـة- وأحيانا كانت درجة اضطهاد القبطي أشد وأقسي فهو الآخر. ولاشك في أن توافر المودة ورسوخ ثقافة وفكر قبول الآخر ه التي أثمرت عام ١٩١٩ تحول قبول الآخر إلي الانصـهار في الآخر وقد أدي ذلك إل إعلان بيان استقلال مصـر فـي ٢٨ من فبراير عام ١٩٢٢. وقد رفض الأقباط شـرط هـذا الإعلان الخاص بـحماية الأقليات وقالوا إن عبارة الأقليات قد تنطبق علي الأقليات الوافدين من خـارج مصـر مثـل اليونانيين - الطلاينة - الأرمن- أهل الشام، أما الأقباط فهم من أهل مصر الأصليين وليسوا بأقلية.

وقد استمر هذا الوضع والفهم إلي أن رغـب أحـد مراكز البحث في أن يعقد مؤتمرا عام ١٩٩٤ لبحث مشـكلة الأقليات في العالم العربي، ومنهم أقباط مصـر، فكـان أن سجل الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل في مقال شهير نشر بالأهرام بأن الأقباط مواطنون مصريون وليسوا أقلية، وكان ذلك نقطة انطلاق جديدة لتفجر الطاقة الكامنة للوحدة الوطنية في مصر، ورفض كل من المسـلمين والأقبـاط عبـارة أن الأقباط أقلية، لأن المصريين جميعا قد شعروا بالإهانة في أن

تناقش هموم ومشكلات الأقباط (علي الـرغم مـن وجـود مشكلات بالفعل، ليس هذا موقع ذكرها) في الزمان والمكان ذاته الذي تناقش فيه مشكلات أقليات أخري في العالم العربي مثل قضية الأكراد في العراق أو البربـر فـي الجزائـر أو السود في السودان وغيرها (*)

(*) تفجرت مناقشات حامية في مصر في شـهري مـارس وأبريـل ١٩٩٨ وذلك أثناء اعتزام الإدارة الأمريكيـة والكـونجرس إصـدار تشرعي بشأن فرض – عقوبات على الدول التـي لا تحتـرم حقـوق الأقليات. وقد اعتبر مقدمو القانون إلى الكونجرس أن من بينها" الأقلية القبطية المصرية، لقد أجمع المصريون على رفض تدخل الأمـريكيين في هذا الشأن والإصرار على أن يجئ حـل المشـاكل التـي تواجـه مسيحي مصر على أيدي مسلمي ومسـيحيي مصـر ممـن يؤمنـون بالديمقراطية والتسامح والوحدة الوطنية والعدالة وكل القـيم الإنسـانية الرفيعة، مهما كان هذا الطريق صعبا ،وقد اقترحت – منذ سـنوات – ضرورة وجود آلية لحل المشاكل اليومية التي تواجه الاقباط مثل إنشاء وكالة وزارة تابعة لوزارة الأوقاف أو مجلس أعلى للوحدة الوطنية تابع ومرتبط بمجلس الشورى أقترح أن يكون مرتبطا بالرئيس مباشـرة أو ما شابه ، تصدر الدولة تباعا تشريعات تحقق وتنفذ المساواة الـواردة في المادة ٤٠ من الدستور،وتعاقب من لا يلتزم بها كما هو الحال فـي أمريكا فيما يعرف بعبارة" قانون الحقوق المدنية" وقد سجلت في آخـر

وبرغم كل هذا، فإن قضية قبول الآخر- في مصـر وفي غير مصر- لاينبغي أن تؤخذ كقضية مسلم بها، مثـل الحقائق الثابتة كجريان المياه في نهـر النيـل، أو رسـوخ أهرامات الجيزة في مواقعها، ولكنها قضية ينبغي أن تـدعم عبر الزمان، لكل مرحلة تاريخية ملامحها وخواصها.

ففي الحقبة الحالية تتعرض الوحدة الوطنية أي قبول الآخر إلي خطر الانتكاسة، لذا تلزم العـودة إلـي الجـذور التاريخية التي تؤكد الثقافة المشتركة الموحدة لشعب مصـر، وهو أمر ينبغي أن يعلن علي السطح حتي يعرفـه الشـباب والأطفال، من خلال برامج التعليم في المدارس ليتأكـد كـل طفل مسلم أن زميله القبطي هو شريكه فـي الـوطن عبـر القرون الطويلة، وأنه كما أن مصر عاشـت الإسـلام منـذ بدايته، فقد دخل العرب مصر في حقبة عمر بن الخطـاب، كذلك دخلت المسيحية مصر في القرن الأول الميلادي ومـن خلال مرقص الرسولي أحد كتاب الأناجيل الأربعة.

الكتاب رسالة كنت قد كتبتها إلى الرئيس حسني مبارك وأرسلتها إليـه عبر د. عاطف عبيد والذي صار رئيس الوزراء في ١٩٩٩/١٠/١٠ .

الملاحظ في الحقبة الأخيرة ونتيجة رحيل الجيل الذي عاصر ثورة عام ١٩١٩، هبوب رياح ثقافية من صحراوات مجاورة لنا، وانتشار الجهل بالتاريخ مما حدا بأن توهم بعض الأغبياء- بسذاجة أو عمد - أن الأقباط مسيحيون قد قبلـوا المسيحية من خلال فرق التبشير الإنجليزية أو الأمريكيـة أو الفرنسية خلال القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر..!!

أكثر من هذا فإن مصر لم تقدم للعالم خبرة فريدة في مجال التسامح الديني فحسب وإنما قدمت أيضا نمـاذج فـي مجال التسامح الفكري والفلسفي.. والأيـديولوجي (حـديثا). فالحقبة الليبرالية قبل ١٩٥٢ بلورت بشـكل عـام نموذجـا للتعايش بين التيـارات السياسـية مـن حـزب الأحـرار الدستوريين والسعديين يمينا مرورا بحزب الوفد (والذي كان يمثل جبهة عريضة من الطبقات الوسطي وصولا إلي كافـة الفرق اليسارية وكذلك الجماعات الدينية) فقد دار الصـراع السياسي بينها جميعا دون نفي للآخر أو اغتيـال معنـوي. ولعل أفضل ما يمثل تلك الحالة التي أشـرت إليهـا، ذلـك المشهد الذي لاينسي خلال اعتقال السادات لرموز الحركـة الوطنية في سبتمبر عام ١٩٨١ وهـو مشـهد أبـو العـز

الحريري القائد اليساري وهو يتقدم لمساندة فؤاد سراج الدين باشا قطب الوفد (الليبرالي) في كل مرة أراد فيها الأخير أن يقف حين كانا في زنزانة واحدة بمعتقل طره.

ومنذ سـنوات تشـهد مصـر احتفـالات الإفطـار الرمضانية بين جميع تيارات الفكـر السياسـي المصـري ورموزه صار يطلق عليه عبارة إفطارات الوحدة الوطنيـة والتي تسير جنبا إلي جنب مع موائد الرحمن التـي تقيمهـا النخبة ذاتها بكـل ألوانهـا للجمـاهير السـابلة والعـابرين والمحتاجين.

مصر إذن ليست بلد التخندق والتبدنق (أي الإمسـاك بالبنادق) لكنها بلد التفاعل القبولي، وبلد التصارع ولكن علي أرضية خضراء. إن الناس في مصر -وربما ف غيرهـا- يعشقون الكرة لهذا السبب. إن الملعب الـذ يجـري عليـه التصارع الحامي علي الفوز هو بساط أخضر يرمز للسـلام والوئام، ويزيد هذا المعني عمقا أن الملعب الأخضر هو سرة المشهد في أ إستاد حيث تحيط كتل الأسمنت -المـدرجات- من كل جانب فلا يكسر صلابتها وقسوتها إلا التقـاء العـين بالأخضر.

مع هذا كله، ومن أجل هذا كله فإن التاريخ المشترك يغذ ويقوي قبول الآخر لأنه يحيي الوجدان المدعم بالانتمـاء إلي الأرض أي إل ذات الوطن من خلال التاريخ المشـترك أو وحدة التاريخ.

علي أن الاستناد إلي الماضي وحده لايكفـي، بـل ينبغي أن يمتد قبول الآخر إلي الحاضر أيضا. ولقد ذكرنا - علي سبيل المثال- كيف أنـه فـي النضـال المشـترك ف يالحركة الوطنية، وفي الحقبة من عـام ١٩١٩ حتـي عـام ١٩٥٢ كانت الوحدة الوطنية في أزهي عصورها لانتعـاش المعايشة والانصهار بين الأقباط والمسلمين، ومازلنا نستمتع ونستمع لصدي الصوت يرن في آذاننا منذ تلك الحقبة ولكنه سيختفي مع الزمن ليتحول من حاضر حي إلي تاريخ منسي.

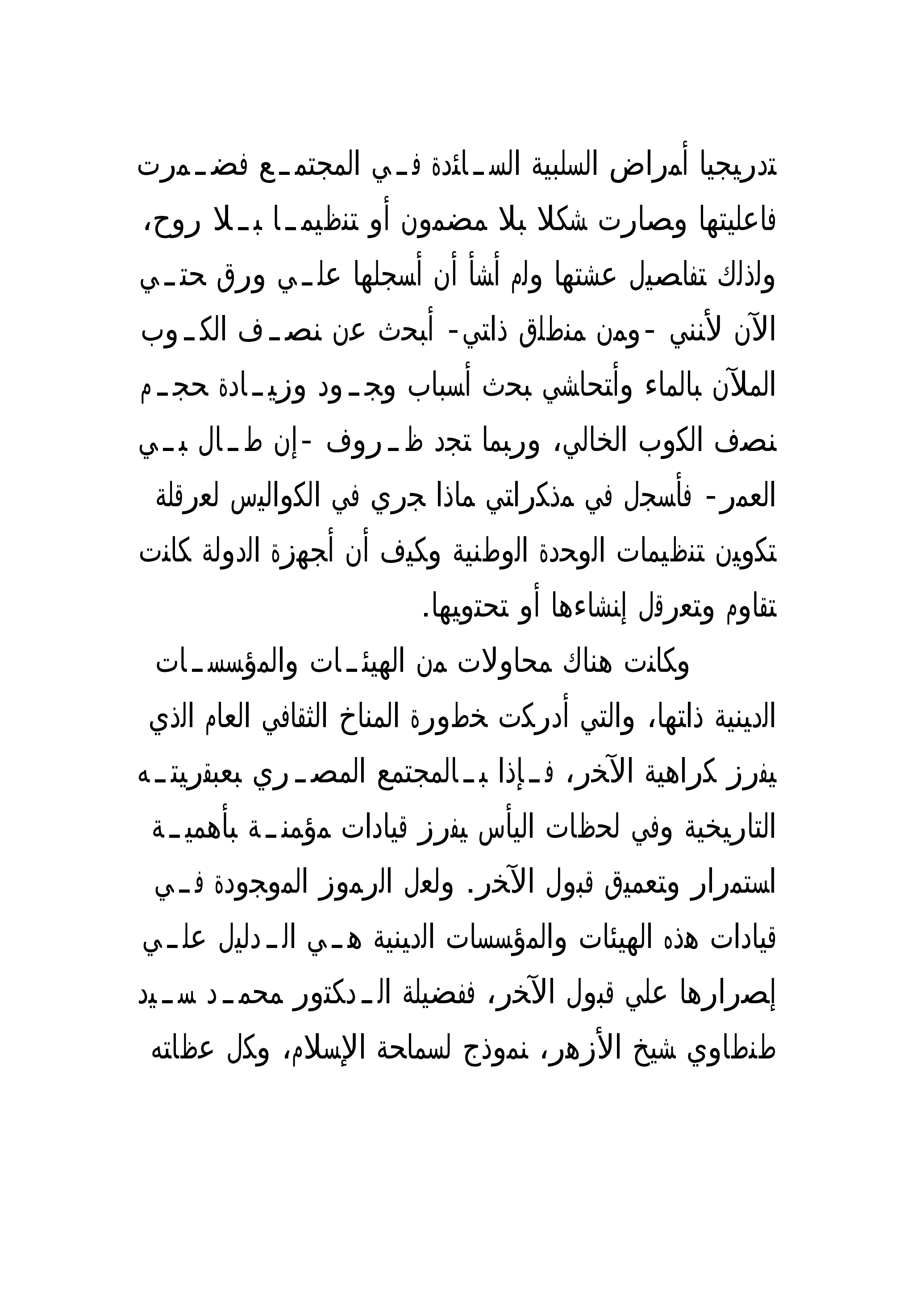
وفي المرحلة الناصرية، ناضل المصريون جميعا - بقيادة وزعامة عبد الناصر- من أجل إقامة مجتمع علماني أو بلغة العصر مجتمع مدني أي لايرتكز علي الانتماء الـديني، ثم محاولة إقامة دولة مصر الحديثة بانتماء عربي واضـح، وقد ضربت تلك الأيديولوجية في حرب يونيـو ١٩٦٧، ثـم تحمس الناس لفكر تقريب الفوارق بين الطبقـات أي نشـر

مظلة العدالة الاجتماعية (وقد ضربت هذه الأيديولوجية مع الانفتاح الاستهلاكي عام ١٩٧٤ ثم الخصخصة وانتشار الفساد في مرحلة التسعينيات). ولذلك لم نسمع كثيرا عن الفتنة الطائفية (وهي تجسيد لفكر كراهية الآخر) إلا في عصر السادات حيث كانت البداية هي حريق كنيسة الخانكة عام ١٩٧٢ ثم مسلسل حرق الكنائس والعدوان عليها وصولا إلي اقتحام كنيسة في مدينة أبو قرقاص بمحافظة المنيا في مارس عام ١٩٩٧ وهو أمر غريب علي مصر.

ومن كل هذا العرض يتضح أن نموذج قبول الآخر في مصر، لم يعد بالمتانة والقوة والرسوخ الذي كان عليه منذ سبعين عاما وحتي أواخر الستينيات، ولذلك لم أدهش لوجود محاولات جادة من هيئات وشخصيات دينية قيادية مختلفة تتدارس الخلل القائم حاليا، وتعمل علي توفير البديل الذي يوفر الكفاح المشترك والذي صهر المصريين عام ١٩١٩ من خلال الحركة الوطنية. لقد تحقق الاستقلال ولم يعد هناك مشروع قومي يلتف حوله المصريون فتتفوق روح الانتماء الوطني علي الانتماء الديني.

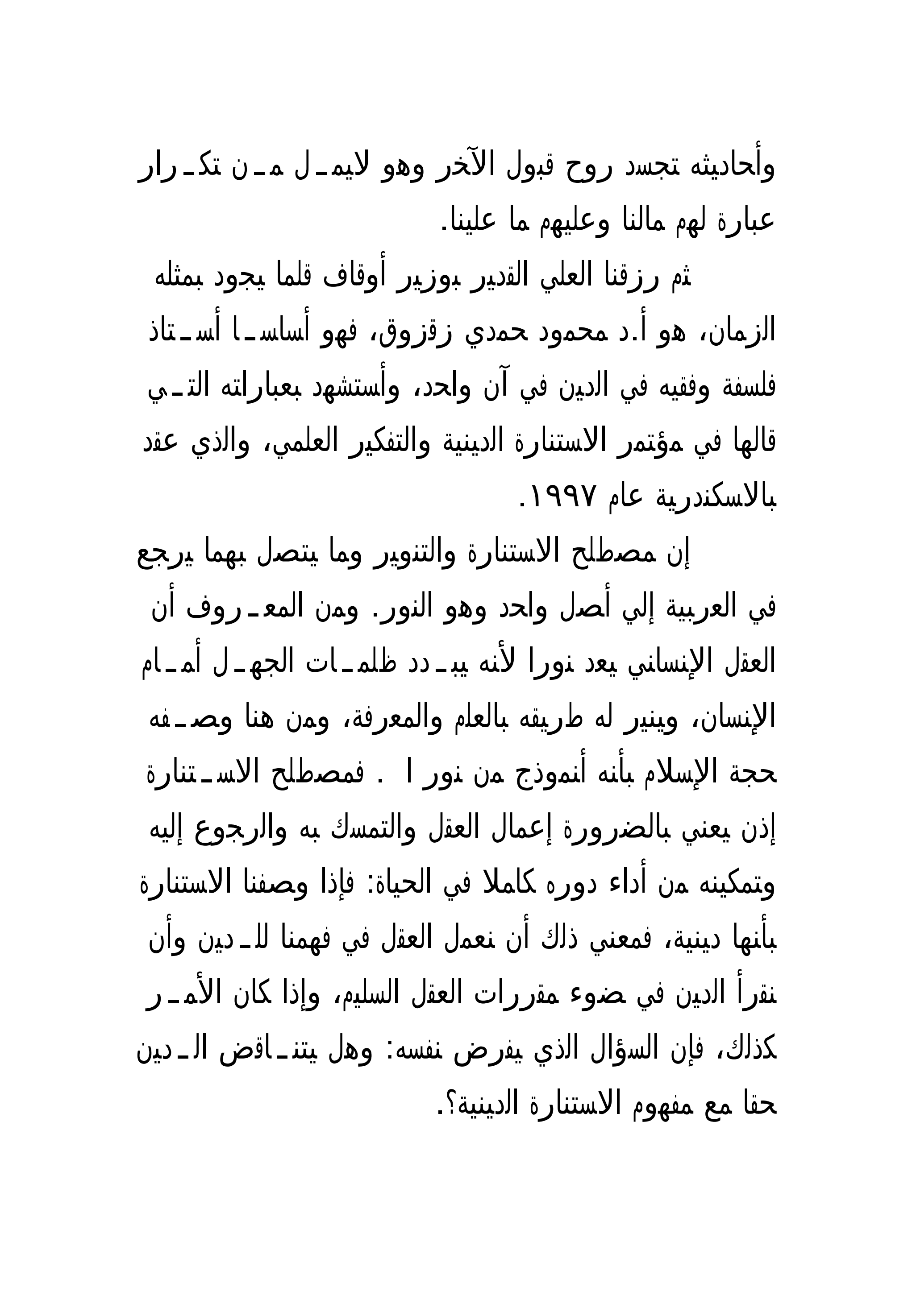
فمشروع تعمير منطقة توشك أو تعمير سيناء أو زيادة الرقعة التي سنعيش عليها في مصر من ٥% عام ١٩٩٧ إلي نحو ١٥% عام ٢٠٠٧ أو ٢٥% عام ٢٠١٧ كل تلك ليست مشروعات حماسية وطنية مثل مشروع استقلال مصر أو القومية العربية أو معركة إنشاء السد العالي في مواجهة أمريكا التي رفضت بوقاحة تمويله، فكلها مشروعات عمرانية يقوم ويتفاعل فيها المهندسون والفنيون، خصوصا وقد أصيب معظم المصريين بحالة من السلبية التدريجية نتيجة عوامل كثيرة كنا قد أشرنا إليها في فصول سابقة وليس هذا موقع تكرارها.

وفي هذا المناخ ظهرت الحاجة لخلق آليات جديدة تكون معوضة عن المشروع الوطني القوم المشترك، فظهرت الحاجة إلي إنشاء جمعيات الوحدة الوطنية، وكان الحماس والإقبال عليها قويا وشديدا أول الأمر، حيث بلغ ذروته في اجتماع جماهيري عقد في ٩ من أكتوبر عام ١٩٩٢ أمام نقابة المحامين والصحفيين حضره نحو عشرة آلاف مواطن. وقد انزعجت السلطات وقتها من حماسة الناس للوحدة الوطنية. ولكن هذه الجمعيات الأهلية. أصابتها



تدريجيا أمراض السلبية السـائدة فـي المجتمـع فضـمرت فاعليتها وصارت شكلا بلا مضمون أو تنظيمـا بـلا روح، ولذلك تفاصيل عشتها ولم أشأ أن أسجلها علـي ورق حتـي الآن لأنني -ومن منطلق ذاتي- أبحث عن نصـف الكـوب الملآن بالماء وأتحاشي بحث أسباب وجـود وزيـادة حجـم نصف الكوب الخالي، وربما تجد ظـروف -إن طـال بـي العمر- فأسجل في مذكراتي ماذا جري في الكواليس لعرقلة تكوين تنظيمات الوحدة الوطنية وكيف أن أجهزة الدولة كانت تقاوم وتعرقل إنشاءها أو تحتويها.

وكانت هناك محاولات من الهيئـات والمؤسسـات الدينية ذاتها، والتي أدركت خطورة المناخ الثقافي العام الذي يفرز كراهية الآخر، فـإذا بـالمجتمع المصـري بعبقريتـه التاريخية وفي لحظات اليأس يفرز قيادات مؤمنـة بأهميـة استمرار وتعميق قبول الآخر. ولعل الرموز الموجودة فـي قيادات هذه الهيئات والمؤسسات الدينية هـي الـدليل علـي إصرارها علي قبول الآخر، ففضيلة الـدكتور محمـد سـيد طنطاوي شيخ الأزهر، نموذج لسماحة الإسلام، وكل عظاته



وأحاديثه تجسد روح قبول الآخر وهو لايمـل مـن تكـرار عبارة لهم مالنا وعليهم ما علينا.

ثم رزقنا العلي القدير بوزير أوقاف قلما يجود بمثله الزمان، هو أ.د محمود حمدي زقزوق، فهو أساسـا أسـتاذ فلسفة وفقيه في الدين في آن واحد، وأستشهد بعباراته التـي قالها في مؤتمر الاستنارة الدينية والتفكير العلمي، والذي عقد بالاسكندرية عام ١٩٩٧.

إن مصطلح الاستنارة والتنوير وما يتصل بهما يرجع في العربية إلي أصل واحد وهو النور. ومن المعـروف أن العقل الإنساني يعد نورا لأنه يبـدد ظلمـات الجهـل أمـام الإنسان، وينير له طريقه بالعلم والمعرفة، ومن هنا وصـفه حجة الإسلام بأنه أنموذج من نور ا . فمصطلح الاسـتنارة إذن يعني بالضرورة إعمال العقل والتمسك به والرجوع إليه وتمكينه من أداء دوره كاملا في الحياة: فإذا وصفنا الاستنارة بأنها دينية، فمعني ذلك أن نعمل العقل في فهمنا للـدين وأن نقرأ الدين في ضوء مقررات العقل السليم، وإذا كان الأمـر كذلك، فإن السؤال الذي يفرض نفسه: وهل يتنـاقض الـدين حقا مع مفهوم الاستنارة الدينية؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال - مـن وجهـة النظـر الإسلامية- هي النفي القاطع لوجود مثل هذا التناقض، لسبب بسيط وهو أنه لايمكن أن يكون هناك تنـاقض بـين الـدين والعقل في الإسلام.

وقد أكد الشيخ محمد عبده علي ذلك حين أشار إلـي أن الدين إذا جاء بشيء يعلو علي الفهم، فلا يمكن أن يـأتي بما يستحيل علي العقل. كما قرر أيضا أن العقـل يجـب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولابد من اجتهاد يعتمد علي الدين والعقل معا حتي نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة (انتهي نص مقولات د. زقزوق)

ومن الأسماء اللامعة في المجال الـديني المسـيحي الأنبا يوحنا قلته النائب البطريركي للأقباط الكاثوليـك وهـو يقدم رؤيا متقدمة عن كل من الحياة والعلم ففي دراسة مقدمة إلي المؤتمر ذاته بعنوان مدخل إلي العقل العربي يقول :

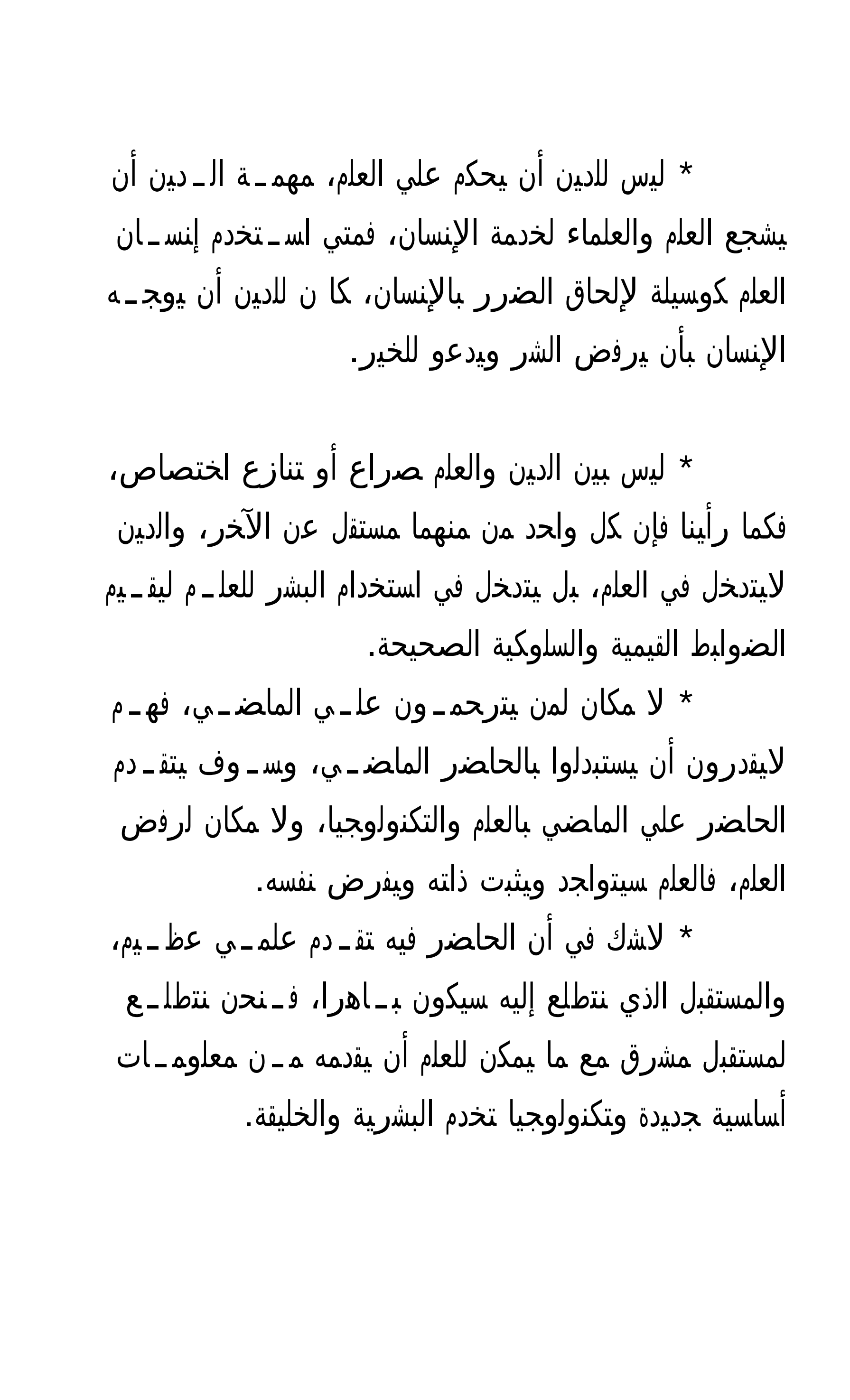
إن صراعا حقيقيا يدور في العقل العربي، بين تراث الماضي بما في ذلك التـدين القـديم والتقاليـد الموروثـة، والخرافات المنتشرة التي علقت به خـلال قـرون الجمـود والعزلة والانطواء، وبين حقائق علمية تفرض علي الإنسانية

نمطا جديدا في الحياة، وتضع إطارا جديدا للعلاقـات بـين الشعوب، وقد يكون الصراع بين نزعات قديمة في أعمـاق الوجدان العربي ترفض أن تتنازل عن السيادة أو القبليـة أو سيادة الرجل أو التعصب العرقي والمذهبي، وبين نزعـات فرضتها ثقافة العصر ودعوته إلي الحرية والمساواة والأخوة الإنسانية

إن العقل العربي لايزال يئن مـن عصـور الغـزو والقهر وكأن العلم قادم من الشاطئ الآخـر يلـبس ثـوب اللصوصية أو ثوب الإلحاد (انتهي نص مقولات الأنبا يوحنا قلته)

وفي الندوة ذاتها التي عقدت بمدينة الإسكندرية من ٢ إلي ٤ من سبتمبر عام ١٩٩٧ قـدم القـس د. صـموئيل حبيب -رئيس الطائفة الإنجيلية في مصر، وكان هو الداعي للندوة والمنظم -في ورقة بعنوان موقف الدين من التفكيـر العلمي اخترت منها العبارات الآتية (*).

(*) كتبت هذه السطور قبل رحيل القس صموئيل حبيب في أواخـر سبتمبر عام ١٩٩٧.



* ليس للدين أن يحكم علي العلم، مهمـة الـدين أن يشجع العلم والعلماء لخدمة الإنسان، فمتي اسـتخدم إنسـان العلم كوسيلة لإلحاق الضرر بالإنسان، كا ن للدين أن يوجـه الإنسان بأن يرفض الشر ويدعو للخير.

* ليس بين الدين والعلم صراع أو تنازع اختصاص، فكما رأينا فإن كل واحد من منهما مستقل عن الآخر، والدين لايتدخل في العلم، بل يتدخل في استخدام البشر للعلـم ليقـيم الضوابط القيمية والسلوكية الصحيحة.

* لا مكان لمن يترحمـون علـي الماضـي، فهـم لايقدرون أن يستبدلوا بالحاضر الماضـي، وسـوف يتقـدم الحاضر علي الماضي بالعلم والتكنولوجيا، ولا مكان لرفض العلم، فالعلم سيتواجد ويثبت ذاته ويفرض نفسه.

* لاشك في أن الحاضر فيه تقـدم علمـي عظـيم، والمستقبل الذي نتطلع إليه سيكون بـاهرا، فـنحن نتطلـع لمستقبل مشرق مع ما يمكن للعلم أن يقدمه مـن معلومـات أساسية جديدة وتكنولوجيا تخدم البشرية والخليقة.

(انتهت النصوص المقتطفة من ندوة الاستنارة الدينية والتفكير العلمي)

***

نحن إذن أمام أفكار وأيديولوجية جديدة، سوف يلتف حولها أول الأمر المثقفون والمفكرون ثم تنتقل تدريجيا إلـي باقي البشر العاديين وسيكون ذلك بديلا عن التفـاف النـاس حول قضية التحرر الوطني التي بدأت مع مطلع القرن، فقـد انتهي دورها مع استكمال الاستقلال -ولو من ناحية الشكل- وصرنا في حاجة إلي أيديولوجية وفكر جديد يـزاوج بـين الدين والعلم ولايضعهما في مواجهة، كما أنـه ينظـر إلـي التراث والماضي ليس لكي يعود فنغرق فيـه، وإنمـا لكـي يدفعنا إلي رؤية العالم والآفاق الجديدة، ومن خلال كل ذلـك نتعرف علي الأرضية المشتركة ومن ثم قبول الآخر.

الجزء الثاني

عن الأديان والأيديولوجيات

مقدمة

ما حدث من تفجيرات بطريقة غير مسبوقة، وحيل لـم تخطر على ذهن بشر، وبوسائل وتكنولوجيا عالية، وبقلـوب جسورة أدت إلى ما حدث من تفجيرات ـ كان حدثًا تاريخيا مشهودا، فيومها انهار برجا مركز التجـارة العـالمي فـي نيويورك – رمزا الحضارة الأمريكية- ومبنى البنتـاجون- رمز الغطرسة والقوة العسكرية الأمريكية- في واشنطن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقد صار بالفعل يوما فاصلاً في التاريخ بين حقبة و أخرى، ثم كان ما تلاه من إعلان أمريكا الحرب ضد أفغانستان في خطة تردد أنهـا (أي الحـرب) ستكون طويلة الأمد ضد ما أسمته أمريكا بـ ـ " الإرهـاب" الدولي والتي بدأت يوم الأحد ٧ أكتوبر ٢٠٠١، كـل تلـك الأمور قد هزت العالم كله وصار في حالة من القلق لحـرب لم تتضح نهايتها بعد، وكل ذلك خلق واقعا جديدا كنا نتمنـى أن لا يقع من خلال قناعة عدد أكبر من البشر بنظرية " قبول الآخر".

أما وقد تمت كل تلك الأحداث المفزعة فقد انزعج أهل الفكر وتأكدوا أن العالم فـي حاجـة لمزيـد مـن التحليـل والمعرفة، وكل ذلك فرض علينا أن نناقش موضوع " **الأديان والأيديولوجيا**" في هذا الجزء الثاني من ذات الكتـاب الـذي يحمل عنوان " قبول الآخر "، وفي هذه الطبعة الرابعة حيث تمت إضافة هذا الفصل السابع بعد هذه المقدمة للجزء الثاني الذي كُتب في نوفمبر عام ٢٠٠١.

ومن جانب آخر فإن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م-١٩٤٥م) كانت حرب أيديولوجيات" إذ تجمع " الحلفاء" ضـد "النازية" الهتلرية والتي تحالفـت مـع "الفاشـية" الإيطاليـة "والتعالي" الياباني وأثناء الحرب ظهرت خلافات مكتومة بين التيار الليبرالي الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية مدعمة من دول أوروبا الغربية مـن جهـة، فـي مواجهـة الأيديولوجية الماركسية- اللنينية بزعامة الاتحاد السـوفيتي من جهة أخرى، وبالفعل وعقب أن انتهت الحرب السـاخنة عام ١٩٤٥ بهزيمة ألمانيا وإيطاليا ثم قيـام أمريكـا بقـذف مدينتي هيروشيما وناجازاكي في اليابان بأول قنابـل ذريـة أدت إلى استسلام اليابان، نقول بعد انتهاء الحرب قامت الأمم

المتحدة بصياغة ميثاق يناسب الرؤية المستقبلية وقتها بحيث كان الهدف هو ضمان عدم قيام حرب ساخنة بـين الـدول الكبرى مرة أخرى، وبالفعل أنشئ مجلس الأمن ليراقب مـا يجرى في العالم من " **نزاعات قد تفضي إلى حروب". وكانت** الضمانة لعدم تضاد المصالح بين الدول الخمس الكبرى هي من خلال حق **النقض " الفيتو " للدول الخمس الكبرى"** التي خرجت منتصرة في الحربة وصار لها مقاعـد دائمـة فـي مجلس الأمن وهي : أمريكا- الاتحاد السوفيتي – إنجلترا – فرنسا- الصين، ولم تكـن الظـروف والواقـع السياسـي والاقتصادي قد فرضت وجود أهمية عالميـة للـدول التـي خرجت منهزمة وبالذات ألمانيا واليابان، والتي صار – مـن الضرورة – وجودها الآن مع هذه الدول الخمس الكبرى في مجلس الأمن.

مهما يكن من أمر، فقد دخلت البشرية حقبـة الحـرب الباردة بين الرأسمالية والشيوعية كما هو معروف، وأنشـئ حلف الأطلنطي ويقابله حلف وارسو ، ثـم كـان أن قامـت أمريكا بإدخال الأديان كعنصر ثقافي ووجداني في مواجهـة الشيوعية.

وأنشئ بالفعل ما سـمي بـ ـ " معبـد التفـاهم " The Temple Understanding وتفـرع منـه مجلـس الكنـائس العالمي، وصار تنظيما مستقرا له مسـاهمات فـي تشـكيل الوجدان الديني في العـالم المسـيحي المترامـي الفـروع والمذاهب في كل بلـدان العـالم، كمـا أنشـئ " المـؤتمر الإسلامي" لذات الهدف ونشأت تنظيمات فرعية كثيرة تحـت شعار ما صار يعرف بـ " الصحوة الإسلامية.

وكانت " الصهيونية" – كحركـة يهوديـة بـدأت مـع هيرتزل عام ١٨٩٨- قد حققت إنجازا سياسيا وأملاً طالمـا انتظره اليهود مع إنشاء إسرائيل علـى جـزء مـن أرض فلسطين عام ١٩٤٨، واستمر سباق التسلح وانتشـار النفـوذ السياسي لكل من الاتحاد السوفيتي وأمريكا فـي معسـكرين واضحين يتنافسان في عالم توازن مع هذا التنافس وهو أمر نعتقده الآن.

قام الاتحاد السوفيتي عـام ١٩٧٩ بغـزو أفغانسـتان فاستثمرت أمريكا هذا الخطأ الاستراتيجي – و مـن خـلال المخابرات والتنظيمات التي كانت قد استقرت ولها التوجـه الديني الإسلامي ، فجمعت " المجاهدين" من كل بلدان العالم

العربي والإسلامي – ليساهموا كمتطـوعين فـي معاونـة الأفغان تحت راية " الجهاد الديني" فـي مواجهـة الاتحـاد السوفيتي " الملحد.

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فإن أحداث المجاهدين فـي أفغانستان تحت راية الإسلام كانت متزامنة ومتسقة مع مـا قامت به الكنيسة الكاثوليكية عندما ساهمت بدور فعـال فـي دعم " حركة التضامن " للنقابات العمالية في بولندا بزعامـة فاونزا، فكانت تنظيمات الكنائس الكاثوليكية هي المدخل إلى "اختراق الكتلة الشيوعية في شرق أوروبـا طـوال حقبـة الثمانينيات، وتم ترويج أفكارها في هـدوء لـداخل الاتحـاد السوفيتي من خلال عبارات " البروسترويكا والجلاسنوسـت" التي ابتركها ميخائيل جورباتشوف السكرتير العام للحـزب الشيوعي السوفيتي، وكل ذلـك أدى إلـى تفكـك الاتحـاد السوفيتي عام ١٩٩١ دون أي حرب سـاخنة بينـه وبـين أمريكا، مما يعطي انطباعا بأن فلسفة " الفكر البرجمـاتي " لأمريكا قد استطاعت أن تنتصر على أيديولوجيـة" حتميـة انتصار الاشتراكية" وهو ما يتفق مع نهج " أن الإنسان هـو محرك التاريخ" كما ذكرنا في فصل ٢.

ثم كانت حرب الخليج عام ١٩٩٠ وما صـاحبها مـن تغيرات في منطقة الشرق الأوسط أوصلتنا إلى مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو، ولكن كل ذلك لم يفلح في صلح وسـلام بـل فشلت اتفاقية كامب ديفيد الثانية بين عرفات وباراك وبضغط ووساطة من كلينتون عام ٢٠٠٠ ثم تعثـرت المفاوضـات النهائية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية منذ ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠ لأن الصراع العربي – الإسرائيلي قد تحـول إلـى حرب دينية بين اليهودية والإسلام.

وكل ذلك يحمل على فحـص ملـف " الأيـديولوجيات والأديان" لوجود علاقة "جدلية بينها في العصر الحـديث إذ يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به. ومؤخرا قـال الـرئيس جورج بوش الابن في أكتوبر عام ٢٠٠١ ، إن حرب أمريكا ضد الإرهاب الدولي هي حرب " صليبية" وقد صور بعـض المحللين والأمريكان هذه المقولة وكأنها "زلة لسان" ولكن ما جاء من نصوص صريحة في كتاب صـموئيل هـانتجتون "صدام الحضارات " أكدت أن ما تنبأ به مـن أن " الحـرب القادمة – إن نشأت – ستكون بين الحضارات، ثم كـان أن

ردت قيادة طالبان في أفغانستان بالمثل وقالت أنها تحـارب أمريكا وأوربا وإسرائيل باعتبارهم " كفارا".

ألخص ما رغبت طرحه في هذه المقدمة للجزء الثـاني من " قبول الآخر " فأقول أن الحرب العالمية الثانيـة ومـا تلاها من حرب بـاردة كانـت حربـا " أيديولوجيـة بـين الرأسمالية الليبرالية والاشتراكية الماركسـية، ثـم كـان أن استخدمت أمريكا فيها الأديان على جميع مسمياتها ونجحـت بالفعل في قهر " الشيوعية من منطلق أنها " ملحدة" أي ضـد الأديان ، ثم جاءت حرب " الأولى " في القرن ٢١ لتكون – بشكل مباشر أو غير مباشر – حربا بين الأديان" ، أو وفـق عبارات هانتجتون هي صراع بين الحضـارات " أي بـين الغرب والإسلام، ومن هنا فقد آثرت أن أخصص هذا الجزء الثاني من هذه الطبعة الرابعة لمناقشـة موضـوعية حـول "الأديان" والأيديولوجيات" ، وهو يحتوي على فصـلين الأول يأخذ رقم ٧ (ليكون من حيث الرقم استمرارا لباقي الكتاب) وهو فصل جديد تماما من وحي ما جرى من أحداث جـاءت في الأسابيع القليلة الماضية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعنـوان "دور الأديان الإبراهيمية والأيديولوجيات في صياغة ثقافة "

قبول الآخر" ليشرح – في نوع من الصراحة- الخلافات بين الأديان الإبراهيمية وكيفية التغلب على احتمالات الصدام من خلال الحوار " غير المسبوق" وليساهم في تفسير بعض ما يجري حاليا، ثم يتطرق في نهاية هذا الفصل إلى خبرة الكثلكة في التفاعل مع الثقافات والأيديولوجيات الأخرى والتي أوصلتها إلى مفاهيم " لاهوت التحرير" أما الفصل ٨ فيقدم نموذج " التلقيح الثقافي بين الكثلكة والماركسية" كما حدث في أمريكا اللاتينية وكان قد سبق نشر هذا الفصل قبل تعديله تحت رقم ٣ في الطبعة الثالثة السابقة.

وختاما فإنني أتقدم بالشكر للأستاذ والصديق أشرف عامر، مدير ومسئول الشركة الإعلامية – ستامبا- وكل العاملين معه، والذين قدموا معونة وجهدا في مراجعة وإخراج هذه الطبعة الرابعة.

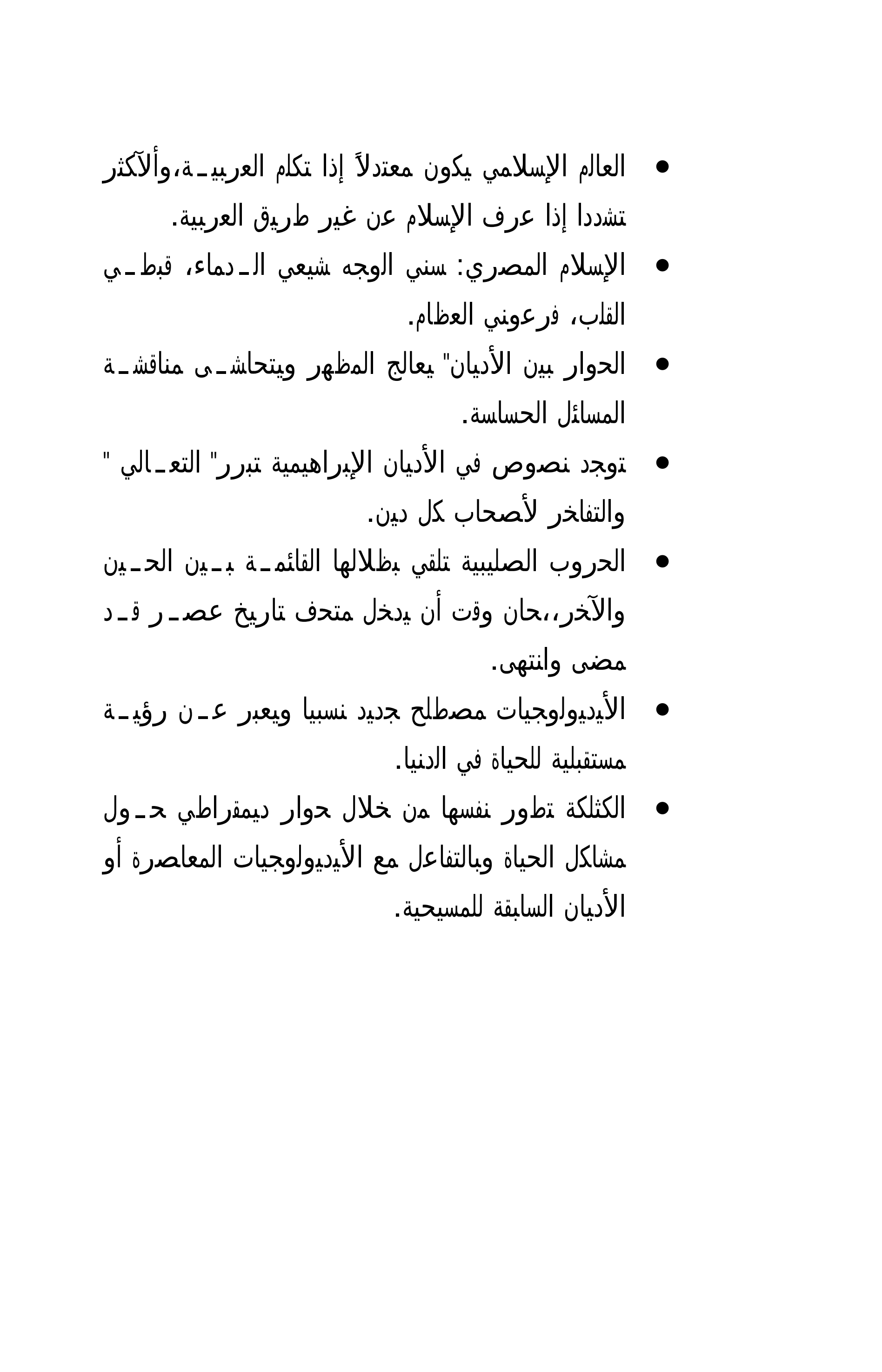
د. ميلاد حنا

القاهرة ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١

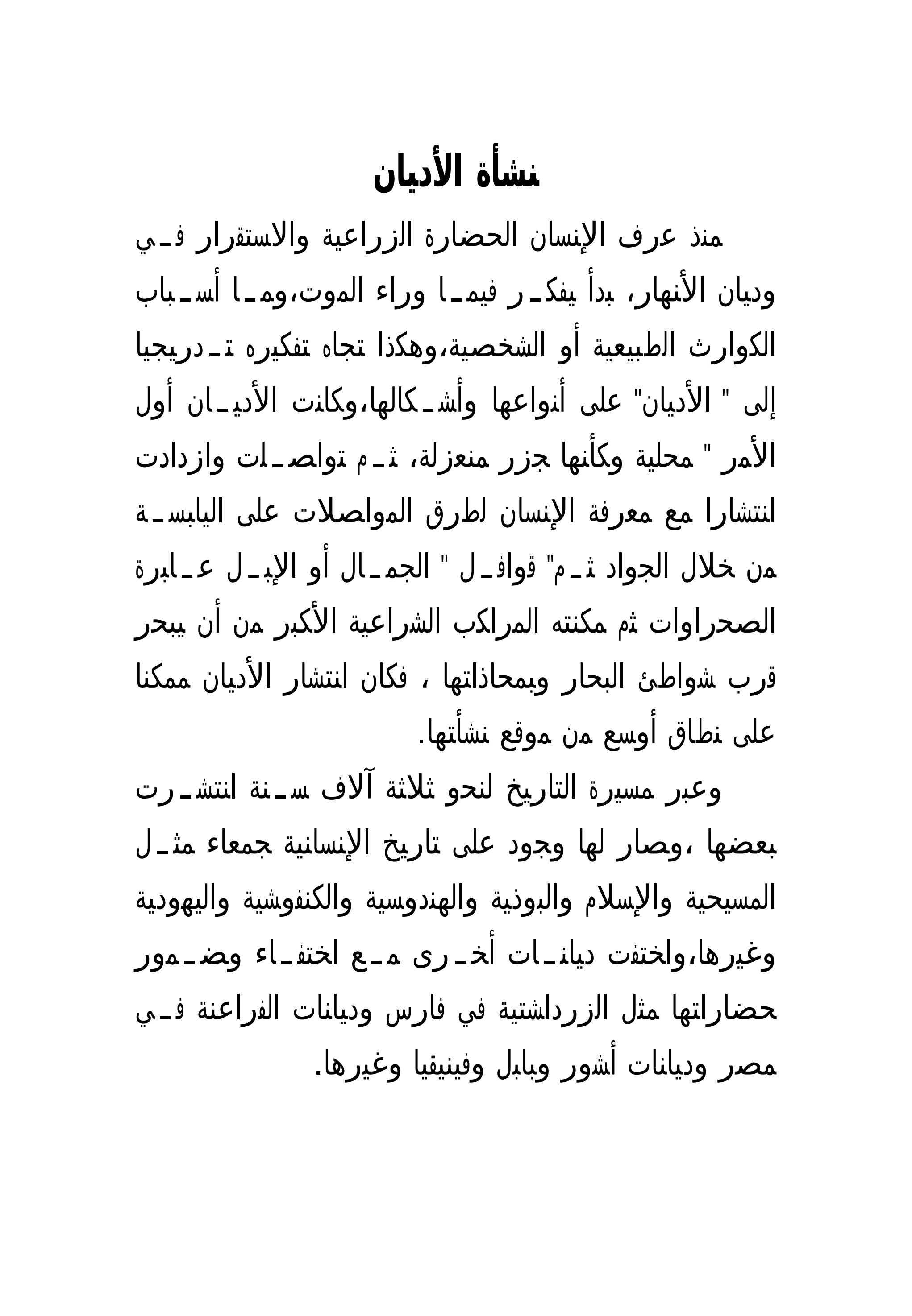
١

دور الديانات الإبراهيمية والأيديولوجيات الغربية في صياغة ثقافة " قبول الآخر"

- عرفت الحضارات القديمة الأديان لتتأمل ماذا وراء الموت وما أسباب الكوارث الطبيعية.
- الديانة اليهودية " مغلقة"، بينما الديانتان المسيحية والإسلام تبشر وترغب الانتشار.
- المسيحية خرجت من رحم اليهودية ولكنها لم تقض عليها.
- عندما تتحول الأديان إلى السلطة، تظهر الخلافات الداخلية وتنمو الصراعات والحروب الداخلية.
- مارتن لوثر راهب كاثوليكي تمرد على الكثلكة وانتشرت البروتستانتية ولكن بقيت الكثلكة.
- عندما يغزو دين مجتمعا له حضارة قديمة، يحدث تأثير متبادل،ومن هنا تنوع الإنسان المتدين باختلاف المكان والزمان.



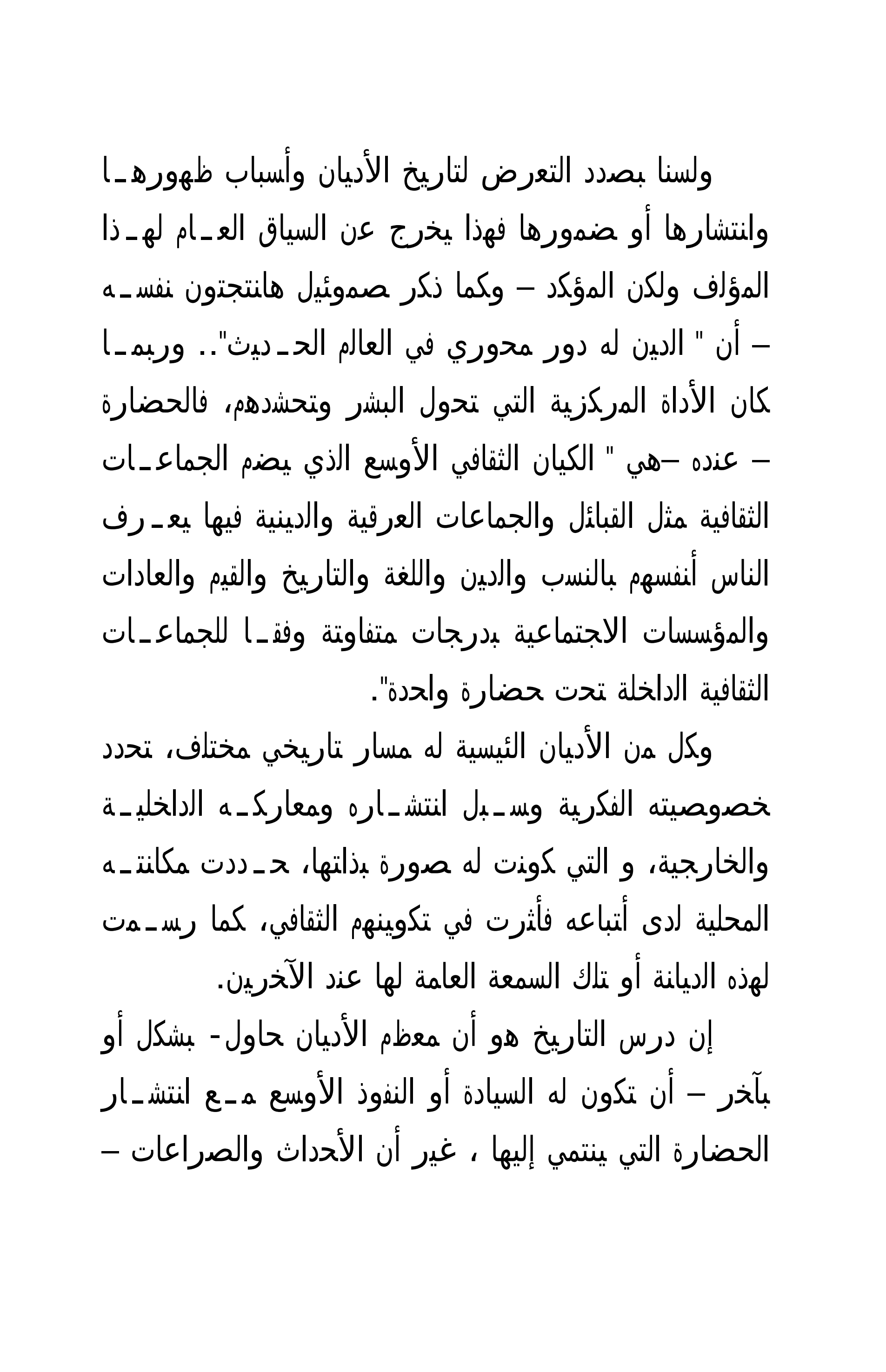
- العالم الإسلامي يكون معتدلاً إذا تكلم العربيـة،وألآكثر تشددا إذا عرف الإسلام عن غير طريق العربية.
- الإسلام المصري: سني الوجه شيعي الـدماء، قبطـي القلب، فرعوني العظام.
- الحوار بين الأديان" يعالج المظهر ويتحاشـى مناقشـة المسائل الحساسة.
- توجد نصوص في الأديان الإبراهيمية تبرر" التعـالي " والتفاخر لأصحاب كل دين.
- الحروب الصليبية تلقي بظلالها القائمـة بـين الحـين والآخر،،حان وقت أن يدخل متحف تاريخ عصـر قـد مضى وانتهى.
- الأيديولوجيات مصطلح جديد نسبيا ويعبر عـن رؤيـة مستقبلية للحياة في الدنيا.
- الكثلكة تطور نفسها من خلال حوار ديمقراطي حـول مشاكل الحياة وبالتفاعل مع الأيديولوجيات المعاصرة أو الأديان السابقة للمسيحية.



نشأة الأديان

منذ عرف الإنسان الحضارة الزراعية والاستقرار في وديان الأنهار، بدأ يفكر فيما وراء الموت،وما أسباب الكوارث الطبيعية أو الشخصية،وهكذا تجاه تفكيره تدريجيا إلى " الأديان" على أنواعها وأشكالها،وكانت الأديان أول الأمر " محلية وكأنها جزر منعزلة، ثم تواصلت وازدادت انتشارا مع معرفة الإنسان لطرق المواصلات على اليابسة من خلال الجواد ثم" قوافل " الجمال أو الإبل عابرة الصحراوات ثم مكنته المراكب الشراعية الأكبر من أن يبحر قرب شواطئ البحار وبمحاذاتها ، فكان انتشار الأديان ممكنا على نطاق أوسع من موقع نشأتها.

وعبر مسيرة التاريخ لنحو ثلاثة آلاف سنة انتشرت بعضها ،وصار لها وجود على تاريخ الإنسانية جمعاء مثل المسيحية والإسلام والبوذية والهندوسية والكنفوشية واليهودية وغيرها،واختفت ديانات أخرى مع اختفاء وضمور حضاراتها مثل الزرداشتية في فارس وديانات الفراعنة في مصر وديانات أشور وبابل وفينيقيا وغيرها.



ولسنا بصدد التعرض لتاريخ الأديان وأسباب ظهورهـا وانتشارها أو ضمورها فهذا يخرج عن السياق العـام لهـذا المؤلف ولكن المؤكد – وكما ذكر صموئيل هانتجتون نفسـه – أن " الدين له دور محوري في العالم الحـديث".. وربمـا كان الأداة المركزية التي تحول البشر وتحشدهم، فالحضارة – عنده –هي " الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعـات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية فيها يعـرف الناس أنفسهم بالنسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات والمؤسسات الاجتماعية بدرجات متفاوتة وفقـا للجماعـات الثقافية الداخلة تحت حضارة واحدة".

وكل من الأديان الئيسية له مسار تاريخي مختلف، تحدد خصوصيته الفكرية وسـبل انتشـاره ومعاركـه الداخليـة والخارجية، و التي كونت له صورة بذاتها، حـددت مكانتـه المحلية لدى أتباعه فأثرت في تكوينهم الثقافي، كما رسـمت لهذه الديانة أو تلك السمعة العامة لها عند الآخرين.

إن درس التاريخ هو أن معظم الأديان حاول- بشكل أو بآخر – أن تكون له السيادة أو النفوذ الأوسع مـع انتشـار الحضارة التي ينتمي إليها ، غير أن الأحداث والصراعات –

وحتى الحروب – لم تتمكن أي منها – من أن تفرض سيادته على كل الأديان الأخرى ولا حتى في منطقة واحدة ومن ثم " حتمية المعايشة" وهو صلب توجه هذه الدراسة.

مسار الأديان الإبراهيمية

بحكم السياق التاريخي،وبحكم الموقع الجغرافي أيضـا، فإن هناك خصوصية داخلية في العلاقة بين الأديان المسـماة بـ " السماوية" (وأفضل أن أسميها بـ " الإبراهيمية") وهذه الديانات وفق ترتيب ظهورها هي : اليهوديـة والمسـيحية والإسلام: وكلها نشأت في منطقة الشـرق الأوسـط وكـان طبيعيا أن كلا من هذه الديانات قد اعترفت وتأثرت بالديانات التي سبقتها، فاليهودية – و على الرغم من تأثرهـا بعقائـد التراث الفرعوني وبالذات عبادة أخناتون التوحيدية وظهـر ذلك في نصوص بعض " المزاميـر" حسـبما ذكـر عـالم المصريات جيمس هنرى بيرستد – في كتابه الشهير – فجر الضمير " نقول رغم ذلك فإن اليهودية ومن حيث صـياغتها كديانة لها مفاهيمها وعقيدتها وعباداتها وطقوسها وتاريخها، تقف متفردة ظاهرة كبداية لكل من المسيحية والإسلام،وذلك

بصرف النظر عن أن أتباع اليهودية في العالم لا يتجاوزون ٢٥ مليون نسمة، بينما أتباع أي من المسـيحية أو الإسـلام يتجاوز المليار بكثير، فالثقل العددي أمر والوزن التـاريخي أمر آخر..!

وفي ذات السياق فإن الديانة اليهودية تختلف عن كل من المسيحية والإسلام من ناحية الدعوة للانتشار وصـولا إلـى العالمية، فاليهودية ديانة مغلقة" لا تدعو آخرين لدخولها وهذا مصدر ضعفها وقوتها معا، فما قلة ومحدودية عدد اليهود في العالم إلا بسبب أنها مقصورة علـيهم وحـدهم ولـذا فـإن الانغلاق كان وسيظل مصدر قوة لأنه أعطاهم تفردا وميـزة وهو أحد أسباب " التعالي" لأن من يولد من" أم يهودية" يكن يهوديا، ولذا صارت اليهودية " ديانة علاوة على أنها انتمـاء إلى جنس أو عرق أو سلالة أي لها خصوصيتها ،وكل ذلـك كان سببا لتماسك اليهود عبر قرون طويلـة، قـاوموا فيهـا الاضطهاد والكراهية، فتمسكوا بالتقاليد المتوارثـة وعلمـوا أولادهم العبرية وقدسوا يوم السبت دون أي عمـل إلـى أن حققوا – ولو بشكل مؤقت- حلمهم في تكوين "دولة إسرائيل"

فرغم صغر تعداد اليهود وكذلك تعداد إسرائيل ولكنهم نجحوا في أن يكون لهم وزن وتأثير ملحوظ على الساحة العالمية.

أما المسيحية فقد خرجت من رحم اليهودية، فالمسيح ذاته ولد يهوديا" و إلى خاصة جاء وخاصته لم تقبله " فذهبت رسالة المسيح إلى " الأمم وانتشرت المسيحية إلى أربعة أركان الأرض،وواجهت المسيحية- خلال القرن الأول والثاني والثالث – اضطهادا من الإمبراطورية الرومانية القديمة، حتى خلخلتها في نهاية المطاف، فكان قرار انتقال الإمبراطورية إلى بيزنطة عندما أسس قسطنطين الأول الإمبراطورية البيزنطية،وأعلن إيقاف اضطهاد المسيحية عام ٣٢٤م.

وما أن تحولت المسيحية من رسالة يتسابق" المضطهدون " لاعتناقها والتبشير بها ثم الاستشهاد في سبيلها، نقول، ما أن تحولت إلى دولة بل وإمبراطورية وأجهزة ثقافية ودينية، إلا ودب داخلها خلاف عقائدي حول شخص المسيح، فكانت "الهرطقة " الأولى الكبرى مع ظهور " بدعة " أريوس" مما دعا لانعقاد مجمع مسكوني(ويمكن النظر إليه بمصطلحات زماننا حاليا وكأنه مؤتمر دولي)،

وذلك في مجتمع نيقيه(وهي مدينة صغيرة مـن ضـواحي العاصمة القسـطنطينية) عـام ٣٢٥م، واسـتمر ظهـور " خرطقات" أو بدع أخرى كثيرة موضـع اهتمـام ودراسـة المتخصصين من علماء اللاهوت، وكان آخرها وأهمها هـو مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م حيث كان هناك انقسام لا رجعة فيه،وصل إلى حد " الانشقاق" بـين أقطـار الإمبراطوريـة البيزنطية، و أدت إلى ظهور " مذاهب ربما كان أبرزها هو وجود كنائس احتفظت بالعقيدة الثانية الأصلية فأطلقت علـى نفسها عبارة المذهب " الأرثوذكسـي" وأخـذت التنظيمـات الدينية المختلفة أسماءها بأن تُوصف نفسها بصفتين الأولـة معبرة عن الانتماء الجغرافي والثانية تأخذ اسـم المـذهب، فظهرت كنائس، بعضها قديم قدم هذه الخلافات ،والانشقاقات ، فهناك مثلاً الكنيسة القبطية (أي المصرية) الأرثوذكسـية، ثم كنيسة الأرمن الأرثوذكس، وكنيسة اليونان أو " الجريـك" الأرثوذكس وفيما بعد ظهرت كنيسة الـروس الأرثـوذكس وغيرها، أما الفريق الآخر فـأطلق علـى نفسـه عبـارة " الملكيين" أو " الملكانيين" أي المنحازين لرؤية الإمبراطور أو

الملك مرقيانوس إمبراطور بيزنطة وملك القسطنطينية وهـو الذي دعا لمؤتمر خلقيدونية عام ٤٥١م.

واستمرت هذه الكيانات أو المؤسسات الدينية ومعظمها في المشرق،وفي المقابل تزايد نفوذ كنيسة أو أسقفية " رومية في الغرب، وتوسعت وانتشرت مع تقدم حضارة العصـور الوسطي في أوروبا إلى أن صارت " الكنيسة الكاثوليكية قوة دينية وسياسية كبيرة في القرن العاشر. وكان مركز الفاتيكان في مدينة روما (وكلمـة الكاثوليـك تعنـي " الجامعـة") وانتشرت الكثلكة وتقوت إلـى أن قامـت وقـادت الحـرب الصليبية لمدة قرنين مـن الزمـان (١٠٩٥م إلـى ١٢٩١) واستمرت هذه الحرب بعد ذلك بشكل متقطـع إلـى القـرن الخامس عشر، وترك كل ذلك أثره على صراعات دينيـة- دينية داخل المسيحية عندما قام مارتن. لوثر بثورة " احتجاج" عام ١٥١٧ ، كما سيأتي ذكره، ثم صراعات بين المسـيحية الغربية من جانب والإسلام المشرقي في العالم العربي مـن جانب آخر،ولذلك لم يكن مفاجئا لدراسي التاريخ، إثارة نعرة" الصليبية مرة أخرى مع أحداث انفجارات نيويورك وواشنطن

في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما صاحبها من إعلان الحرب على أفغانستان في ٧ أكتوبر ٢٠٠١.

وإذا عدنا إلى بداية الإسلام ، نجد مسارا مناظرا إلـى حد ما، فمع بداية الوحي في إحدى ليالي رمضان عام ٦١٠م بسورة " العلق" إلى عام ٦٣٢م مع وفاة الرسول أي خـلال ٢٢ عاما، شهدت الجزيرة العربية ظهور إحدى أهم الديانات في المنطقة ، فقد انتشر الإسلام في المنطقـة بـالحرب أي بغزو البلاد المجاورة والتي كانت تتبع أيا من الإمبراطورية البيزنطية شمالاً والإمبراطوريـة الساسـانية (أي الفـرس) شرقًاو ثم كان الخلاف بين المؤيدين لعلي ابن أبـي طالـب وكونوا- من وقتها وإلى الآن – مـذهب "الشـيعة" أي مـن تشيعوا للإمام على ثم المؤيدين لمعاوية بن أبي سفيان وهـم الذين من حرصوا على " وحدة الأمة" وأطلقوا على أنفسـهم عبارة " السنّة" وظهر وقتها فريق آخر رافض لكلا الفريقين وعرف تاريخيا باسم " الخوارج " وقد حدث هـذا الانقسـام الكبير بشكل حاد وواضح مع معركة صفين بـالعراق عـام ٦٥٧م، وذهبت كل من هذه الفرق الرئيسية إلـى طريـق، وظهرت داخل كل منها فرق ومذاهب شتى، يعرف تفاصيلها

أهل الاختصاص، (في المسيحية تسمى خلافات " لاهوية" وفي الإسلام خلافات تسمى " فقهية") أدت أحيانا إلى مواجهات وربما حروب.

ومن ثم فإن تاريخ مسيرة انتشار الأديان عبر الألفيتين الأولى والثانية عرفت التمييز والتشرذم والخصام والحروب والكراهية، كانت أولا ولسنوات وقرون داخلية أي بين أنصار وأتباع الدين الواحد، ثم ما هو أخطر مواجهات خارجية بين الأديان وبالذات بين المسيحية والإسلام.

وسنعود لتحليل وأثر كل ذلك على الأوضاع المعاصرة بعد وقفة هامة وقوية عندما خرج **مارتن لوثر الراهب الكاثوليكي** " محتجا في ٩٥ بندا على ممارسات الكنيسة الكاثوليكية عندما أصدرت الأخيرة" صكوك" الغفران" في القرنين الخامس عش والسادس عشر.

الزلزال بالاحتجاج على صكوك الغفران

ولد مارتن لوثر في ١٠ نوفمبر عام ١٤٨٤ في قرية متواضعة من إقليم ايزيناك Eisenac الألمانية باسم هانز لوثر وعند عماده وهو طفل أُعطى اسم " مارتن " لأنه ولد في ليلة

عيد القديس مارتن وهكذا أصبح اسم الطفـل مـن وقتهـا " مارتن لوثر" والذي احتل موقعا رائدا كمصلح ديني طـوال النصف الأول من القرن السادس عشر، ففي ١٨ يوليو عـام ١٥٠٥ استقال الشاب مارتن لوثر من وظيفته في التـدريس الجامعي ليصبح راهبا في دير القديس أغسـطينوس وكـان هدفه من ذلك هو حصوله على " الخلاص"..!! وبعد حيـاة عزلة في الدير اقتنع ستوبيز Stauptiz عميد كلية اللاهـوت في مدينة فيتمبرج، أن مارتن لوثر يحسن أن يدرس الفلسـفة ليتابع دراسته في كلية اللاهوت وليقـي محاضـرات عـن أرسطو.

ولا أود أن أستطرد كثيرا لسرد قصة حياة هذا الراهب الكـاثوليكي الـذي أحـدث تغييـرات هائلـة فـي الفكـر المسيحي،وذلك من خلال ثورته واحتجاجاته على ممارسات " صكوك الغفران".

كانت بدايات ظاهرة صكوك الغفـران أثنـاء الحملـة الصليبية حيث كان باباوات روما يمنحون هذه الصكوك إلى بعض الفرسان المتطوعين للمخاطرة بحياتهم، بالاشتراك في هذه الحرب، ولصكوك الغفران فلسفة دينيـة – لـيس هـذا

مكانها – ولكن لها منطقها الديني اللاهوتي،ولكنها أصـبحت مع الممارسات الخاطئة أسبابا للحصول على المال،ومن ذلك أن البابا ليون العاشر عندما تم تجليسه على كرسي القـديس بطرس عام ١٥١٣، ورغب في إجراء توسعات وإصلاحات في كنيسة القديس بطرس في روما ، فأصدر قرارا فـي ٣١ مارس ١٥١٥ ببيع صكوك غفران ،واعترض " البيرخـت" albyrecht رئيس أساقفة ماينز الألمانية،وتم الاتفـاق بينهمـا على أن يقتسم ثمن بيع الصكوك مع البابا لسداد ديون بنـك فوجر Fugger الذي كان مقرضا الأسقف بسعر فائدة وصـل إلى ٢٠%.

استفز هذا الأمر الراهب مارتن لوثر ،وفي ٣١ أكتوبر عام ١٥١٧ علق مارتن لـوثر اعتراضـاته أو احتجاجاتـه Protest ومنها جاءت كلمة وصفه أتباعه " البروتستانت" أي " المحتجين" .. وقد سجل وجهة نظره في ٩٥ نقطة (احتجاج) وقد قام الباحثون بتصنيفها إلى توجهات رئيسية هي :

- إن سلطان البابا لا يمتد لأبعد مـن الأرض أي ليس له سلطان على أرواح البشر بعد الممات،

وأن الغفران هو بالتوبة الحقيقيـة ولا يشـترى بأموال ، لا بالنسبة للأحياء أو الأموات.

- إن دخول السماء أي الحصول على " الخلاص" ليس طريقا سهلا يشترى بالمال لأنه مكتـوب" أنه بضيقات كثيرة ينبغـي أن نـدخ لملكـوت السماوات (أ ع ١٤: ٢٢).

ويعتبر أتباع البروتستانية أن ٣١ أكتوبر عـام ١٥١٧ هذا هو بداية " الإصلاح الديني " للكثلكة في أوروبا،وتوالت الخلافات والصراعات والمحاكمات،وكان التقرير الأول عن هذه الاحتجاجات هو أن لوثر يهاجم الكنيسة الكاثوليكية فـي مبدأين لاهوتيين هما:

١- إن " الخلاص " هو من خلال الأعمال الطيبة التي يقوم بها الفرد ومن ثم فهـي مسـتحقات شخصية.

٢- إن السلطة الكنسـية غيـر معصـومة مـن الخطأ،وعلي كل مسيحي أن يرجع إلى الكتاب المقدس،ومن هنا فإن البروتستانت عـادة مـا يشار إليهم بعبارة " الإنجيليين" لأن مـرجعهم

هو النصوص الواردة في العهـد الجديـد أي الإنجيل.

وبناء على هذا التقرير أصدر بابا روما أمره إلى لـوثر لكي يحضر للمحاكمة في الفاتيكان خلال ستين يومـا مـن استلامه هذا الأمر،ورفض لوثر الذهاب إلى رومـا وكـان البديل محاكمته في مدينة هيـدلبرج فـي ألمانيـا، وظلـت الحوارات التي انتهت بقرار حرمانه يـوم ١٥ يونيـو عـام ١٥٢٠ وأصبح ساري المفعول بعد عدة أشـهر،وفي قـرار الحرمان كان الرد على ٤١ من احتجاجات لوثر فضلاً عـن أنه يحرم لوثر من الوعظ وتحرق كتبه التي كتبهـا وكـذلك عدم التعامل مع كل من يعتنق مذهبه.

بدأ لوثر بنشر أفكاره في ثلاثة كتـب الأول بعنـوان: " إلى الأمة المسيحية الألمانية النبيلة" وهـي رسـالة وطنيـة موجهة إلى الشعب الألماني باللغة الألمانية جاء بها: " علـى الشعب الألماني أن ينفض عن كاهله التدخل الأجنبـي فـي شئون الأمة الألمانية" ، إلى أن قال: " إن الرومان (كنايـة عن كنيسة روما) قد وضعوا حواجز لكي يحتفظوا بالسلطان

بعيدا عن ألمانيا" ونذكر فيما يلي بعض أهـم فقـرات هـذا الكتاب.

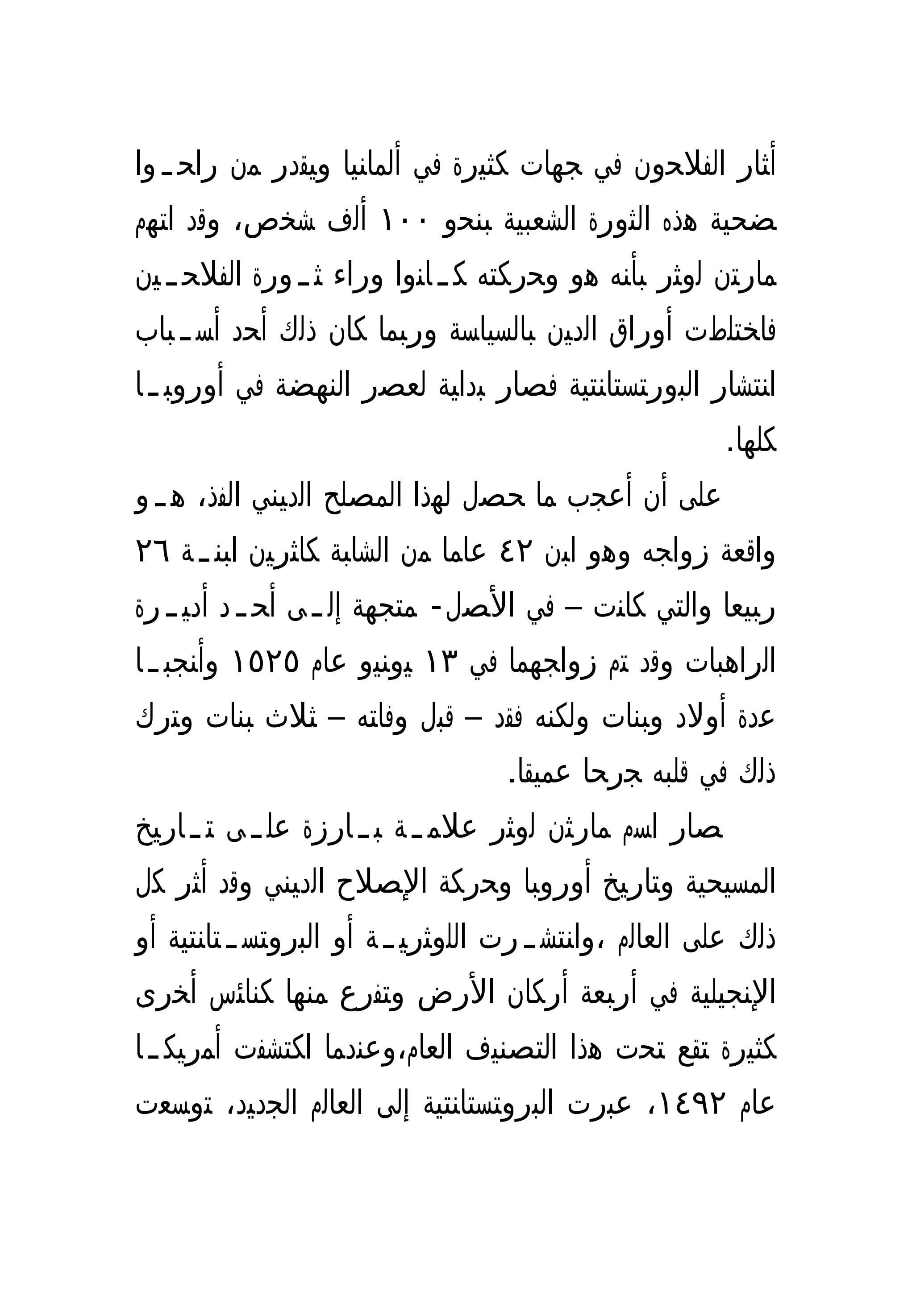
- إن الكنيسة الرومانية تضع السلطان الروحـي فـوق السلطان الزمني، وأن مارتن لوثر يرفض هذا المفهوم لأنه لا يوجد أمام ا أكليروس (وهـي تعنـي كـل رجال الدين على كل رتبهم) وعلمانيون(وهي كلمـة تعني الشعب المتدين الذي لا يحمل رتبـه كهنوتيـه) ومن ثم فلا يوجد طبقة إكليروس كهنويـة مسـيطرة وطبقة علمانية مسيطر عليها فكلنا ملوك وكهنة ".
- إن الكنيسة الرومانية جعلت حق الاحتفـاظ بتفسـير الكتاب المقدس للإكليروس فقط، ونادى لوثر بـدعوة الجميع ليس لقراءة الإنجيل والكتاب المقدس فحسـب، بل حق تفسيره أيضا.

أما كتابه الثاني فكان عن " أسرار أو عقائـد الكنيسـة السبعة والتي نقض خمسة منها وأبقى علـى اثنـين همـا " المعمودية " و " العشاء الرباني".

وكذلك جاء الكتاب الثالث عن " الحريـة المسـيحية ، مناديا بأن " المسيحي إنسان حر وسيد لكل الأشياء " كما أن المسيحي خادم مطيع للجميع، أي أن " الإنسان الذي حررتـه نعمة ا أصبح إنسانا جديدا وخليقة جديـدة ليثمـر الثمـار الصالحة".

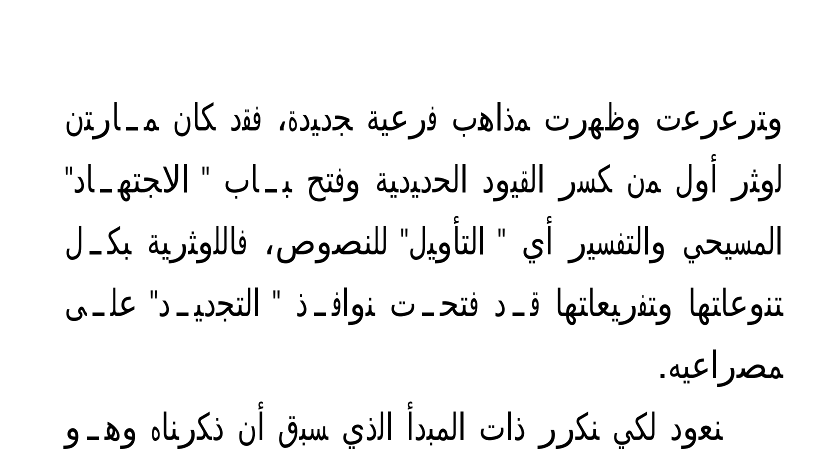
وفي ١٠ ديسمبر عام ١٥٢٠ دعت جامعة فيتمبرج إلى اجتماع عام وأعدت حجرة معدة لإشعال النار بكيفية تنـاظر ما كان متبعا عند حرق ملابس المرضى المصابين بمـرض الطاعون، وتقدم مارتن لوثر وألقي في النيران بكتب" القانون الكنسي " والقرار البابوى الذي يحتوي حرمانه،وكان طبيعيا أن يصدر البابا ليون العاشر في ٣ يناير عام ١٥٢١ قـرارا بحرمان لوثر وأتباعه.

وكان طبيعيا أيضا أن تنتهي كل تلك الهزات العنيفة في المؤسسات الدينية والاجتماعية إلى ثـورة للفلاحـين ضـد الأمراء والنبلاء (بعد أن كانت قد قهرت وكبتت عدة مرات في ظروف وبلاد مختلفة: في فرنسـا عـام ١٣٥٧، وفـي انجلترا عام ١٣٨١،وفي سويسرا عام ١٥١٣ وفـي النمسـا والمجر ومدن الراين عام ١٥١٧) ففي نوفمبر عـام ١٥٢٤


أثار الفلاحون في جهات كثيرة في ألمانيا ويقدر من راحـوا ضحية هذه الثورة الشعبية بنحو ١٠٠ ألف شخص، وقد اتهم مارتن لوثر بأنه هو وحركته كـانوا وراء ثـورة الفلاحـين فاختلطت أوراق الدين بالسياسة وربما كان ذلك أحد أسـباب انتشار البورتستانتية فصار بداية لعصر النهضة في أوروبـا كلها.

على أن أعجب ما حصل لهذا المصلح الديني الفذ، هـو واقعة زواجه وهو ابن ٤٢ عاما من الشابة كاثرين ابنـة ٢٦ ربيعا والتي كانت – في الأصل- متجهة إلـى أحـد أديـرة الراهبات وقد تم زواجهما في ١٣ يونيو عام ١٥٢٥ وأنجبـا عدة أولاد وبنات ولكنه فقد – قبل وفاته – ثلاث بنات وترك ذلك في قلبه جرحا عميقا.

صار اسم مارتن لوثر علامـة بـارزة علـى تـاريخ المسيحية وتاريخ أوروبا وحركة الإصلاح الديني وقد أثر كل ذلك على العالم ،وانتشـرت اللوثريـة أو البروتسـتانتية أو الإنجيلية في أربعة أركان الأرض وتفرع منها كنائس أخرى كثيرة تقع تحت هذا التصنيف العام،وعندما اكتشفت أمريكـا عام ١٤٩٢، عبرت البروتستانتية إلى العالم الجديد، توسعت



وترعرعت وظهرت مذاهب فرعية جديدة، فقد كان مارتن لوثر أول من كسر القيود الحديدية وفتح باب " الاجتهاد" المسيحي والتفسير أي " التأويل" للنصوص، فاللوثرية بكل تنوعاتها وتفريعاتها قد فتحت نوافذ " التجديد" على مصراعيه.

نعود لكي نكرر ذات المبدأ الذي سبق أن ذكرناه وهو أن البروتستانتية على أنواعها قد خرجت من رحم الكنيسة الكاثوليكية، لكي تصلحها أو تكون بديلا لها،واستمرت البورتستانتية وكذلك استمرت الكثلكة بل وصارت تلك الأخيرة أكبر المجمعات والمذاهب المسيحية عددا ونفوذاً في العالم ولكنها وتعايشت مع كل الأديان والمذاهب السابقة واللاحقة لها.

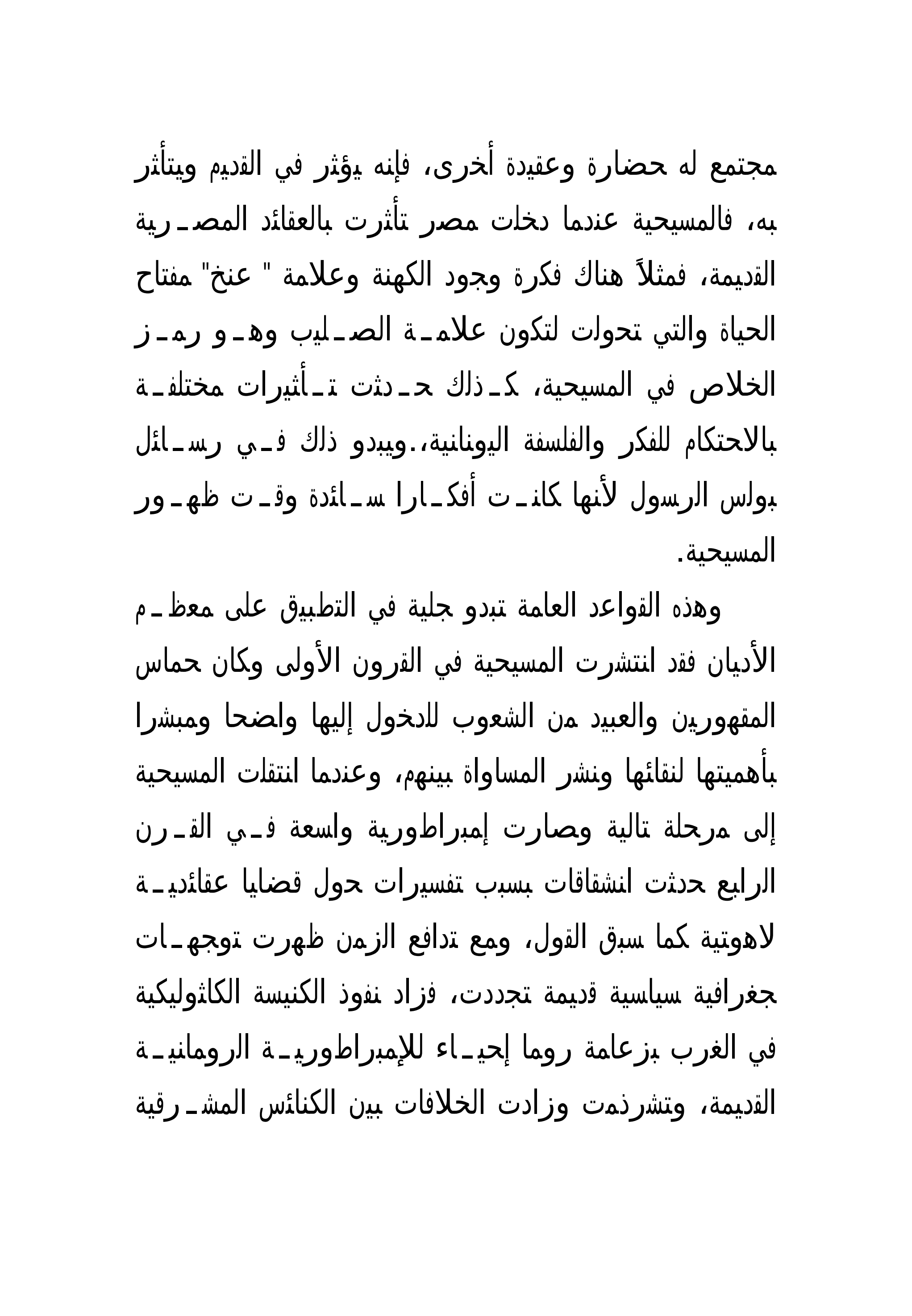
غير أن استمرار بقاء الكثلكة كان له شروط وظروف ومعطيات جعلت الاستمرار ممكنا إذ لم يتحول إلى ديانة تاريخية قديمة تراثية وذلك بفضل آليات التطوير والتغيير وكان آخرها مؤتمر الفاتيكان الذي تم في أوائل الستينيات، وكذلك من خلال التلقيح الثقافي مع أيديولوجيات أديان أخرى

كما سيأتي ذكره في الفصل الثامن القـادم عـن " لاهـوت التحرير".

وحدة النصوص الدينية لكل دين واختلاف المنتج الإنساني:

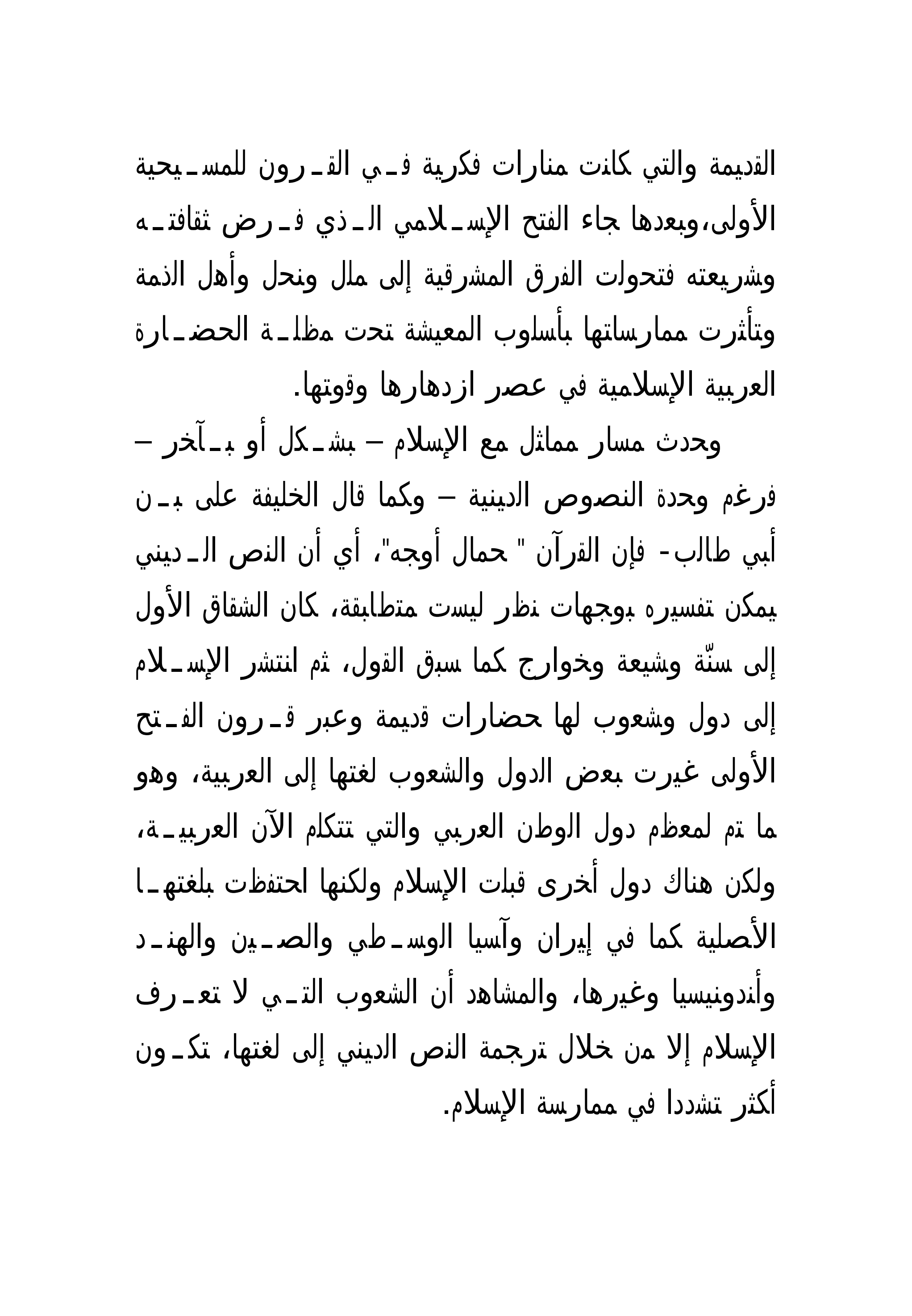
من هذا السرد الترايخي، ننتقل إلى واقع الأديان حاليـا، فنلاحظ أن كل دين يستند إلى مرجعية نصية واحدة، ولكنهـا تختلف – منطقيا- من دين لآخـر اختلافًـا بيننا،وبالنسـبة للأديان الإبراهيمية فإن هذه المرجعيات ممثلة فـي التـوراة لليهودية والإنجيل للمسيحية والقرآن للإسلام.

وكما ذكرنا في السرد التاريخي ، فإن الأديان تبدأ نقيـة ثورية إصلاحية وكما ذكرنا في السرد التاريخي، فإن الأديان تبدأ نقية ثورية إصلاحية وتجذب الناس للدخول فيها ولكنهـا تتحول من رسالة إلى دولة أو خلافة أو إمبراطورية، فتظهر فئة من رجال الفقه " أو اللاهوت" تحاول تفسير النصـوص بالاجتهاد والفقـه وعلـم الكـلام لتكـرس نفـوذ الحـاكم وحوارييه،وتركز على نصوص تبرزهـا وأخـرى تخفيهـا وكذلك فإن الدين عندما يغزو أو يبشر بنصوصه لدولـة أو



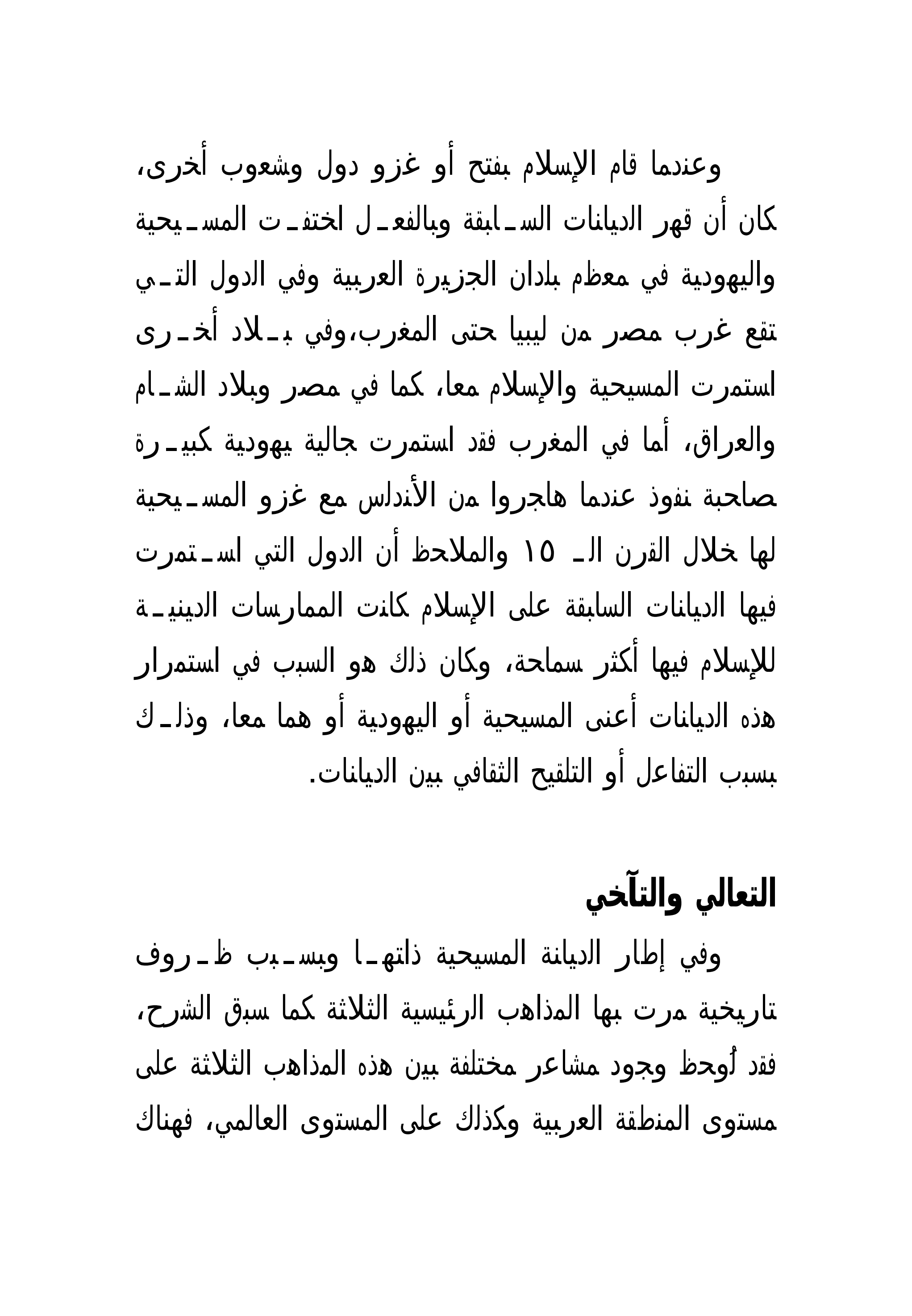
مجتمع له حضارة وعقيدة أخرى، فإنه يؤثر في القديم ويتأثر به، فالمسيحية عندما دخلت مصر تأثرت بالعقائد المصـرية القديمة، فمثلاً هناك فكرة وجود الكهنة وعلامة " عنخ" مفتاح الحياة والتي تحولت لتكون علامـة الصـليب وهـو رمـز الخلاص في المسيحية، كـذلك حـدثت تـأثيرات مختلفـة بالاحتكام للفكر والفلسفة اليونانية،.ويبدو ذلك فـي رسـائل بولس الرسول لأنها كانـت أفكـارا سـائدة وقـت ظهـور المسيحية.

وهذه القواعد العامة تبدو جلية في التطبيق على معظـم الأديان فقد انتشرت المسيحية في القرون الأولى وكان حماس المقهورين والعبيد من الشعوب للدخول إليها واضحا ومبشرا بأهميتها لنقائها ونشر المساواة بينهم، وعندما انتقلت المسيحية إلى مرحلة تالية وصارت إمبراطورية واسعة فـي القـرن الرابع حدثت انشقاقات بسبب تفسيرات حول قضايا عقائديـة لاهوتية كما سبق القول، ومع تدافع الزمن ظهرت توجهـات جغرافية سياسية قديمة تجددت، فزاد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في الغرب بزعامة روما إحيـاء للإمبراطوريـة الرومانيـة القديمة، وتشرذمت وزادت الخلافات بين الكنائس المشـرقية



القديمة والتي كانت منارات فكرية في القرون للمسيحية الأولى،وبعدها جاء الفتح الإسلامي الذي فرض ثقافته وشريعته فتحولت الفرق المشرقية إلى ملل ونحل وأهل الذمة وتأثرت ممارساتها بأسلوب المعيشة تحت مظلة الحضارة العربية الإسلامية في عصر ازدهارها وقوتها.

وحدث مسار مماثل مع الإسلام – بشكل أو بآخر – فرغم وحدة النصوص الدينية – وكما قال الخليفة على بن أبي طالب- فإن القرآن " حمال أوجه"، أي أن النص الديني يمكن تفسيره بوجهات نظر ليست متطابقة، كان الشقاق الأول إلى سنّة وشيعة وخوارج كما سبق القول، ثم انتشر الإسلام إلى دول وشعوب لها حضارات قديمة وعبر قرون الفتح الأولى غيرت بعض الدول والشعوب لغتها إلى العربية، وهو ما تم لمعظم دول الوطن العربي والتي تتكلم الآن العربية، ولكن هناك دول أخرى قبلت الإسلام ولكنها احتفظت بلغتها الأصلية كما في إيران وآسيا الوسطي والصين والهند وأندونيسيا وغيرها، والمشاهد أن الشعوب التي لا تعرف الإسلام إلا من خلال ترجمة النص الديني إلى لغتها، تكون أكثر تشددا في ممارسة الإسلام.



وعندما قام الإسلام بفتح أو غزو دول وشعوب أخرى، كان أن قهر الديانات السـابقة وبالفعـل اختفـت المسـيحية واليهودية في معظم بلدان الجزيرة العربية وفي الدول التـي تقع غرب مصر من ليبيا حتى المغرب،وفي بـلاد أخـرى استمرت المسيحية والإسلام معا، كما في مصر وبلاد الشـام والعراق، أما في المغرب فقد استمرت جالية يهودية كبيـرة صاحبة نفوذ عندما هاجروا من الأندلس مع غزو المسـيحية لها خلال القرن الـ ١٥ والملاحظ أن الدول التي اسـتمرت فيها الديانات السابقة على الإسلام كانت الممارسات الدينيـة للإسلام فيها أكثر سماحة، وكان ذلك هو السبب في استمرار هذه الديانات أعنى المسيحية أو اليهودية أو هما معا، وذلـك بسبب التفاعل أو التلقيح الثقافي بين الديانات.

التعالي والتآخي

وفي إطار الديانة المسيحية ذاتهـا وبسـبب ظـروف تاريخية مرت بها المذاهب الرئيسية الثلاثة كما سبق الشرح، فقد لُوحظ وجود مشاعر مختلفة بين هذه المذاهب الثلاثة على مستوى المنطقة العربية وكذلك على المستوى العالمي، فهناك

" تعالى" للمنتمين للمذهب البروتستانتي على أتباع المـذهب الكاثوليكي، ويبدو ذلك واضحا في أمريكا أكثـر منـه فـي أوروبا.

أما أتباع الكنائس الأرثوذكس، فمعظمهم موجودون في المشرق وينظر إليهم بأنهم أقل المذاهب المسـيحية تمسـكًا بالقديم،ولم يتغيروا كثيرا عبر قرون طويلة ليس فقـط فـي الجوانــب العقائديــة والطقوس،وإنمــا فــي الجوانــب المجتمعية،والمشاهد أيضا أنهم أكثر خضوعا للقيادة الدينية أو السياسية ولذلك فهم – في الأغلب الأعم- يـؤثرون حيـاة " الجتو" ويتحاشون الأضواء والحياة العامة.

وما ينطبق على المسيحية ينطبق على الإسلام إلى حـد كبير، فإنه – ورغم وحدة النصوص الدينية -، فإن المنـتج الحضاري وهو " الإنسان" يختلف من قطر إلى آخر، فالمسلم المصري متأثر برقائق الحضارات السابقة علـى الإسـلام، أعني المسيحية القبطية والفرعونية ،ولذا يكون أكثر سلاسـة في تعامله في جيرانه ومجتمعه ومقتنعا بثقافة" قبول الآخـر" فأوجد التاريخ في مصر إسلاما واحدا، لا يتحـزب لمـذهب معين أو فقه خاص،ومن هنا ظهرت هذه المقولـة المعبـرة

وهي : " أن الإسلام المصري : سني الوجه، شيعي الدماء و قبطي القلب، فرعوني العظام".

والمسلم المصري يختلف في تكوينه النفسـي – بشـكل عام – وبصرف النظر عن الفروق الطبيعية بين البشر- عن المسلم السعودي أو الإيراني أو الأفغاني أو الصيني، وذلـك أن الدين يتفاعل مع المجتمع الذي عاش لقرون طويلة تحـت مظلة حضارات وديانات سابقة على دخول الإسلام، كما وأنه يتأثر بالظروف الجغرافية والمناخية، فالحيـاة البدويـة فـي الصحراء تفرض نمطًا ثقافيا يختلف عن حياة الجبال والمناخ القاري في أفغانستان وهذه وتلك تختلف عن الحياة الوادعـة الزراعية حول مجرى نهر النيل في مصر.. وهكذا

وفي إطار الأزمة السياسية الحالية بعـد ١١ سـبتمبر ٢٠٠١ اتضح أن هناك أنواعا مختلفة من الإسلام: فالإسـلام المتشدد الأصولي- والذي أفـرخ الإرهـاب- يسـتند إلـى نصوص دينية مبنية على فلسفة وفكر " الجهاد" وله جـذوره لدى بعض الفقهاء المعروفين،وهناك الإسـلام السـلفي ثـم الإسلام الصوفي ثم هناك التيـار الرئيسـي الغالـب Main Stream من الإسلام الوسطي المعتدل الذي يعتنقـه أغلبيـة

المسلمين وهو الأمر الذي دعا زعما الغرب مثل بوش وبلير وشيراك إلى التفرقة بين الإرهاب والإسلام ولكن السؤال هو أي إسلام؟

وإذا كنا قد ذكرنا حركة الإصلاح الديني التي قام بهـا مارتن لوثر في أوائل القرن ١٦ في أوروبا وكيف أنها كانت البداية لمسار تغيير هائل في اتجاه بزوغ الحضارة الغربية " المسيحية المعاصرة، فربما " يطمع " التـاريخ فـي حركـة إصلاح ديني إسلامية في القرن ١٥ الهجري، تكـون بدايـة لتغيير مفاهيم تقليدية وتكون التنوع والاختلاف وليس سـيادة حضارة واحدة أو دين واحد.

الصراع بين الأديان قديم ومتجدد... لم يحسم بعد

منذ سنوات طويلة يجري ما صار يعرف ويشار إليـه بعبارة " الحوار بين الأديان" ، حيث يجتمع ممثلـو بعـض الأديان أو بعض المذاهب داخل دين واحـد بهـدف إيجـاد علاقات " مودة" – ولو مؤقتة أو ظاهرية – يكون الأطـراف في حاجة إليها – لتخفيف حدة " الصراعات " المتراكمة عبر التاريخ والتي تتأزم ثم تنفرج بين حين وآخر،وتنتهـي هـذه

الاجتماعات عادة دون الوصول إلى " إعلانـات " أو نتـائج واضحة تؤدي إلى " تصفية " أو خلق صياغة جيـدة لهـذه الصراعات،ولذلك فهي تخمد ثم تعود لتشتعل نتيجة أحـداث طارئة تظهر على السطح بين الحين والآخر في هذا القطـر أو ذاك وهي ناجمة عن أفكار وتوجهات كامنة داخل نفـوس وعقول البعض ، من هذا الفريق أو ذاك،وربما تكـون قـد تولدت نتيجة جروح أو تراكمات تاريخية وخلافات عميقة في نصوص العقيدة، فالكل يتحاشى الاقتراب منها، لأنها تمثل " ألغاما" قابلة للانفجار وظهرت عبارة " دع الفتنة نائمة، لعـن ا من يوقظها".

وعندما حدث ما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقامـت الحرب بالفعل في ٧ أكتوبر ٢٠٠١ ضد " الإرهاب الـدولي" وتم غزو أفغانستان، ظهرت الحاجة – أكثر مـن أي وقـت مضى- إلى " إعادة فتح الحوارات بين الأديان،وبالذات بـين المسيحية والإسلام، بإعتبار أن الغرب ينتمي إلى ما يمكن أن يسمى " الحضارة الغربية المسيحية" كما أن الصراع العربي – الإسرائيلي قد تحول تدريجيا- منذ زيارة شارون للمسـجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠- ليكون صراعا دينيـا،

لذلك اختلطت الأوراق بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة بكل ما تحمل داخلها من " تحالفات " ظاهرة أو خفية " وتناقضـات" عميقة أو سطحية، فصار إلقاء " بعض " الضوء علـى مـا يمكن أن يسمى جروحا " قديمة" للصراعات بـين الأديـان الإبراهيمية الثلاثة أمرا مستحبا، إذا كنا راغبين حقًا في خلق مناخ " جديد" في عالم " جديد" تخف فيـه الصـراعات مـن خلال ثقافة وفكر " قبول الآخر" أي المعايشة والحوار...

وفي هذا الإطار نستعرض – في رفـق وحساسـية – بعض الملاحظات والمشاهدات العامة القائمة بالفعل:

(١) كل من هذه الديانات الثلاثة لديه إحساس بـ " التعالي" والتفاخر الداخلي على الآخرين.

فلدى اليهود إحساس – إن حقـا أو بـاطلا – بـأنهم " الأصيل " بين هذه الديانات الثلاثة لا أقول " الأقـدم"، فهـم بالفعل " الأقدم" "The oldest" فهي الديانة الأولى التي عرفت البشرية بالخالق الواحد العظيم أو بـالرب أو ا أو العلـى القدوس أو " يهوه"، ومن ثم فهي ديانة " السماء" الأولى، وقد

حصلوا كشعب على لقب " شعب ا   المختار" الذي وعـدهم ببلاد " تفيض لبنا وعسلاً.

وبالنسبة للديانات الأخرى فإن اليهـود يتبـاهون بـأن المسيح يهودي المولد وأحيانا " يغالون " بأن المسـيح الـذي يدين به وله كل مسيحيو العالم، لـيس هـو المسـيح الـذي ينتظرونه والذي لم يظهر بعد، ويؤكدون أن الإسلام يعترف بهم وبتاريخهم وقصصهم وأن ذلك مسجل في كتابهم الكريم، ولكن لا يوجد لدى اليهود ما يشير إلى ظهور سيدنا محمد..!

وكل من يتعامل مع يهودي – متدينا أو غير متـدين – يلمس هذه الرؤى بين أقواله الظاهرة أو الخفية.

أما المسيحيون فلديهم إحساس" بالتعالي" مـن منظـور مختلف ، فالمسيحيون في مجملهم – إن لـم يكونـوا أكثـر الديانات عددا – فهم من أكثرها أهمية، وتأثيرا فـي حركـة السياسة والحضارة والاقتصاد، ورغم إدراكهم بأنهم مـذاهب وفرق شتى، ولكنهم في التحليـل النهـائي أتبـاع " يسـوع الناصرى الملقب بالمسيح" كمـا أن معظمهـم يشـعرون أن الحضارة الغربية منتمية إلى " المسيحية " وهذا يمثل التعالي في جانبه الحضاري والسياسي.

أما من الناحية الدينية، فهم يشعرون أنهم " أبناء ا " أي أن لهم صفة " البنوة ، أما بالنسـبة لعلاقـتهم باليهوديـة، فأغلبهم يحمل لهم قدرا من " الكراهية " بسبب أن المسيح قد جاء لليهود أولاً ، ولكنهم رفضوه فذهبت الرسالة إلى الأمـم (أي إلى غير اليهود) ولكن الأهم هو أن اليهود وكهنتهم هم الذين طالبوا بيلاطس البنطي بصـلب المسـيح وصـاحوا: اقتله .. دمه علينا وعلي أولادنا".

ومن المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية قد برأت اليهـود (الحاليين) من دم المسيح ولكن هذه جزئيـة خلافيـة مـع مذاهب أخرى.

أما علاقة المسيحية بالإسلام فهي متناقضة لأنها تحمـل مودة من جانب، بسبب وجود نصوص توصي خيرا بأهـل " الكتابط عموما وقبط مصر خصوصا، ولكن هناك خلافـات عقائدية عميقة بسبب وجود نصوص واضحة فـي مقـدمتها الخلاف حول قضية التثليث والتوحيد، وأخرى حول" صـلب المسيح" وهي أمور أساسية في العقيـدة المسـيحية وغيـر معترف بها في العقيدة الإسلامية،ويقول بعض المحللـين: إن ما جاء في العقيدة الإسلامية قد يكون متـأثرا بمـا أعلنـه "

أريوس " صاحب البدعة التي أثارت خلافا عقائـديا داخـل العالم المسيحي عام ٣١٨م وانعقد بسببها مجمع مسكوني في مدينة نيقيه عام ٣٢٥م لدحضها، كما سبق أن ذكرنا.

وهناك نصوص صريحة توفر لدى كل مسلم الاعتـزاز بدينه وتعطيه قدرا من التعالي والتفـاخر فهـم" خيـر أمـة أخرجت للناس" وأن " الدين عند ا الإسلام" ، وكما ذكر في قصة الإسراء فإن جبريل- عليه السلام- قد جعل الرسول " إمام جميع الأنبياء أي وضعه في المرتبة الأولى بينهم فضلا عن أنه " خاتم المرسلين وصار أتباعه لهم مسمى" الخاتمية" أي أتباع الرسول " الخاتم".

(٢)الحروب الصليبية نقطة سوداء لدى الإسلام والمسيحية:

ومن الناحية التاريخية، كانت الحرب الصليبية علامـة مخزية في تاريخ الديانتين،وقد تم خلالهـا قتـل وحصـار ومجاعات وخدع وانتصارات وهزائم لدى كل من الجانبين. وغالبا ما يتم الرجوع إلى بعض من هذه الأحـداث فتـروى بتفاصيلها عندما تجئ مناسبات مثيرة لجروح الماضي،وحتى

الآن لم يتم فتح هذا الملف لتنقيته تاريخيا على الرغم من أنها قد مضت وانتهت، لعلها- مع المكاشفة- تصبح وكأنها مثـل تاريخ الفراعنة أو الاشوريين مجرد تاريخ يسرد أو يـروي بخيره ومره حتى تتطهر النفـوس وتشـفي مـن مـرض " الصليبية" . فتاريخ الإنسانية القديم مملـوء بـالرق وتجـارة العبيد وقتل الأسرى واغتصاب النساء وكلها أحداث تشـمئز من سماعها كل نفس حساسة، فلماذا الوقوف طـويلاً عنـد أحداث الحروب الصليبية. لقد قام الباب يوحنا بولس الثـاني بابا روما الحالي بالاعتذار عما جرى وطالب بتجاوز هـذه الأحداث، ولكن النفوس لم تصف من الـداخل، ثـم جـاءت عبارة الرئيس جورج بوش " الابن" أن الحرب ضد الإرهاب ستكون " صليبية" لتفتح الجروح من جديد، ولذا فإن حـوار الأديان في المستقبل – وإذا كان حاملا الجدية والصـدق – لابد أن يؤدي إلى صـفاء تـاريخي لعصـر جديـد،وعلي المشاركين في الحوار بين الأديان أن يدرسوا خطة لفتح هذا الملف توطئة لإقفاله على " نظافة" بإقرار أن الحروب كانت خطًا تاريخيا وبقرارات من الجدود وفق مفاهيم وثقافة هـذه

الأزمنة المتخلفة من الجانبين وبها جرائم متبادلة..!! ويحسن الاعتذار المتبادل وقفل الملفات القديمة.

(٣)عدد تداول النصوص التي تجرح مشاعر الآخر:

أما النصوص التي تدعو لكراهية الآخر،وهي موجـودة بالفعل ويتم استخدامها بين الحين والآخر، فهي في حاجة إلى طرح ومناقشة خلال " الحوار بـين الأديـان" والاعتـراف بوجودها وتفسير ظروف تنزيلها، حتى لا تسـتخدم لإثـارة الكراهية،وإعادة مناخ الخصومة ضد المسيحية أو اليهوديـة وإلا فسوف يظل المناخ الحالي قائما ومثيرا لتساؤلات كثيرة.

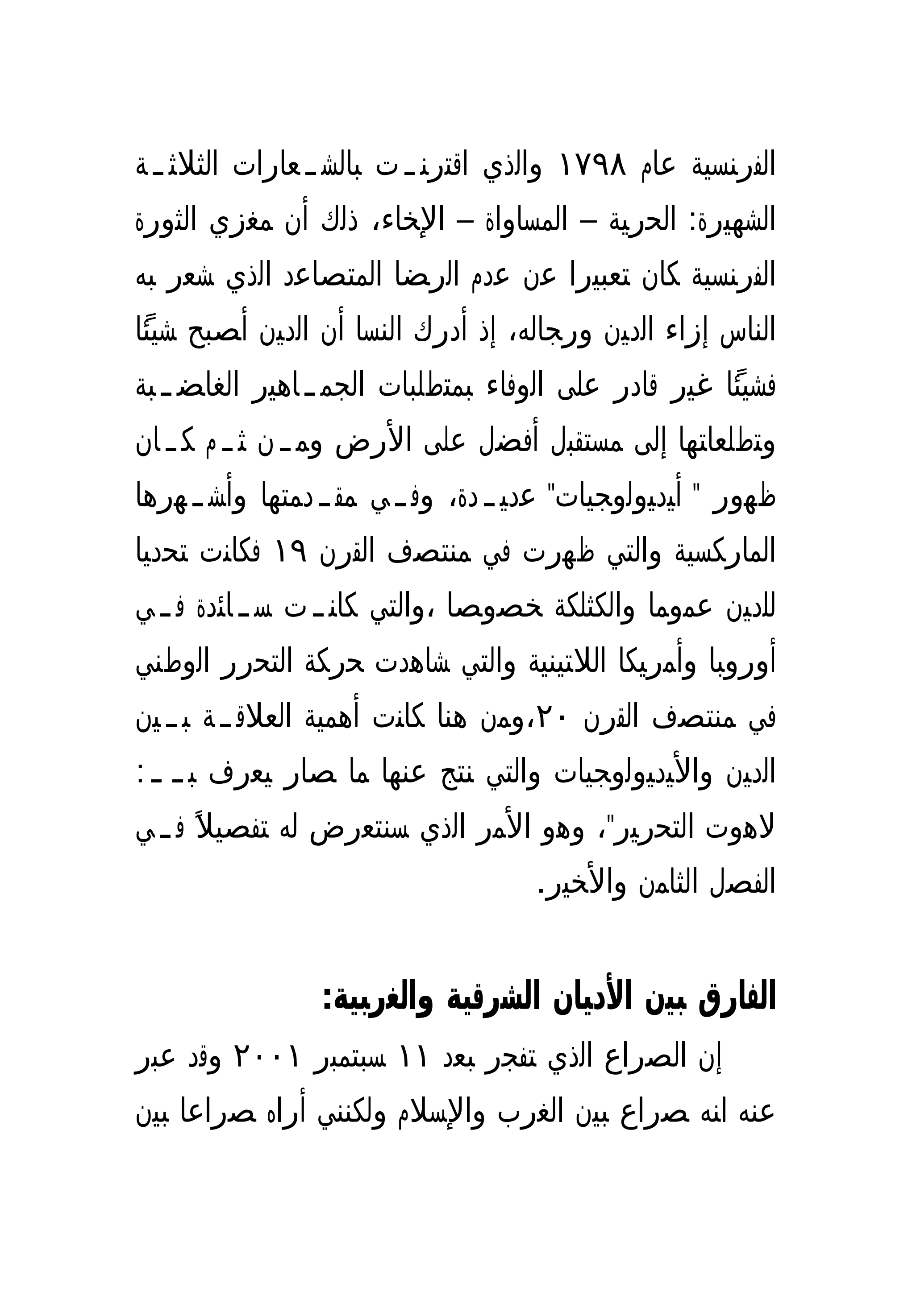
الأيديولوجيات وتفاعلها كمكون ثقافي

وإذا كانت الأديان عموما – سماوية أو غير سـماوية- لها أثرها على التركيبة الثقافية للإنسان فإن هنـاك عوامـل أخرى كثيرة تفاعلت في تكوين رؤية وثقافة الإنسـان وفـي مقدمتها ما يسمى " الأيديولوجيات"،وهي كثيرة وأكثر حداثـة ومن ثم وجب إلقاء الضوء عليها لأهميتها.

وإذا كانت الأديان – في مجملها- هي عقائد وعبـادات وممارسات مرتبطة بعمل الهي ولها نصـوص وتفسـيرات واضحة – مهما كان هناك خلاف داخلي مذهبي بشأنها- فإن الأيديولوجيات هي عمل فكرى إنساني تحدد رؤية محددة إلى العالم ،وتتطلب غالبا برنامجا للعمل يهدف إلى تحقيق مستقبل للبشرية على المستوى الاجتماعي والسياسي،ولذا فإن هـذه الرؤية تتضمن تصورا للمستقبل أفضل من الحاضر أي أنها تحتوي على رسالة تدعو إلى إصـلاح الخلـل القـائم فـي الحاضر.

وفي رأي البعض فالدين منشغل بقضايا كثيرة في الحياة ولكنه معنى بما بعد الموت أساسا، بينما الأيديولوجيا تعمـل على تحرير الإنسان في الأرض أي ما قبل المـوت بمعنـى تحسين النظام الاجتماعي والسياسي تحسينًا جذريا.

والأيديولوجيا كلمة يونانية، ربما كان أو لمن استخدمها الفيلسوف الفرنسي ديستوت دي تراسي Destutt Ttracy الذي ولد في باريس عام ١٧٥٤ ، بما يعني ما ترجمتـه " علـم الأفكار" ويقصد به " العلم الذي يضـع نفسـه فـي خدمـة الإنسانية " وقد انتشرت هذه العبارة إبـان عصـر الثـورة



الفرنسية عام ١٧٩٨ والذي اقترنـت بالشـعارات الثلاثـة الشهيرة: الحرية – المساواة – الإخاء، ذلك أن مغزي الثورة الفرنسية كان تعبيرا عن عدم الرضا المتصاعد الذي شعر به الناس إزاء الدين ورجاله، إذ أدرك النسا أن الدين أصبح شيئًا فشيئًا غير قادر على الوفاء بمتطلبات الجمـاهير الغاضـبة وتطلعاتها إلى مستقبل أفضل على الأرض ومـن ثـم كـان ظهور " أيديولوجيات" عديـدة، وفـي مقـدمتها وأشـهرها الماركسية والتي ظهرت في منتصف القرن ١٩ فكانت تحديا للدين عموما والكثلكة خصوصا ،والتي كانـت سـائدة فـي أوروبا وأمريكا اللاتينية والتي شاهدت حركة التحرر الوطني في منتصف القرن ٢٠،ومن هنا كانت أهمية العلاقـة بـين الدين والأيديولوجيات والتي نتج عنها ما صار يعرف بـ ـ: لاهوت التحرير"، وهو الأمر الذي سنتعرض له تفصيلاً فـي الفصل الثامن والأخير.

الفارق بين الأديان الشرقية والغربية:

إن الصراع الذي تفجر بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وقد عبر عنه انه صراع بين الغرب والإسلام ولكنني أراه صراعا بين

مجمع الثقافات (بما فيها الديانات) الموجودة فـي الغـرب، والتي تطورت وتفاعلت مع العلم وواقع الحياة العصرية ولم تعد معيقة لتقدم البشرية والعلم والإنسان،وفي الجانب الآخـر هناك الديانات الإبراهيمية في المشـرق (وأغلبيتهـا مـن المسلمين) حيث الممارسات والمؤسسات الدينية قوية سـواء كانت مؤسسات إسلامية أو مسيحية يراها الـبعض معيقـة للتقدم، لأن المشرق لم يفرخ حركة استنارة ونهضة استمرتا لفترة طويلة كان لها تأثيرها على الواقع الثقافي.

وإذا قارنا حياتنا الثقافية بما جرى في أوروبـا نلمـس الفارق الشديد – وكما سبق أن ذكرنا – فإن ما قام به مارتن لوثر من " احتجاجات" عام ١٥١٧ كان بداية لحركة إصلاح ديني استمرت متدفقة حية وقد استكملها كثيرون في مقدمتهم جون كلفن والذي قاد حركة إصلاح ديـني متـأثرا بأفكـار مارتن لوثر وصار له مذهب عرف باسمه في فرنسه وهولندا في القرن ١٦ ، ثم تدافعت التطـورات للتغيـرات الكبـرى وصولاً إلى " عصر النهضة " والثورة الفرنسـية وظهـور الأيديولوجيات المختلفة بما فيها الماركسية،وكان أن أصـبح الدين المسيحي الغربي مسألة شخصـية وليسـت مجتمعيـة

بفصل الدين عن الدولة، ثم كان انتشار أيديولوجيات علمانية ووجودية وغيرها. ولذا لم يعد الدين معيقا للتقدم الإنسـاني، ثم ظهرت مذاهب كثيرة أخرى – وبالذات في أمريكا – تحت مظلة الكنائس الإنجيلية أو اللوثرية أو البروتستانتية وأخرى أخذت أسماء جديدة مثل منفتحة علـى المجتمـع ولا تمنـع تقدمه، ومنها ومعها ظهـرت الجمعيـات غيـر الحكوميـة Non - Governamental Organisation وبعـض منهـا لـه صبغة دينية وأحيانا تبشيرية ثم هناك ما يسمى المؤسسـات Foundations مثل مؤسسة فـورد وروكفلـر وفولبرايـت وغيرها،وهو نظام مأخوذ من فكرة " الوقف" النابعـة مـن الحضارة الإسلامية، حيث يتـرك رجـل خيـر أمـوالا أو عقارات يصرف من إيرادها على أعمال خيرية،ولكن الفارق الرئيسي – حاليا – هو أننا في المشرق لازلنا نركـز علـى إعانة الفقراء ودور العبادة بينما هم يركزون على تقدم الحياة على الأرض مثل إنشاء الجامعات ودور البحـوث العلميـة والاجتماعية ومشاريع التنمية والحريات العامة،ولا بأس من الأعمال الخيرية الخدمية مثل المستشفيات والتعليم والمتاحف وما إليها، وهذا هو سر قوة وفاعلية المجتمـع الأمريكـي،

تحديدا حيث الجمعيات الأهلية ذات فاعلية فـي الانتخابـات وتأثير على اتخاذ القرار، وهكذا صارت عبـارة المجتمـع المدني أو القطاع الثالث مرتبطة بالمجمعـات البروتسـتانتية التي أشتد نفوذها وظهرت عبارة WASP's أي فئة البـيض المنتمين إلى جذور إنجلوساكسونية White Anglo – Saxon Protestants وهي الجماعة الأولى الحاكمة في أمريكا ومـن المتفق عليها أن يكون رئيس الجمهورية منتميا إليها. وهـو أمر غير مذكور صراحة في الدستور ولكنه ممارس بالفعـل ،ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا جون كيندي فقد كان كاثوليكيا.

الكاثوليك يتطورون..

أما الكاثوليك في أوروبا أو في غيرها فهـي الكنيسـة" الجامعة " أي المنتشرة في كل أنحاء العـالم وهـي أساسـا محافظة ولذا ثار عليها مارتن لوثر في القرن ١٦، فلم يكـن أمامها من سبيل إلا أن تجدد نفسها من داخلها وكان ذلك عن طريقين أساسيين:

١- هو عقد ما يسمى مجامع للفاتيكان، وكان آخرها المجمع الفاتيكاني الثاني والذي امتد عقده لمدة سـنتين ١٩٦٣-

١٩٦٥ والذي فتح خلالهما حوارا شاملاً لما صار يعرف تقليديا بالأبعاد الثلاثة للحياة المسيحية: البعد الطقسي، البعد الروحي التأملي ثم أخيرا البعد المدني(أي العلاقة مع الحياة المدنية بما فيها الالتزام الاجتماعي والسياسي). وهذه المجامع التي تناقش تقريبا " كل شئ" تصدر قرارات بابوية ملزمة لكل الكاثوليك أي أنها مارست مفاهيم التجديد أو التصحيح الذاتي، وهو أمر لم يقتحم بعد إلى مجال كنائس المذهب الأرثوذكسي عموما والكنائس الصغيرة في العالم العربي خصوصا.

٢- ظهر في الكنيسة الكاثوليكية بعد مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين حركة سميت" بالاستقلال الثقافي" عن الكنيسة الأم في روما، فهي تطالب باحترام الثقافات المحلية في كل قارة أو إقليم حسب الأحوال،وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت حركة جديدة في أمريكا اللاتينية عرفت بعبارة لاهوت التحرير " وهو الأمر الذي خصصنا لتفاصيله الفصل الثامن القادم، وكان من نتائج ذلك أيضا تقوية لمجموعة الكاثوليك في مصر وصار

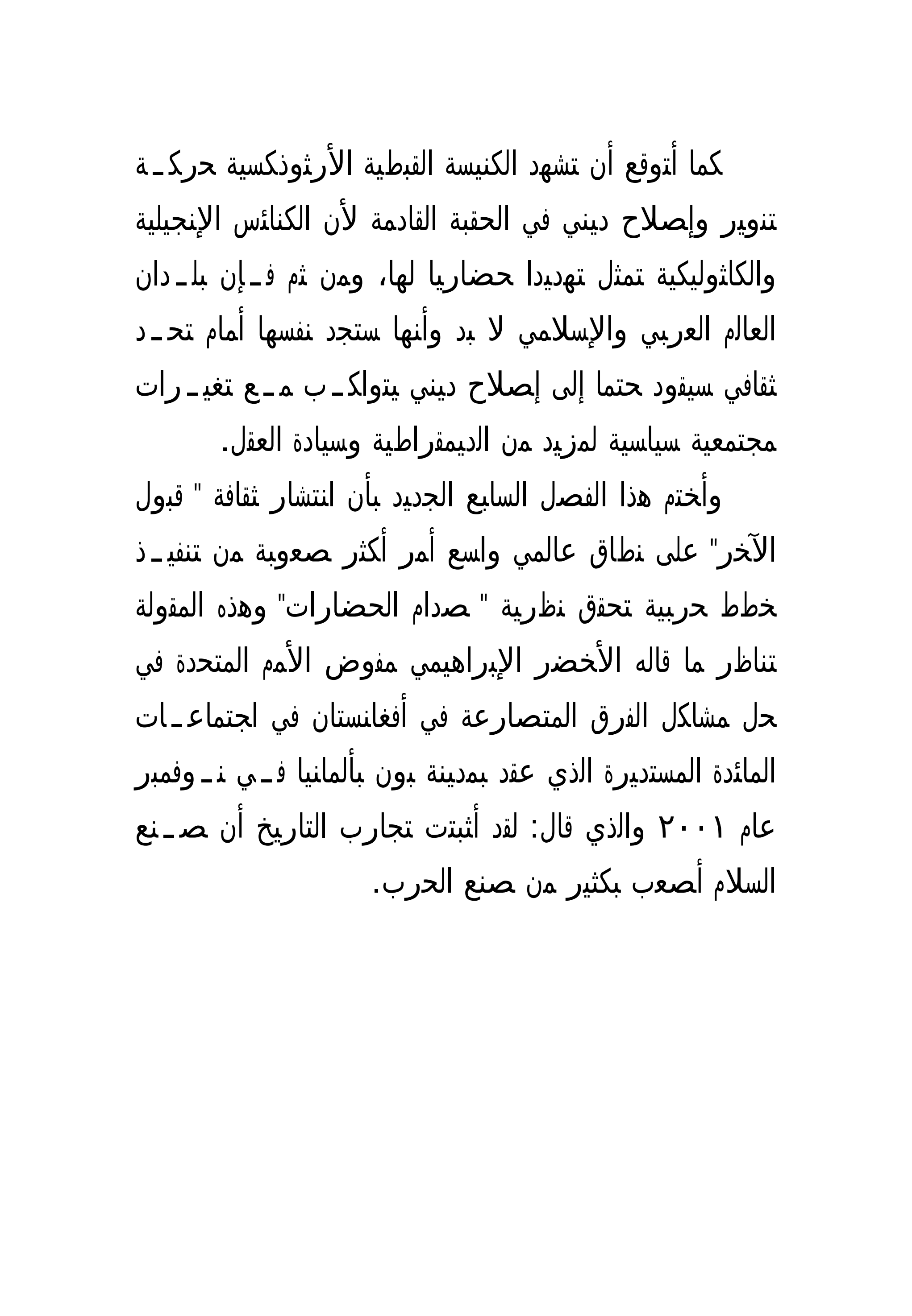
رئيس الكنيسة القبطيـة (أي المصـرية) الكاثوليكيـة مصريا يحمل لقب " كاردنيال" ، فأدى ذلك إلى ازدهار الكثلكة في مصر وأدت هذه الاستقلالية الجزئيـة إلـى انتشار الكثلكة في كثير من بلـدان العـالم فـي آسـيا وأفريقيا.

فظهر في أفريقيا بالفعل تيار معبر عن " لاهوت تحرير إفريقي" يناسب حركات التحرير الإفريقية وتزعمه الأسـقف الشهير ديزموند توتو Desmond Tutu والذي صـاغ كتـاب مماثلاً لما تم في أمريكا اللاتينية يعرف بـ ديزمونـد توتـو واللاهوت الأسود. وقد حصل هذا الزعيم الأسود الكاثوليكي على جائزة نوبل للسلام عاد ١٩٨٤ لدوره في حركة التحرر للأديان في أفريقيا، وقد قام بترجمته إلى العربية كذلك الأب وليم سيدهم اليسوعي وصدر عن دار المشرق في بيـروت عام ١٩٩٧ ، ثم سرت ذات الموجة إلى ىسياو فظهر كتاب " لاهوت التحرير الآسيوي" تاليف الأب اويزيوس بيـريس Aloysius Pieris وهو من سيرلانكا (سيلان) حيـث ربـط المسيحية الكاثوليكية مـع الـديانات الآسـيوية أي البوذيـة

والهندوسية والرواقية. وقد ترجمة إلى العربية أيضـا الأب وليم سيدهم اليسوعي وصدر من المكتبة الشرقية في بريوت عام ٢٠٠١.

ومن منطلق شخصي فقد استمتعت بقراءة هذه الكتـب الثلاثة،ووجدت فيها جهدا نظريا فكريا رائعا ،وتفهمت كيـف طورت المسيحية ذاتها مـن داخلهـا لتناسـب المتغيـرات المتسارعة في العالم، وقد يجئ وقت قريب يتم فيها حركات فكرية تحررية في بلاد الحضارة العربية – الإسـلامية فـي المؤسسات الدينية (سنة وشيعة ومسيحية شرقية) وهو أمـر ظهرت بوادرة واضحة من خلال " إعلان طهران" الذي مهد لقرار الأمم المتحدة بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عـام حـوار الحضارات وهو أمر سنذكر بعض مستنداته في الجزء الثالث القادم من هذا الكتاب.

والرأي عندي أن الجامع الأزهر كأقدم وأعرق مؤسسة دينية إسلامية قادت حركات التنوير مرارا عبر التاريخ فـي حاجة إلى هزة قوية بالذات بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ ، لتطوير المفاهيم الدينية لتناسب العصر.



كما أتوقع أن تشهد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية حركة تنوير وإصلاح ديني في الحقبة القادمة لأن الكنائس الإنجيلية والكاثوليكية تمثل تهديدا حضاريا لها، ومن ثم فإن بلدان العالم العربي والإسلامي لا بد وأنها ستجد نفسها أمام تحد ثقافي سيقود حتما إلى إصلاح ديني يتواكب مع تغيرات مجتمعية سياسية لمزيد من الديمقراطية وسيادة العقل.

وأختم هذا الفصل السابع الجديد بأن انتشار ثقافة " قبول الآخر" على نطاق عالمي واسع أمر أكثر صعوبة من تنفيذ خطط حربية تحقق نظرية " صدام الحضارات" وهذه المقولة تناظر ما قاله الأخضر الإبراهيمي مفوض الأمم المتحدة في حل مشاكل الفرق المتصارعة في أفغانستان في اجتماعات المائدة المستديرة الذي عقد بمدينة بون بألمانيا في نوفمبر عام ٢٠٠١ والذي قال: لقد أثبتت تجارب التاريخ أن صنع السلام أصعب بكثير من صنع الحرب.



الماركسية والكاثوليكية معا
من لاهوت التحرير إلي لاهوت الحياة

* قصة الصراع بين الجناح الثوري والجناح الإصلاحي في الأيديولوجية الاشتراكية.
* الاتحاد السوفييتي سقط لأنه صدق الحتمية الاشتراكية ولم يطور أفكاره ونظامه من الداخل فعاشت قيادته في وهم.
* أمريكا اللاتينية تبحث عن بديل ثالث وتجده في لقاء الكثلكة بالماركسية.
* ١٩٦٨ عام فاصل في نشأة المسيحية الجديدة.
* من لاهوت التحرير إلي لاهوت الحياة من خلال المشاركة والممارسة.
* تحرير الإنسان لم يعد بتخليصه من الظلم فقط بل وبتأمين كوكب الأرض بالمحافظة علي البيئة.
* هناك (في أمريكا اللاتينية) قال كاسترو: من يخون الفقراء يخون المسيح.

الماركسية والكاثوليكية معا
من لاهوت التحرير إلي لاهوت الحياة

الماركسية لها جناحان:

منذ أن أعلن البيان الشيوعي المسمي بـ ـالمنافستو عام ١٨٤٨ تحولات النظرية والفلسفة التـي سـجلها كـارل ماركس الي حركة شعبية ؛ لأنها نبهت لأهمية تجميع وتعبئة مشاعر إنسانية جماعية لمجموعة بشرية صـاعدة وقويـة، وهي الطبقة العاملة التي تكونت من خلال إنشـاء المصـانع علي أنواعها أو ما أصبح يشار إليه بـالثورة التكنولوجيـة الأولي.

فقد تجمع العمال في مواقع محددة هي المصانع ذاتها وبشكل مكثف داخلها ولـيس مثـل الفلاحـين الـزراعيين المنتشرين فوق الأرض في مسطح متسع. وكانت المصـانع متقاربة جغرافيا ونوعيا قرب الأحياء السكنية وفـي المـدن التي تركزت فيها الصناعة، والتي نمت بشكل هائل طـوال القرن التاسع عشر في بلدان أوروبا الغربية بالذات ثـم فـي أمريكا بعد ذلك، فكان أن تكونت النقابات العماليـة وظلـت

تنمو تدريجيا وربما كانت البداية واضحة في انجلترا بصـفة خاصة، والتفت الحركات النقابية حول الأفكار الماركسية ثـم أنشأت الحركة النقابية -ممثلة في اتحـاد نقابـات العمـال- حزب العمال البريطاني، والذي مـازال حتـي الآن بـرغم التغيرات الهائلة التي شاهدها العالم، هو التنظـيم السياسـي الرائد المرتبط الممول من اتحاد نقابات العمال، وإن كانـت حكومة توني بلير التي فازت خلال إنتخابات مفصـلية فـي صيف عام ١٩٩٧، قد أدركـت أن التركيبـة الاجتماعيـة لمواطني انجلترا قد تحولت من البروليتاريـا إلـي الطبقـة المتوسطة. وقد آثر توني بلير ان يختـار عبـارة 'الطريـق الثالث' لكي يتحاشي الاقتراب مـن عبـارة الماركسـية أو الاشتراكية الديمقراطية ولذلك تفاصيل ليس هذا مجالها.

وفي بلدان أخري اسـتهوت النظريـة الماركسـية المثقفين، أي تولدت أيضا مشاعر إنسانية جماعية متعاطفـة مع هذه الأفكار الجديدة، فكان أن أنشئت جماعـة الفـابيين Fabian Society في بريطانيا، ثم نشأ تحالف المثقفين مع زعماء اتحاد العمال ليترجموا المشاعر الجماعيـة للطبقـة العاملة، والتي شعرت بالقهر والظلم من طبقة الرأسـماليين،

وهكذا تكونت تدريجيا أحزاب الاشتراكية الديمقراطيـة فـي معظم دول أوروبا الغربية في أواخر القرن التاسـع عشـر، وبخاصة في فرنسا وألمانيا وبلـدان شـمالي أوروبـا فـي اسكندنافيا، وبرز دور هذه الأحزاب في السـويد والنـرويج والدانمارك، وحتي الأحزاب اليمينية في تلك البلاد قد اقتنعت مع مرور الوقت بأن تحقيق العدالة الاجتماعية مـن خـلال الضرائب هو الضمان للأمن والتماسك واستقرار المجتمع.

وكان طبيعيا في بلدان أخري مثل إنجلترا وفرنسـا وألمانيا أن يكون رد الفعل هو تجمع الرأسماليين وأصـحاب المصانع في اتحادات تحولت الي أحزاب سياسية، وأخـذت تقاوم الأفكار التي يدعو لها فكر وأيديولوجيـة الاشـتراكية الديمقراطية، وتقاربت أحزاب الأحرار والمحـافظين ممثلـة لليمين، وتحول الصراع الفكري إلي صراع سياسي. ولكـن في إطار المناخ الديمقراطي والليبرالي الذي بدأ مع عصـر النهضة الأوروبي منذ القرن السابع عشر، توصل المجتمـع لصياغة قانونية استقرت مفاهيمها وأنتجت ما عرف بالتوازن من خلال السلطات الدستورية الثلاث وهي السلطة التنفيذيـة ولديها أدوات جهاز الدولة بكل ما تشمل من جيش وشـرطة

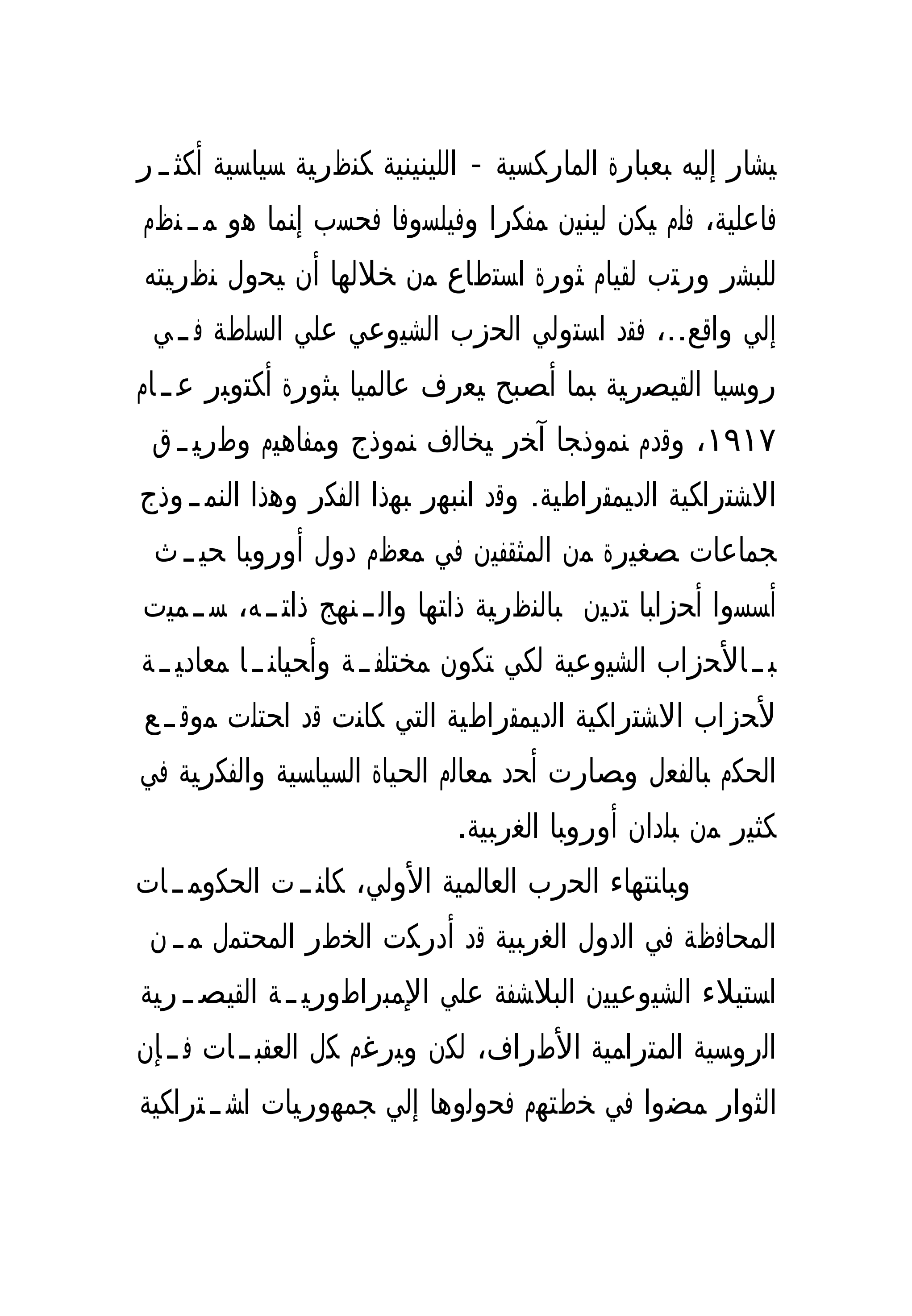
وسجون وأموال وجهاز بيروقراطي حكومي، ثم السلطة الثانية ممثلة في البرلمان والتي يشار اليها باسم السلطة التشريعية، مع توسيع سلطات القضاء واستقلاله ليقيم العدالة والتوازن.

وقد بدأ تداول السلطة يتم بشكل سلمي بعد الحرب العالمية الأولي بالذات حيث فاز في الانتخابات العديد من أحزاب الاشتراكية الديمقراطية. ولكن المفاجأة الكبري كانت في انشقاق الحركة الماركسية الي جناحين: الأول لايؤمن إلا بالتغيير الثوري العنيف، والثاني كان مقتنعا بأن الوصول إلي السلطة يجب أن يكون بطريق صندوق الانتخابات، أي الدعوة لتجميع مشاعر ومصالح ورؤي قطاعات من البشر في طليعتها الطبقة العاملة لكي تصوت الي جانب الاشتراكية الديمقراطية، وقامت الأحزاب المحافظة اليمينية من ناحيتها بتجميع مشاعر قطاع آخر من البشر يتضمن أيضا الكثير من الفقراء بما فيهم العمال ولكنهم لسبب أو لآخر مقتنعون بأن استقرار المجتمع يكون في حكم الرأسمالية التي توفر الخير العام فيصلون إلي مستوي معيشة أفضل ولذا كانوا يصوتون لصالح هذه الأحزاب. وقبلت الأطراف المتصارعة لعبة

تداول السلطة من خلال الانتخابات أي من خلال إقناع الناس بمصالحهم أو انتماءاتهم أو تبني مايمكن أن يملأ وجـدانهم، فالتصنيف الطبقي وحده لايكفي لفرز البشر.

هذا عن الصراع السلمي بين اليمين بعامة والتيـار الاشتراكي الديمقراطي في دول أوروبا الغربية، لكـن كـان هناك فريق ثوري آخر كـان يتعجـل الأمـور ويـري أن الوصول إلي السلطة من خلال الانتخابات طريـق متعـرج طويل وكانت نظريته أن المشاعر الإنسانية تتكون من خلال عمليات مجتمعية معقدة، منها الأسـرة وظـروف النشـأة وعوامل الوراثة فضلا عن التعليم والدين والعقيدة التي تتكون في الكنائس (قبل وجود وسائل الإعلام الجماعية من إذاعـة وتليفزيون) ولذلك كان البديل للتغيير وهو أن الوصول إلـي السلطة لن يتم إلا من خلال الثورة والعنف، ومن ثم يكـون التنظيم والدعوة لها بطريق سري حتي لاتطـارده السـلطة القابضة وهي محكومة بالرأسماليين، علي حسب مفهـومهم وأدبياتهم.

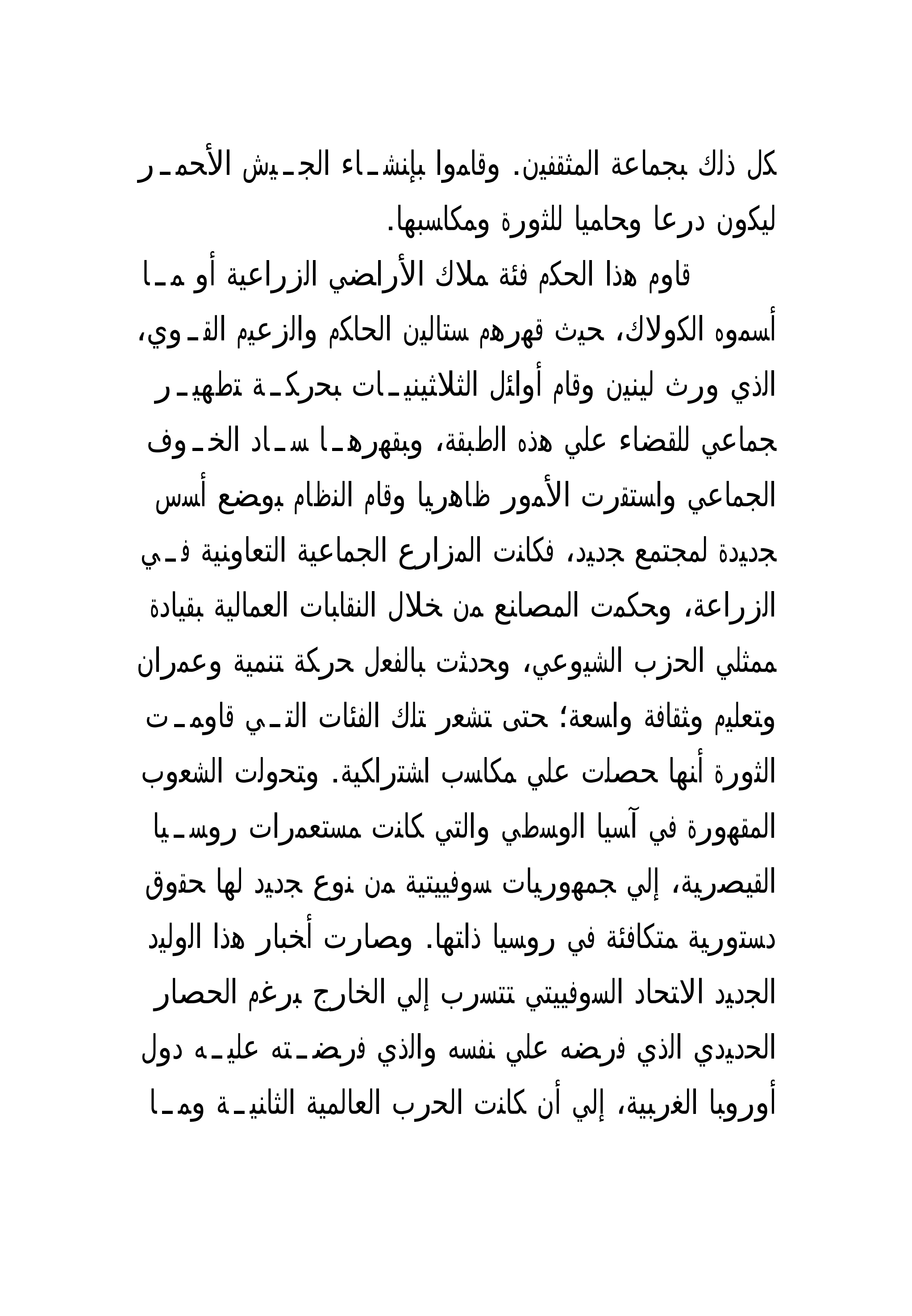
وبالفعل قام لينين بمزيد من الجهد النظـري لايقـل أهمية عن جهد كارل ماركس ذاته حتي صـارت مزيجـا



يشار إليه بعبارة الماركسية - اللينينية كنظرية سياسية أكثر فاعلية، فلم يكن لينين مفكرا وفيلسوفا فحسب إنما هو منظم للبشر ورتب لقيام ثورة استطاع من خلالها أن يحول نظريته إلي واقع..، فقد استولي الحزب الشيوعي علي السلطة في روسيا القيصرية بما أصبح يعرف عالميا بثورة أكتوبر عام ١٩١٧، وقدم نموذجا آخر يخالف نموذج ومفاهيم وطريق الاشتراكية الديمقراطية. وقد انبهر بهذا الفكر وهذا النموذج جماعات صغيرة من المثقفين في معظم دول أوروبا حيث أسسوا أحزابا تدين بالنظرية ذاتها والنهج ذاته، سميت بالأحزاب الشيوعية لكي تكون مختلفة وأحيانا معادية لأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي كانت قد احتلت موقع الحكم بالفعل وصارت أحد معالم الحياة السياسية والفكرية في كثير من بلدان أوروبا الغربية.

وبانتهاء الحرب العالمية الأولي، كانت الحكومات المحافظة في الدول الغربية قد أدركت الخطر المحتمل من استيلاء الشيوعيين البلاشفة علي الإمبراطورية القيصرية الروسية المترامية الأطراف، لكن وبرغم كل العقبات فإن الثوار مضوا في خطتهم فحولوها إلي جمهوريات اشتراكية

يحكمها مندوبو الشعب، أي ممثلو الجماهير التـي تحركـت لتنفيذ الثورة والتي استولت علي السلطة والمرتبطة بـالفكر الشيوعي، وهم الذين اطلقوا علـي أنفسـهم لفـظ أو صـفة السوفييت أي المندوبين. وفي عـام ١٩٢٢، أنشـأوا اتحـاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والذي أصبح يعرف فيما بعد اختصارا بـالاتحاد السوفييتي وغدا محكومـا بحـزب واحد وهو الحزب الشيوعي المسـمي البلشـفي السـوفييتي طليعة للطبقة العاملة المسماة البروليتاريا. وأغلـق الاتحـاد السوفييتي حدوده حتي يتحاشي الهجوم المسلح عليه، وحكـم هذه الرقعة الواسعة حكما شموليا من خلال قبضـة السـلطة والحزب والمخابرات. وقد سمي كل ذلك جبهة الثـورة فـي مواجهة أعداء الثورة أو الثـورة المضـادة. وكـان الحكـم والسلطة ينفذان تجميع وقيادة المشاعر الإنسـانية الجماعيـة للجماهير السوفييتية. وقدمت السلطة وجبات ثقافية استطاعت أن تكسب بها أولا وقبل كل شيء الطبقة العاملة في مجـال الصناعة أي البروليتاريا، ثم أقنعت فئات أخري أن تتحـالف معها، وفي مقدمتهم عمال الزراعة أي الفلاحون، ثم توجـوا



كل ذلك بجماعة المثقفين. وقاموا بإنشاء الجيش الأحمر ليكون درعا وحاميا للثورة ومكاسبها.

قاوم هذا الحكم فئة ملاك الأراضي الزراعية أو ما أسموه الكولاك، حيث قهرهم ستالين الحاكم والزعيم القوي، الذي ورث لينين وقام أوائل الثلاثينيات بحركة تطهير جماعي للقضاء علي هذه الطبقة، وبقهرها ساد الخوف الجماعي واستقرت الأمور ظاهريا وقام النظام بوضع أسس جديدة لمجتمع جديد، فكانت المزارع الجماعية التعاونية في الزراعة، وحكمت المصانع من خلال النقابات العمالية بقيادة ممثلي الحزب الشيوعي، وحدثت بالفعل حركة تنمية وعمران وتعليم وثقافة واسعة؛ حتى تشعر تلك الفئات التي قاومت الثورة أنها حصلت علي مكاسب اشتراكية. وتحولت الشعوب المقهورة في آسيا الوسطي والتي كانت مستعمرات روسيا القيصرية، إلي جمهوريات سوفييتية من نوع جديد لها حقوق دستورية متكافئة في روسيا ذاتها. وصارت أخبار هذا الوليد الجديد الاتحاد السوفييتي تتسرب إلي الخارج برغم الحصار الحديدي الذي فرضه علي نفسه والذي فرضته عليه دول أوروبا الغربية، إلي أن كانت الحرب العالمية الثانية وما

أعقبها من حرب باردة ليس هنا موضع طرح تفاصيلها، فهي تاريخ معاصر معروف فقد فتحت الحرب العالميـة الثانيـة الابواب لظهور الاتحاد السوفيتي ونظريته السياسية علي كل العالم بما فيها الدول النامية التي تنادي بالاستقلال.

عصف ذهني حول نظرية الحتميات.

أدرك الماركسيون والشيوعيون أهميـة دور الـدين واحتمال أن تقوم المؤسسات الدينية بمقاومة الثـورة، لـذلك استولت القيادة الثورية البلشفية علي الأرض الزراعية التـي تملكها الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، أي جردت الكنيسة من أهم أسلحتها الاقتصادية ثم حولت مباني الكنائس في روسـيا وأوكرانيا، وكذلك المساجد في طشقند وجمهوريـات آسـيا الوسطي الإسلامية إلي متاحف، ولكنها اضطرت إلي فتحهـا للجمهور بعد ذلك عندما استقرت الثـورة سياسـيا ونتيجـة الضغوط القادمة من المؤسسات الدينية في باقي العالم الحر، ولكنها كانت تحت رقابة صارمة من الدولة وأجهزتها.

وفي الجانب الآخر من أوروبا أدركـت الأحـزاب اليمينية أن الكنيسة الكاثوليكية هي الحصن المتين ولابد مـن الاستفادة منه في قهر الشيوعية. فالجماهير المتدينة - حتـي

وإن كانت منتمية إلي الطبقة العاملة - سـوف تنحـاز ثـم تنتخب الأحزاب اليمينية. وكشـف الفاتيكـان عـن موقفـه السياسي المنحاز إلي الأحـزاب المسـماه بـ ـالديمقراطية المسيحية.

وبهذا تداخل الصراع بين الطبقات بالصـراع بـين الاقتناعات والمشاعر الدينية ووضح -لي شخصيا- من تتبع هذه المسيرة والمنافسة بين المؤسسات الدينيـة والاحـزاب الشيوعية لكسب قناعات البشر علي كافة طبقاتهم صدق فكرة أن المشاعر والإقناعات والمفاهيم الإنسانية الجماعية هـي محرك التاريخ وهو الأمر الذي فصلناه في الفصل الأول من هنا كانت اهتمامات أجهزة الدول فـي العصـور الأحـدث بوسائل الإعلام حتي تشكل المشـاعر الإنسـانية الجماعيـة وتضعها في التوجه الذي يخدم مصالح السلطة الحاكمة وهو أمر سنعود إليه في فصل قادم.

وبعد الحرب العالمية الثانية وازدياد حـدة الصـراع فيما أصبح يعرف بـالحرب الباردة ودخول أمريكـا طرفـا رئيسيا في السياسة العالمية باعتبارها أحد قطبي الصـراع، وضع جون فوستر دالاس -وزير خارجية أمريكا في حقبـة

حكم الرئيس ترومان في الخمسينيات- اسـتراتيجية كونيـة مهمة من خلال العمل علي خلق تحالف عالمي بين النظـام الرأسمالي في مجمله من جانب وبين الأديان من جانب آخر وذلك علي مستوي العالم كله لمقاومة المد الشـيوعي، فقـام بإنشـاء مـا أسـماه معبـد التفـاهم ' The Temple of Understandingس، ويكون بالفعل أول الأمر تحالفـا مـع المذاهب المسيحية علي الرغم مما كان بينهـا مـن عـداوة لقرون طويلة، وعرف هذا التحـالف بـ ـمجلس الكنـائس العالمي وهو تجمع هائل وضخم يشمل الكنيسة الكاثوليكيـة وقيادتها المتمركزة في الفاتيكان ولها كيان سياسي مثـل أي دولة أخري مع مجمل الكنائس الأرثوذكسية والبروتسـتانتية علي كافة مسمياتها الأخري.

وفي كل من أمريكا والفاتيكان تكونت صـلات مـع المؤسسات الدينية في العالم الإسـلامي، تحمـل مسـميات مختلفة، منها الحوار الإسلامي المسيحي منذ الخمسينيات، فقد كانت قناعة الحكام في كل من أمريكا وأوروبـا الغربيـة أن

العالم الإسلامي سوف يساهم في مقاومة الشيوعية باعتبارها داعية لنكران دور الدين علي أنواعه(*).

وفي حقبة السبعينيات وقع الاتحاد السـوفييتي فـي شرك الحرب في أفغانستان وقد استدرج إليها، فقامت وكالـة المخابرات الأمريكية CIA بتجنيد المتطوعين مـن البلـدان الإسلامية كافة فيما أصبح يعرف بـالمجاهدين لأنهم انضموا بالفعل إلي حزب المجاهدين الأفغان، وكان تمويلهم وتدريبهم يتم في وضح النهار بمنطقة بيشاور في شمال باكستان حيث يتسرب المجاهدون ويتوغلون في حرب 'التحرير'. واستطاع الغرب أن يحول الحرب الأهلية في أفغانستان لتكون حربـا دينية مقدسة بين الفريق الإسلامي في مواجهـة الماركسـية

---

* المؤلف: يلعب الحوار الإسلامي المسيحي الآن دورا بناء في البحث عن أرضية مشتركة للتفاهم بين أصحاب الأديان ويتحـول الآن تدريجيا ليكون حوارا بين المثقفين في إطار أشمل هـو الحـوار بين الحضارات والثقافات ، وعقد لذلك المـؤتمر الـدولي بـين الحكومات بعنوان " الثقافة قوة" حضره ١٥٠ وزير ثقافة ونحـو ١٥٠٠ مفكر ومثقف في مدينة استكهولهم من ٣٠ مارس حتى ٢ أبريل ١٩٩٨ وسيكون للتوصيات وخطة العمل الصادرة عنـه، آثار بعيدة لربط الثقافة بالتنمية.

الملحدة من جانب آخر. ومن سخريات القدر أن تعاني أمريكا حاليا من العرب الأفغان الذين جندتهم ودربتهم لمقاومة الشيوعية، كما يعاني منهم كثير من دول العالم الإسلامي ذاته الذي ذهب منه المتطوعون إلي هناك. والمعروف أنه عندما انهار الاتحاد السوفييتي تحول المجاهدون - أو أكثرهم - إلي حركات مارست الارهاب وصل بعضها إلي داخل أمريكا نفسها.

واستمرت الولايات المتحدة الأمريكية في النهج البراجماتي (والذي يمكن تبسيط مفهومه وفق المقولة الشهيرة: اللي تغلب به إلعب به). واستفادت من المشاعر الإنسانية الجماعية الملتفة حول الدين - أي دين- ولم تقف طويلا عند مقولة حتمية انتصار النظام الرأسمالي وهي ملخص رؤية فوكوياما فيما بعد في كتابه نهاية التاريخ، واستطاعت أن تفكك الاتحاد السوفييتي، مستفيدة من أنه قد توهم صدق نظريته في حتمية انتصار الاشتراكية.

ومنذ أن تحالفت أمريكا مع أوروبا الغربية عسكريا في التنظيم الذي أسسته باسم حلف الأطلنطي الناتو ظل الغرب فارضا سباق التسلح النووي ثم الصواريخ العابرة

للقارات والتي تحمل رءوسا نووية وصولا إلي مـا أسـماه حرب النجوم في الثمانينيات، وهنا أنهـك اقتصـاد النظـام السوفييتي لأنه لم يستطع أن يجاري أمريكا في الإنفاق علي التسليح، فهبط مستوي المعيشة، ولم يعد الاتحاد السـوفييتي هو حلم البشرية وجنة الفقراء. وساهم كل ذلـك فـي تآكـل النظام من داخله وتفكك الاتحاد.

ومرة أخري تأكد أن النظرية الماركسية التي نـادت بالمساواة والتكافؤ بين البشر دون تمييز بسـبب السـلالة أو اللون أو الدين أو المذهب لم تستطع أن تفرض وجودها علي مستوي العالم كما كان متصورا، بل ولا علـي مجمـل دول وشعوب الاتحاد السوفييتي.

وهكذا نشأت حاجة لطرح فكر جديد لايعتمـد علـي الحتميات، أو يروج لحتميات من نوع خاص تخدم ديمومـة الرأسمالية فقد ظهرت في أمريكا مباراة في النظريات التـي تدعو إلي نهايات الأشياء، فكانت مقولات وكتب ونظريـات باسم نهاية الأيديولوجيات ثم نهاية التاريخ ثم نهاية الفلسـفة وما إلي ذلك، ولا أدعي أن هذا الكتاب هو نظريـة جديـدة

تفسر التاريخ بقدر ما هو دعوة حشد وشحذ وعصف ذهنـي Brain Storming. نضع نهجه في الفصل القادم.

دول العالم الثالث تدخل في الخط:

ظهرت الماركسية مصـاحبة لنضـوج المجتمعـات الصناعية في أوروبا الغربية في النصف الثاني مـن القـرن ١٩، ولذا تصور ماركس أن المجتمع الاشتراكي سيكون أول الأمر في إنجلترا أو ألمانيا عندما شاهد نمو الصـراع بـين حركة النقابات العمالية والأحزاب التي تلتف حول الماركسية وبين الرأسمالية، ولكن ثبت أنه لم يمكن التنبؤ الدقيق بحركة التاريخ، فمات ماركس وظهر لينين فكـان انتصـار ثـورة أكتوبر عام ١٩١٧ وظهرت حركات التحرر الـوطني فـي بعض البلدان مبكرة بعد الحرب العالمية الأولـي كمـا فـي مصر والهند، ولكنها انتشرت علي نطاق أوسع بعد الحـرب العالمية الثانية فيما أصبح يشار إليه بـالعالم الثالث. وتغيرت موازين القوي السياسية في العالم. وعقد مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ لتتبلور بعده في حركة دول عدم الانحياز في معظم دول آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكان لهذه الحركة دور في دعم السلام ومنع قيام حرب عالمية ثالثة ومن خلال إقامة

التوازن بين القطبين الرئيسيين أعني موسكو وواشنطن. وقد حاول الاتحاد السوفييتي أن يستميل معظم هذه الدول إليه وقدم لها دعما سياسيا واقتصاديا، وكان له مواقف واضحة بالانحياز الي القضية العربية عموما ومصر خصوصا طوال حقبة عبدالناصر. ولكن ما أن رفع الغطاء وتفكك الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩٠، حتي ظهرت أعراض الانتماء إلي الحضارات والثقافات والأديان، وقد طفت الظاهرة علي السطح بالفعل وتم رصدها واستفاد منها صموئيل هانتجتون كما ذكرنا سابقا في الفصل الثاني.

غير أن الأمر الملفت للنظر هو أن الشيوعية قد استمرت في الصين وظل النظام متماسكا لم يتفكك كما حدث في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، واستبدلت الصين انتماءها الأيديولوجي بالانتماء الجغرافي الحضاري وانضمت إلي مجموعة دول الشرق الأقصي الكنفوشية. واكتفت الهند بذاتها في محاولة فريدة للتنمية من خلال نظام ليبرالي مأخوذ من الغرب، لعلها تقدم نموذجا حضاريا مستقلا، ولكنها تعاني من صراعات مريرة تاريخية بين الهندوس والمسلمين. وتفكك الاتحاد اليوجوسلافي وتحول إلي مأساة إنسانية لم

يسبق لها مثيل في الحروب الأهلية وانقسم إلي عدة دول علي أساس ديني وعرقي، وهو الأمر الذي عـزز وجهـة نظـر هانتجتون في نظرية صراعات الحضارات كما ظهرت مأساة تفكك أو تحلل بعض الدول المستقلة حديثا في افريقيا ابتـداء من الصومال إلي رواندا إلي زائير وغيرها، وارتدادها إلـي صراعات القبائل.

لأمريكا اللاتينية وضع خاص:

أما أمريكا اللاتينية فقد انسـلخت فـي هـدوء مـن مجموعة عدم الانحياز، ووجدت نفسـها ومصـالحها مـع الولايات المتحدة الأمريكية فقامت إحدي دولها بالمشاركة في منظمة النافتا (وهو التحالف الاقتصـادي بـين الولايـات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسـيك). لقـد مـرت أمريكـا اللاتينية بخبرة إنسانية فريدة من نوعها وهي إمكان التزاوج أو المصالحة أو قبول الآخـر بـين الماركسـية باعتبارهـا أيديولوجية ظهرت حديثا في القـرن التاسـع عشـر وبـين المذهب الكاثوليكي الذي يعتبر أتباعه هم الفريق المتماسـك والمحافظ أي الاكثر تشددا في الديانة المسيحية. وكان هـذا التزاوج الفكري من خلال ما عـرف بـلاهوت التحريـر

منطويا علي خبرة إنسانية فكرية فريدة غير متكررة تحمـل في طياتها مفاهيم وثقافة قبول الآخر ليس علـي المسـتوي الفردي وإنما علي المستوي الجماعي والأيديولوجي، وهـو الأمر الذي دفعني لأن أفرد لهذا التزاوج بـين أيديولوجيـة ودين فصلا خاصا، فهو أحد سمات القرن العشرين. وربمـا يكون عرضه وتحليله دافعا لأن يتكرر في مناطق أخري وإن كان التكرار الميكانيكي غير ممكن، ولكن خبرة الآخرين قـد تدفع لابتكار نوع جديد للمصالحة أو قبول الآخر بين ديانتين أو أيديولوجيتين، ولقد ظهر فيما بعد لاهوت تحرير أفريقي، صاغه الأسقف الشهير ديزموند توتو* والذي صار فيما بعـد السكرتير العام لمجلس كنائس أفريقيا وأطلق عليـه عبـاره اللاهوت الأسود وكان لنضاله مع نيلسون مانديلا دورا فـي إنهاء الحكم العنصري في جنوب أفريقيا.

لقد ذكرت قبل قليل أن الماركسية - اللينينية - كمـا كانت تمارس في الاتحاد السوفييتي - قد أصبحت لها طقوس لم تكن تمارس إلا في بعض الأديان. فعلي الرغم من أنهـا

---

* تم ترجمة كتاب الأسقف ديزموند توتو الي العربية بعنوان لاهوت التحريـر فـي أفريقيا الي العربية وليم اليسوعي – الناشر : دار المشرق بيروت عام ١٩٧٧

(أي الماركسية - اللينينية) قد بدأت مناقضة للأديـان فـي مجملها ووصفتها بأنها أفيون الشعوب، إذ بها مـع اختفـاء الديمقراطية والحوار وآليات التصحيح الذاتي، وإحلال مفاهيم ديكتاتورية البروليتاريا وقيادة الحزب الواحد وما إليها، إذ بها تتحول الي ممارسات وطقوس لا تطبقها إلا بعض الأديـان، فقد اعتبر الشيوعيون أن لينين - وليس ماركس - هو نبـي الماركسية اللينينية، وصارت تقاليد زيـارة قبـره والعبـور باحترام أمام الجسد المحنط والمسجي في تـابوت زجـاجي خاص، لها مراسيم تناظر التبرك بأجساد وأضرحه القديسين والأبرار والمشايخ، وتحول أعضاء الحزب الشيوعي وكأنهم رجال كهنوت يفسرون النظرية والنصوص الواردة في الكتب التي صارت تدرس إجباريا فـي كـل المعاهـد والكليـات الجامعية. وصار حضور ممثل الحـزب ليتحـدث فـي أي مؤتمر علمي بطريقة تناظر حضور رجل دين ويرتل أدعية دينية عندما يفتتح أي مؤتمر علمي في الدول الدينية. وقـد دهشت -مثلا- عندما دعيت لحضور مـؤتمر علمـي عـن المنشآت المعدنية في براج في تشيكوسلوفاكيا - (السابقة) - عام ١٩٥٩ كأستاذ الانشاءات في هندسة عـين شـمس وإذا

بممثل الحزب يفتتح المؤتمر ذاكرا نصوصا من الماركسـية تؤكد أهمية الصناعات الثقيلة والحديد في بناء المجتمع. قـال ذلك بطريقة تناظر منح البركة عندنا في افتتاح المؤتمرات.

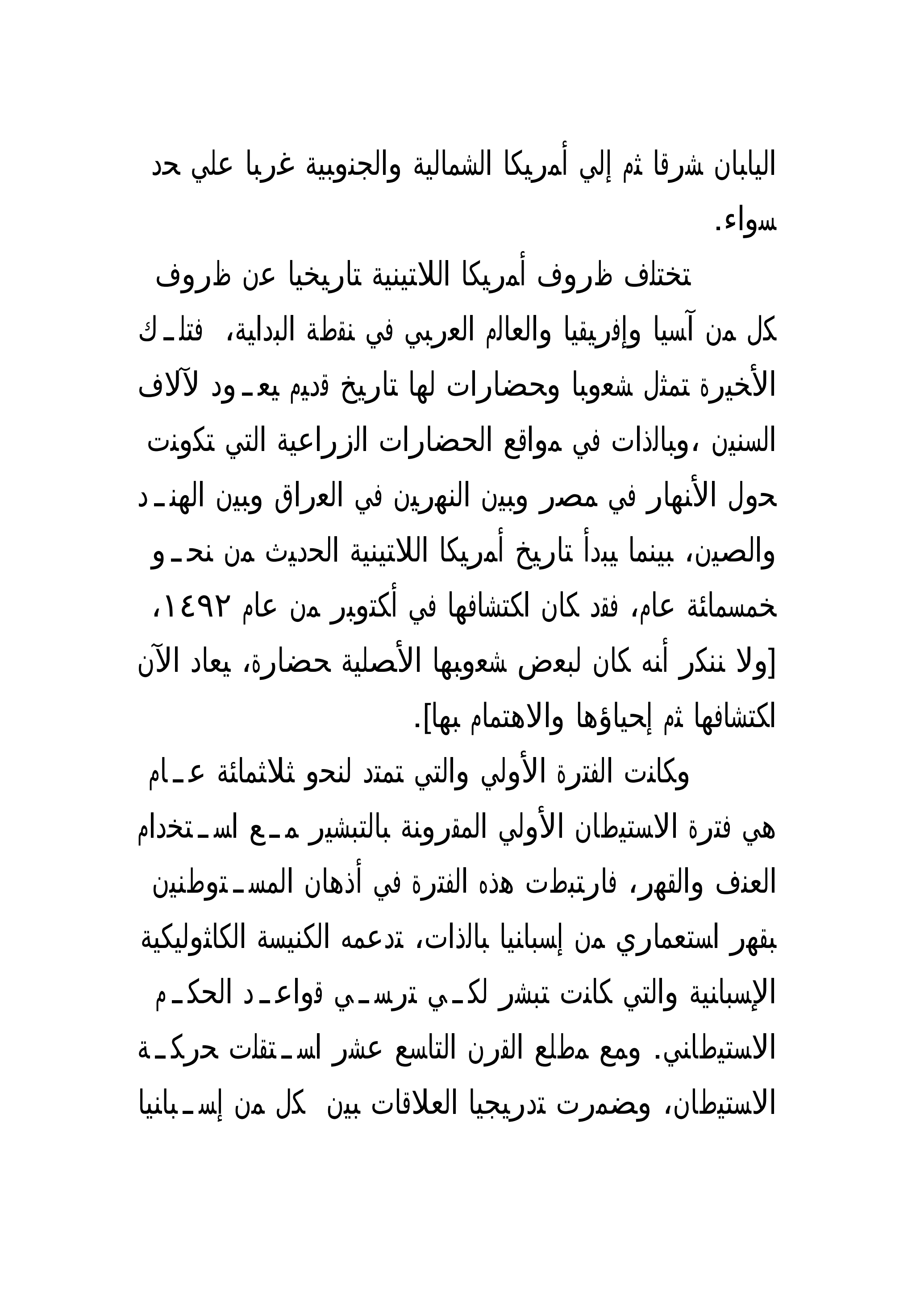
كما لاحظت أن في رسائل الدكتوراه في الجامعـات العلمية علي أنواعها في كل دول أوروبا الشرقية والاتحـاد السوفييتي أن تكون بداية أية رسالة وفي الصفحة الأولي منها كتابة لعبارة أو مقولة من تراث ماركس أو إنجلز أو لينـين، ويكون الإبداع لمقدم الأطروحه العلمية هو في الاكتشـاف أو العثور علي نص مرتبط بموضوع الرسالة وكأنه نص ديني، بالطريقة ذاتها التي صارت بها البسملة هـي واجهـة كـل خطاب أو رسالة في معظم البلاد الإسلامية حاليا.

وهكذا تحولت الماركسية - اللينينيـة فـي الاتحـاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية الشيوعية إلي نوع من العقيدة الدينية أو ما يسمونه فـي المـذهب الكـاثوليكي الـدوجما Dogma، أي الإيمان اليقيني بأمور لا يمكن إثباتها بمنطـق عقلي ولكنها تؤخذ كما هي، وكان وجود تمثال وصور لينين في كل موقع من المدرسة الإبتدائية إلي المصانع إلي الميادين

العامة يوحي بأن دينا جديدا قد ظهر ليزيـد الأمـر تعقيـدا وخلطا للأوراق.

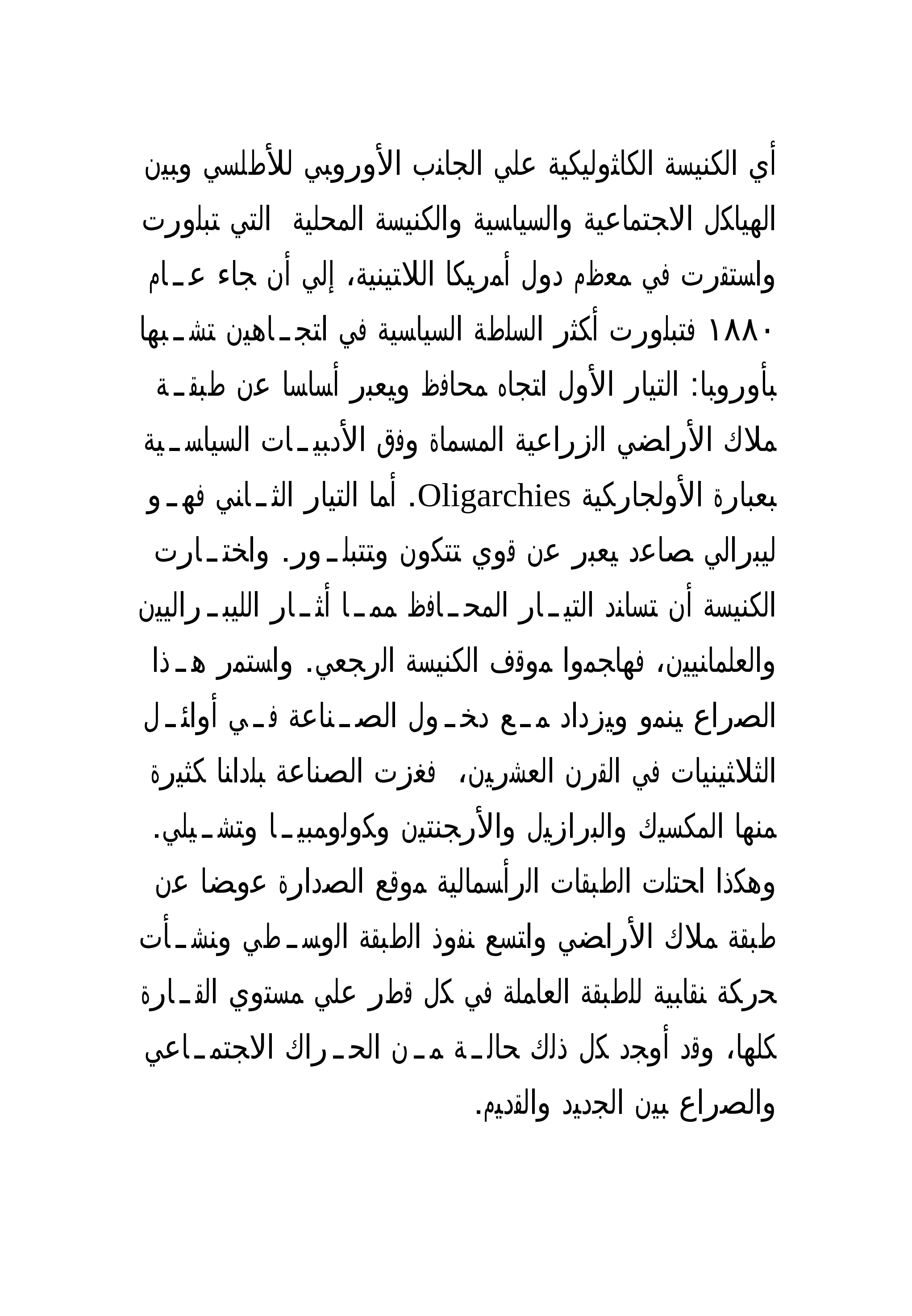
أما المذهب الكاثوليكي فكان - ومنذ القرن العاشر - هو القوة السياسية والاجتماعية والروحيـة المهيمنـة علـي الأمراء والإقطاعيات في وسط وغرب أوروبا والذين كـانوا يأتمرون بأمر البابا. ثم مرت أوروبا بظروف عصر النهضة المعروفة فكان الانتقال - مع التطورات العلميـة والثـورة الصناعية - من العصور الوسطي إلي العصور الحديثة، من خلال الهزة الفكرية الكبري مع ظهور مارتن لوثر الذي أنشأ المذهب البروتستانتي، الذي يعتمد علي نصـوص الإنجيـل وحدها دون الممارسات والطقوس التـي اسـتنها البـابوات المتعاقبون.. ومن هنا جاءت تسمية -في مصر وفـي غيـر مصر- بالمذهب الانجيلي.

ومن وقتها وإلي الآن قامـت الكنيسـة الكاثوليكيـة بتطوير نفسها بسرعة من الداخل وفتحـت أبـواب الحـوار داخلها، وهكذا ظلت حتي الآن أكبر كتلة متماسكة من البشر المؤمنين بها في أربعة أركان الأرض، فانتشارها يمتد مـن


اليابان شرقا ثم إلي أمريكا الشمالية والجنوبية غربا علي حد سواء.

تختلف ظروف أمريكا اللاتينية تاريخيا عن ظروف كل من آسيا وإفريقيا والعالم العربي في نقطة البداية، فتلـك الأخيرة تمثل شعوبا وحضارات لها تاريخ قديم يعـود لآلاف السنين ،وبالذات في مواقع الحضارات الزراعية التي تكونت حول الأنهار في مصر وبين النهرين في العراق وبين الهنـد والصين، بينما يبدأ تاريخ أمريكا اللاتينية الحديث من نحـو خمسمائة عام، فقد كان اكتشافها في أكتوبر من عام ١٤٩٢، [ولا ننكر أنه كان لبعض شعوبها الأصلية حضارة، يعاد الآن اكتشافها ثم إحياؤها والاهتمام بها].

وكانت الفترة الأولي والتي تمتد لنحو ثلاثمائة عـام هي فترة الاستيطان الأولي المقرونة بالتبشير مـع اسـتخدام العنف والقهر، فارتبطت هذه الفترة في أذهان المسـتوطنين بقهر استعماري من إسبانيا بالذات، تدعمه الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية والتي كانت تبشر لكـي ترسـي قواعـد الحكـم الاستيطاني. ومع مطلع القرن التاسع عشر اسـتقلت حركـة الاستيطان، وضمرت تدريجيا العلاقات بين كل من إسـبانيا



أي الكنيسة الكاثوليكية علي الجانب الأوروبي للأطلسي وبين الهياكل الاجتماعية والسياسية والكنيسة المحلية التي تبلورت واستقرت في معظم دول أمريكا اللاتينية، إلي أن جاء عـام ١٨٨٠ فتبلورت أكثر السلطة السياسية في اتجـاهين تشـبها بأوروبا: التيار الأول اتجاه محافظ ويعبر أساسا عن طبقـة ملاك الأراضي الزراعية المسماة وفق الأدبيـات السياسـية بعبارة الأولجاركية Oligarchies. أما التيار الثـاني فهـو ليبرالي صاعد يعبر عن قوي تتكون وتتبلـور. واختـارت الكنيسة أن تساند التيـار المحـافظ ممـا أثـار الليبـراليين والعلمانيين، فهاجموا موقف الكنيسة الرجعي. واستمر هـذا الصراع ينمو ويزداد مـع دخـول الصـناعة فـي أوائـل الثلاثينيات في القرن العشرين، فغزت الصناعة بلادانا كثيرة منها المكسيك والبرازيل والأرجنتين وكولومبيـا وتشـيلي. وهكذا احتلت الطبقات الرأسمالية موقع الصدارة عوضا عن طبقة ملاك الأراضي واتسع نفوذ الطبقة الوسـطي ونشـأت حركة نقابية للطبقة العاملة في كل قطر علي مستوي القـارة كلها، وقد أوجد كل ذلك حالـة مـن الحـراك الاجتمـاعي والصراع بين الجديد والقديم.

بعد الحرب العالمية الثانية ولسنـ ـوات طويلة كان ذروتها عام ١٩٦٨ قررت الكنيسة الكاثوليكية فـ ـي معظم دول أمريكا اللاتينية إعادة بناء نفسها تحت شعار المسـيحية الجديدة، فقطعت الكنيسة تحالفها مـع طبقـة كبـار مـلاك الأراضـ ـي الزراعية المسماة بـالأولجاركية Oligarchy كما سبـ ـق توصيفهـ ـ ـا، ودخلت في تحالف مع الفئات الصاعدة وهي التي سميت وفق أدبيات هـ ـذه الحقبة أيضا بـالبرجوازية الوطنية المرتبطة بالتنمية والفكـر الليبرالـي وصولا إلي الفكر الاشتراكي. وشهدت هذه الفتـرة إنشـاء الجامعات الكاثوليكية والأحـزاب المسـماة بـ ـ المسـيحية الديمقراطيـة Christian - Democrats والمنظمـات المسيحية - غير الحكومية - التي تعمل تحت شـعار رقـي مستوي المعيشة وترقية أحوال البشر.

كما تم إنشـاء مجلـس رؤسـاء أسـاقفة الكنيسـة الكاثوليكية علي مستوي القـارة كلهـا فصـار نوعـا مـن الاستقلال لأمريكا اللاتينية عن الفاتيكان في روما. ويعتبـر مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية الذي انعقد في مدينـة مـادلين عام ١٩٦٨ ذروة التجديد، ولعله البداية الفعلية لحركة لاهوت

التحرير Theology Liberation حيث كانت المصالحة أو المزج أو التلقيح الفكري بين الكثلكة وبين الماركسية وهمـا نقيضان واضحـ ـان، فالكثلكة دين قديم راسخ له دوجمـا وكهنوت، والثانية أيديولوجية جديدة ثورية ولكنها مع الحكـم صـ ـارت وكأنهـ ـا دين كما سبق الذكر ومن ثم كـان التزاوج ممكنا.

لاهوت التحرير يتبلور:

في ذات الحقبة -التي تلت الحرب العالمية الثانيـة- شاهدت أمريكا اللاتينية كلها أوضـاع سياسـية وإقتصـادية جديدة فقد ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة مؤثرة لها وضع اقتصادي وسياسـي وعسـكري متفـوق، فتحولـت البرجوازية الوطنية في معظم دول أمريكا اللاتينية إلي مجرد وكلاء للشركات الأمريكية ومعبرين عن سياساتها، وضمرت الاتجاهات الليبرالية والإصلاحية وحلت الانقلابات العسكرية محلها، تحت مسمي دولة الأمن القومي، والتي قمعت كلا من التيارات الليبرالية والاشتراكية. وقد أوجد ذلك مأزقا للكنيسة الكاثوليكية: فإما أن تكون في خدمة النظام العسكري القابض والمهيمن، وإما أن تنحاز للقوي الشعبية وتقاوم الدولة.

ومن خلال مخاض صعب بلورت الكاثوليكيـة فـي أمريكا اللاتينية ما أسمي البـديل الثالـث$ لكـي تضـمن الاستقلال في التوجه عن مخططـات المسـيحية المرتبطـة بالسلطة وإعادة بنـاء الكنيسـة بالتضـامن مـع الطبقـات المطحونة. وفي هذا المناخ ولد لاهوت التحرير.

وسوف أكتفي هنا ببعض العبارات المختارة والتـي وردت في سياق كتاب لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية - نشأته - تطوره - مضمونه - للأب وليم سيدهم اليسـوعي المصري، والصادر عن دار المشرق ببيروت عـام ١٩٩٣، لكي نوضح التزاوج الفكري الذي يتجاوز المصـالحة بـين الكثلكة والماركسية، وهذه العبارات المختارة هي:

* اللاهوت هو العلم الذي يبحث في جميع المواضـيع مـن وجهة نظر ا سواء كانت هذه الموضوعات عـن ا ذاته أو كانت تفترض وجود ا كمبدأ وغايـة، ولـذا فاللاهوت يبحث في سلوك البشر ليتعرف مدي تطابقها مع تدبير ا الخلاق.

* ليس اللاهوت مجرد معرفة علمية، بأكبر قدر ممكن، بل هو موقف عملي برجماتي لخدمة شعب مسحوق قبل أن يكون خدمة لساطة كنسية.
* إن التحرير يبغي تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لما فيه مصلحة جميع طبقات المجتمع، والعمـل علـي عدم احتكار طبقة لفوائد اجتماعيـة واقتصـادية علـي حساب طبقة أخري، ومن خلال ذلك تتحقـق الأخـوة الإنسانية المبنية علي الإيمان المشترك.
* الكاهن يتضامن مع الفقراء بدلا من كونه ممثلا للسـلطة الكنسية ومدافعا عن العقيدة،$ ومن ثم يعمل علي تغيير الواقع من خلال التنديد بالظلم الذي تمارسـه البشـارة التقليدية، ليصبح التوجه الايماني في الوقت نفسه توجها من أجل العدالة.
* ينبغي تفهم واقع أمريكا اللاتينية تفهما صحيحا يقوم علي الدراسة والتحليل بمساعدة العلوم الاجتماعية بما فيهـا من تيارات منها المادية التاريخية.
* تكون الأولوية للعلوم المتعلقة بالإنسـان لتسـبق العلـوم المتعلقة بالكنيسة والتي لايمكن أن تؤدي وظيفتها الفعلية

دون تحرير الإنسان في أمريكا اللاتينيـة، فهـذا هـو مفهوم الإنجيل الخلاق والمحرر.

* الظرف الحالي لأمريكا اللاتينية يحتاج لتطوير المؤسسات الكنسية، وكذلك تطوير فهمها للإنجيل بطريقة جديـدة تتماشي مع التغيرات التاريخيـة، لأن العقيـدة جامـدة بطبعها وتدافع عن المؤسسات القائمة وتبرر وجودها.
* إن الخلاص لايقتصر علي التحول الذاتي للفرد، بل هناك ظواهر اجتماعية مرتبطة به، مثل وجود فئات عريضة من البشر ليس لها صوت مسموع وتفتقر إلـي أبسـط الحقوق في مجالات التعليم والسكن.
* ضرورة اشتراك الآخرين في الخبـرات والاحتياجـات الضرورية للحياة علي الأرض كما ورد في سفر أعمال الرسل (٢/٤٤): وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة يجعلون كل شيء مشتركا بينهم. وكذلك في ذات السفر (٤/٣٢): وكان جماعة الذين آمنوا قلبا واحـدا ونفسـا واحدة ولايقول أحد إنه يملك شيئا من أمواله بل كـان كل شيء مشتركا بينهم.

* الاعتراف بأن الوضع في أمريكا اللاتينيـة يعبـر عـن اللاعدالة، وتبدو فيه القارة وكأنها سجن كبير يرتبط فيه التخلف بكل وجوهه ارتباطا بنيويا عضويا باللاعدالـة، ولهذا السبب فإن الموقف يتطلب بالفعل تحريرا مسيحيا أصيلا وكاملا.

* الحب الشامل - في مفهوم لاهوت التحرير - هو الـذي بتضامنه مع الكادحين، يعمل علي تحرير الطغاة أيضا من طغيانهم ومن تطلعاتهم المريضة ومـن أنـانيتهم، وبذلك يتم تحرير الفقراء وتحرير الأغنياء في الوقـت نفسه. نحن نحب المقهور، وبدفاعنا عنه يتحـرر مـن أغلال القهر، أما الطاغي فنحن نحبه بتوجيه النقد إليـه ومحاربة طغيانه، فكلا الموقفين نابع من محبة مسيحية تشمل الجميع.(*)

(*) ولعل هذا ينسجم مع الفكر الإسلامي من خلال الحديث الشـريف " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" قالوا يا رسول ا ، ننصهر مظلوما فكيف ننصره ظالما، قال " صلى ا عليه وسلم" أنـك إن تقـاوم طغيانه وتعدله عن شره فقد نصرته علـى شـيطانه" .. فالحـب والعدل كلها قيم تدعوا لها كل الـديانات.. لأنهـا قـيم إنسـانية " المؤلف".

***

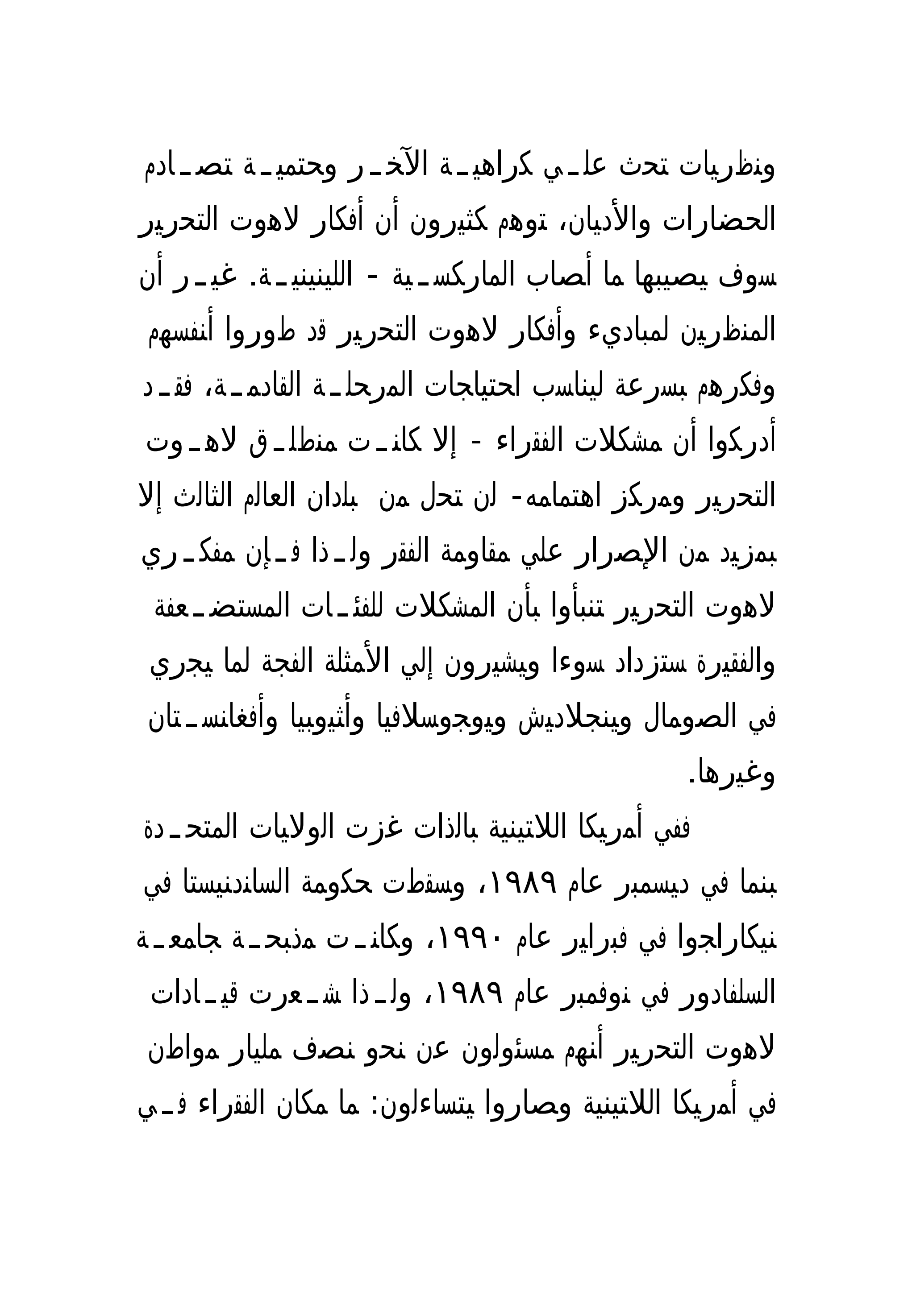
هذه بعض المقتطفات التي توضح الالتحام العضوي بين الإيمان والروحانيات من جانب وبين التطور الاقتصادي ومقاومة الفقر من جانب آخر، وكانت الذروة في هذا النقاش الفكري - الذي كان أحيانا سجالا حادا وشديدا - حول هذه المباديء الجديدة للإيمان، هو تلك الرسالة التي كتبها فـي ٨ ديسمبر ١٩٨٠ بيدرو أروبيه- رئيس عام الرهبانية اليسوعية -عقب أن احتدم الحوار داخل هذه الرهبانية- والتي صارت تحمل توجها يساريا داخل رهبانيات الكنيسة الكاثوليكيـة - ووجهها تحديدا إلي رؤساء الأقاليم اليسوعيين فـي أمريكـا اللاتينية لكي يجيب عن السؤال المطـروح: هـل يسـتطيع المسيحي أن يتبني التحليل الماركسي؟ فبعد استعراض فلسفي فكري يوفق بين وجهات النظر المختلفة ويقـدم ملاحظـات أربع مهمة وينهي رسالته - وكأنه يقرأ المسـتقبل - كتـب يقول: وختاما فأنا علي يقين بأن موقف التحليل الماركسي من المحتمل أن يتبدل هنا أو هناك في المستقبل، فضلا عـن أن هناك مجالات للدراسات النظرية والأبحاث التجريبية حـول المسائل المختلفة التي تناولتها هنا.. وأن تساعدوا بوجه عام

كل أعضاء رهبانيتنا، بمن فيهم من مسيحيين أطلقـوا علـي أنفسهم صفة المسيحيين الماركسيين والذين بسبب احتيـاجهم الي تحليل المجتمع لايمكـنهم أن يتفـادوا مسـألة التحليـل الماركسي، فهكذا نستطيع العمل بطريقة أفضل علي تعزيـز العدالة التي يجب أن ترافق خدمتنا في سبيل الإيمان (انتهـي النص).

ومن هذه النصوص المختارة والتي تعتبـر تجسـيدا للتزاوج بين الكثلكة والماركسية، وبمعني آخر التلقيح الثقافي بين دين محافظ قديم عمره عشرون قرنا وأيديولوجية ثورية حديثة، رغبت في أن أقول لقراء العربية، لـيس المطلـوب تقليدها وإنما قدمتها لتكون حافزا لأهل الفكر علي صـياغة معبرة عن تلقيح ثقافي جديد يناسب المنطقة العربية في إطار المتغيرات الدولية خصوصا بعد ان ظهر لاهـوت تحريـر أفريقي أشرنا إليه في السابق لاهوت تحرير آسيوي قد ظهر مؤخرا.

من لاهوت التحرير إلي لاهوت الحياة:

في السنوات القليلة الماضية، ومنذ أن أعلنت أمريكا أننا بصدد نظام عالمي جديد، ومع ظهور دراسات وبحـوث


ونظريات تحث علـي كراهيـة الآخـر وحتميـة تصـادم الحضارات والأديان، توهم كثيرون أن أفكار لاهوت التحرير سوف يصيبها ما أصاب الماركسـية - اللينينيـة. غيـر أن المنظرين لمباديء وأفكار لاهوت التحرير قد طوروا أنفسهم وفكرهم بسرعة ليناسب احتياجات المرحلـة القادمـة، فقـد أدركوا أن مشكلات الفقراء - إلا كانـت منطلـق لاهـوت التحرير ومركز اهتمامه- لن تحل من بلدان العالم الثالث إلا بمزيد من الإصرار علي مقاومة الفقر ولـذا فـإن مفكـري لاهوت التحرير تنبأوا بأن المشكلات للفئـات المستضـعفة والفقيرة ستزداد سوءا ويشيرون إلي الأمثلة الفجة لما يجري في الصومال وبنجلاديش ويوجوسلافيا وأثيوبيا وأفغانسـتان وغيرها.

ففي أمريكا اللاتينية بالذات غزت الولايات المتحـدة بنما في ديسمبر عام ١٩٨٩، وسقطت حكومة الساندنيستا في نيكاراجوا في فبراير عام ١٩٩٠، وكانـت مذبحـة جامعـة السلفادور في نوفمبر عام ١٩٨٩، ولـذا شـعرت قيـادات لاهوت التحرير أنهم مسئولون عن نحو نصف مليار مواطن في أمريكا اللاتينية وصاروا يتساءلون: ما مكان الفقراء فـي

النظام العالمي الجديد؟ ومن هنا ظهر مفهـوم جديـد عـن الثوابت والمتغيرات في هذه الحقبة من تاريخ العـالم وردت في نص العبارات التالية:

* كانت أولي الثوابت التـي اتفقـوا عليهـا هـي استمرار مبدأ المشاركة، لأن تلك كانت البذرة والنبتة التـي أخرجت لاهوت التحرير من فكر لاهوتي نظري مجرد إلـي الجماعات المسيحية القاعدية، الملتحمة مع الفقراء فـالتحرير لم يكن موضوعا لاهوتيا نظريا بل كان فعلا تحريريا يقـوم علي إبراز عمل ا   في الفقراء ويسعي مـن أجـل العدالـة الاجتماعية الغائبة في دول أمريكا اللاتينية بـل وفـي دول العالم الثالث.

* وكان المبدأ الثابت الثاني هو الممارسـة والتـي تكتب باللاتيني 'PRAXISس المقصود بها تناول لاهـوت التحرير ليس من منظور عقائدي تأملي بل من منطلق تراكم الخبرة العملية التي يقوم بها الإنسان المؤمن لمقاومة القهـر في اتجاه التحرير.

* أما المتغيرات فهي أن مفاهيم تحريـر الإنسـان التي تسعي لتلبية الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية وحتي

السياسية، قد صارت غير كافية في ظروف العـالم الجديـد بسبب التلوث البيئي ونزيف إهدار الموارد الطبيعية، ومـن ثم، فأمان كوكب الأرض واستمرار الحياة قد صارا في موقع متقدم، أي أن لاهوت التحرير يتطور ليكون لاهوت الحيـاة. ويحتاج هذا التحول الجديد في المفاهيم إلـي إبـداع ثقـافي وأخلاقي بل وإلي روحانية جديدة، وهذا هو جوهر لاهـوت التحرير.

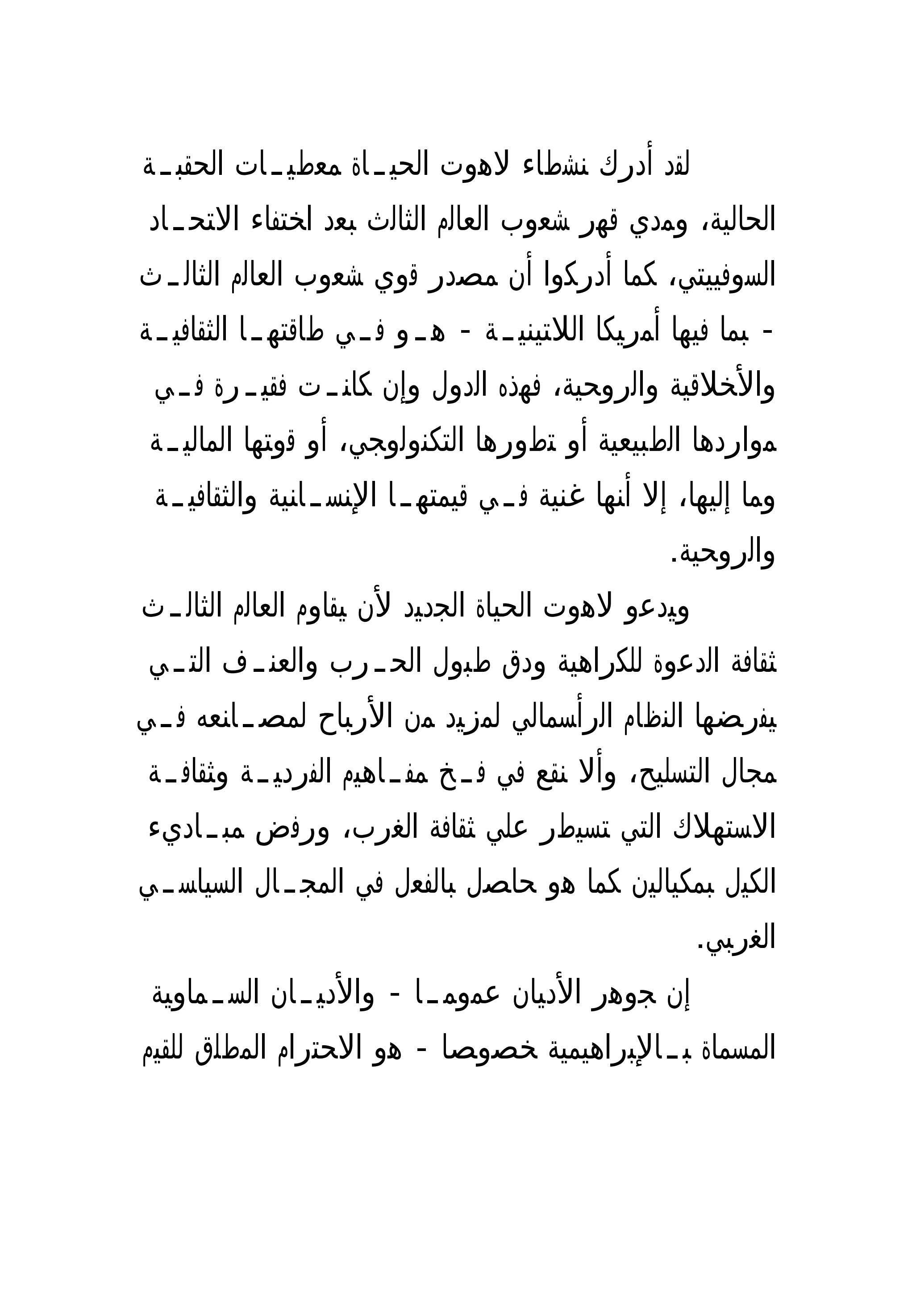
* ومن المتغيرات أيضا تطوير مفهوم الفقراء والذي كان في الأساس الطبقة البروليتارية فأصبح عموم المقهورين أي ليس المستغلين اقتصاديا فحسب، وقد امتد مفهوم الفقراء ليشمل الشعوب التي فقدت هويتهـا مثـل: الهنـود الحمـر والفلسطينيين وضحايا التفرقة العنصرية، مثل: السـود فـي أمريكا ونساء العالم الثالث المستغلات اقتصاديا ونفسيا وحتي جنسيا.!!

* وفي هذا الإطار، يدق لاهـوت الحيـاة بوضـعه الجديد، ناقوس الخطر لظاهرة التخلص من الفائض البشـري الفقير، وكيف أن فرق الموت في دول مثل كولومبيا، تحصد البشر بهدف تنظيف المدن من هذا الفائض البشري، ويسجل

مافي تقارير منظمة العفو الدولية من حوادث قتـل الأطفـال والشحاذين المتسولين والعاهرات الغانيات، والشواذ جنسـيا والعاطلين الذين لامأوي لهم تحت مقولة تنظيـف الشـوارع منهم، وماحدث في بعض المدن الأخري مثل سان دومينجـو حيث تخلصت الحكومة من الفقراء بنقلهم الي مناطق بعيـدة خلف الروابي حتي تحجب رؤيـتهم عـن عيـون النـاس المحترمين.!!

***

ولأن الشئ بالشئ يذكر، أتذكر ماقـام بـه وزيـر الإسكان في منطقة الإسكان الشعبي في حي القطامية بإبعـاد الفقراء بمساكنهم حتي لايجرح مشاعر الأثريـاء فـي حـي الجولف حسبما جاء في تقارير صحفية فـي جريـدة الوفـد المصرية عام ١٩٩٧، وعرض هذا الأمـر علـي مجلـس الشعب، ولكن المناقشة لم تسفر عن شيء بل ظل الوزير في موقعه ونفوذه في ازدياد لأنه قد صار مفرق الأرزاق لأنـه يتحكم في أهم مورد طبيعي في مصر وهو الأرض الصالحة للبناء وبيع الصحراء.



لقد أدرك نشطاء لاهوت الحيـاة معطيـات الحقبـة الحالية، ومدي قهر شعوب العالم الثالث بعد اختفاء الاتحـاد السوفييتي، كما أدركوا أن مصدر قوي شعوب العالم الثالـث - بما فيها أمريكا اللاتينيـة - هـو فـي طاقتهـا الثقافيـة والأخلاقية والروحية، فهذه الدول وإن كانـت فقيـرة فـي مواردها الطبيعية أو تطورها التكنولوجي، أو قوتها الماليـة وما إليها، إلا أنها غنية فـي قيمتهـا الإنسـانية والثقافيـة والروحية.

ويدعو لاهوت الحياة الجديد لأن يقاوم العالم الثالـث ثقافة الدعوة للكراهية ودق طبول الحـرب والعنـف التـي يفرضها النظام الرأسمالي لمزيد من الأرباح لمصـانعه فـي مجال التسليح، وألا نقع في فـخ مفـاهيم الفرديـة وثقافـة الاستهلاك التي تسيطر علي ثقافة الغرب، ورفض مبـاديء الكيل بمكيالين كما هو حاصل بالفعل في المجـال السياسـي الغربي.

إن جوهر الأديان عمومـا - والأديـان السـماوية المسماة بـالإبراهيمية خصوصا - هو الاحترام المطلق للقيم

الإنسانية الرفيعة وصولا إلي عالم تسوده المحبـة والوئـام والعدالة.

وما محاولة الأفكار الواردة في هذا الكتـاب ونشـر ثقافة قبول الآخر إلا اقتناع مني بأننا في مصر - باعتبارنـا جزءا من العالم الثالث - ومانملك من امتداد لحضارة قديمة مرتبطة بالقيم الروحية والأخلاقية بصور مختلفة، قـادرون علي نشر مفاهيم جديدة تناسب العصر قد تنمو وتمتد لتجـد موقفا بين المثقفين المنصفين في كل بلاد العالم، لأن أحدا منا لايحتكر الحكمة وحده، ولأنه ليس لفرد فضل في أنه قد ولد منتميا للحضارة الغربية أو لدين أو مذهب معين، ومن هنـا كانت الدعوة للانتماء الي الإنسانية جمعاء وهو الأمر الـذي نقدم نهجه في الفصل القادم.



لقد رغبت في أن أقدم لقراء العربية خبرة مفكـري الكثلكة في أمريكا اللاتينية، والذين ربطـوا القـيم الدينيـة بمفاهيم ومباديء العدالة الاجتماعية، فظهر لون جديـد مـن الفكر الإنساني ساهم في تطوير أمريكا اللاتينية، وها هي ذي تسير في طريق المشاركة من خلال حركة جمعيات تطوعية

شعبية أهلية، ساهمت في حل مشكلات الفقـراء الـي حـد معقول، وياليتنا نصل في بلادنا العربية إلـي نسـق فكـري مماثل... ويبقي أخيرا أن أدعو - في بلادي مصـر - إلـي دراسة بعض التجارب الفريدة في العمل الأهلي والتي تحمل مذاق لاهوت الحياة وإن كانت بنكهة مصرية، وتفـتح بـاب الأمل في إمكان تقديم تجربة متكاملة، نظرية وعملية لتفيـد منها الإنسانية جمعاء.

إن البارز هنا بصـفة خاصـة تجربـة الماركسـي المتأجج حماسة وتواضعا د.أحمد عبدا رزه(*) الـذي ولـد ونشأ في حي عين الصيرة الشعبي بالقاهرة، ثم عاد إليه بعد أن تعلم في إنجلترا واحتك بالحضارة الغربية. عنـدما عـاد قامت بينه وبين جماعة السلام والعدالة الكاثوليكيـة علاقـة

(*) د. أحمد عبد ا رزه كان أحد قيادات الحركة الطلابية في جامعـة القاهرة في أوائل السبعينيات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ وسـافر إلى انجلترا وحصل علـى الـدكتوراه فـي العلـوم السياسـية والاجتماعية ولكنه عاطل دون عمل بسبب تعسف السلطة لموقفه وفكره السياسي والإنساني ،ومازال يعيش في المنطقة ذاتها وفي المسكن البسيط نفسه حيث تربي، تعبيرا عـن نفسـية معطـاءة ومضحية بحب.

قبول فكري وتصارع متسامح، كان من نتيجتها، ومن نتيجة احتكاك أحمد بالماركسيين والإسلاميين والشيوعيين في الحي، إنشاء مركز خاص للتنمية المحلية والبيئية أصبح حديث الناس، بالقيم التي ينهض عليها وبما يحاول أن يقدمه للأطفال من خدمات في الحي الفقير، وقد سمعته يستشهد بهذه العبارة: [قال فيدل كاسترو بعد الثورة حقا إن من يخون الفقراء يخون المسيح].

***

في كتاب فيدل كاسترو والدين الذي يضم حوارات بين كاسترو والراهب الدومنيكاني البرازيلي فراي بيتو (ترجمة حامد جامع ومراجعة د. عبدالرحمن عبدا وقد عرض في الأهالي عدد ١٥ نوفمبر عام ١٩٨٩) نجد معاني مبهرة. فالراهب يقول: أمريكا الجنوبية لاتنقسم الي مسيحيين وماركسيين بل إلي ثوريين وحلفاء لقوي القهر، ويرد كاسترو: أنا واثق بأن نفس الأسس التي تحمل الثوار اليوم للاقدام علي التضحية هي التي حملت في الماضي الشهيد الذي مات في سبيل إيمانه الديني. ويقول بيتو: كل شيء يولد إضافة إلي الحياة، من إيماءة حب إلي ثورة اجتماعية تتفق

مع ترتيب ا   لكل شئ فالذين يناضلون مـن أجـل الحيـاة يندرجون في مشروع ا   حتي ولو كـانوا يفتقـرون إلـي الإيمان. ويقول راءول شقيق كاسترو: المبـاديء المسـيحية تمنح أملا في الخلاص والثورة تحققه. بينمـا يقـول فيـدل كاسترو في معرض حديثه إلـي القـس جيسـي جاسـون وآخرين: الثورة تطبق وصايا ا   . لقد ألغينا الشحاذة والقمار والمخدرات والبطالة والدعارة والتمييز.... وتعمل الراهبات المسيحيات جنبا الي جنب مع الشيوعيين في مركز الأطفـال بهافانا.. وقلت في التليفزيون مرارا عن الراهبـات: أولئـك شيوعيات نموذجيات.

إذ يعيد كاسترو ذلك يرد الراهب فراي بيتـو: فـي البرازيل... بقدر ما غزا الفقراء الكنيسة بقدر ما بدأ الرهبان والأساقفة الكاثوليك بالتحول إلي المسيحية!!.

ومن أقوال الراهب أيضا بالكتاب ذاتـه: وقبـل أن نخشي الماركسية لأنها تعلن نفسها إلحادية يجـب أن نسـأل أنفسنا أي مجتمع عادل أقمنا في هذا العـالم ويعلـن نفسـه مسيحيا؟.

ويقول كاسترو: لم أر تناقضا بين الأفكـار الثوريـة التي حملتها وبين أفكار ذلك الرمـز العظـيم المسـيح. إن شخصيته السامية كانت مألوفة لدي، وطالما استشهدت ببعض آياته في مقدمتها: وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقـب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلي ملكوت ا (متي ١٩:٢٤).

حقا ان فلسفة لاهوت التحرير قد أوجدت مناخا ثقافيا رائعا يجعل من الدين قوة دافعة لرفع الغبن عـن الضـعيف ويحقق عدالة اجتماعية علي أسس إنسانية وجدانية رائعة.

الجزء الثالث

سبتمبر الدامي وتعليق على ما حدث

إشارة

يتضمن هذا الجزء (الثالث) من كتاب" قبـول الآخـر " والذي ٱُختير له عنوان " سبتمبر الدامي وتعليـق علـى مـا حدث" ـ عددا من مقالات الدكتور مـيلاد حنـا المنشـورة بجريدتي الأهرام " المصـرية" والحيـاة " اللندنيـة" والتـي تضمنت تعليقاته على الحدث وتجليات الحدث ،وذلك باستثناء مقال واحد كان قد كُتب قبل تلك الأحـداث بأربعـة أشـهر تقريبا، حيث أخذ فيه الدكتور ميلاد حنا يحـذر مـن مغبـة انقطاع الحوار عن طريق قهر (الآخـر) وتجريـده مـن خصوصيته، وإلغاء وجوده الفاعل، على نحـو مـا يحـاول هانتنجتون تقنينه في بحثه.. والتنبيه إلى ما في ذلك من نتائج مدمرة للبشرية جمعاء،وهو ما حدث بالفعل!!

ورأينا – كذلك – أن يبدأ هذا الجـزء بـالحوار الـذي أجرته جريدة النهار – اللبنانية- حنان عـاد ، حيـث جـاء الحوار توطئة كاشفة لأبعاد شخص وفكر الدكتور ميلاد حنا، مفكرا أو إنسانًا.

"الناشر"

1

لو كانت السيادة لأوروبا لتحول مجرى التاريخ

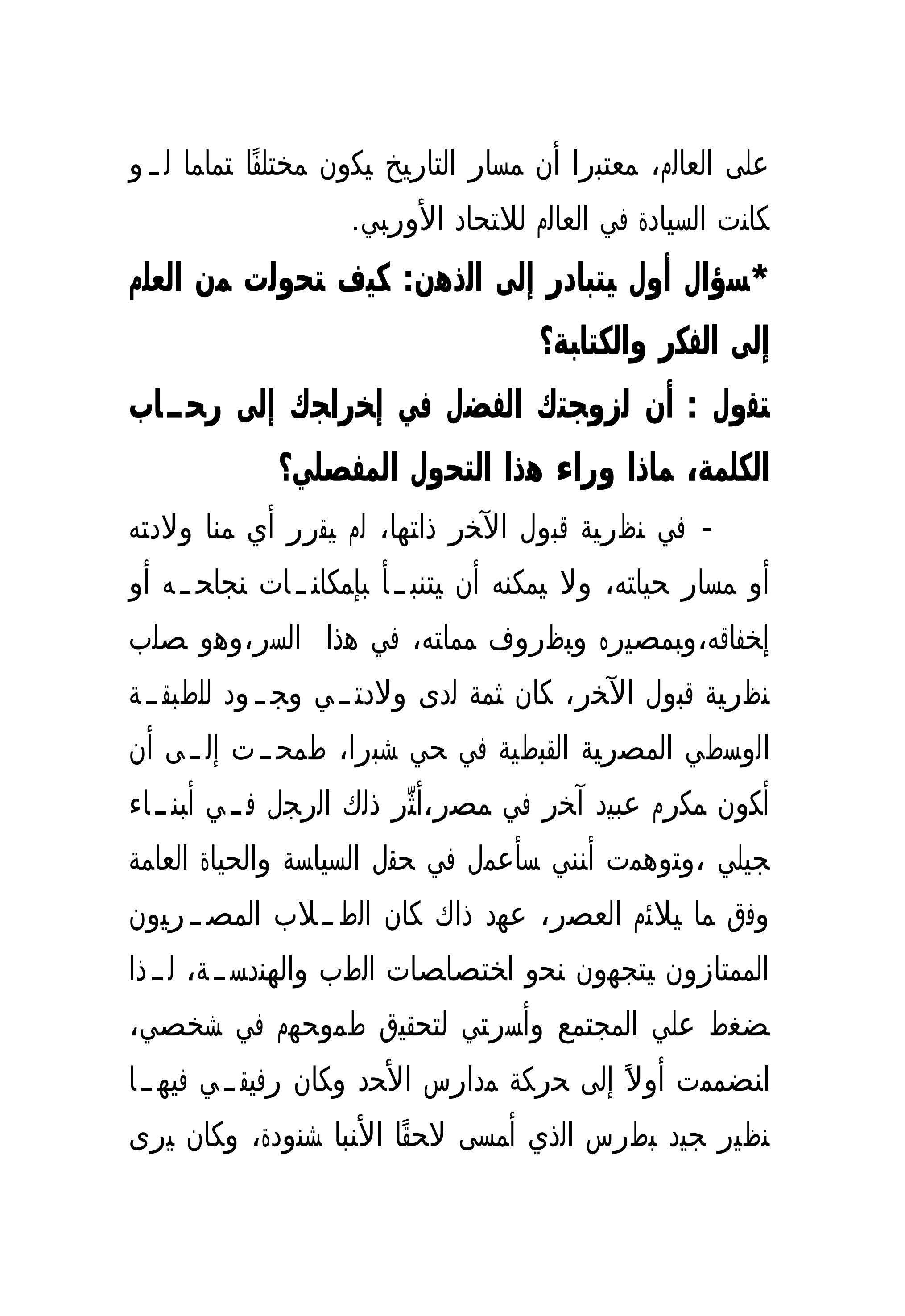
** غدا أكثر إشراقًا" عنوان يكتب تحته الدكتور مـيلاد حنا في جريدة " الأهرام"، و العبارة ليسـت مجـرد شـعار فارغ، بل التزام ثابت ونمط فكر، وحياة في مسـاره إنسـانًا وكاتبا.

مهندس يأتي عالم الكتابة محمولاً بأفكار ورؤى مؤمنـة بالإنسان كيانًا وجدانيا مفطورا على لقاء الآخـر، مصـري قبطي يجسد في مواقفه وكتاباته " أحد أسباب التسامح وقبول الآخر في مصر حيث مجتمع متعدد الأديان " بحسب المدير العام السابق لليونيسكو فيدريكو مايور، مما دفـع المنظمـة الدولية إلى منح الدكتور حنا جائزة سيمون بوليفار الدوليـة لعام ١٩٩٨ مناصفة مع الرئيس البرتغالي السابق والمناضل الاشتراكي الديمقراطي ماريو سوارش الذي ساهم في إدخال بلاده حقبة الديمقراطية.

وللدكتور ميلاد حنا المناضل من أجل ذهنية قبول الآخر كتابان : " الأعمدة السبعة للشخصية المصـرية" (نـال لـه جائزة بوليفار) و " قبول الآخر" الذي أعيد إصداره في مصر ثلاثًا ويترجم الآن إلى الإنكليزية، فضلاً عـن نيلـه جـائزة أفضل كتاب في مجال العلوم الاجتماعية في القـاهرة عـام ١٩٩٨.

ولا تخفى أمارات الرضا على وجه الرجل لدى الكـلام على أفكاره المقبولة في المجتمع المصري علـى اخـتلاف أديانه.. " ورغم أنني تخوفت بدءا من طرحي تلك المقولـة (قبول الآخر) فوجئت بأنها تلقى قبولاً لدى المسلم العـادي، كما بين الأقباط".

كان الدكتور حنا أحد أبـرز الأعـلام العربـي الـذين كرمتهم هذه السنة الحركـة الثقافيـة – انطليـاس ضـمن مهرجانها للكتاب،و في حوار مع " النهـار" يتحـدث عـن ظروف انتقاله من الهندسة إلى الكتابة، وعن شغفه بحقـوق الإنسان،وعن رؤيته إلى كيفية تصحيح الخلل المجتمعي الذي تعاني منه مصر اليوم، ويتطـرق إلـى نظريـة صـموئيل هانتينغتون القائمة على استمرار السيطرة الأميركية الأحادية



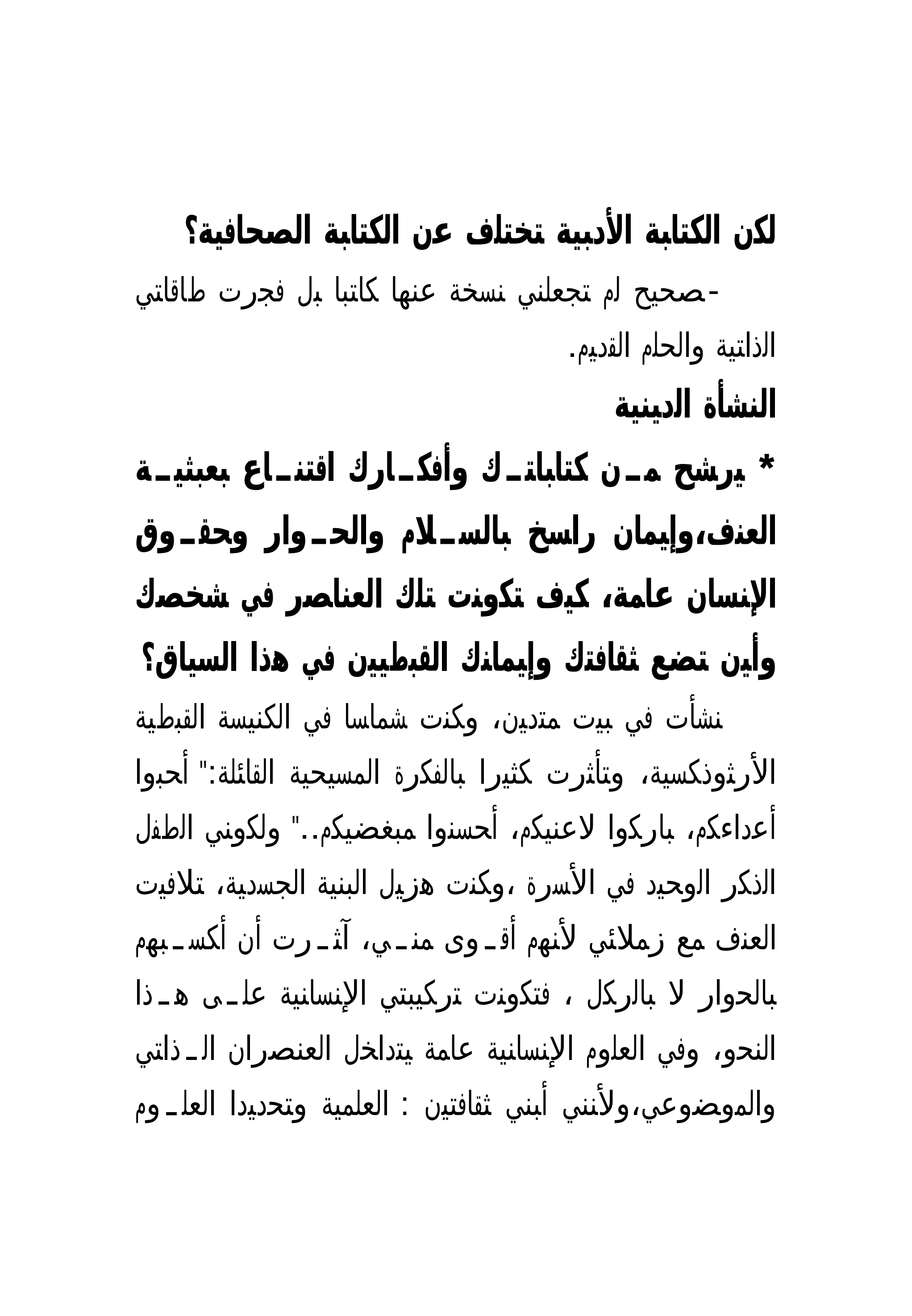
على العالم، معتبرا أن مسار التاريخ يكون مختلفًا تماما لـو كانت السيادة في العالم للاتحاد الأوربي.

***سؤال أول يتبادر إلى الذهن: كيف تحولت من العلم إلى الفكر والكتابة؟**

تقول : أن لزوجتك الفضل في إخراجك إلى رحـاب الكلمة، ماذا وراء هذا التحول المفصلي؟

- في نظرية قبول الآخر ذاتها، لم يقرر أي منا ولادته أو مسار حياته، ولا يمكنه أن يتنبـأ بإمكانـات نجاحـه أو إخفاقه،وبمصيره وبظروف مماته، في هذا السر،وهو صاب نظرية قبول الآخر، كان ثمة لدى ولادتـي وجـود للطبقـة الوسطي المصرية القبطية في حي شبرا، طمحـت إلـى أن أكون مكرم عبيد آخر في مصر،أثّر ذلك الرجل فـي أبنـاء جيلي ،وتوهمت أنني سأعمل في حقل السياسة والحياة العامة وفق ما يلائم العصر، عهد ذاك كان الطـلاب المصـريون الممتازون يتجهون نحو اختصاصات الطب والهندسـة، لـذا ضغط علي المجتمع وأسرتي لتحقيق طموحهم في شخصي، انضممت أولاً إلى حركة مدارس الأحد وكان رفيقـي فيهـا نظير جيد بطرس الذي أمسى لاحقًا الأنبا شنودة، وكان يرى

أن إصلاح حال الأقباط يأتي من خلال إصلاح وضع الإكليروس، فيما كنت أعتبر أن ذاك ثقافة المجتمع، دخلت كلية الهندسة وصرت أستاذًا مرموقًا ومهندسا معروفًا، لكن الحلم الكامن في لبث يراودني بين الحين والآخر،وحين تزوجت من الكاتبة والصحافية إيفلين رياض، تحول بيتنا إلى صالون ثقافي يلتقي فيه كُتاب ومفكرون أمثال يوسف إدريس (كان وزوجته أقرب الأصدقاء إلينا) وموسى صبري وعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف السباعي ولويس عوض،وراح بعضهم يحضني على الكتابة الصحافية، لكن إيفلين رياض لفتتني في رفق إلى أن ما كنت أكتبه قبلاً هو محاضرة عملية تصلح للجامعة وليس للرأي العام، عندئذ .. غيرت أسلوبي ليتلاءم والصحافة والكتابة والموجهة إلى المواطن العادي، واليوم تقول لي زوجتي: " علمناهم الشحادة سبقونا على الأبواب"،ولكنها كامرأة، فرحت بأنها صنعت كاتبا أكثر مما صنعت شهرتها الخاصة، من هنا ، حافظت على التوازن الأسري وساعدت في نجاحي أكثر من نجاحها في مجال العطاء الصحافي والأدبي.



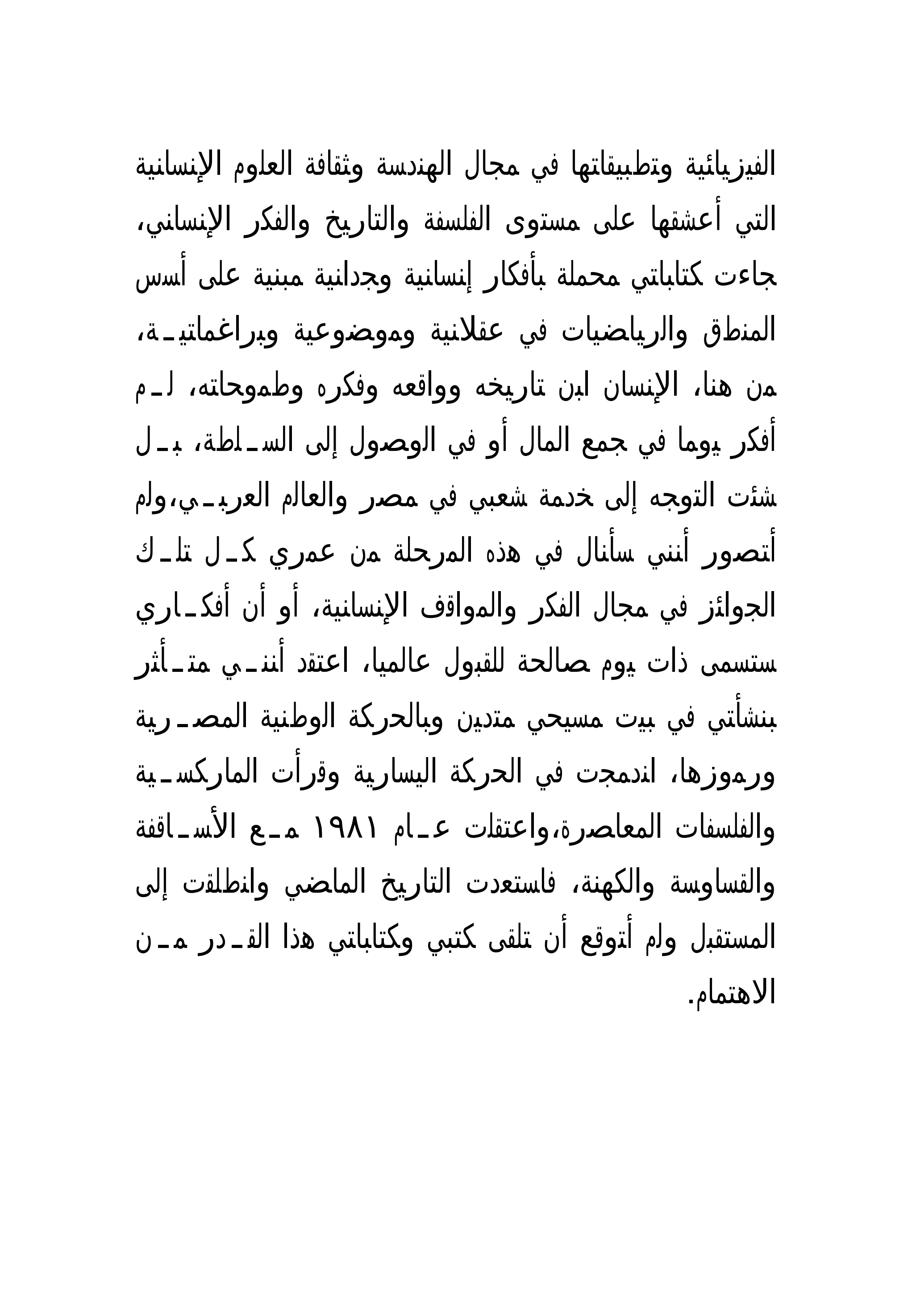
لكن الكتابة الأدبية تختلف عن الكتابة الصحافية؟

-صحيح لم تجعلني نسخة عنها كاتبا بل فجرت طاقاتي الذاتية والحلم القديم.

النشأة الدينية

*** يرشح مـن كتاباتـك وأفكـارك اقتنـاع بعبثيـة العنف،وإيمان راسخ بالسـلام والحـوار وحقـوق الإنسان عامة، كيف تكونت تلك العناصر في شخصك وأين تضع ثقافتك وإيمانك القبطيين في هذا السياق؟**

نشأت في بيت متدين، وكنت شماسا في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وتأثرت كثيرا بالفكرة المسيحية القائلة:" أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا مبغضيكم.." ولكوني الطفل الذكر الوحيد في الأسرة ،وكنت هزيل البنية الجسدية، تلافيت العنف مع زملائي لأنهم أقـوى منـي، آثـرت أن أكسـبهم بالحوار لا بالركل ، فتكونت تركيبتي الإنسانية علـى هـذا النحو، وفي العلوم الإنسانية عامة يتداخل العنصران الـذاتي والموضوعي،ولأنني أبني ثقافتين : العلمية وتحديدا العلـوم



الفيزيائية وتطبيقاتها في مجال الهندسة وثقافة العلوم الإنسانية التي أعشقها على مستوى الفلسفة والتاريخ والفكر الإنساني، جاءت كتاباتي محملة بأفكار إنسانية وجدانية مبنية على أسس المنطق والرياضيات في عقلانية وموضوعية وبراغماتيـة، من هنا، الإنسان ابن تاريخه وواقعه وفكره وطموحاته، لـم أفكر يوما في جمع المال أو في الوصول إلى السـلطة، بـل شئت التوجه إلى خدمة شعبي في مصر والعالم العربـي،ولم أتصور أنني سأنال في هذه المرحلة من عمري كـل تلـك الجوائز في مجال الفكر والمواقف الإنسانية، أو أن أفكـاري ستسمى ذات يوم صالحة للقبول عالميا، اعتقد أننـي متـأثر بنشأتي في بيت مسيحي متدين وبالحركة الوطنية المصـرية ورموزها، اندمجت في الحركة اليسارية وقرأت الماركسـية والفلسفات المعاصرة،واعتقلت عـام ١٩٨١ مـع الأسـاقفة والقساوسة والكهنة، فاستعدت التاريخ الماضي وانطلقت إلى المستقبل ولم أتوقع أن تلقى كتبي وكتاباتي هذا القـدر مـن الاهتمام.

***كتابك " أقباط لكن مصريون" شكّل ردا على ما قاله أنور السادات من أنه " رئيس مسلم لدولة مسلمة" كيف ترى واقع الأقباط المصريين اليوم؟**

شغلني الشأن القبطي طوال حياتي، ليس فقط من أجل حقوق متكافئة للأقباط في مصر، بل لإيماني بأن للثقافة المصرية ركيزتين: الأولى إسلامية مصرية، والثانية مسيحية قبطية أي مصرية، وهما قائمتان على رقائق من الحضارات الفرعونية القديمة، لذا، فإن تواجد الأقباط في مصر ليس مهما في ذاته، لكنه مهم في تكوين الشخصية المصرية، مصر من دون الأقباط تمسي مجتمعا آخر ولا أمل من تكرار القول أن في مصر إسلاما مصريا خاصا يتميز بأنه سنّي الوجه، شيعي الدماء(الفاطميون)، قبطي القلب والوجدان، فرعونّي العظام، ورغم أنني تخوفّت بدءا من طرحي تلك المقولة، فوجئت بأنها تلقى قبولاً لدى المسلم العادي، كما بين الأقباط.

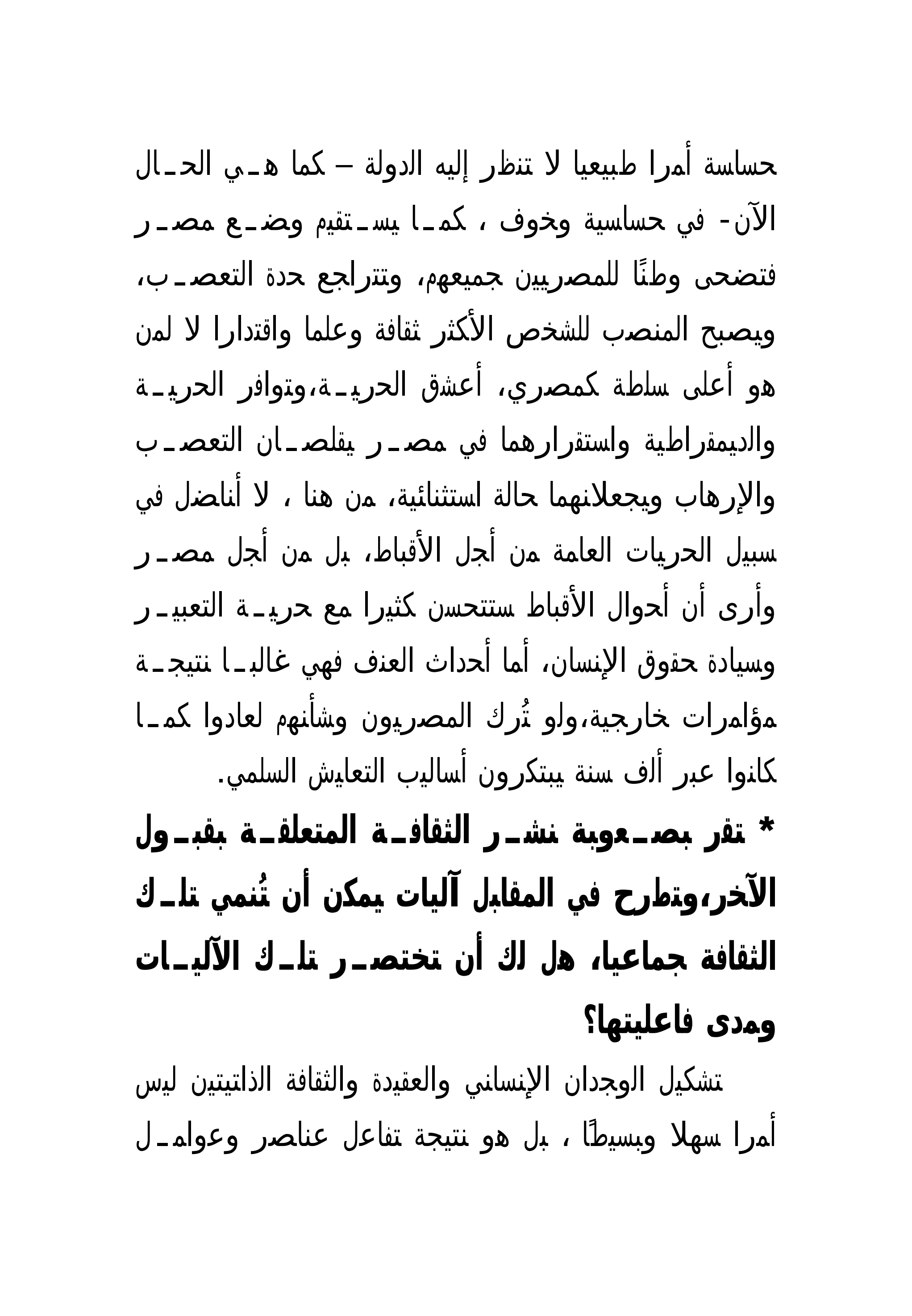


حقوق الأقليات

***كمصري أولاً وكقبطي ثانيا، كيف تقرأ التحركات الأصولية في مصر وسواها ألناحية أحداث العنف وسقوط الضحايا أو لناحية محاولات التضييق على حرية الفكر والتعبير وفتاوي إهدار الدم، والأمثلة كثيرة؟**

يعيش العالم اليوم في إطار حقوق الإنسان ويلاحظ أن بعض المفكرين يعالجون تلك الحقوق في سطحية، لناحية حصرها بالوظائف العامة والثروات والمكانة الاجتماعية وعدد المقاعد في مجلس النواب والوزراء، أما رأيي فهو أن القضية تتعلق بحقوق الأقليات واحتفاظها بخصوصياتها الثقافية، ثمة فرق بين أهمية الوحدة الوطنية، والحقوق المتساوية، أي أن يكون لكل أقلية – مهما صغر حجمها – الحق في الاحتفاظ بتراثها وخصوصياتها الثقافية لأن في ذلك ثراء للفكر الإنساني عامةً، للأقباط خصوصياتهم الثقافية المرتبطة بالتراث والتاريخ والأدب والعادات والعلاقات الإنسانية والتركيبة الإنسانية وسواها، ومن حقهم التمسك بتلك الخصوصيات ،والقول بعدم وجود الآخر هو نوع من

القهر الثقافي وطمس للخصوصية الثقافية التي تمنح مصـر نكهة ثقافية خاصة، لا يعنيني كثيرا أن يكون ثمـة محـافظ قبطي على أحد الأقاليم المصرية (في المحافظـات السـت والعشرين لا وجود لأي محافظ قبطي)، إنه أمر بسيط وعابر لأن المحافظ القبطي سيختار على الأرجـح وفقًـا لمعـايير السلطة، والأرجح أنه سيضطهد الأقباط كي يثبت للسلطة أنه غير متعصب لكن ما يهمني هـو أن تكـون الخصوصـية الثقافية القبطية معروفة لدى جميـع المـواطنين، مسـلمين وأقباط، الخلل الحالي الظاهري في العلاقات بـين الأقبـاط والمسلمين خلل ثقافي وليس وظيفي ، الخصوصية الثقافيـة الإسلامية معروفة في مصر راهنا من خلال التعليم والأعلام والمناخ العام لكل من الأقباط والمسلمين، أمـا الخصوصـية الثقافية القبطية (عاداتهم تـاريخهم، وثقـافتهم ، علاقـاتهم الداخلية...) فمعروفة لدى الأقباط فقـط، إذن، هنـا الخلـل المجتمعي الذي تعاني منه مصر اليوم، ولو تم إصلاحه مـن خلال التعليم والإعلام الرسميين فـإن الوضـع المجتمعـي يتصحح،وبالتالي، يأتي تعيين محـافظ أو وزيـر أو رئـيس جامعة أو قاضي محكمة كبيرة أو مسؤول في أجهزة رسمية

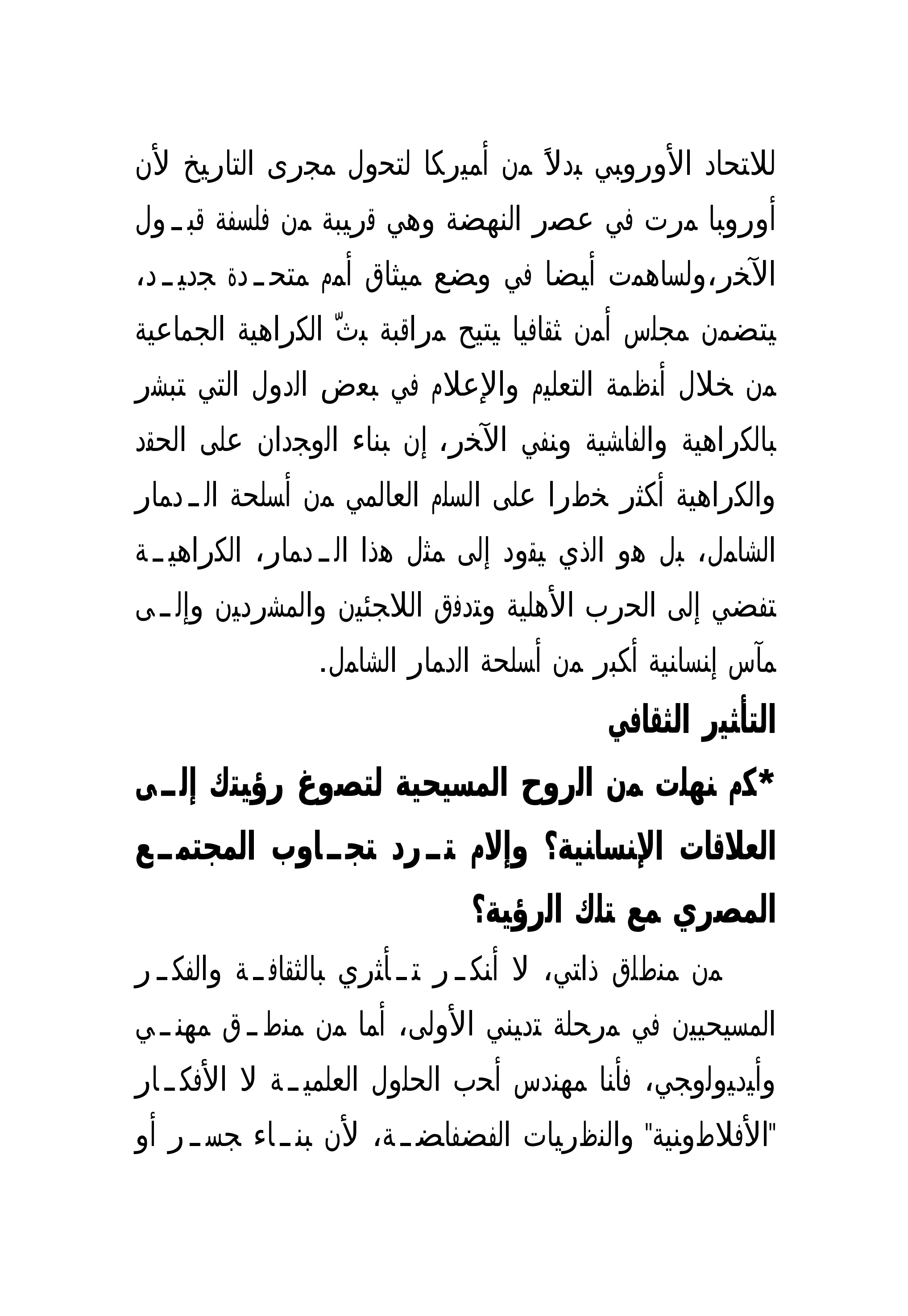


حساسة أمرا طبيعيا لا تنظر إليه الدولة – كما هـي الحـال الآن- في حساسية وخوف ، كمـا يسـتقيم وضـع مصـر فتضحى وطنًا للمصريين جميعهم، وتتراجع حدة التعصـب، ويصبح المنصب للشخص الأكثر ثقافة وعلما واقتدارا لا لمن هو أعلى سلطة كمصري، أعشق الحريـة،وتوافر الحريـة والديمقراطية واستقرارهما في مصـر يقلصـان التعصـب والإرهاب ويجعلانهما حالة استثنائية، من هنا ، لا أناضل في سبيل الحريات العامة من أجل الأقباط، بل من أجل مصـر وأرى أن أحوال الأقباط ستتحسن كثيرا مع حريـة التعبيـر وسيادة حقوق الإنسان، أما أحداث العنف فهي غالبـا نتيجـة مؤامرات خارجية،ولو تُرك المصريون وشأنهم لعادوا كمـا كانوا عبر ألف سنة يبتكرون أساليب التعايش السلمي.

*** تقر بصـعوبة نشـر الثقافـة المتعلقـة بقبـول الآخر،وتطرح في المقابل آليات يمكن أن تُنمي تلـك الثقافة جماعيا، هل لك أن تختصـر تلـك الآليـات ومدى فاعليتها؟**

تشكيل الوجدان الإنساني والعقيدة والثقافة الذاتيتين ليس أمرا سهلا وبسيطًا ، بل هو نتيجة تفاعل عناصر وعوامـل

كثيرة، أولها الأسرة التي لو كانت مثقفة وذات علم وانفتـاح لرضع الطفل قبول الآخر مع حليب أمه، ولو كانت متخلفـة ومتعصبة ومفككة، لنشأ مع جو من الخوف وخشية الآخـر، ثم يأتي دور التعليم، لو كانت الدولة حريصة علـى قبـول الآخر لسار التعليم في هـذا الاتجـاه ، ثالثًـا، يـأتي دور المؤسسات الإعلامية الكبرى كالإذاعة والتليفزيـون لأنهـا قادرة على صوغ الوجدان الوطني في اتجاه التنوع الثقـافي وقبول الآخر ونشر الخصوصـيات الثقافيـة، لا للأقليـات المحلية فحسب بل للأقليات في العالم كله، هذا الجو، يتكـون لدى المواطن إحساس بأن الحياة والجمال والرقي تكمن فـي تنوع الخصوصيات الثقافية، في حين أن الأحاديـة الثقافيـة تقود الفرد والجماعة إلى التعصب والفاشية من خلال كـره الآخر وإلقاء اللوم عليه واتهامه بمشكلات المجتمع الوضـع اليوم في غاية من الصعوبة لأن ثمة دولاً ذات سيادة داخلية على سياستها الثقافية وهيئة أمم متحدة يسيطر عليها قطـب واحد مقتنع بنظرية صموئيل هانتينغتون وفيهـا أن صـدام الحضارات أمر طبيعي تفيد منه أميركا لاسـتمرار سـيادتها قطبا واحدا في العالم ولو كانت السيادة فـي العـالم اليـوم



للاتحاد الأوروبي بدلاً من أميركا لتحول مجرى التاريخ لأن أوروبا مرت في عصر النهضة وهي قريبة من فلسفة قبـول الآخر،ولساهمت أيضا في وضع ميثاق أمم متحـدة جديـد، يتضمن مجلس أمن ثقافيا يتيح مراقبة بثّ الكراهية الجماعية من خلال أنظمة التعليم والإعلام في بعض الدول التي تبشر بالكراهية والفاشية ونفي الآخر، إن بناء الوجدان على الحقد والكراهية أكثر خطرا على السلم العالمي من أسلحة الـدمار الشامل، بل هو الذي يقود إلى مثل هذا الـدمار، الكراهيـة تفضي إلى الحرب الأهلية وتدفق اللاجئين والمشردين وإلـى مآس إنسانية أكبر من أسلحة الدمار الشامل.

التأثير الثقافي

*كم نهلت من الروح المسيحية لتصوغ رؤيتك إلـى العلاقات الإنسانية؟ وإلام تـرد تجـاوب المجتمـع المصري مع تلك الرؤية؟

من منطلق ذاتي، لا أنكـر تـأثري بالثقافـة والفكـر المسيحيين في مرحلة تديني الأولى، أما من منطـق مهنـي وأيديولوجي، فأنا مهندس أحب الحلول العلميـة لا الأفكـار "الأفلاطونية" والنظريات الفضفاضـة، لأن بنـاء جسـر أو

عمارة كبيرة ليس أمرا خياليا أو شعريا، وإلا سقط الجسر أو تهدمت العمارة، من هنا، فإنني أدرك طبيعة الصراعات فـي الحياة والمصالح بين الشعوب والشركات العملاقة، والتوازن السياسي والعسكري في العالم، لكنني أضيف إلى العناصـر المعروفة المؤثرة في السياسة (الاقتصاد والقوة العسـكرية والتأثير الديموغرافي) بعدا آخر هو التأثير الثقافي وأرى أنه سيكون الأهم في المرحلة المقبلة.

*** هلا أوضحت قراءتك لرؤيـة المفكـر الأميركـي الأصل صموئيل هانتينغتون في ما يتعلق بـ "صراع الثقافات" و"صدام الحضارات"؟**

عندما قرأت نظريته وجدته أنه صريح وواضح، يقـر بأن المؤسسة التي يترأسها في هارفرد ممولة مـن أجهـزة حكومية تبحث في نظام الأمن الأميركي، أي أن الهدف مـن دراساته ليس أفكارا إنسانية مجردة، بل العمل علـى تـأمين سيادة أميركا لأطول وقت ممكن، عبر نكء جروح تاريخيـة قديمة مثل الحروب الصليبية والخلافـات بـين الكاثوليـك والبروتستانت والخلافات المذهبية القديمة بين السنّة والشيعة، وسواها، وينتج من ذلك تضخم الكراهية وحروب أهلية أتاحت لأميركا التدخل العسكري والنفوذ السياسي والاقتصادي، لـذا يعتبر هانتينغتون أنه لو كانت الثقافة الأوربية هـي القطـب الأوحد لاختلف وضع الصراع العالمي، ولعبر العالم الحقبـة الحالية بجروح أقل ومعاناة بشرية أقل بكثيـر مـن الواقـع الراهن.

***تتحدث في " قبول الآخـر " عـن لقـاء الكثلكـة بالماركسية بديلاً ثالثًا وجدته أميركا اللاتينيـة،كيف**

تحال نقاط اللقاء بينهما؟ وماذا تقصـد بقولـك أن لاهوت التحرير يتطور ليكون لاهوت الحياة؟

يثبت التاريخ أن لا حقيقة واحدة مطلقـة فـي الحيـاة المسيحية جاءت كبديل من اليهودية لكن الأخيرة اسـتمرت، وجاء الإسلام مبشرا كبديل من المسيحية واستمرت المسيحية ثم ولدت البروتسـانتية مـن رحـم الكاثوليكيـة، وبقيـت الكاثوليكية، استنادا إلى تلك الحقائق، فإن الأمثولة الواجـب الاتعاظ بها تقول بقبول الآخر، إذ لا أحد يملك الحقيقة الكاملة المطلقة، ومن هنا انبهاري بتجربة أميركا اللاتينية حيث أفلح الرهبان الكاثوليك الذين ناضلوا من أجل التحـرر الـوطني ومناهضة الفقر في خلق شيء جديد رائع لا هو بالكاثوليكية الخالصة التقليدية ولا بالماركسية الكاملة، لذا طرحـت فـي كتاباتي أن التحدي الذي يقف أمامه مفكرو العـالم العربـي يكمن في إيجاد نمـاذج فكريـة للـديانات السـائدة تـتلاءم ومتطلبات العصر، المسيحية في الشرق استطاعت أن تعيش في كنف الإسلام وتتطور وتضحى معاصرة، وفي الإسـلام اجتهادات كثيرة تأثرت بالحضارة المسيحية المشـرقية، إذن، كانت ثمة اجتهادات إبداعية في خلق أرضية مشتركة مكّنت

المسيحية من استمرار التعايش مع الإسلام في دول شـرقية عدة، وعشت هذا النموذج شخصيا، مما دفعني إلـى تقـديم نظرية لقبول الآخر نابعة من الشرق العربي المبنـي علـى الوجدان الإنساني، في مواجهة نظرية صموئيل هـانتينغتون، أي القائمة على المصالح الاقتصادية وسيطرة الدول الكبرى على أقطار العالم،ونظريتي مجـرد محاولـة مـن مـواطن مصري بسيط في المرحلة الأخيرة من العمر يطرح نصيحة ورؤية وجدانية عملية لمفكري العالم العربي،ولعلنا نسـتطيع من خلال الحوار والنقد أن نطورها وندفع بها إلـى العـالم بديلاً من النظريات المادية الجافة، أي النظريات التي لا تعي أن الإنسان مشاعر ووجدان قبل أن يكون آلة تأكل وتشـرب وتلهو وتتلاذذ ،وإن كان الغرب تفوق علينا في مجـال العلـم والتكنولوجيا فلا بأس من أن نقدم له ومعه نظريـة فكريـة تساهم في التخفيف من المعاناة البشرية مستقبلاً ، متطلعـين إلى عالم جديد أكثر تفهما ومرآة لحضارة فسيفساء عالميـة تحضن جميع الخصوصيات الثقافية ، عندها يمكـن تبـادل الخبرات من دول من دون أن تتعالى مجموعة على الأخرى،

بل في روح أخوية تخلق عالما أكثر إشـراقًا وأقـل معانـاة وأكثر سعادة لفقراء العالم..

أجرى الحوار : حنان عاد

" النهار بيروت يناير ٢٠٠١

2

عام ٢٠٠٣
للتواصل بين الحضـارات القديمـة والحديثة

توالت علي الاتصـالات التـي تعقـب علـى مقـالي السابق(الثلاثاء ٨ مايو) والذي كان بعنوان " مفاهيم الحضارة العربية الإسلامية ستقهر صدام الحضارات" حيـث قـدمت بعض فقرات من " إعلان طهران" والتي تكون مفاهيم " قبول الآخر " المبنية على التنوع الإنساني وبذلك تشارك الحضارة العربية الإسلامية مع مجمل التوجه العالمي القابل للآخر من أجل السلام والحوار في مواجهة " صدام الحضارات" والذي يدعونا لأن نصل إلى " حضارة عالمية" تسود فيهـا مفـاهيم وقيم الغرب وحدها.

واستطراد الذات السعي لأن يكون "غدنا أكثر إشـراقًا" بقبول فكرة التنوع، أشير في مقال اليوم إلى " إعلان أثينـا" والذي يسعى لبناء جسور بين الحضارات القديمة والحديثـة تأكيدا لأن البناء الحضاري الإنساني الحديث قد بنـي علـى

القديم، مما يؤكد " التواصل مع التنوع" وياحبذا لـو قـررت الأمم المتحدة التخطيط لتكون مكتبة الإسكندرية هي "المسرح لتواصل الحضارات" القديمة والحديثة.(*)

**في ٦ يناير/ كانون الثاني عام ١٩٩٩، أرسل الممثل الدائم لجمهورية إيران الإسلامية لدى الأمم المتحدة رسـالة إلى كوفي عنان الأمين العام مرفقًا بها نص " إعلان أثينـا" بخصوص " تراث الحضارات القديمة وآثارها علـى العـالم الحديث" إذ قامت وزارة الخارجية اليونانية بتوجيه الـدعوة لكل من إيران وإيطاليا ومصر لكي يلتقي ممثلو تلك الـدول الأربع في المركز الثقافي الأوربي في مدينة دلفي باليونـان في ١١ نوفمبر / تشرين الثاني عام ١٩٩٨ ، لمناقشة قضية الربط بين الحضارات القديمة وآثارها على عالمنا اليوم،وهي فكرة قدمتها حكومة إيران بهدف زيادة رقعة السلام والتفاهم

(*) كتب هذا المقال قبل أحداث سبتمبر الدامي،وكأن كاتبه وهـو يستشعر مخاطر انقطاع الحوار أراد أن يدق بأجراس الحلم.. أجـراس الخطر.. "الناشر"

بين شعوب الأرض،ومن هنا كان " إعلان أثينا" الذي نقتطف منه العبارات الآتية:

يود المشاركون تأكيد رفضهم للنظريات التـي تحـض على المواجهة والنزاع وعدم المساواة على أسـاس التفـوق المزعوم لأي شعب، فالحضارات تصنعها عدة شعوب تعمل معا لفترات طويلة من الزمن.

لقد نمت حضارات مصر وإيران واليونـان وإيطاليـا، قديما فيما بين الألفيتين الثالثة والأولى قبل الميلاد، بعـد أن أسهمت في أعمال التشييد التي تحققت بجهد مشترك من شتى الشعوب مما ساهم في تقدم البشرية.

اتفق المشاركون في اجتماع أثينا ، على أنـه يتعـين – إزاء تشابك المشاكل التاريخية - عقد اجتماعـات وحلقـات دراسية تربط الوقائع والآراء التراثية بالحاضر.

وتدل ظواهر الأمور أن " إعلان أثينا" قد انتهى عند هذا الحد وأتوقع أن أسمع من السفير محمد خليل والسفير نبيـل بدر (وهما الموقعان على الإعلان المـذكور، نيابـة عـن مصر) ، ماذا جرى من وقتها إلى الآن؟

أيا ما يكن من أمر، فإن الأمم المتحدة بكافة أجهزتها، قد نشطت في دول كثيرة لكي تجعل من سنة ٢٠٠١عام الحوار بين الحضارات والمتوقع أن يساهم عدد متزايد من مفكـري العالم لدفع الزخم والتطلعات المتراكمة لـدى الـرأي العـام العالمي ، للخروج من مأزق الكراهية والنزاعـات الأهليـة، عليهم كذلك التعاون في فضح النظريات الأمريكية التي تعزز الغطرسة والتعالي بقيادة الولايات المتحدة ممثلة أساسا فيمـا قدمه فرانسيس فوكوياما، والذي دعا في كتابه" نهاية التاريخ" إلي أنه بانتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتي، فـإن الرأسمالية والليبرالية قد انتصرتا إلى الأبد، معلنًا بذلك "نهاية التاريخ" ثم زاد عليه صموئيل هانتجتون بأن " الصـراعات في العالم الجديد لن تكون بين طبقـات اجتماعيـة أو بـين جماعات لها مصالح اقتصادية مشتركة،وإنما بـين شـعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية ومن هنا وصل إلى رؤية أننا مقبلون على عصر " صدام الحضارات".

واقتبس نواياه من فقرتين في الفصل الأول مـن كتابـه صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي والذي صـدر عام ١٩٩٦ كتب يقـول: " إن العـدو ضـروري وأخطـر

العداوات المحتملة هي عبر خطوط التقسيم بين الحضـارات الرئيسة في العالم ، فالموضوع الرئيس لهذا الكتاب هـو أن الثقافة والهويات الثقافية والتي هي علـى المسـتوى العـام هويات حضارية وهي التي تشكل أنماط التماسـك والتفسـخ والصراع في عالم ما بعد الحرب البادرة".

وفي فقرة أخرى يقول: قد يكون العالم في حالة فوضى، ولكنها ليس كلية دون نظام فصورة الفوضـى عارمـة بـلا تمييز ، تقدم لنا بعض المفاتيح لفهم العالم من أجـل ترتيـب الأحداث وتقييم أهميتها والتنبؤ باتجاهات الفوضى والتمييـز بين أشكالها وأسبابها المحتملة ونتائجها المختلفة ولاسـتجلاء خطوط هادية تساعد صانعي السياسة الرسميين.

وكان صموئيل هانتنجتون قد سجل صراحة في ورقـة البحث التي نشرها عام ١٩٩٣ (أي قبل ٣ سنوات في نشر نظريته كاملة في كتاب وكان ذلك في مجلة " فورن أفيـرز" الأكاديمية إذ قال: إن هذه الدراسة كانت في إطـار بحـوث للتعرف على " التغيرات في مناخ الأمن والمصالح القوميـة الأمريكية American National Interests وذلك وفق التقاليد

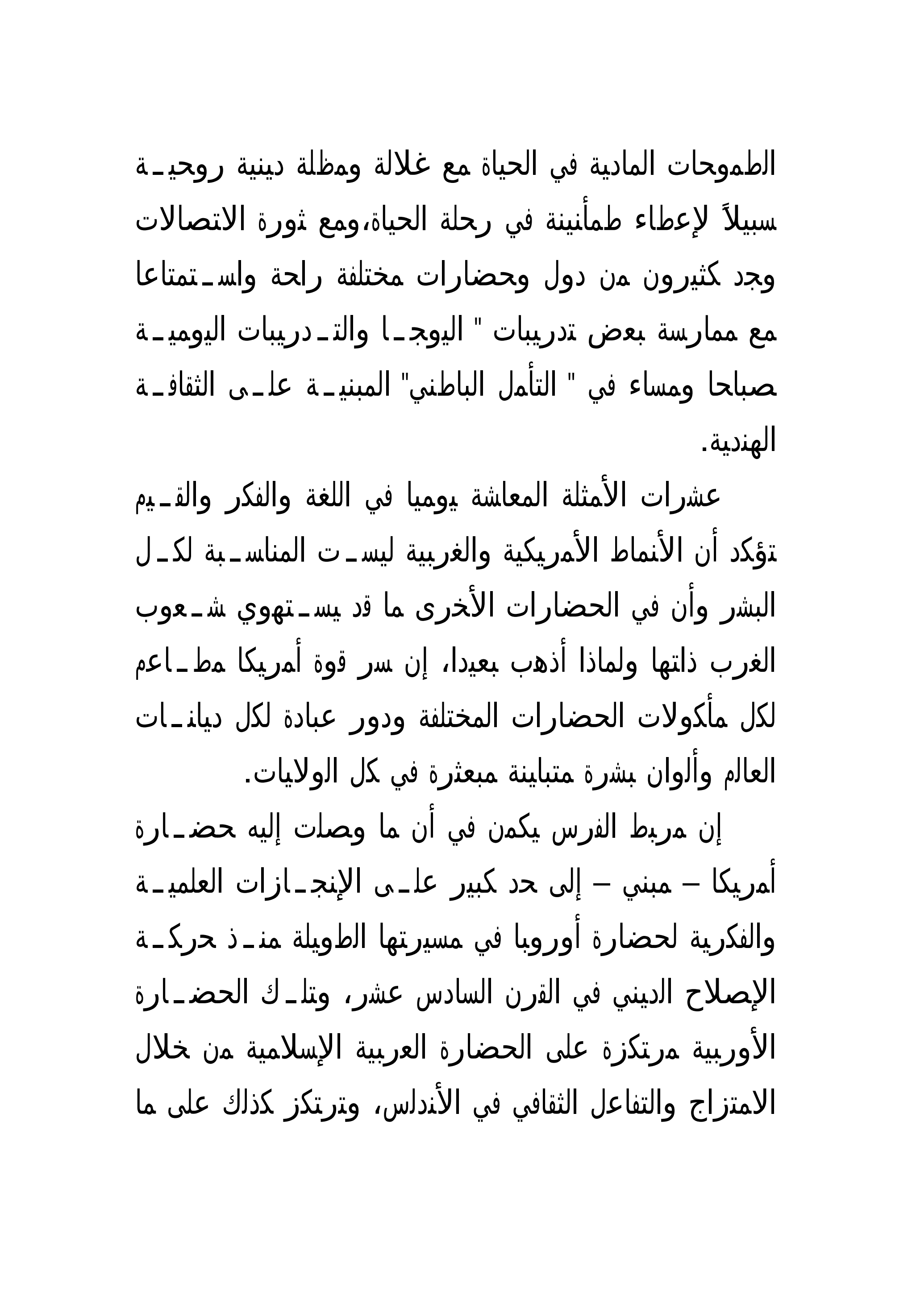
المتفق عليها في أمريكا، لأن يذكر اسم المشـروع البحثـي الممول للدراسة.

وهكذا كان الربط بـين التحـديث والتغريـب، فيقـول هانتجتون، في الفصل الثالث من الكتاب التحديث والتغريـب يقوى كل منهما الآخر ويعززه ولا بد أن يمضيا معا وهـذا الفهم تم تلخيصه في محاجات مفكري القرن التاسـع عشـر اليابانيين والصـينيين، فلكـي يقومـوا بالتحـديث، لا بـد لمجتمعاتهم أن تتخلى عن لغتها التاريخية وتتبنى الإنجليزيـة كلغة قومية، ورسالتها هي : لكي تنجح يجب أن تكون مثلنا، طريقنا هو الطريق الوحيد، والمحاجة هي أن " القيم الدينية والافتراضات الأخلاقية والبني الاجتماعية لتلك المجتمعـات (غير الغربية) هي في أحسن الأحوال – غربية، "ويستطرد" في ذات الاتجاه المستفز فيقول : أمام المسلمين خيار واحـد حيث إن التحديث يتطلب التغريب.. وعندما يقبل المسـلمون بالنموذج الغربي صراحة،سيكونون في وضع يمكـنهم مـن استخدام التقنية، ومن هنا أن يتقدموا.

وهكذا وتدريجيا، تتم عملية اسـتقطاب فكريـة نحـو العالمية،وبشكل تدريجي وكما كانت الحـرب البـاردة بـين

الأيديولوجية الماركسية من جانب والرأسمالية الليبرالية من جانب آخر، فإن السنوات القليلة الماضية تشاهد عملية استقطاب جديدة، حيث تحاول الولايات المتحدة الأمريكية ومن خلال صدام الحضارات- للدعوة إلى حضارة واحدة عالمية، تنتهي إلى نموذج أمريكا ذاتها وتيار آخر ينمو ويتدعم وهو أن " التنوع ظاهرة كونية" ،وأن التواصل بين الحضارات أمر ينبغي الاهتمام به.

إن لكل حضارة خصوصيتها وجمالها وأفكارها وقيمها، فلماذا يكون توجهنا جميعا أن نستخدم الأكلات الجاهزة الممثلة في الويمبي والكنتاكي والماكدونالدز وما إليها، والتي يطلقون عليها في أمريكا " أكلات رمرمة" Junk Food أليست أطعمة شعبية مثل المدمس والطعمية والطحينة والبصارة والمسقعة والملوخية.. وما إليها لها نكهتها ويقبل عليها بعض الغربيين عندما يعيشون بيننا، إن كثيرين- على مستوى العالم – يجدون الآن في الأطعمة الصينية ما يسعدهم ويوفر لهم صحة أوفر، ولماذا يسود لبس " البلوجينس" أليست " الجلابية" أكثر ملاءمة لجو بلادنا وأكثر راحة عند المعيشة داخل المنزل وأثناء النوم، أليست قيمنا في التوازن بين



الطموحات المادية في الحياة مع غلالة ومظلة دينية روحية سبيلاً لإعطاء طمأنينة في رحلة الحياة،ومع ثورة الاتصالات وجد كثيرون من دول وحضارات مختلفة راحة واستمتاعا مع ممارسة بعض تدريبات " اليوجا والتدريبات اليومية صباحا ومساء في " التأمل الباطني" المبنية على الثقافة الهندية.

عشرات الأمثلة المعاشة يوميا في اللغة والفكر والقيم تؤكد أن الأنماط الأمريكية والغربية ليست المناسبة لكل البشر وأن في الحضارات الأخرى ما قد يستهوي شعوب الغرب ذاتها ولماذا أذهب بعيدا، إن سر قوة أمريكا مطاعم لكل مأكولات الحضارات المختلفة ودور عبادة لكل ديانات العالم وألوان بشرة متباينة مبعثرة في كل الولايات.

إن مربط الفرس يكمن في أن ما وصلت إليه حضارة أمريكا – مبني – إلى حد كبير على الإنجازات العلمية والفكرية لحضارة أوروبا في مسيرتها الطويلة منذ حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، وتلك الحضارة الأوربية مرتكزة على الحضارة العربية الإسلامية من خلال الامتزاج والتفاعل الثقافي في الأندلس، وترتكز كذلك على ما

قامت به الحضارة الإسلامية خلال الخلافة العباسية والتـي قامت بحركة ترجمة واسعة للتراث الإغريقي اليوناني ولهـا إسهاماتها في مجال كثير من العلوم الفيزيائيـة والكيميائيـة والطب والهندسة فضلاً عن الاجتهادات في علم الكلام.

إن البشرية كلها قد ساهمت بطريقة أو بأخرى في بنـاء الهرم الحضاري الشامخ عبر آلاف السنين إن هناك عشرات المجلدات التي تحكي "قصة الحضارة" منذ أن كانت جـزرا منفصلة (شبه منعزلة) في أحواض الأنهار فتكونت حضارات زراعية قديمة تركت بصماتها في مصر وبـلاد مـا بـين النهرين، والمؤكد أن منطقة الشرق الأوسط مهـد الأديـان الإبراهيمية الثلاثة: اليهودية – المسيحية- الإسـلام ومنهـا انتشرت إلى أوروبا ثم أمريكا غربا ثم إلى الهنـد والصـين وأندونيسيا والفلبين شرقًا.

ولشبه الجزيرة الهندية دور هـام ورائـد فـي البنـاء الحضاري وكان لها تفوقها في وقتها ومنها انتشرت البوذيـة إلى الصين وغيرها، وللصين تـاريخ هائـل وعظـيم فـي المشاركة القديمة والحديثة في البناء الحضاري.

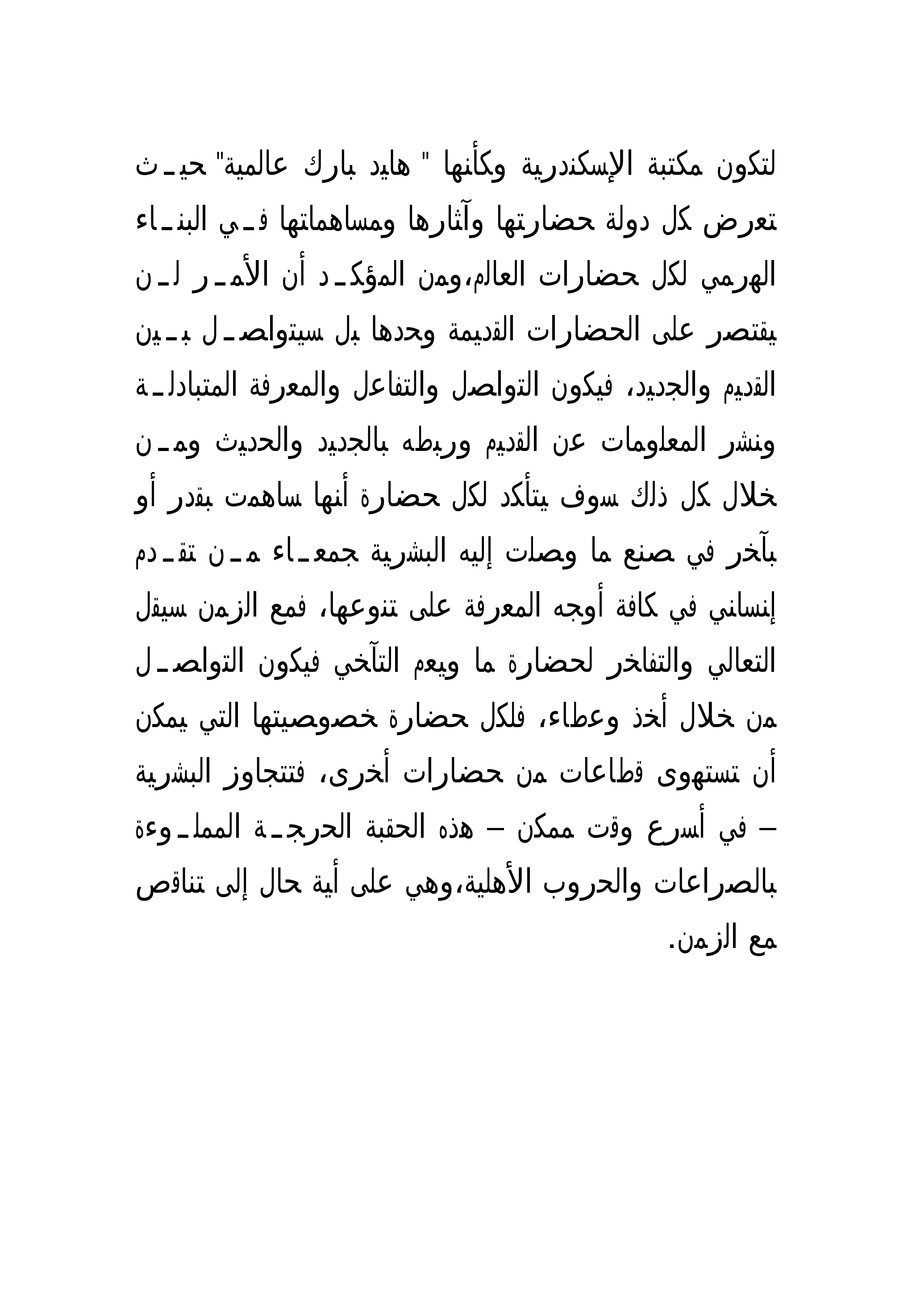
والنتيجة إذن هي أن حضارة ما، لا ينبغي أن تدعي الاحتكار والتفوق،ولكن ثورة الاتصالات قد جعلت كل الحضارات متواصلة ومتفاعلة، تأخذ وتعطي من بعضها بعضا دون أن تتخلى عن جذورها وخصوصيتها الثقافية، فلكل منها نكهته ومميزاته (وربما أوجه قصور) ومن خلال هذا التواصل يتم التبادل والاستفادة من خبرة حضارة لتنتقل إلى حضارة أخرى في تناغم صحي وليس من خلال قهر أو تفوق حضارة على أخرى.

صحيح أيضا أن التاريخ الإنساني مملوء بالحروب والتي كانت تستمر لسنوات وأحيانًا لقرون،وكانت حروبا بين حضارات كما كانت بين أديان بل وبين مذاهب داخل كل دين، هذه هي حقائق التاريخ، ولكن ما هو النفع للبشرية في إثارة عداوات قديمة قد انتهت، بحلوها وشرها وصانعيها وضحاياها وصارت تاريخًا قديما يمكن أن يدرس في المدارس كحقائق حدثت بالفعل، ليس بهدف إثارة نعراتها القديمة، ولكن بهدف الاستفادة من مأساتها فلا نكررها، ذلك لأن أحدا منا لم يختر لون بشرته أو ديانته أو وطنه لأنني لا

أمل عن تكرار هذه العبارات والمفاهيم فهو صـاب منطـق "قبول الآخر".

في آب/ أغسطس ١٩٩٩ ، عين كوفي عنـان الأمـين العام للأمم المتحدة السيد / جياتندوبيكو ممثلاً شخصـيا لـه لإدارة كافة الأنشطة الدولية التي ستجرى عام ٢٠٠١ ليكون عام الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات،والرأي عنـدي أن يستمر هذا الحوار ممتدا لعام ٢٠٠٢ لإمكان أن يتم التحضير ليكون عام ٢٠٠٣ هو عام التواصل بين الحضارات القديمة والحديثة، فيتحول " إعلان أثينا" إلى ممارسة لكل الحضارات وليست مقصورة على اليونان وإيطاليا باعتبارهمـا امتـدادا للحضارة اليونانية والإمبراطورية الرومانية القديمة،ولا على إيران ومصر وحدهما، باعتبارهمـا ممثلـين للحضـارات الشرقية القديمة، لأنه من غير الممكـن إنكـار دور الهنـد والصين واليابان وغيرها.

ومن محاسن الصدف أن يكون هـذا النشـاط الثقـافي الضخم في وقت معاصر لافتتاح مكتبة الإسكندرية وأتصور أن د. إسماعيل سراج الدين بالتعاون مـع مجلـس الأمنـاء الممثل لرموز الثقافات والحضارات، سوف يرحب بأن يجهز



لتكون مكتبة الإسكندرية وكأنها " هايد بارك عالمية" حيـث تعرض كل دولة حضارتها وآثارها ومساهماتها فـي البنـاء الهرمي لكل حضارات العالم،ومن المؤكـد أن الأمـر لـن يقتصر على الحضارات القديمة وحدها بل سيتواصـل بـين القديم والجديد، فيكون التواصل والتفاعل والمعرفة المتبادلـة ونشر المعلومات عن القديم وربطه بالجديد والحديث ومـن خلال كل ذلك سوف يتأكد لكل حضارة أنها ساهمت بقدر أو بآخر في صنع ما وصلت إليه البشرية جمعـاء مـن تقـدم إنساني في كافة أوجه المعرفة على تنوعها، فمع الزمن سيقل التعالي والتفاخر لحضارة ما ويعم التآخي فيكون التواصـل من خلال أخذ وعطاء، فلكل حضارة خصوصيتها التي يمكن أن تستهوى قطاعات من حضارات أخرى، فتتجاوز البشرية – في أسرع وقت ممكن – هذه الحقبة الحرجـة المملـوءة بالصراعات والحروب الأهلية،وهي على أية حال إلى تناقص مع الزمن.

3

يامسلمين ويا مسيحيين قدموا النموذج الخير قبل أن تفرض عليكم نظرية جورج بوش كوارثها قراءة هندسية لفكر مدبر عملية ١١ سبتمبر.. وتخوفات صدام الحضارات- ميلاد حنا (*)

** سيؤرخ ليوم الثلاثاء ١١ أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١ بأنه يوم مفصلي في تاريخ أمريكا ومن هنا في تاريخ العالم، ونشعر – نحن مجمل الكتاب الوطنيين العرب – بحال من العجز. فأحداث الانفجارات التي تمت في نيويورك وواشنطن عرفنا تفاصيلها ساعة ولحظة وقوعها، لكنها مثل قمة جبل الجليد، نرى ما فوق سطح الماء و ما خفي تحته فهذا عظيم وأخطر، فقد صارت كتابة المقالات التحليلية التي تقدم رؤى الفكر والرأي، محفوفة بمخاطر.

إن ما يكتبه المفكر مبني على معلومات تتدفق وتتغير ساعة بعد ساعة، لكنني سوف أخاطر،وأكتب لأسجل

(*) كاتب مصري

مشاعري ومعلوماتي لأن الموقف العالمي متفجر أمريكا قـد خرجت وزعماؤها ومواطنوها لديهم حال من الإحباط فاقـت تلك التي شعرنا بها في العالم العربي يوم ٥ حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ مع خلاف كبير واضح، هو أننا - العالم العربي - كان أمامنا عدو ظاهر منتصر خطط وحقـق أغراضـه وأثبت تفوقه ،بينما أمام الأمريكيين عدو مجهول غير محـدد المعالم في شكل جيش ودولة وقيـادة ورئيس،وهنـا مكمـن الخطر واحتمالات التصرفات الرعناء.

فالرئيس جورج بوش يتحدث عن الخير والشـر،وهي مفاهيم أخلاقية فضفاضة غير محددة، فما يراه الخيـر، هـو خير أمريكا ورفاهية الطبقة الحاكمة بها والتي تود أن تسـود العالم،وما يتصوره " الشر" هو ما تجسده له الهيئات العاملـة في الأمن القومي (في حال الإحباط والتخبط التي نحياها) ها نحن نعيش حالة من القلق داخل أمريكا وخارجهـا، منـذ أن أعلن كولن باول الشركاء الرئيسـيين،وكما يقـول علمـاء الرياضة أن هذه المقولة قد تكون صحيحة ولكنهـا – مـن المؤكد – ليست كل الحقيقة، ولذلك فإن القسم الـذي تصـر عليه المحاكم في الشهادة هو أن الشاهد الصادق يقول الحقيقة

كل الحقيقة (التي يعرفها)، لكن كولن باول رجل سياسـة ، يطلق التصريحات المسموح له بأن يقولها فقط وفق توجهات وقرارات مجلس الأمن القومي المتوارت. فمن المتواتر فـي جهات لديها معلومات، أن هذه العمليـة مـن الانفجـارات المخططة والتي استهدفت انهيار برجـي مركـز التجـارة العالمي في نيويورك كتعبير عن انهيار الحضارة والاقتصاد والإنجازات التكنولوجية ممثلة في إنشاء أكبر (أو من أكبر) ناطحات السحاب في العالم، إذ يبلـغ ارتفاعهـا ١١٠ أدوار ويحوي البرجان نشاطات عالمية كثيرة. ثم رغب المخطـط للانهيارات، استهداف تفجير " البيت الأبيض" باعتباره مركز السلطة السياسية،وعندما فشل اتجه!! إلى البنتـاغون مركـز القوة العسكرية.

من هنا، فإن المخطط يتجاوز فكر أسامة بـن لادن، لا في التخطيط ولا في الدقة والتوقيت والربط والتنسيق الـذي حدث ، لكن إصبع الاتهام تتجه إليه ، لأن الشيخ عمر عبـد الرحمن وهو من مريديه ومن الفصيل الفكـري العسـكري نفسه، كان قد خطط لتفجير المبنى له أساسات قوية عميقـة فأي انفجار (سيارة مفخخة أو غيرها في مكان في الطوابـق

السفلي في الكاراج أو غيره) لن تؤثر على كل المبنى، بـل صار امتصاص الصدمة بسرعة في الأساسات القوية فيهـا، ولأن الأعمدة الحديد من الجزء السـفلي مـن المبنـي مـن الضخامة بحيث كان انهيارها غير ممكن.

وفي شهادة لي أدليت بها في إذاعة الـ "بي بي سـي" البريطانية، ذكرت أن طريقة مهاجمة البرجين مـن خـلال طائرة كبيرة تقتحم المبنى في الربع الأعلى منه كان السـبيل الفني هندسيا، وأنا أكتب هذا ليس كمفكر ولكـن باعتبـاري أستاذ الإنشاءات في جامعة عين شمس – لمـا يزيـد علـى نصف قرن – أقول أن المفكر والمخطط لهذه العمليـة لديـه خبرة علمية وعملية لإمكان تحقيق انهيار البرجين في زمـن قياسي وقبل أن تتمكن أي تكنولوجيا متاحة من إنقاذ ناطحات السحاب الضخمة والتي تحولت إلى كومة من الركـام فـي غضون ساعات قليلة جدا.

فالطائرة جسم ضخم وقادمة بسرعة عاليـة والصـدمة الديناميكية في هذا الموقع المرتفع من المبنى أدت إلى اهتزاز الهيكل المعدني كله (أعمدة وكمرات وجسور وغيرها) لأنها بعيدة عن الأساسات الثابتة في عمق التربة.

وقد أدى انفجار الطائرة بما تحمل مـن بنـزين عـالي الجودة في جسمها إلى انهيار أعمدة طوابق عدة،وفي دقـائق كان الحريق قد امتد إلى أعلي وإلي أسفل، وصارت أعمـدة المبنى فوق وتحت الطوابق التي اخترقتها الطائرة وكأنها من مادة لينة، لأن الحديد مهما كانـت مقاومتـه فـي درجـات الحرارة العادية الطبيعية (من ١٠ إلى ٣٠ درجـة مئويـة مثلاً) يفقد خواصه الميكانيكية عند نحو ١٢٠٠ درجة مئويـة ويصبح العمود من الصـلب،وكأنه عمـود مـن الملـبن أو البامبون فانهارت الأعمدة واحدا تلو الآخر،وسـقط الجـزء العلوي من المبني دفعة واحدة محدثًا تأثيرا ديناميكيـا علـى طوابق المبنى السفلية فأخذت الطوابق تنهار واحدا تلو الآخر إلى أن تدافعت فوق بعضها البعض فوق سطح الأرض.

يذكر أيضا في هذا المقام، أن المبنى مصمم وفق أرقى المواصفات العالمية لمقاومة الأحمال التي يتعرض لها طبيعيا مثل الرياح والزلازل وقد قاومـت هـذه الأحمـال بكفـاءة واضحة عبر سنوات طويلة.

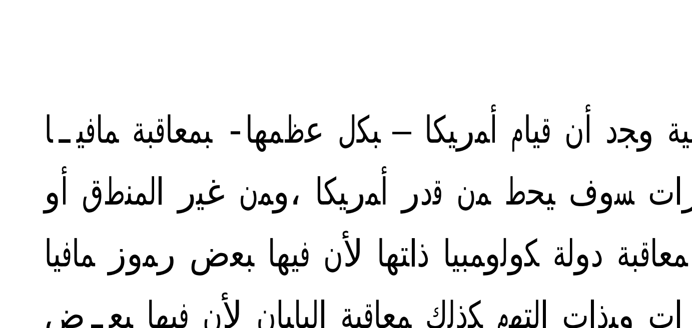
ومن المعروف أن مثل هذه المباني مزود بشـبكة مـن رشاشات المياه داخل كل غرفة من المبنى تعمل بمجـرد أن

"تشم" رائحة أي دخان، لكن هذه الأنظمة توقفت عن العمـل بمجرد تعرض المبنى لهذه الصدمة من الطائرة التي تفجرت وتقطعت كل الأسلاك والمواسير والأنابيب التي تكون شبكة الجهاز العصبي للمبنى، فكان الانهيار مدروسا بعنايـة مـن خبراء لا يتوافرون لأسامة بن لادن.

وهكذا يتضح أنه حتى لو كان بن لادن أحد الشركاء في توفير الأفراد " المجاهدين" المستعدين للاقتحـام الانتحـاري وفق عقيدتهم، فإن الفكرة والتكنولوجيـا والتنظـيم يتجـاوز بفراسخ قدرات وخيال وتنظيمات أسامة بن لادن.

ومن هنا كان من المفترض لأي عقلية علمية أن تفكـر بمجموعات " شريرة " أخرى مثل مجموعات مافيا مخدرات في كولومبيا أو في غير كولومبيا – خصوصا وقد أعلن عن القبض على أحد رموزها الكبار أخيـرا. كمـا أن للجـيش الأحمر الياباني قدرات موثقة على استخدام التكنولوجيا مـا أحسب أنه التنظيم الثالث، وربما تكون هناك منظمات أخرى سوف يكشف عنها الزمن.

وفي تقديري أن جهاز الأمن القومي الأمريكـي لديـه معلومات كثيرة جدا لم يكشف عنهـا، لكنـه مـن الناحيـة



السياسية وجد أن قيام أمريكا – بكل عظمها- بمعاقبة مافيا المخدرات سوف يحط من قدر أمريكا ،ومن غير المنطق أو العدل معاقبة دولة كولومبيا ذاتها لأن فيها بعض رموز مافيا المخدرات وبذات التهم كذلك معاقبة اليابان لأن فيها بعض أفراد من " المافيا" قد كونوا تنظيما إرهابيا وقد يصبح " نكتة" فيما لو أعلنت أمريكا الحرب على تنظيم الجيش الأحمر الياباني.

وفي هذا الإطار، كان القرار بأن يوجه الإعلام إصبع الاتهام إلى أسامة بن لادن، حيث يقيم في أفغانستان، ذلك أن أفغانستان دولة " مارقة" ليس لها تقدير كبير في كل العالم بما في ذلك العالم الإسلامي ذاته، فحرمان المرأة من التعليم والعمل،وهدم تماثيل بوذا،والقبض على المسالمين من الهيئات الدولية بدعوى أنهم مبشرون بالمسيحية وما إلي ذلك من أمور معروفة تؤهل أفغانستان لضربة عسكرية سريعة تسترد بها أمريكا كرامتها، وستحصل على بن لادن حيا أو ميتًا ، فتختفي معه " الأسطورة " وتسترد أمريكا هيبتها وكرامتها التي أصبحت في الوحل.

صدام حضارات؟

على أن أخطر ما في هذا الأمر، هو أنـه يتفـق مـع الأفكار والنظريات التي سبق أن أعلنها صموئيل هنتنجتـون أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد وصاحب نظريـة "صدام الحضارات" وأود أن أعيد تـذكير القـراء بـبعض الفقرات الواردة في نظريته كالآتي:

- إن الحرب المقبلة- إن كانت ستقع- ستكون حربا بـين الحضارات.
- وصل الغرب الآن إلى ذروة هائلة من السيطرة تجـاه الحضارات الأخرى، فالمنافسة بـين الـدول العظمـى اختفت والصراع العسكري بين الدول الغربيـة غيـر وارد، كما أن القوة العسكرية لا يوجد ما يضـاهيها إلا اليابان.
- القرارات التي تتخذ في مجلس الأمن الدولي أو صندوق النقد الدولي، وتعكس مصالح الغرب تقدم إلـى العـالم باعتبارها رغبات " المجتمع الـدولي" بـل إن عبـارة "العالم الحر" يستهدف ذلك اختفـاء صـفة " الشـرعية

الدولية" على ما يعبر عن " مصالح الولايات المتحـدة" والقوى الغربية الأخرى.

- ربما كان أخطر ما سجله هنتنجتون- بصراحة تصـل إلى حد الوقاحة- هـي هـذه العبـارة : إن صـراع الحضارات الأقدم ينطبق تحديدا على خط حدود هـذه العبارة: إن صراع الحضارات القادم ينطبـق تحديـدا على خط حدود الكتلة الإسلامية، التي تشـبه الهـلال وتمتد من نتوء أفريقيا إلى آسيا الوسطى، كما أن حالة عنف ناشئة بين المسلمين من جانب وبـين الصـرب الأرثوذكس في البلقان ومع اليهود في إسـرائيل ومـع الهندوس في الهند والبوذيين في بورما ومع الكاثوليـك في الفلبين. حقا إن للإسلام حدودا دموية.

لم أشأ بأن أعيد للذاكرة هـذه النصـوص الصـريحة لنظرية هنتنغتون لكن أصب الزيت على النار، فالنار مشتعلة في أمريكا بالفعل، والاستعداد للقيام بحرب ضـد أفغانسـتان سيتم في سرعة مذهلة (قد تسابق سرعة هذه الأسطر التـي أكتبها الآن ظهر يوم الجمعة ١٤ أيلـول/ سـبتمبر ٢٠٠١) حيث يصير الاستعداد لحرب عالمية جديدة تثبت الكراهية من

تحالف قوى كثيرة في مقدمتها اليمين الأمريكي – المسـيحية الغربية المتعصبة – اليهودية العالمية المتعصـبة – رمـوز اليمين في العالم المعادية للإسلام، وكل ذلك فـي مواجهـة حملة عداء سافر ضد المسلمين والإسلام في العالم وهو أمر خطير، يعلم ا   أين سوف يقف هذا التوجه الغاضب والـذي إذا بدأ فمن غير المعروف أين يقف ومن سيوقفه.

لذا فإنني أكتب هذه الأسطر كمصري عربي أنتمي إلى المسيحية القبطية، لكنني أنتمي أيضا إلى الإنسانية، وقد كتبت كثيرا حول " قبول الآخر" و أتمنى من خلال هذا المقـال أن يتكون تحالف حقيقي (ليس بين قوى الخير في كـل أنحـاء العالم بزعامة أمريكا) ولكن بين الشـعوب العربيـة كلهـا مسلميها ومسيحييها على حد سواء فقـد عـاش المسـلمون والمسيحيون في معظم البلاد العربية – وفي معظم الأوقـات – في سلام ومودة في لبنان وسـورية ومصـر وفلسـطين والأردن، وهذه الجماعات ستقدم البديل وهو إمكان التعـايش بين الأديان.

وكما أحب أن أركز على أن المسـلمين ليسـوا صـنفًا فكريا واحدا، كما أن المسيحين ليسوا خيرين كلهم (كما يتوهم

البعض ويدعو) فالممارسة المصرية للإسلام، كما في الأزهر أو كما لدى عامة الشعب، غير تلك التي تجرى فـي بـلاد عربية أو إسلامية أخرى،ومن الصعب أو الإنصاف التعمـيم في هذا الإطار الأهوج الحالي.

دعنا نقدم البديل " لصدام الحضارات" في عالمنا العربي بالمعايشـة وقبـول الآخـر فالنمـاذج الخيـرة موجـودة بالفعل،والحضارة ليست في بناء ناطحات السحاب ولا فـي الصواريخ العابرة للقارات لكنها في القيم الأصيلة الممارسـة بالفعل لدى غالبية من البشر، مع إدراكي بأن هناك قدرا من التعصب موجودا بالفعل في كل دين لكنها قضية ثقافية لـن تحل بالحروب وإعلان الكراهية الحالي..

4

الإرهاب إشكالية مركبة عويصة.. حلها ثقافي مجتمعي

بدأت الحرب الأولى في الألفية الثالثة يـوم ٧ أكتـوبر ٢٠٠١، ولكن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ متى أو كيف ستنتهي غير أن محاربة الإرهاب بالصورايخ والأسـلحة والتعبئـة العسكرية أمر قد يبدو ضروريا من الساسـة والعسـكريين لإعادة هيبة دولة عظمى وإعادة إحكام سيطرة الغرب علـى الكوكب.

أما علاج الإرهاب الدولي فهو أمر فكري ثقـافي يبـدأ بقناعة مجموعات بشرية مظلومة أو أفراد أصيبوا بنوع مـن الهوس وأنه لا سبيل أمامهم إلا بالتضحية بأنفسهم ولذا لـن يكون مقالي اليوم عن التكهنات العسكرية المرتقبة فهي أمور ستتم بالفعل في غضون وقت قريب ولكنني أتطلع إلى مرحلة قادمة- قد تطول أو تقصر – بعد أن تصمت المدافع وعندئذ سيتقهقر دور العسكريين والسياسيين وسـيتم فـتح الملـف

الأعمق والأهم وهو الذي سيحل صـلب المشـكلة ذلـك أن الإرهاب إشكالية مركبة عويصة.. حلها ثقافي مجتمعي.

** ولو لم تكن أمريكا محكومة بتـوازن دقيـق بـين مؤسسات دستورية راسخة التقاليد تصحح أي قرار " فردي " لكان بوش- في لحظة غضب دفعته لأن يسترد بها كرامـة دولة عظمى. قد أعلن الحرب على أفغانسـتان مـن ثلاثـة أسابيع وربما لو كان القرار فرديا لكانت أمريكا قد استدرجت إلى هضاب وجبال وكهوف وصحراوات هذا البلد الفقيـر – الذي ليس لديه ما يفقده إلا كرامته وتاريخه – ولكانـت قـد تكررت مأساة " فيتنام" والتي أصبحت كالشبح الذي يطـارد كل سياسي وعسـكري أمريكـي خصوصـا وأن الشـباب الأمريكي المجند مازال بعضه غير مقتنع بأن يضحي بحياته من أجل القبض على " بن لادن " حيا أو ميتًا ولو كان بوش قد تسرع في إصدار قرار الحرب لكان من الممكن أن يتكرر معه ما حدث مع أنطوني إيدن عندما قاد العـدوان الثلاثـي على مصر (بريطانيا ـ فرنسا- إسرائيل) في أكتوبر عـام

١٩٥٦ فكانت نقطة تحول إذ لم تعد بريطانيا " عظمى" كمـا كانت قبل عام ١٩٥٦.

فالأمثلة الشعبية تقول: " ما طار طير وارتفع إلا كمـا طار وقع " وهكذا اسـتطاعت آليـة الديمقراطيـة ودولـة المؤسسات ومراكز الدراسات الاستراتيجية أن تحمي بـوش من اندفاعه فقد كانت مشيته وصوته وتصـريحاته مجسـدة لمقولة أولاد البلد: " يا أرض اتهدي.. ما عليك قدي".

وهذا المناخ العام المتعقل –الدارس للتفاصيل الدقيقـة – في سرية – قبل التحرك قد انتقل – حتى – لمجموعة طالبان والتي تحمي تنظيم "القاعدة" وتصر على استضافة وحمايـة أسامة بن لادن – والذي صار بين ليلة وضـحاها – أشـهر رجل في العالم لم يتفوق عليه إلا هتلر قبل ٦٠ عاما.

وقبل إطلاق الصواريخ على أفغانستان من باكسـتان أو من بوارج ومنصات في عرض البحر لجأت أمريكا – ربما لأول مرة في التاريخ – لأن ترسل لأهالي وفقراء أفغانستان الدقيق والمأكولات والأغذية للنساء والأطفال ثـم تخصـص الأموال لرفع المعاناة عن ملايين المهاجرين المتدفقين للهرب من الحرب إلى الدول المجاورة ثم تلجأ أمريكا إلى أسـاليب

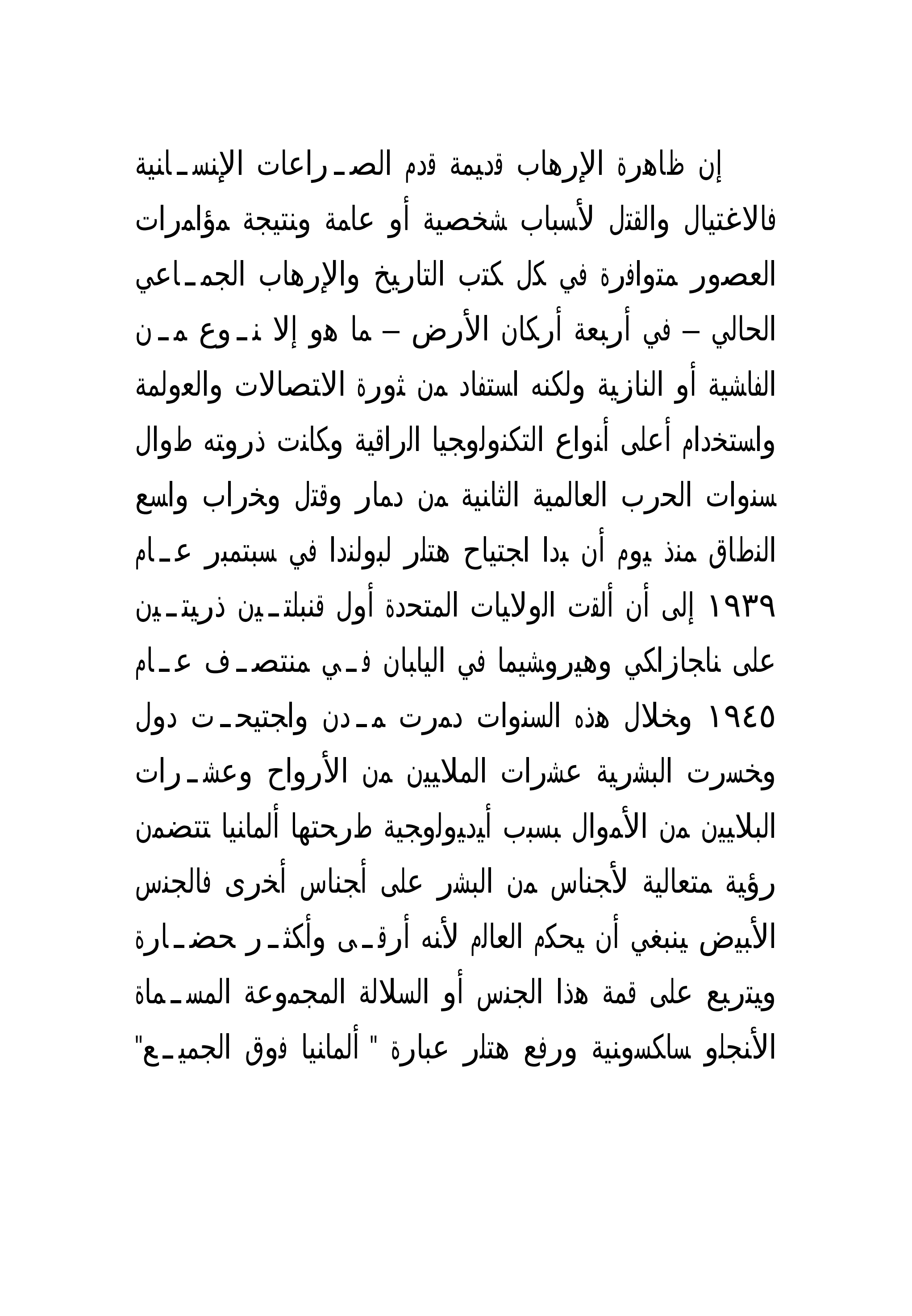
"المخابرات" فترسل في ذات الوقت الأسـلحة إلـى فريـق معارض كان خاملاً وإذا به ينشط في حـرب داخليـة مـع "طالبان" ثم يتم إيجاد البديل لحكم أفغانستان من خلال ملـك مخلوع كان العالم قد نسيه تماما فأنشـئوا حولـه " مجلـس شورى" يمكن أن يكون البديل في حكم أفغانستان (وهو فـي باريس) إذا ما نجحت مجهودات CIA في مخططها لإسـقاط نظام طالبان بأقل الخسائر في الأرواح الأمريكية !!

هذه كلها معطيات جديدة لحرب جديدة في ألفية جديـدة بسبب أن العدو أيضا جديد فهو غير محدد المعالم لأنه غيـر ممثل في دولة لها كيان وحدود وجيش وسيكون تحديد عبارة "الإرهاب الدولي" في غاية الصعوبة بعد القضاء على طالبان أو صدام حسين أو شارون!

ولم يقتصر تغيير السياسات والتوجهات التـي هـزت العالم كله بعد ١١ سبتمبر الرهيب على الجهـات الرئيسـة الفاعلة في أمريكا وأفغانستان (حيث تنظيم القاعـدة وعقلـه المدبر أسامة) وإنما امتدت الهزة – إلى معظم إن لم يكن كل – دول العالم من باكستان والهند وروسيا والصـين وآسـيا الوسطى شرقًا إلى معظم دول الوطن العربي جنوبا وصـولاً

إلى حماس توني بلير الذي يود أن يعيد لبريطانيا " عظمتها " إلى كل دول أوروبا الغربية وحلف الأطلسي فلذا فالمتوقع إن لم يكن من المؤكد أن خريطة العالم سوف تتعـدل وتتغيـر كثيرا مع ما كانت عليـه قبـل الثلاثـاء المفصـلي ليـوم الانفجارات العظيم في نيويورك وواشنطن فقد تأكد أن تأخير أو تأجيل الإعلان الرسمي للحرب لم يكن بقرار من الساسـة والحكام ولا العسكريين وحدهم بل شارك أيضا – وبيقـين – أجهزة الأمن القومي والتي تسـتعين فـي الـدول الراقيـة المتحضرة بأهل الحكمة والفكر وكـذلك مراكـز البحـوث الاستراتيجية، ولكن للأسف تعكف هذه الأجهزة فـي الـدول المتحضرة بالعمل ليل نهار ولدراسة البدائل أما نحن فننتظر رد الفعل وكأنه قدر مكتوب ولذا فإن هدفي المتواضـع مـن هذا المقال هو إلقاء الضوء على الجوانب الثقافية والمجتمعية – وحتى الدينية – والتي لا بد من طرحها إن عاجلاً أو آجلاً لأنها صلب القضية فالإرهاب يبدأ فكرا وقناعة وحماسا ثـم بالقتل والتدمير اندفاعا.

***



إن ظاهرة الإرهاب قديمة قدم الصـراعات الإنسـانية فالاغتيال والقتل لأسباب شخصية أو عامة ونتيجة مؤامرات العصور متوافرة في كل كتب التاريخ والإرهاب الجمـاعي الحالي – في أربعة أركان الأرض – ما هو إلا نـوع مـن الفاشية أو النازية ولكنه استفاد من ثورة الاتصالات والعولمة واستخدام أعلى أنواع التكنولوجيا الراقية وكانت ذروته طوال سنوات الحرب العالمية الثانية من دمار وقتل وخراب واسع النطاق منذ يوم أن بدا اجتياح هتلر لبولندا في سبتمبر عـام ١٩٣٩ إلى أن ألقت الولايات المتحدة أول قنبلتـين ذريتـين على ناجازاكي وهيروشيما في اليابان فـي منتصـف عـام ١٩٤٥ وخلال هذه السنوات دمرت مـدن واجتيحـت دول وخسرت البشرية عشرات الملايين من الأرواح وعشـرات البلايين من الأموال بسبب أيديولوجية طرحتها ألمانيا تتضمن رؤية متعالية لأجناس من البشر على أجناس أخرى فالجنس الأبيض ينبغي أن يحكم العالم لأنه أرقـى وأكثـر حضـارة ويتربع على قمة هذا الجنس أو السلالة المجموعة المسـماة الأنجلو ساكسونية ورفع هتلر عبارة " ألمانيا فوق الجميـع"

وخططت للحرب بدعوى أن من حقها أن يكون لهـا حجـم أكبر من المستعمرات والموارد الطبيعية.

ولذا ومع انتهاء الحرب – اهتمـت ألمانيـا بالـذات – بإنشاء مؤسسات ثقافية تراقب ما يجرى داخل البلاد وتتدخل بالفكر والثقافة والتعليم عند ظهور أي توجه فاشـي جديـد وأنشأت الدولة منظمات ثقافيـة تراقـب وتبشـر بالأفكـار والأيديولوجيات الديمقراطية التـي تقـاوم ظهـور الفاشـية وأحسب أن ما جرى في ألمانيا بالذات فـي نصـف قـرن الماضي خبرة جديرة بأن تعم في الدول التي لديها تعال حتى تكون نموذجا يتم تطويره في أي بلد تظهر عليـه أعـراض التعالي بسبب العـرق أو الـدين أو المـذهب أو غيرهـا، فالإشكالية هي أن الدول استقلت وأقامت نظامهـا التعليمـي والإعلامي المبني على التعالي وكراهية الآخـر ولا يمكـن التدخل في شئونها الداخلية وفق ميثاق الأمم المتحدة الحـالي وهذا هو الجانب الثقافي للقضية وليس له آليـة لعلاجـه لأن اليونسكو الدولي في باريس ليس لديه مجلس أمن ثقافي يدق ناقوس الخطر.

أما وقد صار الإرهاب فردا أو جماعة " سرية "تستخدم أرقى أنواع ومنجزات التكنولوجيا الراقية فإن مكافحتـه لـن تكون بتجييش الجيوش وإنما بشبكات الاتصالات " الذكيـة " لمعرفة أسرارهم ومفاهيمهم وبعدها وربما قبله يكون العلاج الثقافي والفكري والديني هي أمور فـي حاجـة إلـى عـدة مؤتمرات بين متخصصين تسبق المؤتمر الدولي الذي دعـا إليه الرئيس مبارك منذ عام ١٩٨٦ ولسـوف تأخـذ بهـذا الاقتراح الأمم المتحدة قريبا بعد انتهاء الجانب العسكري.

ومن المفارقات الجديرة بالتسجيل فـي هـذا الظـرف التاريخي أن الولايات المتحدة والتي اهتزت من انفجـارات خططت لها وربما جماعة القاعدة التـي يرأسـها ويـديرها ويمولها أسامة بن لادن نقول أن الولايات المتحدة ذاتها هـي التي نشطت الأديان – على تنوعها – وذلك منذ عام ١٩٥٥ عندما أعلن جون فوستو دالاس وزير خارجية أمريكا وقتهـا أن أمريكا لا بد أن تستعين بالأديان لمقاومـة الشـيوعية – والتي صارت وقتها وكأنها دوجما لا يقاومها ويقضي عليهـا إلا دوجما أقوى وأكثر رسوخًا في وجدان البشر لأنها أعمق تاريخيا وهي الأديان فكان أن أسس ما كان يعـرف وقتهـا

بعبـارة معبـد التفـاهم – The temple of understanding وتفرعت منه عشرات التنظيمات مثل مجلس الكنائس العالمي وله تنظيماته الإقليمية وحتى الآن ثم المؤتمر الإسلامي وذلك بجوار التنظيمات القائمة لليهود والصهيونية وكذلك نشـطوا تنظيمات دينية للهندوس والبوذية والكنفوشية وغيرهـا ثـم قامت جسور ثقافية بينها مثل حوار الأديان وفـي مقـدمتها الحوار الإسلامي – المسيحي وهو أمر قائم حتى الآن وقـد اجتمع مؤخرا وعلي عجل في روما من خلال جمعية أهليـة شهيرة هي جمعية سانت إيجيدويو واستمرت عمليـة تعبئـة الأديان لمكافحة الشـيوعية بواسـطة أجهـزة المخـابرات الأمريكية بالذات من منتصف الخمسينيات إلـى أن كانـت الذروة أو القشة التي قصمت ظهر البعير عندما تـم تعبئـة المجاهدين من كل أطراف العالم الإسلامي لتحرير أفغانستان بعد أن غزوها بواسطة الاتحاد السـوفيتي ١١ ينـاير عـام ١٩٧٩ فقد فتحت الولايات المتحدة مكاتب لجمع المتطوعين وكانت تمدهم بالسلاح حتى تستكمل خطتها لإغراق الجـيش الأحمر في مستنقع يستنزف طاقته فـلا يسـتطيع الخـروج وهكذا التقت مصالح الولايات المتحدة والتيارات الإسـلامية

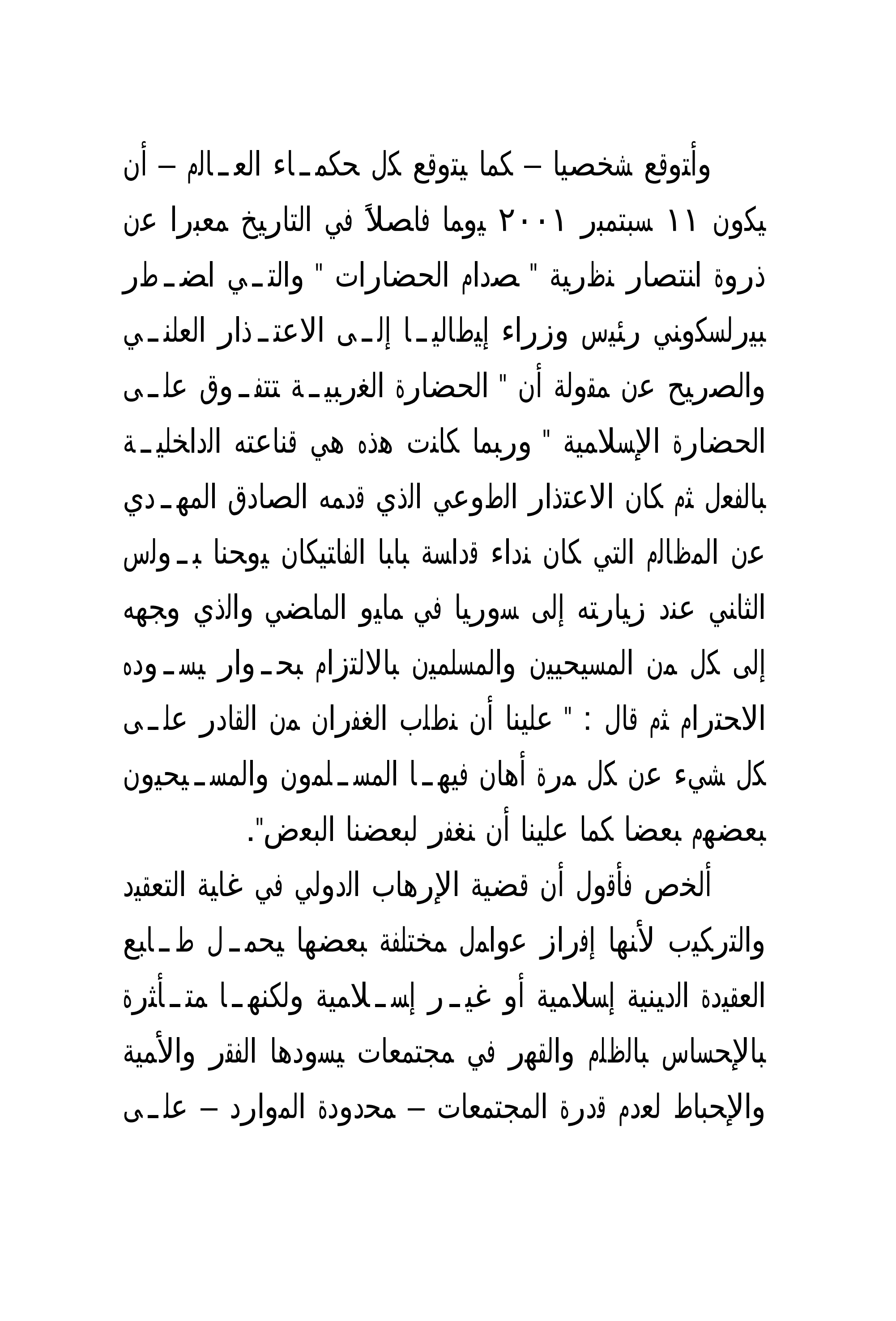
الجهادية ولكنه كان التقاء مؤقتًا يقوم علـى مصـلحة آنيـة ويزول بزوالها".

" وفي عام ١٩٨٤ وفي ظل تلك الأجواء" من " تلاقـي المصالح" تأسس " بيت الأنصار " في بيشاور فكان محطـة استقبال أولى للراغبين في الالتحاق بالجهاد قبـل تـوجههم للتدريب ثم المشاركة في المعارك ، وقد حصل المجاهـدون على دعم كبير من أمريكا لم يتمثل في التـدريب العسـكري المعتاد الخفيف فحسب بـل تطـور لتزويـدهم بصـواريخ "ستنجر " التي أفقدت الجيش الأحمر سيطرته على الطيـران وتسبب ذلك في خسائر بشرية فادحة في صفوف السوفيت!!

وتكمن الإشكالية العالمية الآن في أنه في بحر العشـر السنوات الماضية وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي وحرب الخليج ظهرت الصحوة الإسلامية وازدياد النفوذ الاقتصادي والديني للدول البترولية الإسلامية ومع سيادة القطب الأمريكي الأوحد تولدت مشاعر الإحساس بالظلم في جهات كثيرة في العـالم في مقدمتها فلسطين حيث خط المواجهة الـرئيس للصـراع العربي الإسرائيلي وهناك أيضا المعاناة والقهر الناجم عـن مظالم الحرب الأهلية في السودان لمدة ١٨ عامـا متصـلة

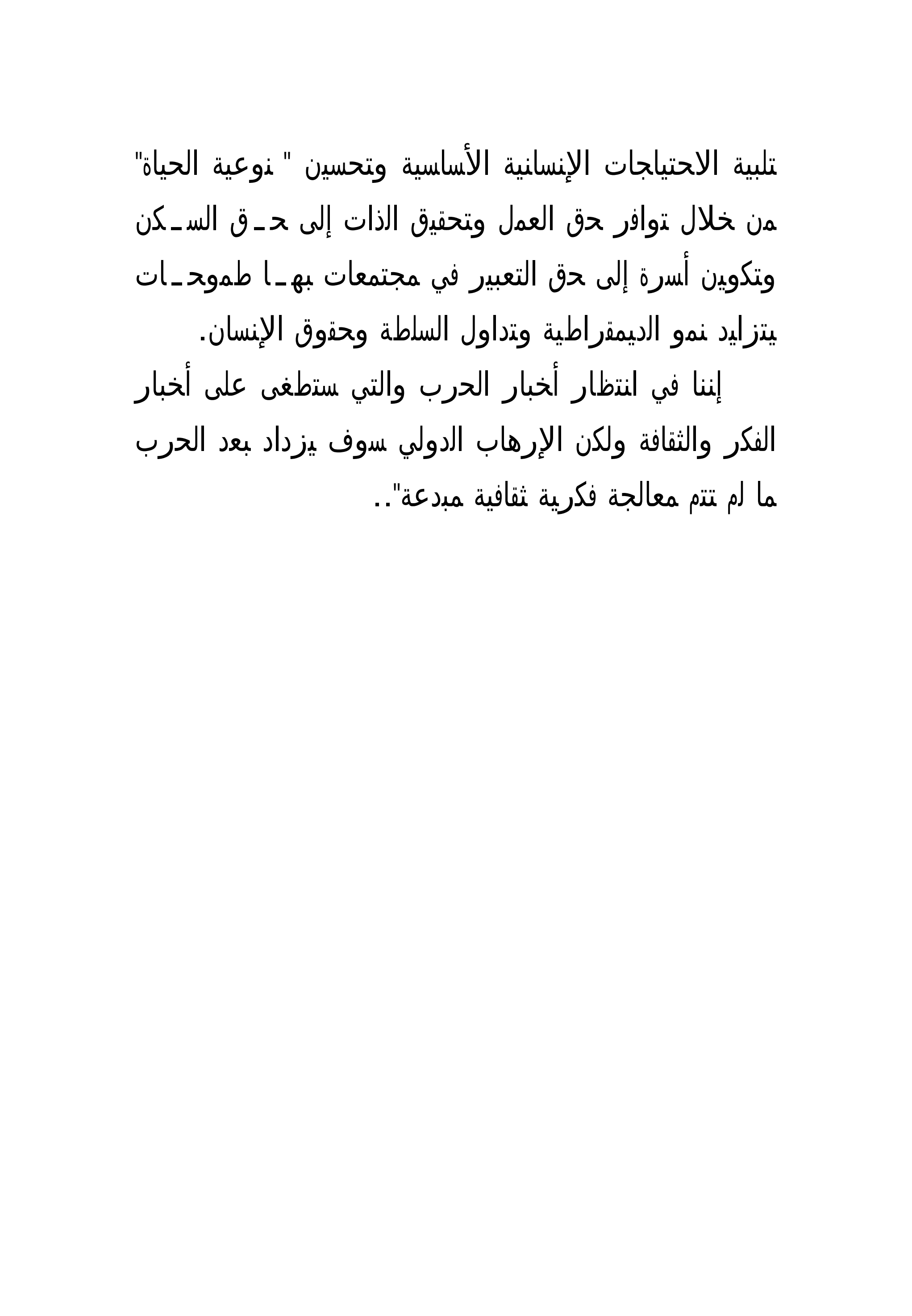
والصراعات بين القبائل في أفريقيـا وتفكـك الدولـة فـي الصومال واتساع الفجوة بين الأثرياء والفقراء فـي العـالم والمعايير المزدوجة في قرارات الغرب عمومـا والولايـات المتحدة خصوصا وصيرورة مجلس الأمن ومؤسسات الأمـم المتحدة وكأنها أجهزة تابعة لـلإدارة الأمريكيـة كـل تلـك العوامل وغيرها أدت إلى ازدياد " الكراهية" لأمريكا وعندما تمت عمليات انفجارات بنيويورك وواشنطن امتزجت مشاعر الحزن على قتل الأبرياء مع حالة من " التشفي" عندما أمكن الرد والانتقام من مظالم وغطرسة أمريكا ولكن ذكاء الآليات الأمريكية وقدرتها على التحرك السريع لمواجهـة الموقـف الجديد قد جعل أمريكا تراجع مجمل توجهاتها ويبدو التغيـر في اتجاه الريح لمعظم سياساتها الخارجية وكانت البداية فـي إعلان عن قبول مبدأ قيام الدولة الفلسطينية" ، والمتوقـع أن ينشط دور السيناتور جون دانفورث John Danforth والـذي تم تنصيبه يوم ٦ سبتمبر الماضي (أي قبل خمسة أيام مـن زلزال هذا الثلاثاء الدامي) ليكون الممثل الشخصي للرئيس بوش في محاولة " للالتزام العميق لتحقيق هدف السلام فـي السودان".

ولو تحقق الحلم في دولة فلسطين في الشمال ثم إيقـاف الحرب كبداية للسلام في السودان الحبيب فـإن الإحسـاس بالمظالم والمعاناة والاضطهاد وعدم الاستقرار سوف تخـف تدريجيا في المنطقة في اتجاه مناخ ثقافي جديد يـدعو إلـى "قبول الآخر " وهي عملية ثقافية لها أبعادها فـي مجـالات التعليم والإعلام والدين وتحتاج لوقت ليس بالقصـير" لبنـاء الثقة " بين القيادات بالبعد عن " التعالي التاريخي وصولاً إلى التآخي المستقبلي" وهو أمل في حاجة لجهد وفكـر حكمـاء البلدان العربية والأفريقية ،وفي المقدمة المبادرة الأمريكيـة التي تملك المال والنفوذ السياسي –ذلك أن هنـاك تيـارات وتجمعات أمريكية التي تملك المال والنفوذ السياسي – ذلك أن هناك تيارات وتجمعات أمريكية مؤثرة وفاعلـة وغيـر موافقة على السياسات الأمريكية الحالية لكن الإعلام عناه في بلادنا ليكاد لا يكون موجودا أو معترفًا به وعلينا البحث عن " أمريكا الأخرى" فهي منحازة إلى قضايا الجنـوب عمومـا وفي مقدمتها الجمعيات الأهلية والدينية التي تتابع ما يجـري في فلسطين والسودان.



وأتوقع شخصيا – كما يتوقع كل حكمـاء العـالم – أن يكون ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يوما فاصلاً في التاريخ معبرا عن ذروة انتصار نظرية " صدام الحضارات " والتـي اضطـر بيرلسكوني رئيس وزراء إيطاليـا إلـى الاعتـذار العلنـي والصريح عن مقولة أن " الحضارة الغربيـة تتفـوق علـى الحضارة الإسلامية " وربما كانت هذه هي قناعته الداخليـة بالفعل ثم كان الاعتذار الطوعي الذي قدمه الصادق المهـدي عن المظالم التي كان نداء قداسة بابا الفاتيكان يوحنا بـولس الثاني عند زيارته إلى سوريا في مايو الماضي والذي وجهه إلى كل من المسيحيين والمسلمين بالالتزام بحـوار يسـوده الاحترام ثم قال : " علينا أن نطلب الغفران من القادر علـى كل شيء عن كل مرة أهان فيهـا المسـلمون والمسـيحيون بعضهم بعضا كما علينا أن نغفر لبعضنا البعض".

ألخص فأقول أن قضية الإرهاب الدولي في غاية التعقيد والتركيب لأنها إفراز عوامل مختلفة بعضها يحمـل طـابع العقيدة الدينية إسلامية أو غيـر إسـلامية ولكنهـا متـأثرة بالإحساس بالظلم والقهر في مجتمعات يسودها الفقر والأمية والإحباط لعدم قدرة المجتمعات – محدودة الموارد – علـى



تلبية الاحتياجات الإنسانية الأساسية وتحسين " نوعية الحياة" من خلال توافر حق العمل وتحقيق الذات إلى حـق السـكن وتكوين أسرة إلى حق التعبير في مجتمعات بهـا طموحـات يتزايد نمو الديمقراطية وتداول السلطة وحقوق الإنسان.

إننا في انتظار أخبار الحرب والتي ستطغى على أخبار الفكر والثقافة ولكن الإرهاب الدولي سوف يزداد بعد الحرب ما لم تتم معالجة فكرية ثقافية مبدعة"..

5

المعتـدلون فـي الأديـان الإبراهيمـة يتحالفون لقبول الآخر

أتذكر الآن البهجة والسعادة والأمل الذي عم كل أنحـاء العالم عندما كان سكان هذا الكوكب يحتفلون بنهاية الألفيـة الثانية ليلة ٣١ ديسمبر عام ١٩٩٩ وكنت محظوظًا فـي أن قضيت هذه المناسبة التاريخية مع الرئيس وفـي مقصـورته المطلة على الهرم الأكبر في مشهد لا ينسى ولحظة فاصـلة في تاريخ البشر فكل الآمال كانت متعلقـة بـأحلام ورديـة متوقعين أن الألفية الثالثة لن ترى حربا عالمية وسـتتخلص تدريجيا من الحروب الأهلية لأن الكراهية الجماعية ستتلاشى لأن أحدا منا لم يختر لون بشرته أو ديانته ولذا قررت الأمم المتحدة أن يكون عام ٢٠٠٠ لنشر ثقافة السلام ثم تابعت ذلك بأن خصصت عام ٢٠٠١ ليكون عام حـوار الحضـارات. وبدلاً من أن يتواصل حوار الحضارات ليؤتي ثماره وقبل أن ينتهي عام ٢٠٠١ إذ بالعالم يجن ويهتز ويصرخ لما حـدث لأمريكا يـوم الثلاثـاء الحـزين ١١ سـبتمبر ٢٠٠١ وإذ بالكراهية تتعمق وتزداد ومعها قلق شديد فالكل يتساءل : إلى

أين نحن ذاهبون،ومن بين التساؤلات الكثيرة والممتدة نتعجب ونبحث عن الحل.

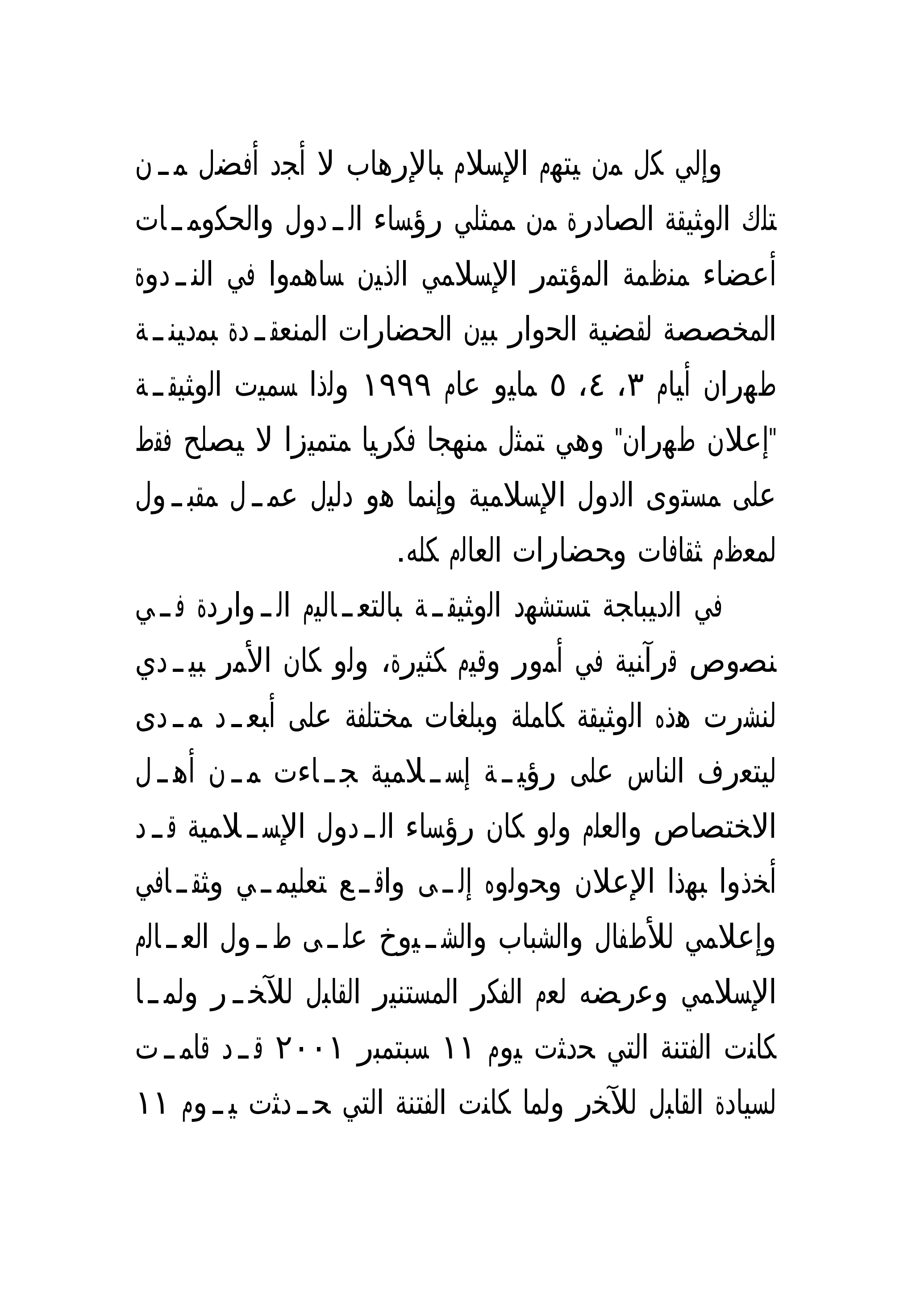
**كان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٥/٥٢ بأن تكون سنة ٢٠٠٠ مخصصة لنشر " ثقافة السلام" والتـي تعني – حسب نص القرار – "التآلف من القـيم والمواقـف وأنماط السلوك التي تمثل وتلهم التفاعـل والتشـارك علـى أساس الحرية والعدل والديمقراطية والتسامح والتضامن الذي يرفض العنف أي أنها (أي هذه الثقافة العالميـة الجديـدة) تهدف إلى منع نشوب الصراعات عن طريق معالجة وحـل المشاكل من خلال الحوار والتفاوض.

ومضى عام ٢٠٠٠ دون أن نلمس – كمثقفين أو كبشر – أن هذا الكلام الجميل (الوارد في تقارير وإعلانات الأمـم المتحدة) قد تحول إلى واقع وهو الأمر الذي دفعني – فـي هذا المقال تحديدا – لأن أدعو لإنشاء أو تطوير الأمم المتحدة لتدير العالم بحسم وفاعلية وسلطات تتناسب مع أوضاع العالم الجديد، كما أدعو إلى تحالف ثقافي وجـداني آخـر ينمـي التقارب بين البشر خصوصا بعد تفكك الاتحـاد السـوفيتي

وسيادة القطب الواحد وانتشار التكنولوجيـا الراقيـة التـي فرضت " الشفافية" والتي كان اختراقها واستخدامها بواسـطة مجموعات صغيرة – من كل دين وحضارة- خلقت الرعب والقلق في العالم.

ثم جاءت فكرة رائعة بمبادرة من دولة إسلامية مشرقية فقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارهـا ٥٣/٢٢ أن يكون عام ٢٠٠١ مخصصا للحوار بين الحضارات ويكـون ذلك وفق النص " بأن تدعم الحكومـات ومنظومـة الأمـم المتحدة بما فيها " اليونسكو، تخطيط وتنفيذ بـرامج ثقافيـة وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيـز مفهـوم الحـوار بـين الحضارات بوسائل من بينها تنظيم المـؤتمرات والحلقـات الدراسية ونشر المعلومات بشأن هذا الموضوع وأن تبلغنـي بالأنشطة التي تعتزم القيام بها – وهذا كلام كوفي يعنـان – كما طالبني القرار أن أقدم للجمعية العامة في دورتهـا الــ ٥٤ تقريرا مؤقتًا عن الأنشطة المطلع بها في هذا الصدد وان أقدم إليها تقريرا نهائيا في دورتها الـ ٥٥".

***



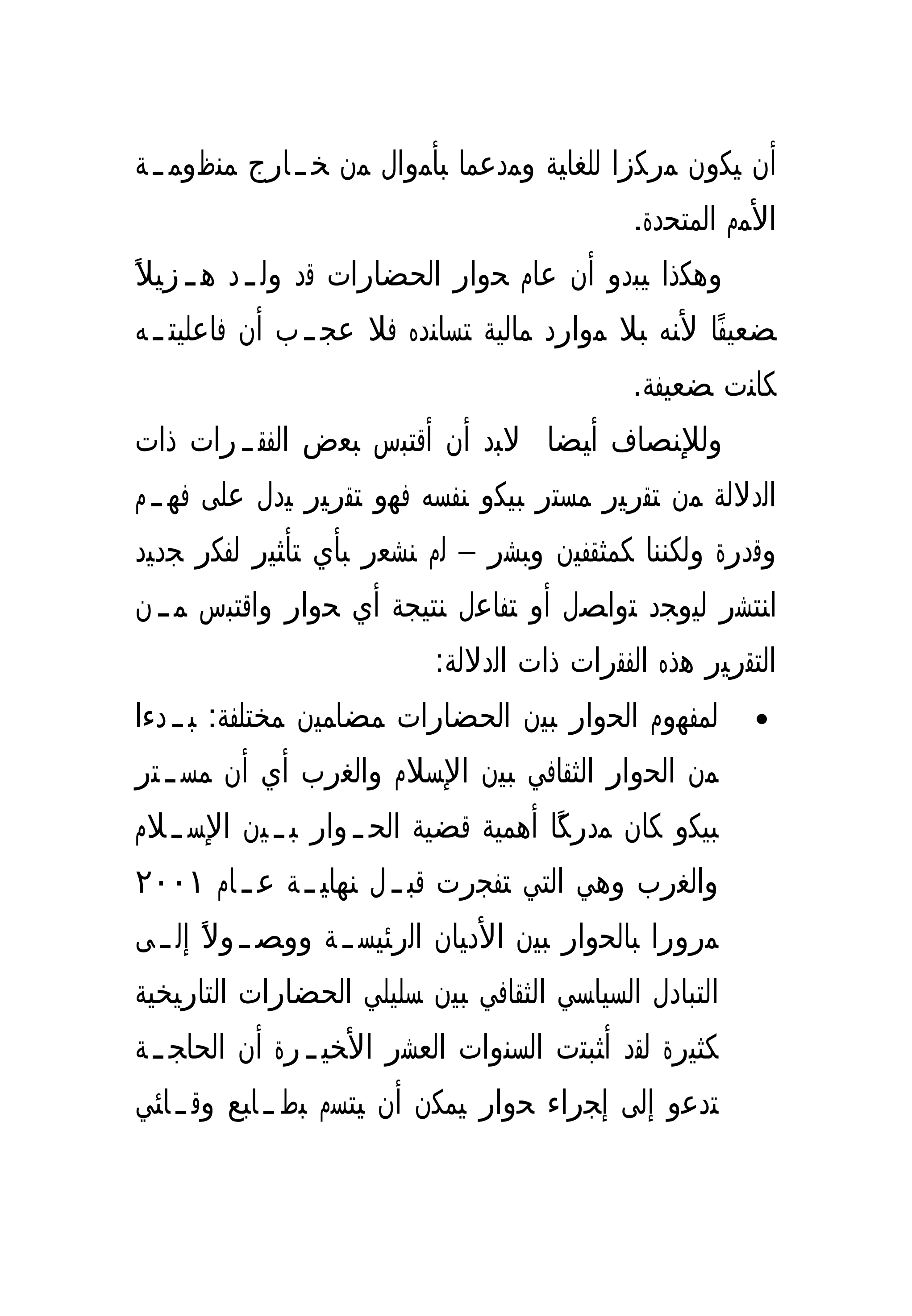
وإلي كل من يتهم الإسلام بالإرهاب لا أجد أفضل من تلك الوثيقة الصادرة من ممثلي رؤساء الدول والحكومات أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي الذين ساهموا في الندوة المخصصة لقضية الحوار بين الحضارات المنعقدة بمدينة طهران أيام ٣، ٤، ٥ مايو عام ١٩٩٩ ولذا سميت الوثيقة "إعلان طهران" وهي تمثل منهجا فكريا متميزا لا يصلح فقط على مستوى الدول الإسلامية وإنما هو دليل عمل مقبول لمعظم ثقافات وحضارات العالم كله.

في الديباجة تستشهد الوثيقة بالتعاليم الواردة في نصوص قرآنية في أمور وقيم كثيرة، ولو كان الأمر بيدي لنشرت هذه الوثيقة كاملة وبلغات مختلفة على أبعد مدى ليتعرف الناس على رؤية إسلامية جاءت من أهل الاختصاص والعلم ولو كان رؤساء الدول الإسلامية قد أخذوا بهذا الإعلان وحولوه إلى واقع تعليمي وثقافي وإعلامي للأطفال والشباب والشيوخ على طول العالم الإسلامي وعرضه لعم الفكر المستنير القابل للآخر ولما كانت الفتنة التي حدثت يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد قامت لسيادة القابل للآخر ولما كانت الفتنة التي حدثت يوم ١١

سبتمبر ٢٠٠١ قد قامت لسيادة صحيح الدين ولما كان قد ادعى المدعون بما يروجون من الربط بين الإسلام والإرهاب وهم قوم كانت رؤيتهم قاصرة على نصوص بعينها ولم يروا الصورة " الكلية " التي طرحها إعلان طهران ومن غير المقبول أن يزايد أحد على خاتمي !!

ولو كان الأمين العام للأمم المتحدة قد سارع الخطى ووسع دائرة الإعلام لتنفيذ قرار الجمعية العامة بأن يكون عام ٢٠٠١ هو عام الحوار بين الحضارات وربما لتأجل قرار الجماعة التي نفذت انفجارات ١١ سبتمبر وربما لما كان العالم قد وصل إلى حالة الهستيريا التي وصل إليها صحيح أن الأمين العام كوفي عنان يذكر في تقريره أنه قد أصدر قرارا في أغسطس آب ١٩٩٩ بتعيين جياندو مينيكو بيكو ممثلاً شخصيا له ليساعده في هذه المهمة.

وصحيح أيضا أن مستر بيكو قد قام بالفعل بإجراء اتصالات مع بعض المجموعات الإقليمية والحكومات وصحيح أن الأمين العام قد أشار في تقريره إلى نقص الموارد المالية وأن أي مشروع يضطلع به مستر بيكو يتعين

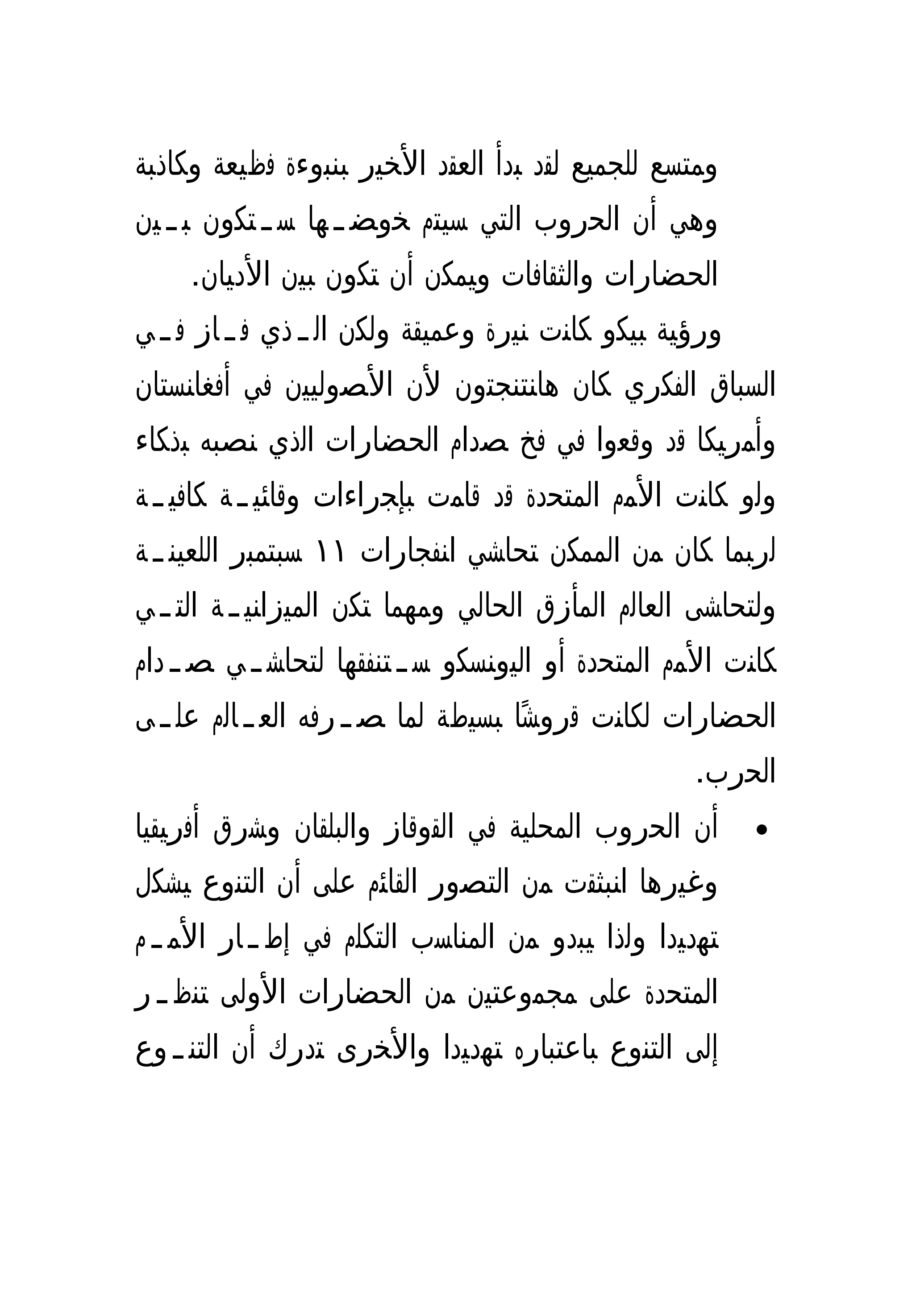


أن يكون مركزا للغاية ومدعما بأموال من خـارج منظومـة الأمم المتحدة.

وهكذا يبدو أن عام حوار الحضارات قد ولـد هـزيلاً ضعيفًا لأنه بلا موارد مالية تساندہ فلا عجـب أن فاعليتـه كانت ضعيفة.

وللإنصاف أيضا لابد أن أقتبس بعض الفقـرات ذات الدلالة من تقرير مستر بيكو نفسه فهو تقرير يدل على فهـم وقدرة ولكننا كمثقفين وبشر – لم نشعر بأي تأثير لفكر جديد انتشر ليوجد تواصل أو تفاعل نتيجة أي حوار واقتبس مـن التقرير هذه الفقرات ذات الدلالة:

- لمفهوم الحوار بين الحضارات مضامين مختلفة: بـدءا من الحوار الثقافي بين الإسلام والغرب أي أن مسـتر بيكو كان مدركًا أهمية قضية الحـوار بـين الإسـلام والغرب وهي التي تفجرت قبـل نهايـة عـام ٢٠٠١ مرورا بالحوار بين الأديان الرئيسـة ووصـولاً إلـى التبادل السياسي الثقافي بين سليلي الحضارات التاريخية كثيرة لقد أثبتت السنوات العشر الأخيـرة أن الحاجـة تدعو إلى إجراء حوار يمكن أن يتسم بطـابع وقـائي



ومتسع للجميع لقد بدأ العقد الأخير بنبوءة فظيعة وكاذبة وهي أن الحروب التي سيتم خوضها ستكون بين الحضارات والثقافات ويمكن أن تكون بين الأديان.

ورؤية بيكو كانت نيرة وعميقة ولكن الذي فاز في السباق الفكري كان هانتنجتون لأن الأصوليين في أفغانستان وأمريكا قد وقعوا في فخ صدام الحضارات الذي نصبه بذكاء ولو كانت الأمم المتحدة قد قامت بإجراءات وقائية كافية لربما كان من الممكن تحاشي انفجارات ١١ سبتمبر اللعينة ولتحاشى العالم المأزق الحالي ومهما تكن الميزانية التي كانت الأمم المتحدة أو اليونسكو ستنفقها لتحاشي صدام الحضارات لكانت قروشًا بسيطة لما صرفه العالم على الحرب.

- أن الحروب المحلية في القوقاز والبلقان وشرق أفريقيا وغيرها انبثقت من التصور القائم على أن التنوع يشكل تهديدا ولذا يبدو من المناسب التكلم في إطار الأمم المتحدة على مجموعتين من الحضارات الأولى تنظر إلى التنوع باعتباره تهديدا والأخرى تدرك أن التنوع

هو عنصر متمم من عناصر النمو وينبغـي أن يقـوم الحوار بين هاتين المجموعتين من الحضارات.

ترى ما الذي قام به مستر بيكو لتحقيق الحـوار بـين هاتين المجموعتين وهل كان ذلك ممكنًا ومن سـوف يمثـل الحضارة (أية حضارة) فالأمم المتحـدة هـي جملـة دول وليست حضارات.

- بإمكان منظمة الأمم المتحدة أن تسهم في الحوار بـين الحضارات ولكن ليس بإمكانهـا أن تخترعـه . أي أن مستر بيكو ومنذ البداية كان مدركًا صـعوبة اختـراع الحوار بين الحضارات.

***

أما وقد انقضى الجزء الأكبر من عام ٢٠٠١ ولم نـر ثمارا لحوار الحضارات بل أعتقد أن ما تم من جهد بواسطة كل من اليونسكو أو مستر بيكو كان اسـتيفاء الشـكل دون المضمون وذهب الجهد المحدود أدراج الرياح.

أما وقد تم تدمير ما دمر في أكبر مـدن أمريكـا يـوم الثلاثاء الحزين فقد تغير المناخ الثقـافي العـالمي وحلـت

الكراهية محل قبول الآخر ومات حوار الحضارات وعلينا أن نبني بأظفارنا كل شيء جديد.

أما وقد أعلنت أمريكا وإنجلترا الحرب على أفغانسـتان بهدف إسقاط نظام الحكم فيها لأنه يأوي أسامة بن لادن الذي تؤكد أمريكا أنه الرأس المدبر لما جرى فقد أصيب المفكرون بالشلل للمخرج الثقافي من المأزق ونحن منتظرون ما ستسفر عنه قرارات السياسيين والعسكريين فهي حرب مـن نـوع جديد تماما بها تحالف قوي ظاهر وعدو مختف في الكهوف وفي ضمائر ملايين البشـر المصـابين بالإحبـاط والفقـر فالمعركة إذن غير متكافئة والنتائج يخفيها القدر.

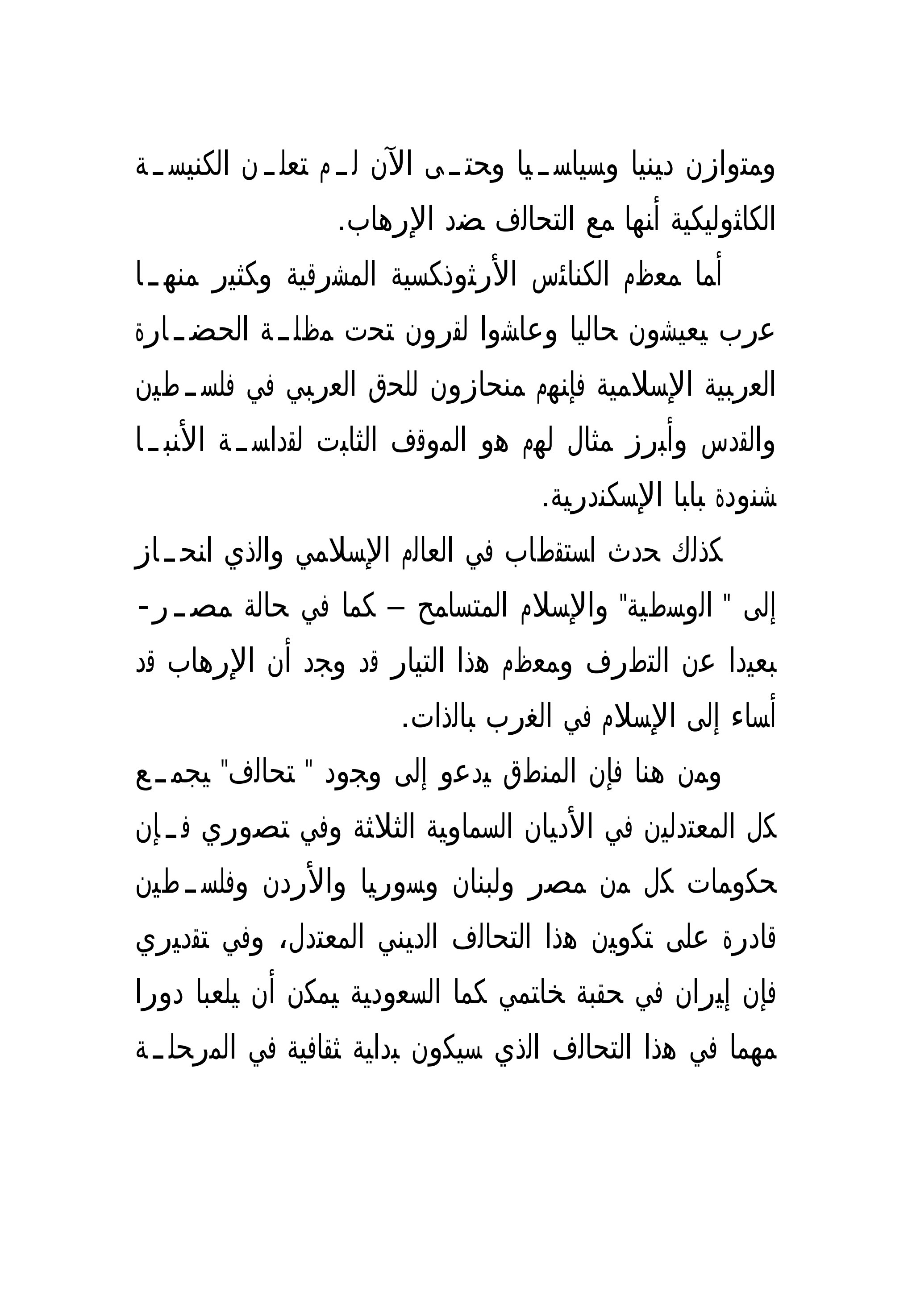
لقد تحركت أمريكا برشاقة وفي هدوء لتكسب أصـدقاء للتحالف الذي تبنيه ضد الإرهاب فانحازت إنجلترا انحيـازا كاملاً وتبعتها ألمانيا إلى حد كبير ورغبت اليابان أن تشارك حتى لا تستبعد من الساحة وسافر كولن باول إلى الهند لتتفق معه ضد الإرهاب والثمن هو " كشمير " وقبلها سـافر إلـى باكستان ولكن الصراع لم يحسم بعد في شبه القارة الهنديـة لأنه صراع قديم مفتوح لكل الاحتمالات.

وأخيرا وليس آخرا سافر الرئيس جورج بوش بنفسـه ومعه رجاله ليكسب الصين والشرق الأقصى في " التحـالف ضد الإرهاب " وقبل ذلك كانت روسيا الاتحادية قد أعلنـت موقفها لتسترجع بعضا من "مكانة" الاتحاد السوفيتي ولتبـرر ما قامت به في الشيشان.

وفي وسط الزحام تزداد أحداث القتل في فلسطين علـى الرغم من إدراك أمريكا أن الصراع العربي – الإسرائيلي قد صار صراعا عالميا وليس محليا وأنه دون حسمه سيظل الدم والحقد والكراهية في تزايد لتولد مناخًا عاما قلقًا – ليس فـي المنطقة وحدها – وإنما في العالم كله، فقـد تـم اسـتقطاب "داخل" الأديان الإبراهيمية الثلاثة في هذه القضية المحوريـة فمعظم اليهود داخل إسرائيل وخارجها يعملون على استمرار تفوق إسرائيل بقوة السلاح والقتل أي من خـلال " القهـر" وبجوارها قلة محدودة من اليهود العلمانيين يصـرخون دون جدوى فأصواتهم غير مسموعة وسط الصخب العالمي ولسان حالهم ينادي: دعنا نعـش فـي فلسـطين مـع المسـلمين والمسيحيين كمواطنين وبشر عاديين دون " تعال" وسـيتولد

"التآخي " مع الزمن ولكنهم قلة في الوقت الحالي وقد تتغير موازين القوى مع الزمن.

أما المسيحيون – وعلي مستوى العالم- وهم قوة ضخمة مؤثرة – ولكنهم عبر التاريخ تفرقوا إلى مذاهب مختلفة – وعلي سبيل المثال فداخل أمريكا ذاتها تحالفت قطاعات من المسيحيين البروتستانت مع قطاعات من اليهود وانحازوا إلى إسرائيل (لأسباب دينية كتابية متخصصة ليس هذا موقعها) وقد صارت هذه الكتلة شديدة التأثير على القرار الأمريكي الحالي المنحاز لإسرائيل والذي أدى إلى إحباط العرب ،وفي المقابل – حسبما جاء في مقال د. القس مكرم نجيب – الأهرام الجمعة ٢٠٠١/١٠/١٠ توجد الكنائس المسيحية واللوثرية والأسقفية وهي التي يطلقون عليها الكنائس الرئيسة "Main Churches" وهي التيار الغالب عددا ولكنه – فيما أتصور – ليس الأعلى صوتًا ولم يحدث أن حاولنا نحن العرب بناء جسور ثقافية مع هذه الجماعة المهمة وبجوار هذه الكنائس البروتستانية في أمريكا وغيرها يوجد ثقل الكنيسة الكاثوليكية وهي أيضا لها موقف معتدل


ومتوازن دينيا وسياسـيا وحتـى الآن لـم تعلـن الكنيسـة الكاثوليكية أنها مع التحالف ضد الإرهاب.

أما معظم الكنائس الأرثوذكسية المشرقية وكثير منهـا عرب يعيشون حاليا وعاشوا لقرون تحت مظلـة الحضـارة العربية الإسلامية فإنهم منحازون للحق العربي في فلسـطين والقدس وأبرز مثال لهم هو الموقف الثابت لقداسـة الأنبـا شنودة بابا الإسكندرية.

كذلك حدث استقطاب في العالم الإسلامي والذي انحـاز إلى " الوسطية" والإسلام المتسامح – كما في حالة مصـر- بعيدا عن التطرف ومعظم هذا التيار قد وجد أن الإرهاب قد أساء إلى الإسلام في الغرب بالذات.

ومن هنا فإن المنطق يدعو إلى وجود " تحالف" يجمـع كل المعتدلين في الأديان السماوية الثلاثة وفي تصوري فـإن حكومات كل من مصر ولبنان وسوريا والأردن وفلسـطين قادرة على تكوين هذا التحالف الديني المعتدل، وفي تقديري فإن إيران في حقبة خاتمي كما السعودية يمكن أن يلعبا دورا مهما في هذا التحالف الذي سيكون بداية ثقافية في المرحلـة

القلقة الحالية التي تحتاج إلى مخرج عـالمي مـن العنـف المتبادل والمتنامي لتنزع فتيل العنف.

دعنا نأمل لو استهوت الفكرة حكومة مصـر – وهـي نموذج للوحدة الوطنية –يمكنها أن تدعو الحكومات المرحبة بذلك لفتح حوار بين الأديان أولاً وهو أمر قائم بالفعـل فـي اتجاه توسيعه ليصير فيما بعد حوار الحضارات في الوقـت القريب المناسب.

أما قضية تعديل ميثاق الأمم المتحدة فأراهـا – رغـم أهميتها – لا تثير اهتمام الحكام حاليا فالكل منشغل بمتابعـة المفاجآت اليومية لما يجري في العالم بل لعلها لا تثير خيال المفكرين ذلك أن إدارة العالم في الأوضاع الحالية بعـد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لن تحل من خـلال الميثـاق أو التنظيمـات الحالية للأمم المتحدة لأن مجلـس الأمـن الحـالي ينـاقش احتمالات " الحروب " ولكنـه لا يراقـب نمـو الكراهيـة "الجماعية" التي توصل إلى الحروب الأهلية وهـي مشـكلة ثقافية في المقام الأول.

فالحرب الحالية لن يكون في مقدورها القضـاء علـى الإرهاب بل ستؤدي إلى مزيد مـن الإرهـابيين المحيطـين

بالقهر،ومن هنا كان وجود " تحالف بديل قابل للآخـر" فـي إطار الأديان الإبراهيمية سيكون خطوة نحو بنـاء تحالفـات تمتد إلى الثقافات البوذية في الهند والكنفوشية فـي الصـين وهو أمر دعوت له عدة مرات في السابق- كما لو كنت أقرأ المستقبل – ولكن كثيرين هاجموا المبدأ لأن الهند في حالـة صراع مع باكستان وهي نظرة لا ترى إلا بمقياس الانحيـاز إلى الانتماء الديني في حـين أن المعايشـة بـين الأقبـاط والمسلمين في مصر كانت نموذجا قـابلاً للتعمـيم ولـيس للتعتيم..

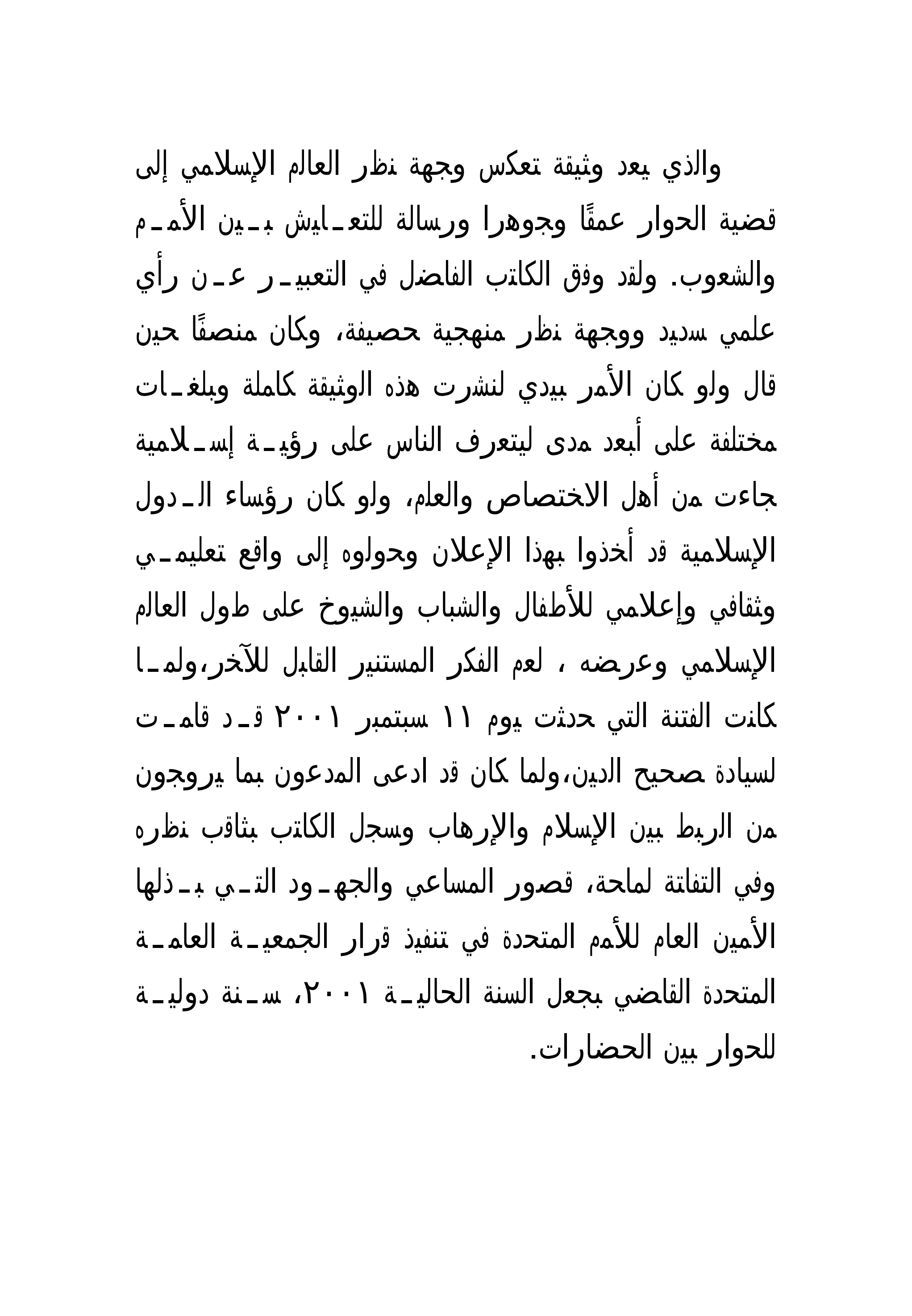
د. عبد العزيز التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم بالرباط

الحوار قوة دفع لبناء السلام [*]

** قرأت بإمعان وتقدير، المقال الرائع الذي نشره الأستاذ الدكتور ميلاد حنا تحت عنوان (المعتدلون في الأديان الإبراهيمية يتحالفون لقبول الآخر)، في عدد الأهرام ليوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر ٢٠٠١م. لقد ركز الكاتب المفكر في مقاله على إعلان طهران حول الحوار بين الحضارات الذي يعبر عن موقف دول منظمة المؤتمر الإسلامي إزاء الدعوة العالمية إلى الحوار بين الحضارات والثقافات..

---

[*] .. ولكي يكتمل الحوار.. كان لزاما علينا نشر تعليق الدكتور/ عبد العزيز التويجري بجريدة الأهرام على مقال " المعتدلون في الأديان الإبراهيمية يتحالفون لقبول الآخر".



والذي يعد وثيقة تعكس وجهة نظر العالم الإسلامي إلى قضية الحوار عمقًا وجوهرا ورسالة للتعـايش بـين الأمـم والشعوب. ولقد وفق الكاتب الفاضل في التعبيـر عـن رأي علمي سديد ووجهة نظر منهجية حصيفة، وكان منصفًا حين قال ولو كان الأمر بيدي لنشرت هذه الوثيقة كاملة وبلغـات مختلفة على أبعد مدى ليتعرف الناس على رؤيـة إسـلامية جاءت من أهل الاختصاص والعلم، ولو كان رؤساء الـدول الإسلامية قد أخذوا بهذا الإعلان وحولوه إلى واقع تعليمـي وثقافي وإعلامي للأطفال والشباب والشيوخ على طول العالم الإسلامي وعرضه ، لعم الفكر المستنير القابل للآخر،ولمـا كانت الفتنة التي حدثت يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قـد قامـت لسيادة صحيح الدين،ولما كان قد ادعى المدعون بما يروجون من الربط بين الإسلام والإرهاب وسجل الكاتب بثاقب نظره وفي التفاتة لماحة، قصور المساعي والجهـود التـي بـذلها الأمين العام للأمم المتحدة في تنفيذ قرار الجمعيـة العامـة المتحدة القاضي بجعل السنة الحاليـة ٢٠٠١، سـنة دوليـة للحوار بين الحضارات.

وأود أن أختتم هذه المناسبة لأذكر قراء (الأهرام) بأن العالم الإسلامي كان سباقًا إلى طرح فكرة تخصيص سنة دولية للحوار بين الحضارات، فقد صدرت المبادرة أولاً من سيادة الرئيس الإيراني محمد خاتمي في كلمة لو ألقاها أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، ثم تبنت منظمة المؤتمر الإسلامي في فترة رئاسته لها، خلال دورة مؤتمر القمة الإسلامي الثامنة، هذه القضية حيث أوصى المؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية في دورته السادسة والعشرين بتبني الدعوة إلى الحوار بين الحضارات،ودعا إلى إعداد وثيقة تعبر عن رؤية العالم الإسلامي إلى الحوار،وهي الوثيقة التي عرفت بـ (إعلان طهران حول الحوار بين الحضارات) الذي صدر عن الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات التي عقدت في طهران في الفترة ما بين ٣ و ٥ مايو ١٩٩٩. وكان هذا الإعلان هو الأساس الذي انطلقت منه منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة. وكانت المهمة التي أوكلت إلى هذه اللجنة هي وضع تصورات عامة تعبر عن وجهة النظر الإسلامية لتطعيم مشروعي الوثيقتين العالميتين حول الحوار بين الحضارات المعاصرة.

فعاليات العام الدولية

وفي هذا الإطار تحركت منظمة المـؤتمر الإسـلامي، بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلـوم والثقافـة – إيسيسكو- لبلورة تصورات منهجية وعمليـة للحـوار بـين الحضارات وللمساهمة في وضع مبادئ إنسانية لهذا الحوار، على أسس حضارية وثقافيـة، ومـن منطلقـات إنسـانية، وباستلهام روح الدين الإسلامي والعمل بمقتضـى تعاليمـه السمحة،وقد تمثلت الجهود التي قامت بها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في هذا المجال، مساهمة منهـا فـي أنشطة السنة الدولية للحوار بين الحضارات في تنظيم ندوتين دوليتين، الأولى حول موضوع (الحوار بين الحضارات في عالم متغير)عقدت في الرباط تحت الرعاية السامية للعاهـل المغربي الملك محمد السادس، في الفترة ما بـين ١٠ و ١٢ يوليو ٢٠٠١ بمشاركة صفوة من المفكرين والأكاديميين من البلدان العربية الإسلامية ومن بعض الدول الغربيـة، وقـد صدر عن هذه الندوة (بيان الربـاط حـول الحـوار بـين الحضارات) . أما الندوة الثانية فسنعقدها، إن شـاء ا فـي تونس في الفترة ما بـين ١٢ و ١٣ نـوفمبر ٢٠٠١ تحـت

عنوان (الحوار بين الحضارات: التنظير والتنفيذ)، وذلك برعاية كريمة من سيادة الرئيس التونسي زين العابدين بن على. وسيحضر الندوة شخصيات فكرية وعلمية وأكاديمية من العالم العربي الإسلامي ومن الغرب.

وبتكليف من المؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية في دورته الثامنة والعشرين، تقوم المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون والتنسيق مع الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، بإعداد كتاب أبيض حول الحوار بين الحضارات، سيقدم إلى الدورة الحالية للجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر ديسمبر المقبل.

ويضم هذا كتب الأبيض مجموعة من الوثائق المتعلقة بالحوار بين الحضارات، تشمل القرارات والتوصيات والإعلانات والبرامج التنفيذية المصممة لهذا الغرض، إضافة إلى مشروع الوثيقة العالمية للحوار بين الحضارات ومشروع منظمة المؤتمر الإسلامي حول الحوار، ورؤية المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إلى الحوار بين الحضارات في دلالاته العميقة وبمفاهيمه الواسعة وأهدافه الإنسانية، ويعد هذا الكتاب سجلاً توثيقيا للحوار بين

الحضارات، يساهم به العالم الإسلامي في تخليد السنة الدولية للحوار بين الحضارات.

إن اهتمامنا بالحوار بين الحضارات، ينبع مـن إيماننـا بإحدى قيم الحضارة الإسلامية، ذلك أن الحوار هو فضـيلة من فضائل الحضارة الإسلامية،وهو خاصية من خصـائص التي تميز التاريخ الإسلامي عبر مختلف العصور، خاصـة خلال عصور التـألق الحضـاري والمعـارف. إن العـالم الإسلامي يؤمن أن الحوار بين الحضارات، يسـهم بدرجـة كبيرة في التقارب بين الشعوب والأمم وفي إزالة الحـواجز المتراكمة من سوء الفهم المتبادل ومن الأفكار المسبقة القائمة على أسس غير صحيحة والتي تختزنها الذاكرة الشعبية لثقافة شعب من الشعوب عن ثقافة شعب آخر ، مما يجعـل مـن مواصلة الحوار وتوسيع دائرته، رسـالة النخـب الفكريـة والكفاءات الثقافية والعلمية،ومسـئولية المهتمـين بالمصـير الإنساني، كل من الموقع الذي يشغله ومسئولية الأمم المتحدة في المقام الأول لفرض الاحتكام إلى القانون الدولي، واحترام أحكامه ومقتضياته.

وإن رؤية العالم الإسلامي إلى الحوار بين الحضارات، تقوم على قاعدة الاحترام المتبادل بين المنتسبين لهذه الثقافات والمنتمين لهذه الحضارات جميعا حتى يحمي الحوار مبـادئ الحق والعدل والإنصاف.

إن القيم التي يستند إليها الحوار بين الحضارات، هـي ذاتها قيم الحضارة العربية الإسلامية التي تعايش في ظلهـا أتباع الديانات السماوية مسلمون ومسيحيون ويهـود، الـذي أسهموا جميعا كل من موقعه ، في بناء صرح هذه الحضارة، في مراحل من الزمن كان العالم الغربي فيها يعيش خـارج دائرة العلم والتقدم والحضارة كما نعلم جميعا.

وأعتقد أن مسئوليتنا كبيرة في العمل على إشاعة هـذه القيم وتوسيع دائرة امتدادها ونفوذها في المجتمعات الإنسانية المعاصرة جميعا.

ولكن علينا أن نؤكد دائما أن الحوار بين الحضارات لا يستمد أهميته ولا يكتسب شرعيته، ولا يكون ذا جدوى وفائدة ومردود ملموس، ما لم يقم على أساس احترام الخصوصيات الثقافية مع الانفتاح على الآخر وقبول التعاون معـه، مهمـا يكن حجمه وما له من إمكانات وطاقات،وفي نطاق احترام ما

له من خصوصيات ثقافية وحضارية التي تشكل شخصـيته وتمنحه القدرة على إثبات الذات، كما عبر عن ذلك العاهـل المغربي الملك محمد السادس في رسالته التي وجههـا إلـى ندوة الرباط حول الحوار بين الحضارات في عالم متغير.

ومن احترام الخصوصيات الثقافية ينبع حق الجماعـات الإنسانية في الحفاظ على خصوصياتها وهـو حـق أقرتـه المواثيق الدولية، وكفله القانون الدولي، ولـذلك فـإن كـل محاولة لتجاوز هذا الحق، والعدوان عليه. هي خروج علـى أحكام القانون الدولي، وانتهاك صريح لمقتضياته ولمبادئـه. وهذه هي السبيل إلى قبول الآخر كما عبر عن ذلك الأسـتاذ الدكتور ميلاد حنا في مقاله القيم..

6

الحملات العسكرية لن توصل إلى النتيجة المرتقبة من القضاء على الإرهاب

د. ميلاد حنا

نحو إقرار حق الحضارات الأخرى بما فيها العربية – الإسلامية في إدارة العالم

** لن تستطيع الحرب المدمرة حل المشكلة المسماة "إرهابا" إنما الانطلاق من المآسي الحاضرة لصوغ تعاون بين الحضارات جميعا لخير الإنسان، هذا ما يمكن لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير أن يقوله للرئيس بوش حين يقابله ويتدارسان حصيلة جولة بلير الأخيرة في عواصم عربية.. إذا قال بلير ذلك..

**الرئيس جورج بوش (الابن) وتوني بلير صارا الرمزين الممثلين لقيادة التحالف الدولي لمقاومة (وربما

القضاء على) الإرهاب". قد يكونان متقاربين في السن لكنهما مختلفان في المشارب، أي في التركيبة الإنسانية، على رغـم كونهما نتاج الحضارة الغربية المعاصرة عمومـا فـالرئيس بوش لديه إحساس لا يخفيه في أنه رأس لأكبر دولـة فـي العالم سكانًا وثراء وأسلحة وفكرا وتنظيما وانفتاحـا علـى العالم وكان من المفترض أن يكون ذلك دافعا لأن يكون أكثر حرصا في اختيار كلماته ونبرات صوته ، لكنـه يتصـرف على سجيته متأثرا بنشأته في أسرة واسعة الثـراء واسـعة الطموح ،وفي إطار أن أباه لم يكن فقط رئـيس جمهوريـة أمريكا قبل عشر سنوات بل كان قبل ذلك رئيس CIA . بينما توني بلير تختلف خلفيته الثقافية فجذوره " الإنكليزيـة" ذات نكهة اشتراكية ديموقراطية وبنية فكرية لفلسـفة " الطريـق الثالث" تجعله أكثر حذرا في تحركاته ومقولاته، غير أنه قرر أن يكون " شريكًا رئيسا" في هذا التحالف وأيده بكـل قـوة وراهن على نجاحه،ولذا كـان اسـتقباله فـي الكـونغرس الأمريكي قبل ساعات من إعلان الحرب في يـوم الأحـد ٧ تشرين الأول (أكتـوبر) ٢٠٠١ حميمـا وبتصـفيق غيـر مسبوق، حتى تؤكد أمريكا لنفسها وأمام العالم أنهـا ليسـت

معزولة أو " وحيدة " في قيادة هذه المعركة والحرب" الفريدة من نوعها " . ذلك أن لبريطانيا " العظمى" خبرة وتراثًا ثريا في التعامل مع دول العالم النامي عموما والـدول العربيـة الإسلامية خصوصا من هنا كانت أهمية زياراته (أي توني بلير) لبعض الدول العربية ،وربما كانت " الحياة" هي التـي اختصها توني بلير بمقال مقتضب نشر في مكان رئيس (ص ٨) يوم الخميس ١١ تشرين الأول (أكتوبر) العام ٢٠٠١ أي بعد شهر بالتمام والكمال على الهجوم الخاطف على نيويورك وهدم برجي مركز التجارة العالمية، واختار للمقـال عنوانًـا ذكيا يلخص رؤية وسياسة توني بلير بعنوان" خلافنا ليس مع الإسلام بل مع الإرهاب ومؤيديه" حيث يعترف بأنه " لـيس خبيرا بالإسلام لكن بريطانيا الآن بلد متعدد الثقافـات وفيـه الملايين من المسلمين البريطانيين".

ومن الواضح أن توني بلير أكثر اهتماما مـن جـورج بوش في التأكيد أن الصراع ضد الإرهاب لا يعني الصراع مع الإسلام أو المسلمين العاديين ،ولعله يقصد أن يخفف من حال الغضب التي نتجت من تصريح الرئيس بـوش (الـذي اعتذر بعده) بأن الحرب المقبلة ستكون " صليبية".

وسواء كانت العبارة " زلة لسان" أم توصـيفًا مجازيـا للتعبير عن أنه " جاد جدية قاطعة" في حربه ضد الإرهـاب، فإن توني بلير- فيما يبدو- أكثـر " علمانيـة " لا يريـد أن يتحول الصراع ليأخذ " بعدا دينيا" . فـإنجلترا مـرت فـي مراحل ممارسة الإمبريالية على مدى نحو القرنين ١٩و ٢٠ ومارست بالفعل " فصل الدين عن الدولة" فضلاً عن ذلـك، ومنذ كونت "الكومنولث" وبالذات في حقبة ما بعـد الحـرب العالمية الثانية، هاجر إلى إنجلترا ملايـين" مـن المسـلمين والملونين حتى صارت لندن بالذات كأنهـا مدينـة متعـددة الثقافات والأعراق – على حد قول توني بلير ذاته – الأمـر الذي أزعج بلير وزاد الطين بلة أن الأحداث والتصـريحات الأمريكية ومنذ ٢٠٠١/٩/١١ ربطت بين الإرهاب والإسلام، فلم يذكر اسم فرد قيادي وعقل مدبر للأحداث إلا أسامة بـن لادن ،ولم يتم البحث والتفتيش إلا عن جماعة "القاعدة" التـي ينتمي أفرادها إلى جنسيات " مختلفة" ولكن كلهم " مسـلمون" وأدى كل ذلك لأن تبلور الصراع والصدام ليكون بين الغرب والإسلام،وكان صموئيل هنتنغتون (صاحب نظرية صـدام الحضارات(ذكر صراحة – في بحثه العام ١٩٩٣ ثم أكد في

كتابة العام ١٩٩٦ في عبارتين مميزتين هما : إن الحـرب المقبلة – إن كانت ستقع – ستكون حربا بـين الحضـارات. يقول بعض الغربيين بمن فيهم الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون (وقال العبارة ذاتها الرئيس جورج بوش ثم تـوني بلير) العبارة بين قوسين تعليق واجب من كاتب هذه السطور أن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أية مشكلة إنما المشـكلات موجودة فقـط مـع بعـض المتطـرفين الإسـلاميين (أي الإرهابيين) ولكن أربعة عشر قرنًا من التاريخ تقول خـلاف ذلك!!

وليس هدفي من ذكر هذه الفقرات أن أصب الزيت على النار، فواقع التظاهرات التي اجتاحت معظم – إن لـم يكـن كل- دول العالم الإسلامي، تظاهرات احتجاج قـد تتطـور لتكون عصيانًا مدنيا على الغارات الجوية والصواريخ التـي أسقطتها كل من أمريكا وإنجلترا على أفغانستان.

إن العالم يشاهد بعد الحرب العالمية الثانيـة عشـرات النزاعات في أماكن كثيـرة ، فهنـاك " إرهـاب" الجـيش الجمهوري الأيرلندي ثم جماعة الباسك فـي أسـبانيا، ثـم عشرات الصراعات العسكرية في يوغوسلافيا. وكانت مآسي

المقابر الجماعية للمسلمين هناك في مواقع مختلفـة للدلالـة على خطط أديان أخرى على التطهير العرقي ضـدهم، ثـم هناك الحرب الأهلية المريرة في السودان بسـبب المظـالم والرق في الجنوب،وهناك حرب التأصـيل فـي سـريلانكا وغيرها في الفلبين والصراعات بين القبائـل فـي أفريقيـا، فضلاً عن عشرات ومئات الشهداء لمدة عـام منـذ بـدأت الانتفاضة الفلسطينية فلماذا لم تـذكر (أي مـن أمريكـا أو إنجلترا) إلا حال ابن لادن وتنظيم " القاعدة" وحده كنمـاذج للإرهاب العالمي، مما أعطى انطباعا بـأن الحملـة ضـد "طالبان" أو ابن لادن موجهة أساسا ضد " الإسلام" !! وهـا هي أمريكا وإنجلترا قامتا بحملة عسكرية عاتية منـذ يـوم الأحد ٢٠٠١/١٠/٧ ومعهما تحـالف دولـي ضـخم مـن حكومات حليفة قدمت العون في شكل أو بآخر ولـو بتقـديم المعلومات عن " الإرهابيين" ما يؤكد أن الإرهاب الذي تـود أمريكا وإنجلترا القضاء على هو إرهاب" المتشـددين مـن الإسلاميين" وحدهم.

لذا فالمتوقع أن تؤدي هذه الحرب إلـى توسـيع عـدد المنضمين من " المجاهدين الجدد" إلى تنظيم " القاعـدة " لأن

الإرهاب ليس دولة ذات معالم وجيش وعندما يتم الانتصـار عليها، تتغير موازين القوى، كما حدث في انتصار " الحلفاء" على ألمانيا النازية ومع انتهاء الحرب العام ١٩٤٥، أعلـن عن تكوين منظمات " ثقافية" داخل ألمانيا تعيد تثقيف الشباب حتى يتمرس الديموقراطية ويقتنع بأن ألمانيا ليسـت فـوق الجميع بل قامت جمعية " التسلح الخلقي" بجهـد فـائق فـي الندوات والمناقشات والحوارات في أمـاكن كثيـرة وبـين مجموعات متباينة لنزع " الكراهية" بين ألمانيا وفرنسا، ولـم يكن من الممكن إنشاء " السوق الأوروبية المشتركة" من دون تحويل الكراهية إلى مودة معقولة من خـلال هـذه الحملـة "الثقافية" التي نزعت الكراهية بالفعل من " ضـمير " جـزء كبير من الشباب في ألمانيا وفرنسا، إذ أدركـت الـدولتان (فرنسا وألمانيا) أن الانتصار في الحرب لا يعنـي تغييـر مشاعر النفس الداخلية.

المشكلة -إذن- في أمر الإرهاب ليست مشكلة بتجييش الجيوش ولا إلقاء القنابل الحديثة التـي تختـرق الخرسـانة المسلحة،ولا إطلاق طائرات التجسس (مـن دون طيـار) للتصوير الدقيق بأرقى التكنولوجيات بهدف الوصـول إلـى

المكان الذي يختبئ فيه ابـن لادن، لأن الاقتنـاع بالجهـاد الإسلامي ليس من " ابتكار" ابن لادن ، بل هو عقيدة موجودة بالفعل لدى تيار ديني ،وهناك واقع فعلي يدل إلى الإحبـاط والإحساس بالظلم (في قضية فلسطين وغيرها) وهناك واقع مجتمعي فيه فقر وتخلف وقهر ، ثم فوق ذلك هناك نصوص وممارسات تاريخية ولدت وتولد لدى كثيرين نماذج جهاديـة من التراث، ولكن لا بأس من استخدام التقدم العلمي المتـاح حاليا من وسائل اتصالات بالفاكس وعلى الانترنت وغيرهـا لإحداث هذه التفجيرات في نيويورك وواشنطن، والتـي أدت إلى حالة من الإزعاج ، علاوة على الانبهار والتشفي بالدول الغربية التي كانت تكيل بميكيالين في معالجة قضايا المسلمين وفلسطين. وأثبتت الأحداث أن الإسلام – مثلـه مثـل كـل الأديان- ليس نوعا واحدا بل عقائد عدة فمن المعـروف أن المسيحية أيضا أنواع ومذاهب عدة: أرثوذكسية وكاثوليكيـة وبروتستانتية،ويوجد على سبيل المثال في أمريكا عشـرات الفرق من المذاهب الإنجيليـة البروتسـتانتية وإن بعضـها "متحالف " مع تيارات من " اليهود" المتعصـبين المـؤمنين بالصهيونية وإن اليهود هم شعب ا المختار، وأوجدوا خلطة

جديدة تعرف باسم " المسيحية – اليهودية " أو اليهودية – المسيحية" وهي جماعات أهلية ذات تأثير واسع في تكوين السياسة الخارجية الأمريكية. وأحسب – كما هو معروف – أن هذه الجماعات ممثلة في أشكال الضغط المعروفة بـ "اللوبي" لإثارة الكراهية ضد العرب والمسلمين في أمريكا بالذات. فلماذا إذن لا يتكون كرد فعل " طبيعي " ذلك "المتشدد " المقابل في الإسلام لأنه لا يجد حلاً لمشكلات الصراع بين " الغرب والإسلام" المقابل في الإسلام لأنه لا يجد حلاً لمشكلات الصراع بين " الغرب والإسلام" إلا بتكوين الجماعات " الجهادية" والتي لديها قناعة بما تقوم به من البذل والتضحية بالنفس في سبيل قضية رفعة الإسلام أي انتصاره وتفوقه على " حضارة الغرب" ولذلك " أدبيات " معروفة ومسجلة في كتب التاريخ القديم يتم تحديثها وتجديدها بمفاهيم جديدة معاصرة، أي مزج فلسفة الجهاد القديمة بأساليب العلم والتكنولوجيا الحديثة، فكانت هذه الجمعيات الإسلامية الجهادية على أنواعها، ومسمياتها وتنظيماتها،وينظر إليها المسلمين على أنها النخبة المضحية بالنفس وأن لا تغيير لأحوال المسلمين في العالم من دون هذه

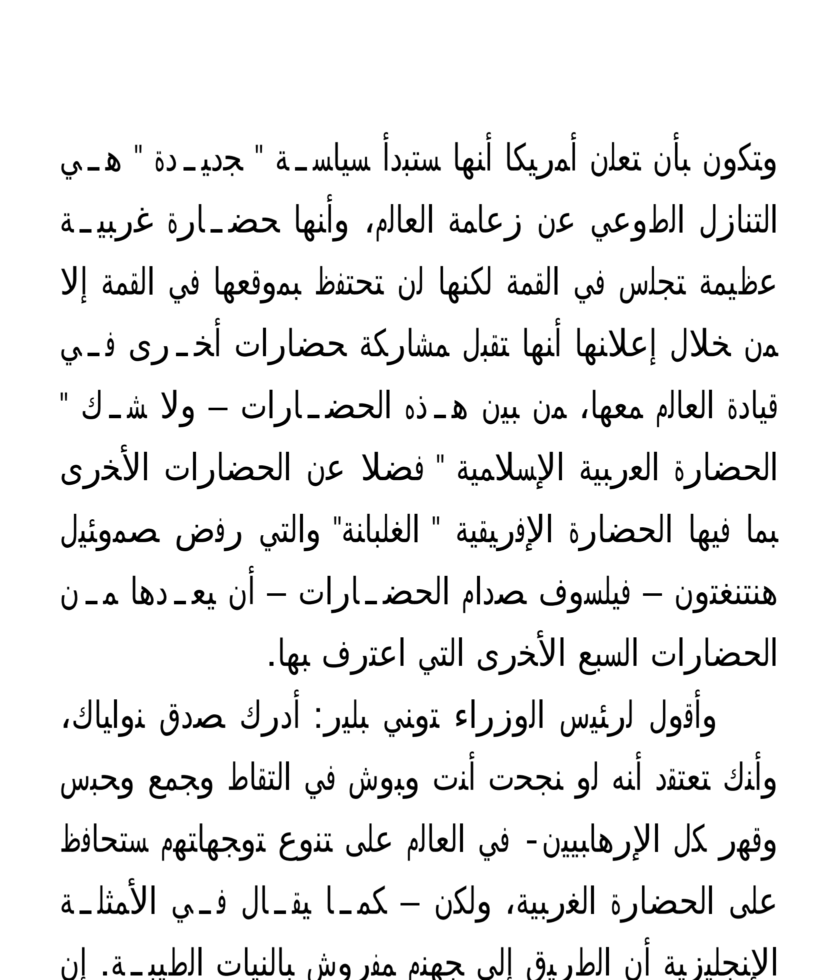
الجماعات. إن السياسي الناجح ينبغـي أن يكـون متفهمـا لأساليب ومناهج الفكر لدى الآخرين، أي أن نقطة البداية هي " قبول الآخر".

من هنا فإن الحملات العسكرية لن توصل إلى النتيجـة المرتقبة من " القضاء على الإرهاب لأن الإرهاب في حقيقته وعمقه يحتوي على جانب " ثقافي ديني إنساني مجتمعـي " ولو فرضنا – مثلاً – أن أمريكا وبمساعدة إنجلتـرا ومـن خلال استخبارات دول صديقة" قد أمكنها القبض علـى كـل أفراد تنظيم القاعدة أو التنظيمات المماثلة، وهـو أمـر أراه مستحيلاً وغير ممكن مـن الناحيـة العمليـة ، فـإن هـذه المجتمعات الإسلامية سـتفرخ جـيلاً وربمـا أجيـالاً مـن "المجاهدين " تختبئ بعض الوقت لكنهم إلى ظهور بعد مـدة طالت أم قصرت ولذلك فإنه إذا استمرت واستمرأت الولايات المتحدة هذا الطريق وهو مواجهة العنف – أيا كان مصـدره – دينيا أو غير ديني – إسلاميا أو غير إسلامي – أقـول ، مواجهة العنف بالعنف للأفراد والمجتمعات البشرية وصـولاً إلى بعض الدول التي تبنت " العنف" وربمـا مارسـته فـي السابق أو تتمنى أن تمارسه، فـإن الطريـق شـاق وربمـا

مستحيل ولن تفيد قـوة الأسـلحة المتطـورة ولا طـائرات التجسس بغير قادة ولا الحاسبات الإلكترونية أو التكنولوجية الراقية، لأن من لديه عقيدة يفتديها بحياته أقوى من أي سلاح بشري آخر!! وإذا كان لي من عتاب، فإنني أتوجه بعتـابي إلى الولايات المتحدة ذاتها فهي – ومن خـلال قراراتهـا – أطلقت تلك القوة " الكامنة" في الإنسان وهي " الأديان". ففي العام ١٩٥٥ أعلن جون فوستر دلاس وزير خارجية أمريكا بأنه سيستعين بسلاح الأديان – علـى تنوعهـا – لمكافحـة الشيوعية " الملحدة" وكون تنظيما معروفًـا باسـم " معبـد التفاهم" خصصت له الأموال والخبراء لتقوية التيارات الدينية على أنواعها: السماوية وغير السماوية، فكانت تقوية اليهودية ومعها الصهيونية،وبعدها جاء تنظيم المسيحية وأعلـن عـن "مجلس الكنائس العالمي، وله تنظيمات فرعية متعـددة ومـا زال تأثيره هائلاً حتى الآن، وتمت تقوية الصلة بين أمريكـا اللاتينية الكاثوليكية، وكان الباب الخلفي الذي دخلـت مـن خلاله عملية تفكيك الاتحاد السوفيتي هو " الكنيسة البولندية " والتي غزت اتحاد العمال المسمى بـ " التضامن" بزعامـة فاوينسا،ولما انتهى دوره اختفى.

وعندما قام الاتحاد السوفيتي بغزو أفغانستان في كانون الثاني (يناير) العام ١٩٧٩ لجأت أمريكا إلى السلاح نفسـه، وجند " المجاهدون" من دول العـالم العربـي والإسـلامي، وقامت الاستخبارات الأمريكية بتجميعهم في بيشاور، أي في باكستان ، حيث كان تدريبهم وتزويدهم بالسلاح والطـائرات وبالفعل حصدت أمريكا انتصارا سهلاً عندما أمكنها تفكيـك الاتحاد السوفيتي بأبخس الكلفة ومن دون حـرب أو مـوت أمريكي واحد. وها هي أمريكا تشرب من الكأس الذي أذاقته للاتحاد السوفيتي. من هنا فإن مسار أمريكـا الآن – وهـي مؤيدة تماما من إنجلترا- ليس هو الطريق الصحيح فالنتيجة "غير" مضمونة، لأن العدو الذي تصارعه ليس طالبان وليس أسامة بن لادن وليس تنظيم " القاعدة" فالمقاومة فـي وجـه أمريكا ستزداد تدريجيا، وربما تدخل أمريكا خندقًا يصعب أن تخرج منه.

إن بداية " استرخاء " هذه الحال من " التشنج" التي دخل فيها معظم سكان الكرة الأرضية لن يكـون بأخبـار غـزو وانتصارات في أفغانستان أو مزيد من حالات الجمرة الخبيثة فالجمرة الخبيثة في حقيقتها " فكرية ثقافية" في المقـام الأول"


وتكون بأن تعلن أمريكا أنها ستبدأ سياسـة " جديـدة " هـي التنازل الطوعي عن زعامة العالم، وأنها حضـارة غربيـة عظيمة تجلس في القمة لكنها لن تحتفظ بموقعها في القمة إلا من خلال إعلانها أنها تقبل مشاركة حضارات أخـرى فـي قيادة العالم معها، من بين هـذه الحضـارات – ولا شـك " الحضارة العربية الإسلامية " فضلا عن الحضارات الأخرى بما فيها الحضارة الإفريقية " الغلبانة" والتي رفض صموئيل هنتنغتون – فيلسوف صدام الحضـارات – أن يعـدها مـن الحضارات السبع الأخرى التي اعترف بها.

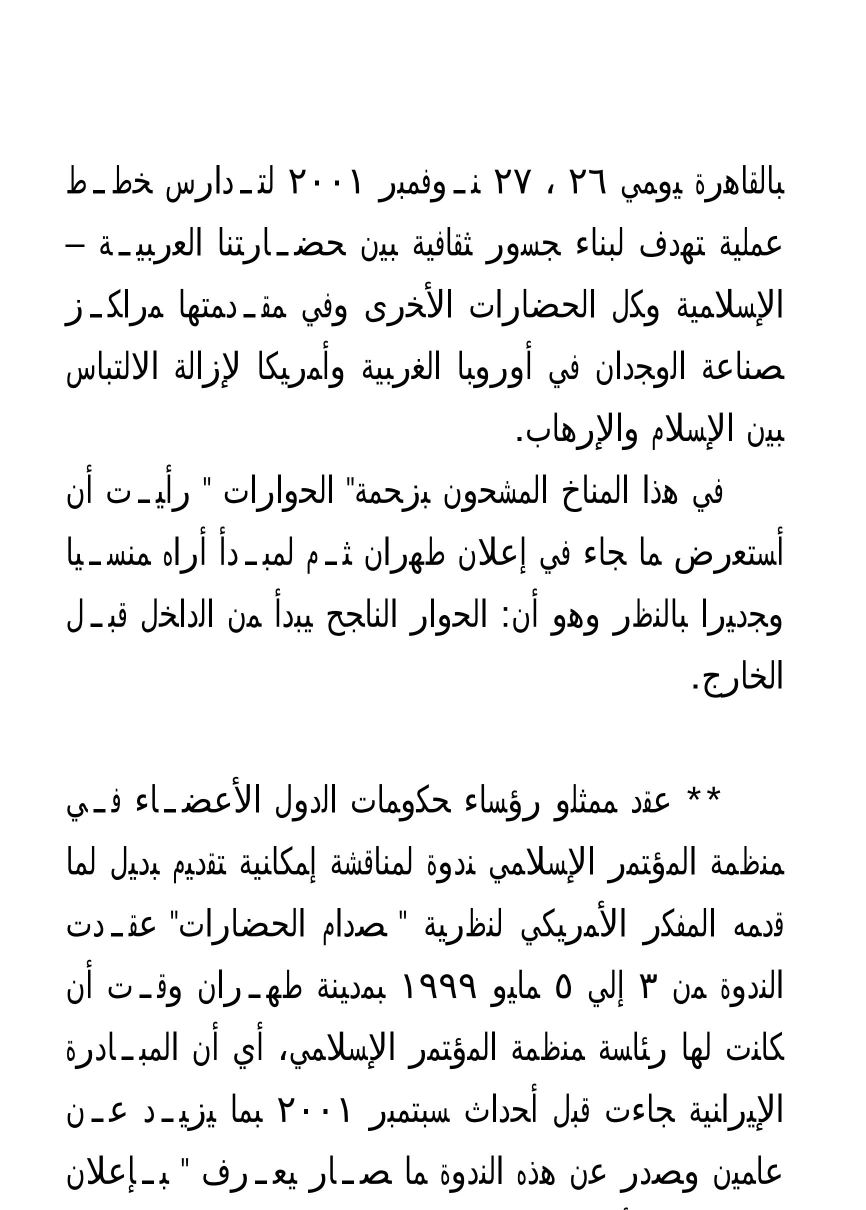
وأقول لرئيس الوزراء توني بلير: أدرك صدق نواياك، وأنك تعتقد أنه لو نجحت أنت وبوش في التقاط وجمع وحبس وقهر كل الإرهابيين- في العالم على تنوع توجهاتهم ستحافظ على الحضارة الغربية، ولكن – كمـا يقـال فـي الأمثلـة الإنجليزية أن الطريق إلى جهنم مفروش بالنيات الطيبـة. إن وزارة الخارجية البريطانية- منذ زمن بعيد – تضم خبـراء ودبلوماسيين – بل حكماء – قادرين على إعطائك المشـورة والنصيحة المناسبة في الوقت المناسب، لأنني على يقـين أن حوارا خاصا بينك وبين بوش، قد يكون نقطة البداية لعـالم

جديد يتشكل بعد هذه الحرب ومن نهايتها والتي يحسـن أن تكون سريعة وفي تقهقر يحافظ على كرامة الدول الكبـرى وذلك خلال سنوات مقبلة لميثاق أمم متحدة مختلف، ومجلس أمن ثقافي يراقب نمو " الكراهية" بين شعوب العالم. فكل ما يصرف الآن من بلايين في الحـرب سـيكون " خميـرة " لمشروع " مارشال" جديد، يبدأ مع أو قبـل – نهايـة هـذه الحرب ضد الإرهاب الدولي والتـي لا أرى طـائلاً منهـا. فالعالم لا بد له من حضارات عدة تتنافس وتتعايش من أجل خير البشرية في رؤية جديدة لعالم جديد..

7

الحوار الناجح يبدأ من الداخل قبل الخارج

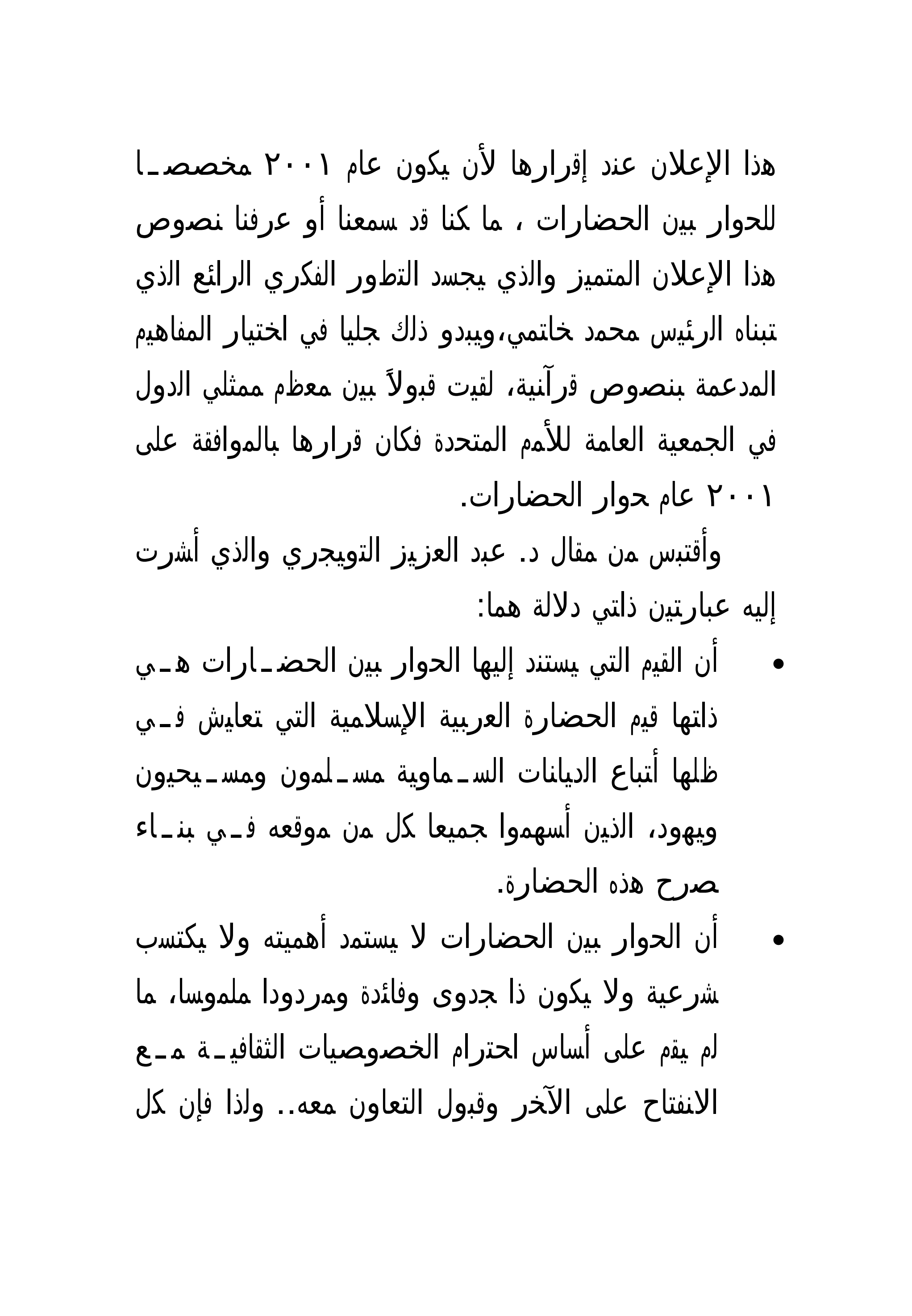
** كلما جاء الشهر الكريم أحاول أن يكـون المقـال متضمنًا فكرا دينيا يحمل حكمة واستنارة،ولم أجد صعوبة هذا العام، فالكل مشغول بـالحرب ضـد " الإرهـاب" ووسـط الكراهية العالمية وظلام الحقد، كانت الجمهورية الإسـلامية الإيرانية قد بادرت بدعوة للأمم المتحدة، ليكون ٢٠٠١ هـو "عام الحوار بين الحضارات" وفي إطار ذلك كتبت دعوة من خلال مقالي بالأهرام يوم الثلاثـاء ٢٠٠١/١٠/٢٣ بعنـوان "المعتدلون في الأديان الإبراهيمية يتحالفون لقبـول الآخـر" وكان أن تفضل د . عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلـوم بالاسـتجابة لهـذا الاقتـراح والتعقيـب القـيم فـي مقـال بـأهرام الجمعـة ٢٠٠١/١١/٢ بعنوان " الحوار قوة دفع لبناء الإسـلام" ثـم كانت دعوة السفير عمرو موسى أمين عام الجامعة العربيـة لحكماء ومفكري العالم العربي لاجتماع تأسيسي لهـم يعقـد



بالقاهرة يومي ٢٦ ، ٢٧ نـوفمبر ٢٠٠١ لتـدارس خطـط عملية تهدف لبناء جسور ثقافية بين حضـارتنا العربيـة – الإسلامية وكل الحضارات الأخرى وفي مقـدمتها مراكـز صناعة الوجدان في أوروبا الغربية وأمريكا لإزالة الالتباس بين الإسلام والإرهاب.

في هذا المناخ المشحون بزحمة" الحوارات " رأيـت أن أستعرض ما جاء في إعلان طهران ثـم لمبـدأ أراه منسـيا وجديرا بالنظر وهو أن: الحوار الناجح يبدأ من الداخل قبـل الخارج.

** عقد ممثلو رؤساء حكومات الدول الأعضـاء فـي منظمة المؤتمر الإسلامي ندوة لمناقشة إمكانية تقديم بديل لما قدمه المفكر الأمريكي لنظرية " صدام الحضارات" عقـدت الندوة من ٣ إلي ٥ مايو ١٩٩٩ بمدينة طهـران وقـت أن كانت لها رئاسة منظمة المؤتمر الإسلامي، أي أن المبـادرة الإيرانية جاءت قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ بما يزيـد عـن عامين وصدر عن هذه الندوة ما صـار يعـرف " بـإعلان طهران" ولو أن الجمعية العامة للأمم المتحدة في إشارات إلى



هذا الإعلان عند إقرارها لأن يكون عام ٢٠٠١ مخصصـا للحوار بين الحضارات ، ما كنا قد سمعنا أو عرفنا نصوص هذا الإعلان المتميز والذي يجسد التطور الفكري الرائع الذي تبناه الرئيس محمد خاتمي،ويبدو ذلك جليا في اختيار المفاهيم المدعمة بنصوص قرآنية، لقيت قبولاً بين معظم ممثلي الدول في الجمعية العامة للأمم المتحدة فكان قرارها بالموافقة على ٢٠٠١ عام حوار الحضارات.

وأقتبس من مقال د. عبد العزيز التويجري والذي أشرت إليه عبارتين ذاتي دلالة هما:

- أن القيم التي يستند إليها الحوار بين الحضـارات هـي ذاتها قيم الحضارة العربية الإسلامية التي تعايش فـي ظلها أتباع الديانات السـماوية مسـلمون ومسـيحيون ويهود، الذين أسهموا جميعا كل من موقعه فـي بنـاء صرح هذه الحضارة.
- أن الحوار بين الحضارات لا يستمد أهميته ولا يكتسب شرعية ولا يكون ذا جدوى وفائدة ومردودا ملموسا، ما لم يقم على أساس احترام الخصوصيات الثقافيـة مـع الانفتاح على الآخر وقبول التعاون معه.. ولذا فإن كل

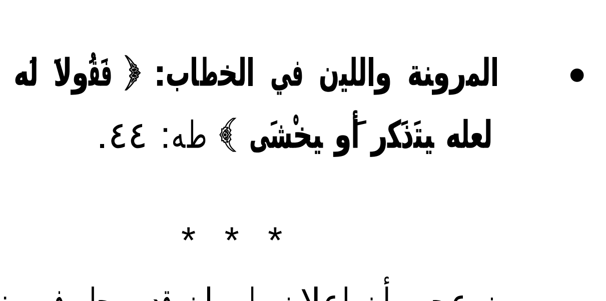
محاولة لتجاوز حق الجماعات الإنسانية في الحفاظ على خصوصيتها الثقافية هو خروج على أحكـام القـانون الدولي.. وهذا هو السبيل إلى قبول الآخر كما عبر عن ذلك. د . ميلاد حنا في مقاله " القيم" .

* * *

وفي إطار التعبير عـن هـذه الخصوصـية الثقافيـة الإسلامية كما وردت في إعلان طهران نورد فيما يلي القـيم والمبادئ التي ينادي بها الإسلام مدعمة بالنص القرآني الذي يؤكدها على النحو التالي:

- كرامة الإنسان ﴿ **ولَقَد كَرمنَا بنِي آدم وحملْنَاهم فِـي الْبر والْبحرِ ورزقْنَاهم من الطيباتِ وفَضلْنَاهم علَـى كَثِيرٍ ممن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ الإسراء : ٧٠
- المساواة: ﴿ **يا أَيها الناس إِنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكُم شُعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد ا ـ أَتْقَاكُم إِن ا َ علِيم خَبِير** ﴾ الحجرات : ١٣
- التسامح: ﴿ **لاَ ينْهاكُم ا ُ عن الَّذِين لَم يقَاتِلُوكُم فِـي الدين ولَم يخْرِجوكُم من دِيارِكُم أَن تَبروهم وتُقْسِطُوا إِلَيهِم إِن ا َ يحِب الْمقْسِطِين** ﴾ الممتحنة : ٨

- السلام : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ البقرة :٢٠٨
- **العدل : ﴿ إن ا يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن ا نعما يعظكم به إن ا كان سميعا بصيرا**﴾ النساء :٥٨
- الاعتراف بتنوع مصادر المعرفة ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾ البقرة : ٢٦٩
- الحوار والتفاهم المتبادل: ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت ا على الكاذبين ﴾ آل عمران : ٦١**
- العلاقات الإنسانية: ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون ا فيسبوا ا عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ الانعام ١٠٨**



- **المرونة واللين في الخطاب: ﴿ فَقُولاً له قَولاً لينًا لعله يتَذَكر أَو يخْشَى ﴾** طه: ٤٤.

* * *

ومن عجب أن إعلان طهران قد سجل في بند ٨ فيما يتعلق بتطبيق الحوار بين الحضارات في المجالات المتأزمة من العلاقات الدولية العبارة التالية:

القضاء على الإرهاب الذي يهدد العالم بأسره في كل أشكاله ومظاهره وكذلك الجريمة المنظمة، والاتجار في المخدرات من خلال التعاون على الصعيد العالمي بأسلوب جدي وشامل وخال من أي تمييز.

إن هذه النصوص المعبرة عن هذه المفاهيم الإسلامية العظيمة مقبولة لدى أي إنسان منصف وعادل ولكن الصعوبة تكمن في أن أهل الاختصاص وغيرهم من بعض المستشرقين غير المحبين للإسلام والمسلمين واستغل الصهاينة تلك المجموعات قليلة العدد واسعة التأثير في أنه توجد صلة بين الإسلام والإرهاب، وعلى سبيل المثال، هناك هوة واسعة بين ما يقدمه عن الإسلام د. أحمد كمال أبو المجد، وهو أحد أبرز المجموعة التي اختارها مستر بيكو

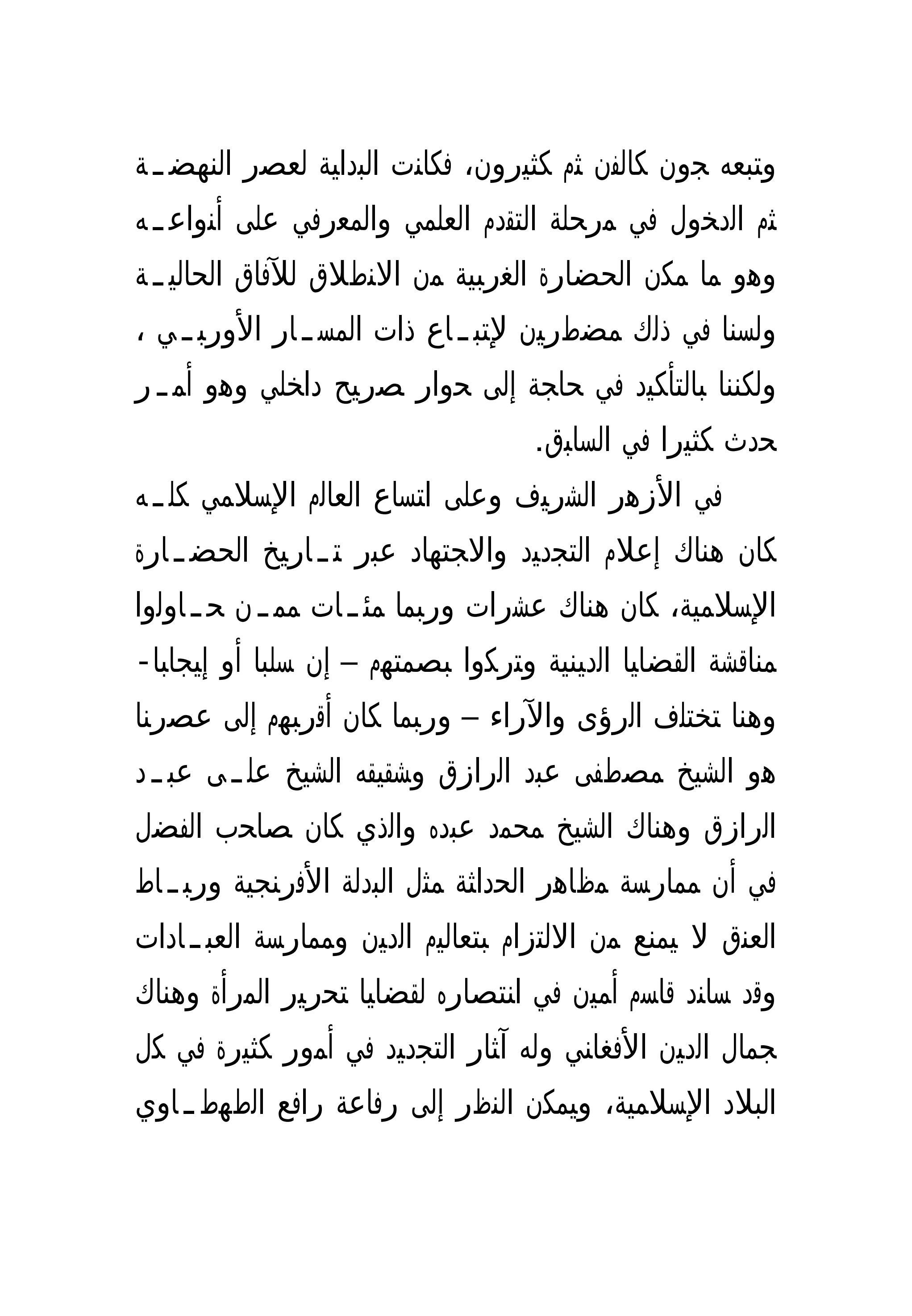
المبعوث الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة في إدارة حوار الحضارات عام ٢٠٠١ أقول أن ما يقدمه د. أحمد أبو المجد يختلف كثيرا عن الصورة التي قدمها أسامة بـن لادن فـي تصريحاته في تليفزيون " الجزيرة " والتي أعطـت للغـرب صورة مختلفة تماما تربط نفسها بعبارات الكفر والمشـركين وصحة قتلهم و من أجل ذلك طرحت عنوان مقال اليوم وهو " حاجتنا إلى حوار داخلي أولاً قبل أن نفـتح حـوارا مـع الخارج" لأنه إذا عمت المفاهيم الصحيحة والمقبولة بالفعـل من أغلبية واسعة كان حوار الحضـارات – فـي المرحلـة المقبلة – أيسر وأكثر فائدة سواء قام بذلك اليونسكو أو الأمم المتحدة أو المنظمة الإسلامية للتربية والعلـوم أو الأزهـر الشريف، أو حكومات المؤتمر الإسلامي أو الجامعة العربية.

لقد دعاني د. كرم شلبي رئيس تحرير جريدة " صـوت الأزهر" لمناقشة صريحة مع فضيلة الشيخ فوزي الزفـزاف وكيل الأزهر – والمسئول مع د. على السمان عن الحـوار بين الأديان- فالمعروف أن هناك اتفاقًا بين الأزهر والفاتيكان منذ عام ١٩٩٤ للحوار بينهما،ولكن فاعلية وتأثير هذا الحوار على الرأي العام الغربي محدود للغاية لأنه لا يـدخل إلـى

العمق بل يعالج السطح ويقتصر غالبا على الكلمات الطيبة التي ترضي الآخر وكان ذلك امرا مقبولاً في السابق أي قبل يوم الثلاثاء المفصلي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

لقد مرت مرحلة المجاملات التي لم توصل إلى نتيجة تذكر ومن هنا أهمية الاتفاق على إجراء حوار داخلي صريح، ولا بأس من أن يكون بعيدا عن أعين الإعلام والنشر حتى لا يتدخل المزايدون وأراه أمرا أساسيا وسابقًا لأي حوار مستقبلي مع الأديان الأخرى عموما ومع الغرب خصوصا.

صحيح أن هناك اتفاقًا على وحدة النصوص وقدسيتها ولكن عبر رحلة الحضارة الإسلامية الطويلة، كان هناك اجتهاد في أمور الفقه وظهرت مذاهب متعددة، ومازال باب الاجتهاد مفتوحا ومن هنا فإن الأوضاع العالمية الحالية في حاجة إلى شخصيات دارسة متفهمة للتاريخ القديم ولكنها مدركة في ذات الوقت التغيرات التي حدثت في الفكر العالمي، و من عينة د. حسين أحمد أمين أي تكون مدركة الإصلاح الديني الذي تم في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر من خلال رموزه التاريخية مارتن لوثر عام ١٥١٧



وتبعه جون كالفن ثم كثيرون، فكانت البداية لعصر النهضـة ثم الدخول في مرحلة التقدم العلمي والمعرفي على أنواعـه وهو ما مكن الحضارة الغربية من الانطلاق للآفاق الحاليـة ولسنا في ذلك مضطرين لإتبـاع ذات المسـار الأوربـي ، ولكننا بالتأكيد في حاجة إلى حوار صريح داخلي وهو أمـر حدث كثيرا في السابق.

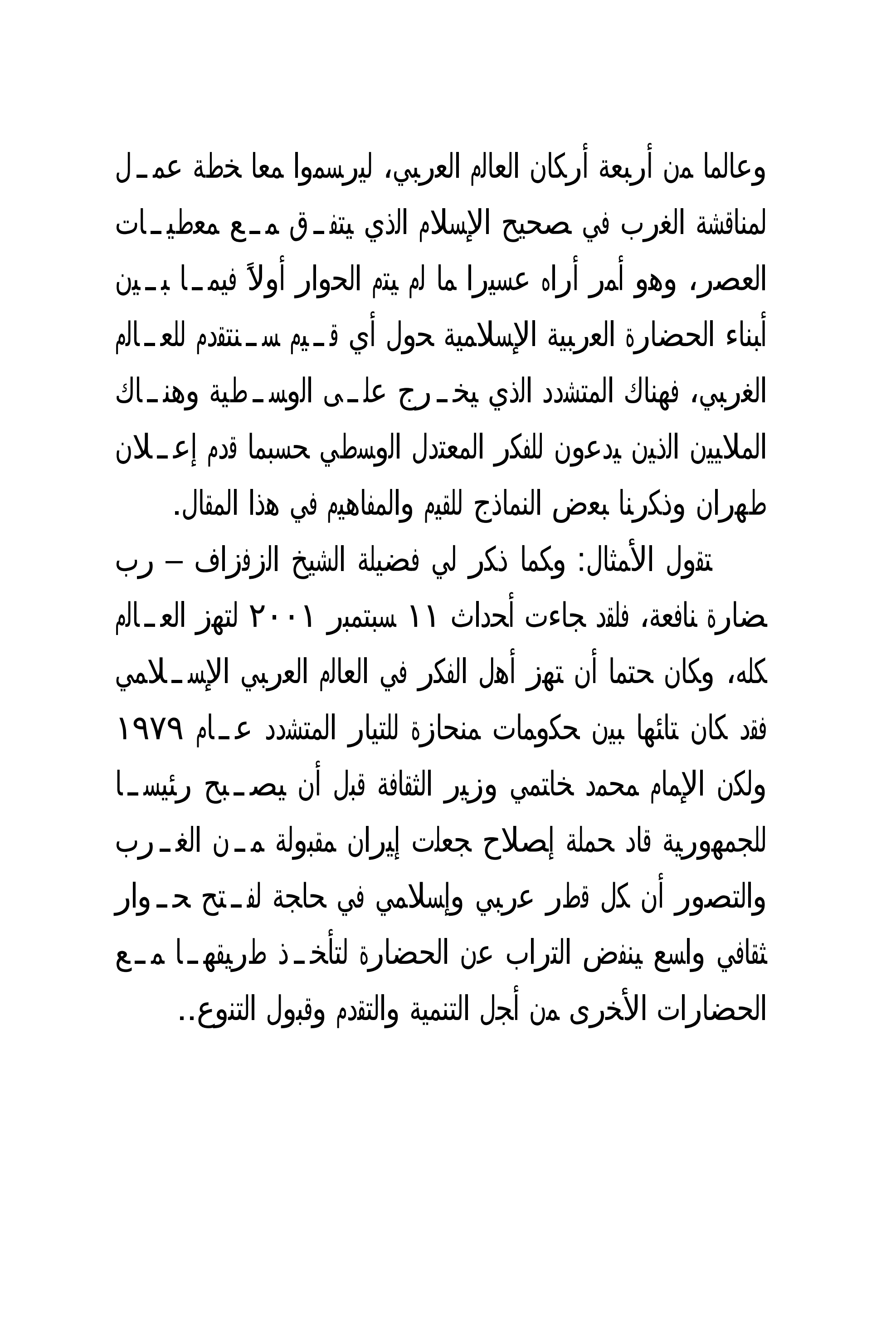
في الأزهر الشريف وعلى اتساع العالم الإسلامي كلـه كان هناك إعلام التجديد والاجتهاد عبر تـاريخ الحضـارة الإسلامية، كان هناك عشرات وربما مئـات ممـن حـاولوا مناقشة القضايا الدينية وتركوا بصمتهم – إن سلبا أو إيجابا- وهنا تختلف الرؤى والآراء – وربما كان أقربهم إلى عصرنا هو الشيخ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الشيخ علـى عبـد الرازق وهناك الشيخ محمد عبده والذي كان صاحب الفضل في أن ممارسة مظاهر الحداثة مثل البدلة الأفرنجية وربـاط العنق لا يمنع من الالتزام بتعاليم الدين وممارسة العبـادات وقد ساند قاسم أمين في انتصاره لقضايا تحرير المرأة وهناك جمال الدين الأفغاني وله آثار التجديد في أمور كثيرة في كل البلاد الإسلامية، ويمكن النظر إلى رفاعة رافع الطهطـاوي

كداعية للنهضة لتأثره بإقامته في باريس ،وكان الأمام محمد ابن عبد الوهاب مصلحا دينيا عظيما في وقته فقد حرر المسلمين من عادات وبدع دخيلة على الإسلام وأعاد للإسلام نقاءه في القرون الأولى ثم هناك ابن تيمية، أما ابن رشد فحوله خـلاف ضـخم وهائل ، فكل من يريدون التحرر وسيادة العقل يستشهدون بإحدى مقولاته في كتابه الشهير، فصل المقال فيما بـين الحكمـة (أي الفلسفة) والشريعة من الاتصال ومـات عـام ١١٩٨ ويعتبـره الغرب أول من أخرجهم من عالم الخرافات إلـى دنيـا العقـل، وكذلك الإمام الغزالي المتوفى عام ١١١١م أثناء الحرب الصليبية فكان أبا التصوف والروحانية والتمسك بالنص.

ومن هنا فإن تاريخ الحضارة العربية – الإسلامية طويـل ونرى فيه من يدعو إلى العقل وأنه لا سلطان على العقل وفيـه من يدعو أن لا اجتهاد مع النص والنقاء هو في السلفية.

***

الحوار الداخلي مطلوب الآن مع الانفتـاح علـى الغـرب وستكون بداياته من خلال فريق أهل الفكر والحكمة المجتمعـين بعد أسبوع بمبادرة عظيمة جاءت في وقتها من السفير عمـرو موسى أمين عام الجامعة العربية، حيث سيجتمع نحو ٥٠ مفكرا

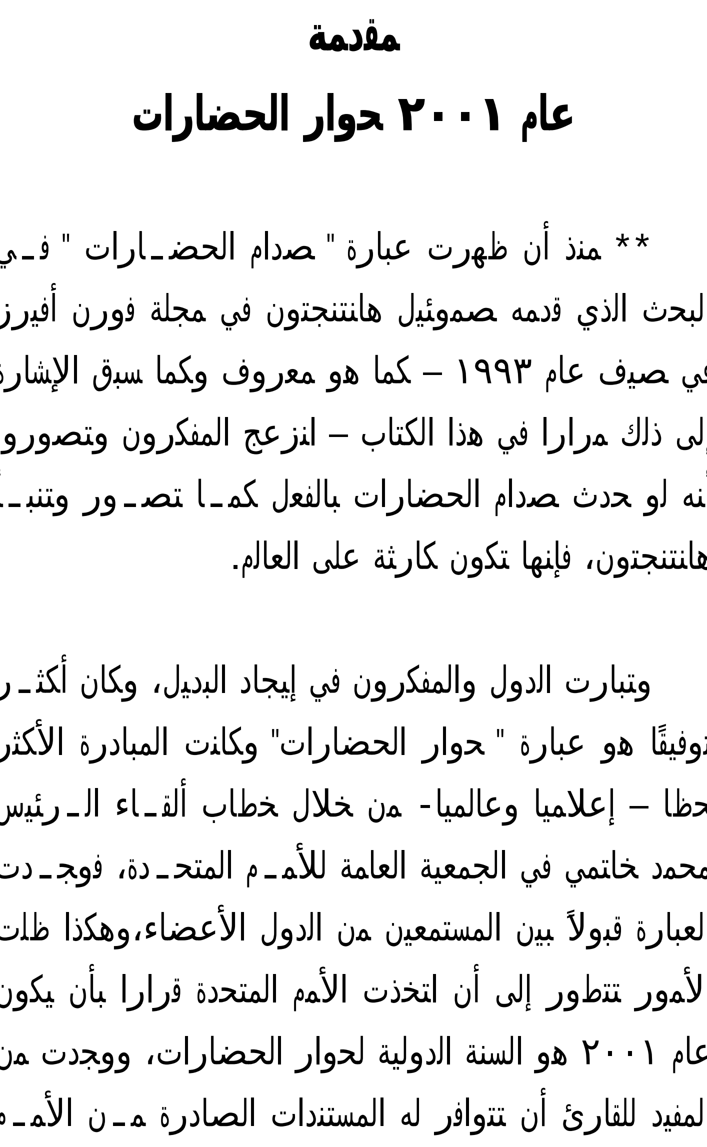


وعالما من أربعة أركان العالم العربي، ليرسموا معا خطة عمـل لمناقشة الغرب في صحيح الإسلام الذي يتفـق مـع معطيـات العصر، وهو أمر أراه عسيرا ما لم يتم الحوار أولاً فيمـا بـين أبناء الحضارة العربية الإسلامية حول أي قـيم سـنتقدم للعـالم الغربي، فهناك المتشدد الذي يخـرج علـى الوسـطية وهنـاك الملايين الذين يدعون للفكر المعتدل الوسطي حسبما قدم إعـلان طهران وذكرنا بعض النماذج للقيم والمفاهيم في هذا المقال.

تقول الأمثال: وكما ذكر لي فضيلة الشيخ الزفزاف – رب ضارة نافعة، فلقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتهز العـالم كله، وكان حتما أن تهز أهل الفكر في العالم العربي الإسـلامي فقد كان تائها بين حكومات منحازة للتيار المتشدد عـام ١٩٧٩ ولكن الإمام محمد خاتمي وزير الثقافة قبل أن يصـبح رئيسـا للجمهورية قاد حملة إصلاح جعلت إيران مقبولة مـن الغـرب والتصور أن كل قطر عربي وإسلامي في حاجة لفـتح حـوار ثقافي واسع ينفض التراب عن الحضارة لتأخـذ طريقهـا مـع الحضارات الأخرى من أجل التنمية والتقدم وقبول التنوع..

الجزء الرابع

الوثائق



مقدمة

عام ٢٠٠١ حوار الحضارات

** منذ أن ظهرت عبارة " صدام الحضارات " في البحث الذي قدمه صموئيل هانتنجتون في مجلة فورن أفيرز في صيف عام ١٩٩٣ – كما هو معروف وكما سبق الإشارة إلى ذلك مرارا في هذا الكتاب – انزعج المفكرون وتصوروا أنه لو حدث صدام الحضارات بالفعل كما تصور وتنبأ هانتنجتون، فإنها تكون كارثة على العالم.

وتبارت الدول والمفكرون في إيجاد البديل، وكان أكثر توفيقًا هو عبارة " حوار الحضارات" وكانت المبادرة الأكثر حظا – إعلاميا وعالميا- من خلال خطاب ألقاه الرئيس محمد خاتمي في الجمعية العامة للأمم المتحدة، فوجدت العبارة قبولاً بين المستمعين من الدول الأعضاء،وهكذا ظلت الأمور تتطور إلى أن اتخذت الأمم المتحدة قرارا بأن يكون عام ٢٠٠١ هو السنة الدولية لحوار الحضارات، ووجدت من المفيد للقارئ أن تتوافر له المستندات الصادرة من الأمم

المتحدة في هذا الشأن وهي تحتوي تقرير الأمين العام للأمم المتحدة،ومرفق به المذكرة المقدمة من مستر بيكو والذي عينه الأمين العام ليكون ممثلاً له في إدارة نشاط عام ٢٠٠١ في مجال حوار الحضارات.

ومن الوثائق الهامة أيضا إعلان طهران والذي صدر من ممثلي الحكومات الأعضاء في المؤتمر الإسلامي في مايو ١٩٩٩، وقد أشار فيه هذا الإعلان إلى بعض القيم والمفاهيم رفيعة المستوى وحيث مرجعيتها لآيات قرآنية، لذلك وجدت من المفيد أن أسجل المفاهيم وبجوار كل منها النص القرآني الممثل لمرجعية المفهوم والقيمة.

وا   الموفق

ميلاد حنا

٢٠ نوفمبر ٢٠٠١

سنة الأمم المتحدة

للحوار بين الحضارات ٢٠٠١

الجلسات العامة للجمعية العامة للأمم المتحدة

في دورتها السادسة والخمسين

نيويورك ٢٠٠١

القرار ٥٣/ ٢٢

الجمعية العامة تعلن سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات إن الجمعية العامة،

** **إذ تؤكد من جديد** المقاصد والمبادئ الواردة في ميثاق الأمم المتحدة، التي تدعو في جملة أمور، إلى بذل جهد جماعي لتعزيز العلاقات الودية بين الأمم ، وإزالة التهديدات للسلم، وتعزيز التعاون الدولي في حل القضايا الدولية ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والإنساني ،وفي تعزيز وتشجيع الاحترام العالمي لحقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع.

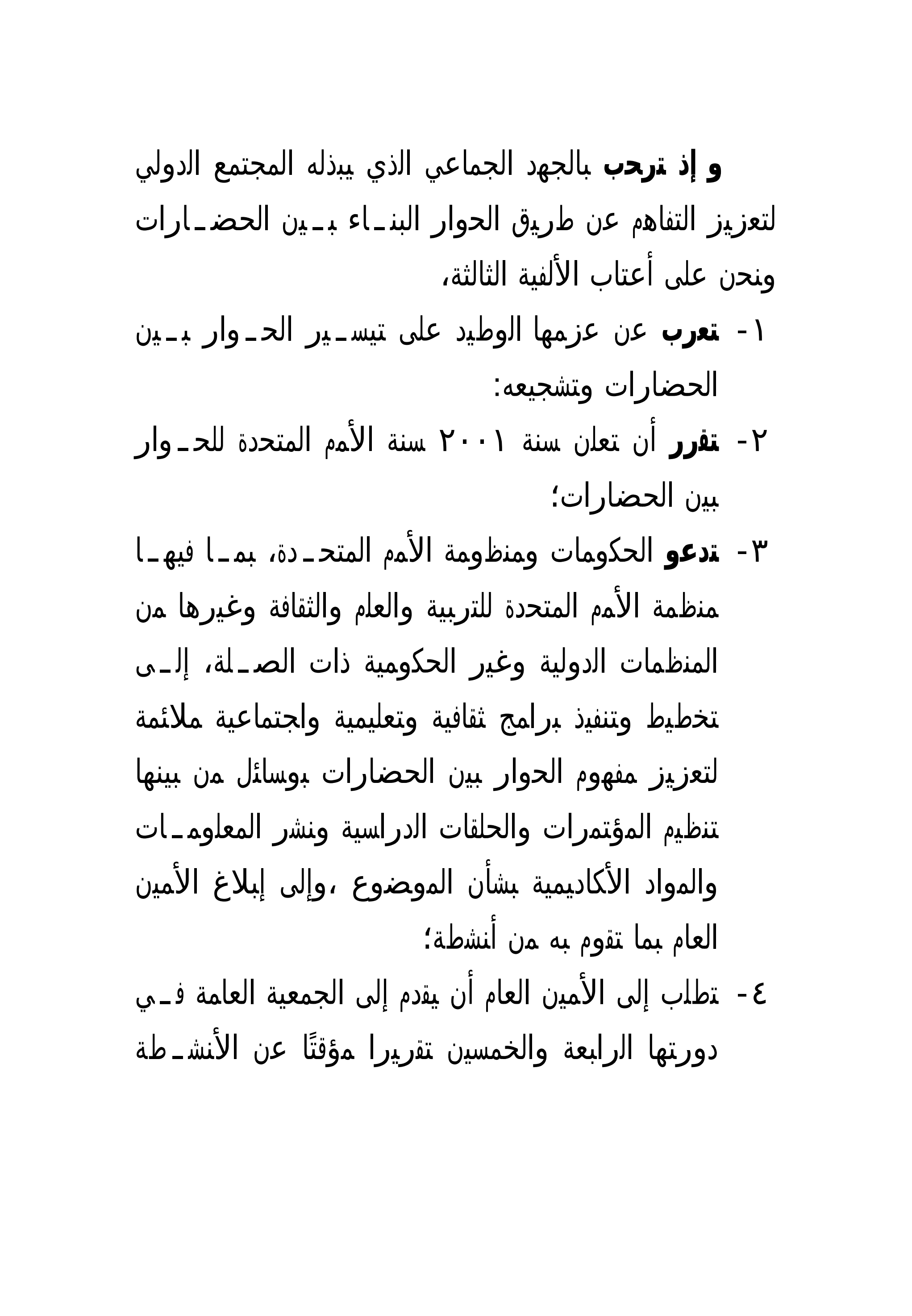
وإذ تسلم بتنوع المنجزات الحضارية للجنس البشـري، التي تبلور التعددية الثقافية والتنوع البشري الخلاق،

وإذا تدرك أن التفاعل الإيجابي بثماره المشـتركة بـين الحضارات قد استمر على مر التاريخ الإنساني رغم العقبات الناجمة عما نشب من تعصب ومنازعات ومـا انـدلع مـن حروب،

وإذا تؤكد أهمية التسامح في العلاقات الدولية والـدور الهام الذي يؤديه الحوار كوسيلة لتحقيـق التفـاهم، وإزالـة التهديدات للسلم وتعزيز التفاعل والتبادل بين الحضارات.

و إذ تلاحظ تسمية عام ١٩٩٥ سـنة الأمـم المتحـدة للتسامح، وإذ تقر بأن التسامح واحترام التنوع يسهلان تعزيز حقوق الإنسان وحمايتها على نطاق العالم ويشكلان أساسـا سليما للمجتمع المدني، والوئام الاجتماعي،

و إذ تؤكد من جديد أن المنجزات الحضـارية تشـكل التراث الجماعي للجنس البشري، وأنها توفر مصدرا للإلهام والتقدم للبشرية جمعاء،



و إذ ترحب بالجهد الجماعي الذي يبذله المجتمع الدولي لتعزيز التفاهم عن طريق الحوار البنـاء بـين الحضـارات ونحن على أعتاب الألفية الثالثة،

١- **تعرب** عن عزمها الوطيد على تيسـير الحـوار بـين الحضارات وتشجيعه:

٢- **تقرر** أن تعلن سنة ٢٠٠١ سنة الأمم المتحدة للحـوار بين الحضارات؛

٣- **تدعو** الحكومات ومنظومة الأمم المتحـدة، بمـا فيهـا منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة وغيرها من المنظمات الدولية وغير الحكومية ذات الصـلة، إلـى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات بوسائل من بينها تنظيم المؤتمرات والحلقات الدراسية ونشر المعلومـات والمواد الأكاديمية بشأن الموضوع ،وإلى إبلاغ الأمين العام بما تقوم به من أنشطة؛

٤- تطلب إلى الأمين العام أن يقدم إلى الجمعية العامة فـي دورتها الرابعة والخمسين تقريرا مؤقتًا عن الأنشـطة

المضطلع بها في هذا الصدد، وأن يقدم إليهـا تقريـرا نهائيا في دورتها الخامسة والخمسين.

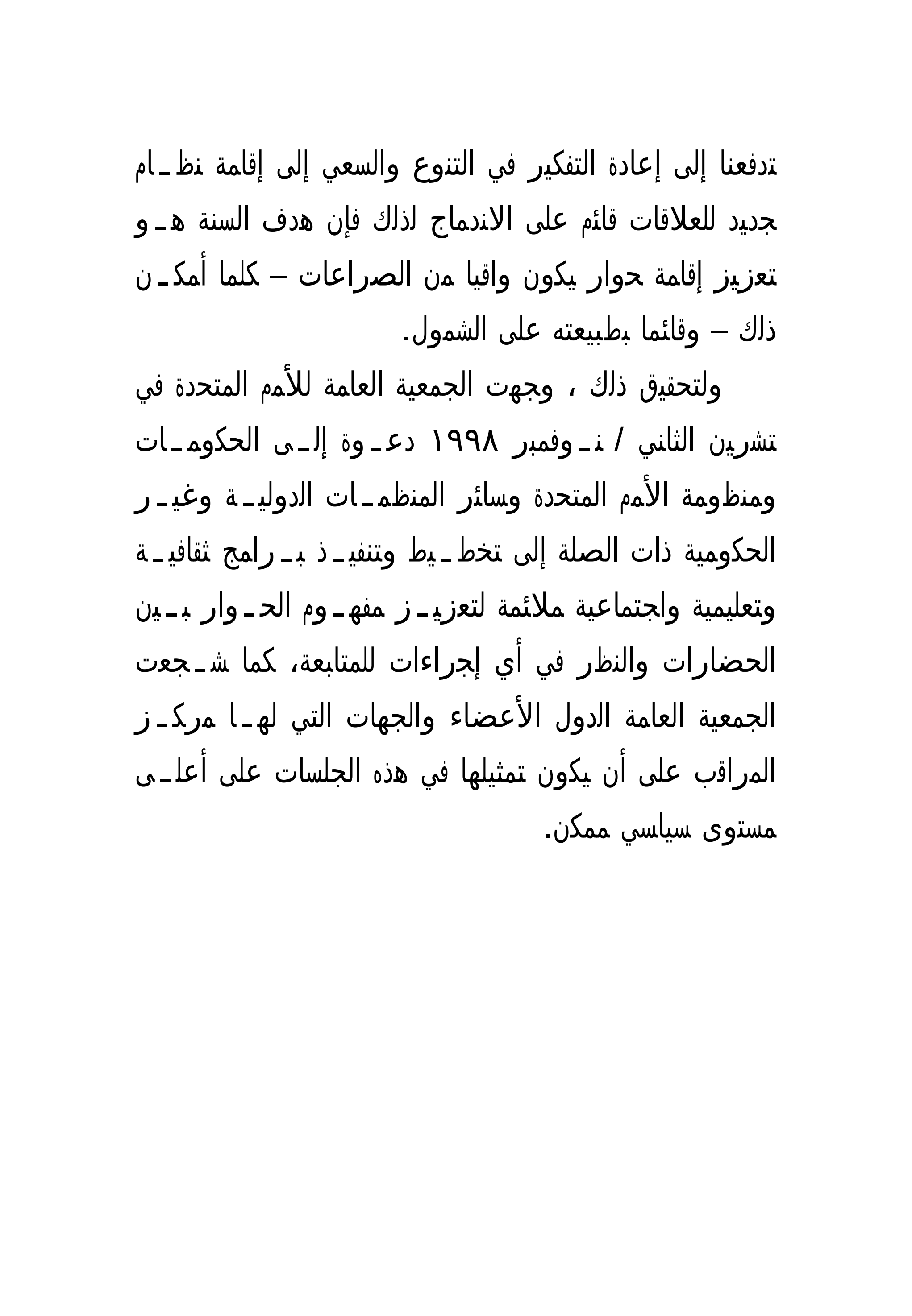
الجلسة العامة ٥٣
٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٨
٤ نوفمبر ١٩٩٨

***

١-معنى الحوار بين الحضارات

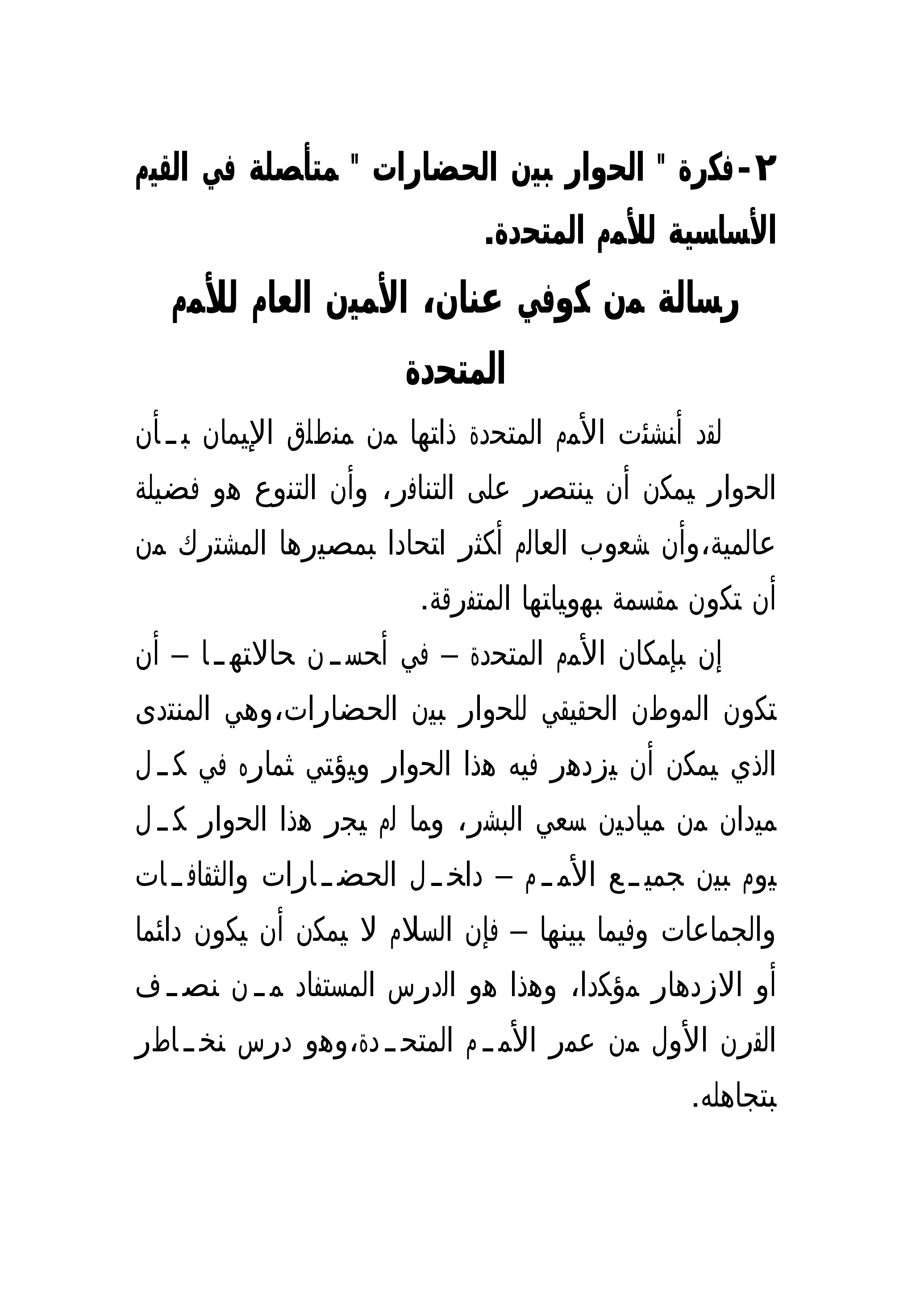
ستجتمع الجمعية العامة للأمم المتحدة في جلسات عامة يـومي ٣ ، ٤ كـانون الأول / ديسـمبر ٢٠٠١ للاحتفـال بالذكرى السنوية لسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضـارات ٢٠٠١، والنظر في إجراءات المتابعة.

ماذا يعني الحوار بين الحضارات؟ يمكن للمرء أن يقول إن هناك في العالم فئتين من الحضـارات – فئـة تظـن أن التنوع خطر، والفئة الأخرى ترى أنـه فرصـة وعنصـر أساسي من عناصر النمو، وأن سنة الحوار بين الحضـارات



تدفعنا إلى إعادة التفكير في التنوع والسعي إلى إقامة نظـام جديد للعلاقات قائم على الاندماج لذلك فإن هدف السنة هـو تعزيز إقامة حوار يكون واقيا من الصراعات – كلما أمكـن ذلك – وقائما بطبيعته على الشمول.

ولتحقيق ذلك ، وجهت الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني / نـوفمبر ١٩٩٨ دعـوة إلـى الحكومـات ومنظومة الأمم المتحدة وسائر المنظمـات الدوليـة وغيـر الحكومية ذات الصلة إلى تخطـيط وتنفيـذ بـرامج ثقافيـة وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيـز مفهـوم الحـوار بـين الحضارات والنظر في أي إجراءات للمتابعة، كما شـجعت الجمعية العامة الدول الأعضاء والجهات التي لهـا مركـز المراقب على أن يكون تمثيلها في هذه الجلسات على أعلـى مستوى سياسي ممكن.



٢-فكرة " الحوار بين الحضارات " متأصلة في القيم الأساسية للأمم المتحدة.

رسالة من كوفي عنان، الأمين العام للأمم المتحدة

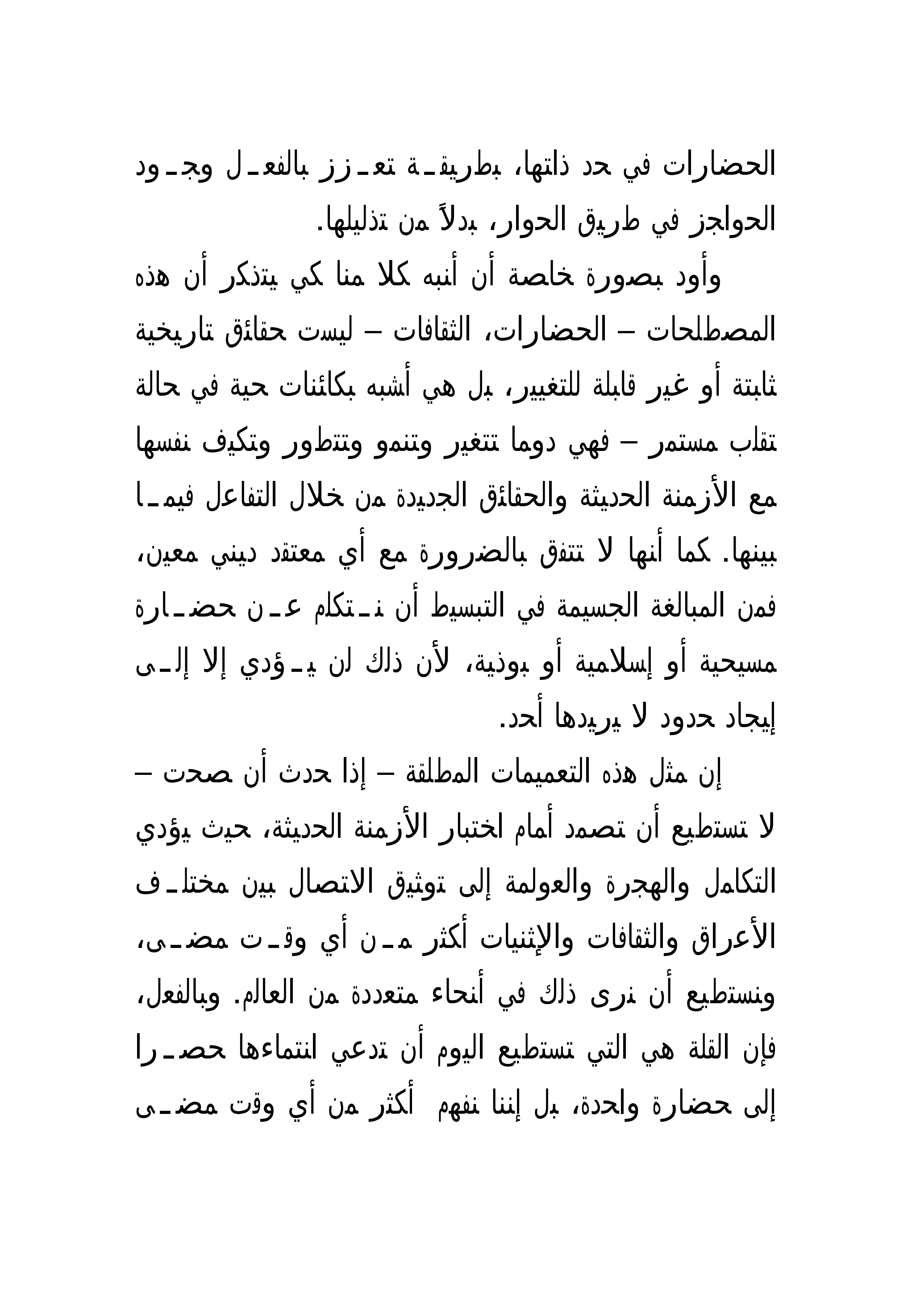
لقد أنشئت الأمم المتحدة ذاتها من منطلق الإيمان بـأن الحوار يمكن أن ينتصر على التنافر، وأن التنوع هو فضيلة عالمية،وأن شعوب العالم أكثر اتحادا بمصيرها المشترك من أن تكون مقسمة بهوياتها المتفرقة.

إن بإمكان الأمم المتحدة – في أحسـن حالاتهـا – أن تكون الموطن الحقيقي للحوار بين الحضارات،وهي المنتدى الذي يمكن أن يزدهر فيه هذا الحوار ويؤتي ثماره في كـل ميدان من ميادين سعي البشر، وما لم يجر هذا الحوار كـل يوم بين جميـع الأمـم – داخـل الحضـارات والثقافـات والجماعات وفيما بينها – فإن السلام لا يمكن أن يكون دائما أو الازدهار مؤكدا، وهذا هو الدرس المستفاد مـن نصـف القرن الأول من عمر الأمـم المتحـدة،وهو درس نخـاطر بتجاهله.

وما ينبغي أن يعلمنا هذا التاريخ أيضا هو أنـه، إلـى جانب التنوع اللامتناهي للثقافات، توجد بالتأكيـد حضـارة عالمية واحدة قائمة على القيم المشتركة للتسـامح والحريـة وهي حضارة يدل تعريفها على تسامحها مع الـرأي الآخـر وترحيبها بالتنوع الثقافي ، تقول رأيها في الطريقة التي تحكم بها،وهي حضارة تقوم على الإيمان بـأن تنـوع الثقافـات البشرية أمر مرغوب فيه،ولا خوف منه، والحقيقة أن كثيـرا من الحروب تنشأ من خوف النـاس مـن الآخـرين الـذين يختلفون عنهم،ولا يمكن التغلب على هذه المخاوف إلا مـن خلال الحوار.

وهكذا فإن التنوع هو في آن واحد أساس للحوار بـين الحضارات كما أنه الحقيقة التي تجعل الحـوار ضـروريا. وهذه هي الحضارة العالمية التي ندعى إلـى الـدفاع عنهـا وتشجيعها ونحن على أبواب قرن جديد.

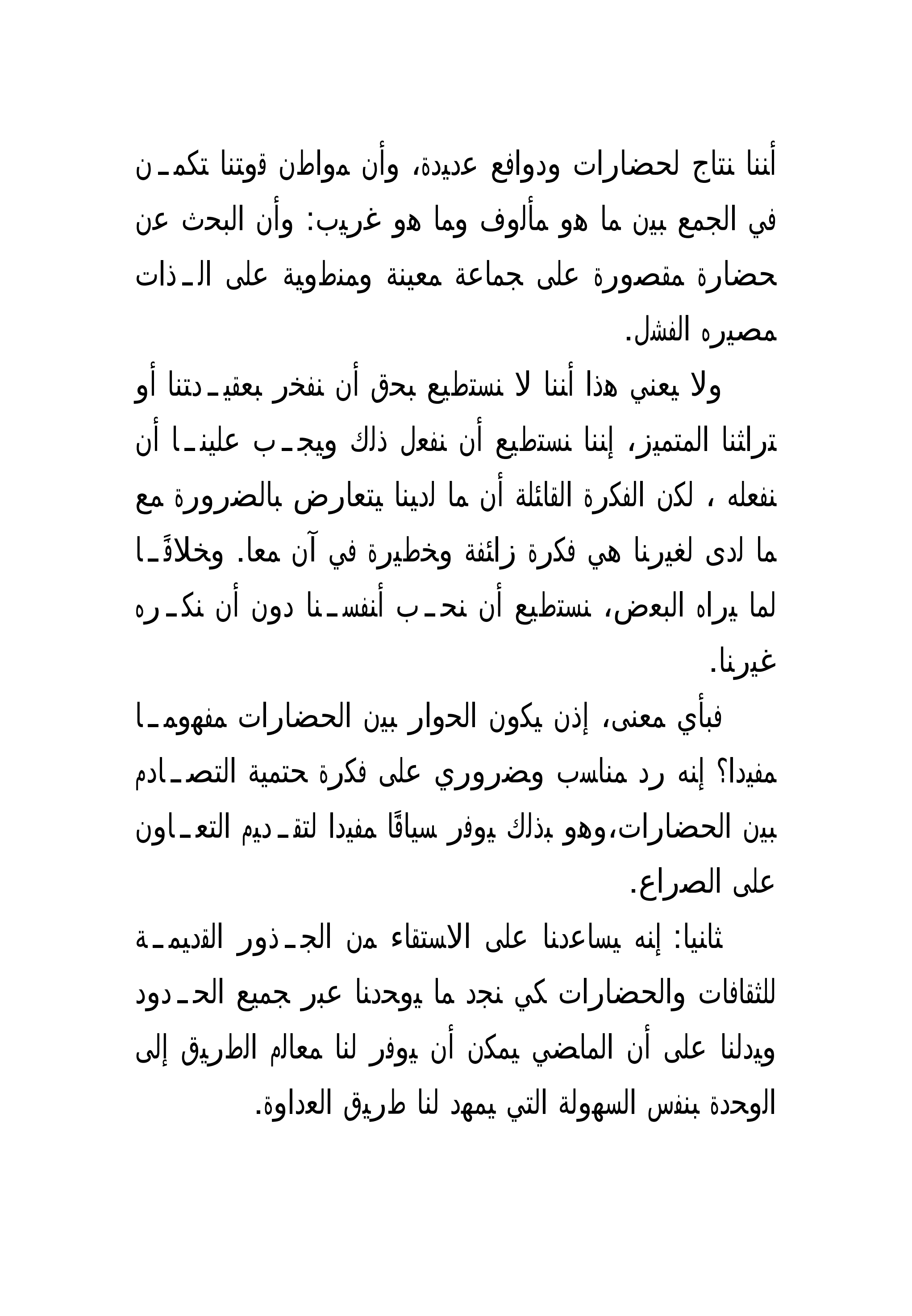
ولا بد لنا لتحقيق ذلك بنجاح ، من أن نكـون قـادرين على الاهتمام بتشجيع الحـوار دون إيجـاد حـدود جديـدة والنهوض بالتعاون دون إعاقة التكامل. ولماذا أقول هـذا ؟ لأن هناك خطرا بأن تجرى مناقشـة مسـألة الحـوار بـين



الحضارات في حد ذاتها، بطريقة تعزز بالفعل وجود الحواجز في طريق الحوار، بدلاً من تذليلها.

وأود بصورة خاصة أن أنبه كلا منا كي يتذكر أن هذه المصطلحات – الحضارات، الثقافات – ليست حقائق تاريخية ثابتة أو غير قابلة للتغيير، بل هي أشبه بكائنات حية في حالة تقلب مستمر – فهي دوما تتغير وتنمو وتتطور وتكيف نفسها مع الأزمنة الحديثة والحقائق الجديدة من خلال التفاعل فيما بينها. كما أنها لا تتفق بالضرورة مع أي معتقد ديني معين، فمن المبالغة الجسيمة في التبسيط أن نتكلم عن حضارة مسيحية أو إسلامية أو بوذية، لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى إيجاد حدود لا يريدها أحد.

إن مثل هذه التعميمات المطلقة – إذا حدث أن صحت – لا تستطيع أن تصمد أمام اختبار الأزمنة الحديثة، حيث يؤدي التكامل والهجرة والعولمة إلى توثيق الاتصال بين مختلف الأعراق والثقافات والإثنيات أكثر من أي وقت مضى، ونستطيع أن نرى ذلك في أنحاء متعددة من العالم. وبالفعل، فإن القلة هي التي تستطيع اليوم أن تدعي انتماءها حصرا إلى حضارة واحدة، بل إننا نفهم أكثر من أي وقت مضى

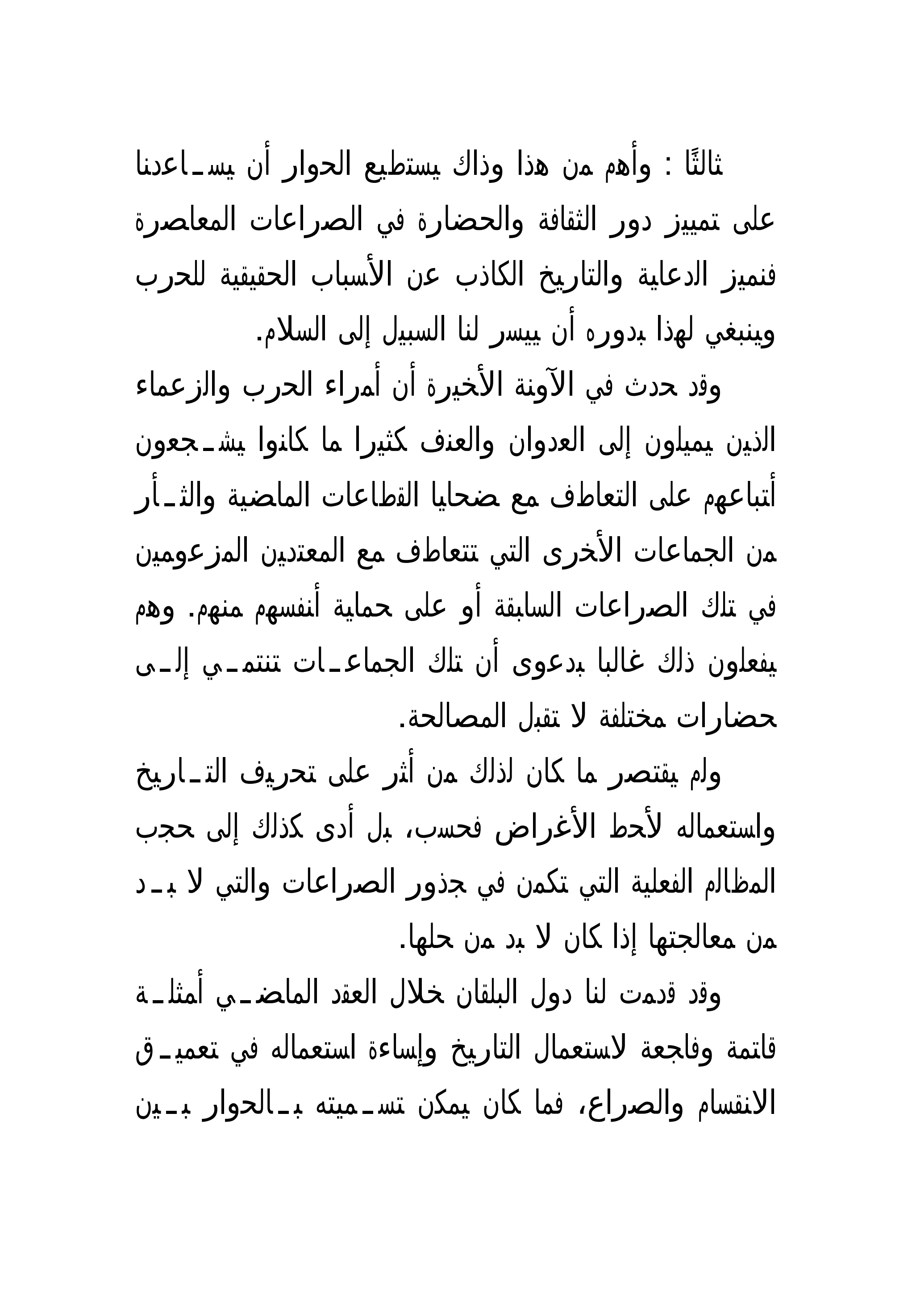


أننا نتاج لحضارات ودوافع عديدة، وأن مواطن قوتنا تكمـن في الجمع بين ما هو مألوف وما هو غريب: وأن البحث عن حضارة مقصورة على جماعة معينة ومنطوية على الـذات مصيره الفشل.

ولا يعني هذا أننا لا نستطيع بحق أن نفخر بعقيـدتنا أو تراثنا المتميز، إننا نستطيع أن نفعل ذلك ويجـب علينـا أن نفعله ، لكن الفكرة القائلة أن ما لدينا يتعارض بالضرورة مع ما لدى لغيرنا هي فكرة زائفة وخطيرة في آن معا. وخلافًـا لما يراه البعض، نستطيع أن نحـب أنفسـنا دون أن نكـره غيرنا.

فبأي معنى، إذن يكون الحوار بين الحضارات مفهومـا مفيدا؟ إنه رد مناسب وضروري على فكرة حتمية التصـادم بين الحضارات،وهو بذلك يوفر سياقًا مفيدا لتقـديم التعـاون على الصراع.

ثانيا: إنه يساعدنا على الاستقاء من الجـذور القديمـة للثقافات والحضارات كي نجد ما يوحدنا عبر جميع الحـدود ويدلنا على أن الماضي يمكن أن يوفر لنا معالم الطريق إلى الوحدة بنفس السهولة التي يمهد لنا طريق العداوة.

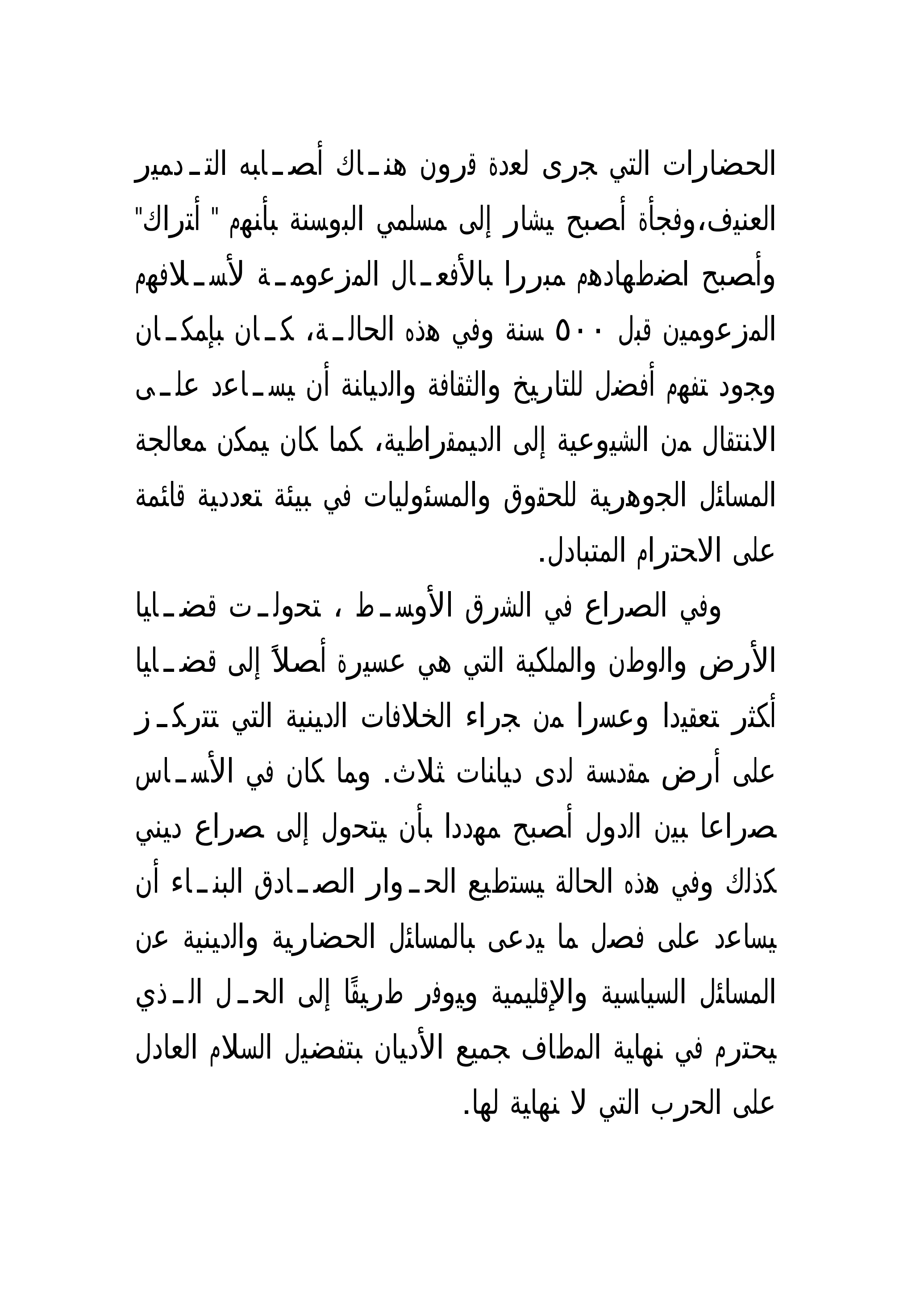


ثالثًا : وأهم من هذا وذاك يستطيع الحوار أن يساعدنا على تمييز دور الثقافة والحضارة في الصراعات المعاصرة فنميز الدعاية والتاريخ الكاذب عن الأسباب الحقيقية للحرب وينبغي لهذا بدوره أن ييسر لنا السبيل إلى السلام.

وقد حدث في الآونة الأخيرة أن أمراء الحرب والزعماء الذين يميلون إلى العدوان والعنف كثيرا ما كانوا يشجعون أتباعهم على التعاطف مع ضحايا القطاعات الماضية والثأر من الجماعات الأخرى التي تتعاطف مع المعتدين المزعومين في تلك الصراعات السابقة أو على حماية أنفسهم منهم. وهم يفعلون ذلك غالبا بدعوى أن تلك الجماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة لا تقبل المصالحة.

ولم يقتصر ما كان لذلك من أثر على تحريف التاريخ واستعماله لأحط الأغراض فحسب، بل أدى كذلك إلى حجب المظالم الفعلية التي تكمن في جذور الصراعات والتي لا بد من معالجتها إذا كان لا بد من حلها.

وقد قدمت لنا دول البلقان خلال العقد الماضي أمثلة قاتمة وفاجعة لاستعمال التاريخ وإساءة استعماله في تعميق الانقسام والصراع، فما كان يمكن تسميته بالحوار بين



الحضارات التي جرى لعدة قرون هنـاك أصـابه التـدمير العنيف،وفجأة أصبح يشار إلى مسلمي البوسنة بأنهم " أتراك" وأصبح اضطهادهم مبررا بالأفعـال المزعومـة لأسـلافهم المزعومين قبل ٥٠٠ سنة وفي هذه الحالـة، كـان بإمكـان وجود تفهم أفضل للتاريخ والثقافة والديانة أن يسـاعد علـى الانتقال من الشيوعية إلى الديمقراطية، كما كان يمكن معالجة المسائل الجوهرية للحقوق والمسئوليات في بيئة تعددية قائمة على الاحترام المتبادل.

وفي الصراع في الشرق الأوسـط ، تحولـت قضـايا الأرض والوطن والملكية التي هي عسيرة أصلاً إلى قضـايا أكثر تعقيدا وعسرا من جراء الخلافات الدينية التي تتركـز على أرض مقدسة لدى ديانات ثلاث. وما كان في الأسـاس صراعا بين الدول أصبح مهددا بأن يتحول إلى صراع ديني كذلك وفي هذه الحالة يستطيع الحـوار الصـادق البنـاء أن يساعد على فصل ما يدعى بالمسائل الحضارية والدينية عن المسائل السياسية والإقليمية ويوفر طريقًا إلى الحـل الـذي يحترم في نهاية المطاف جميع الأديان بتفضيل السلام العادل على الحرب التي لا نهاية لها.

ففي كلتا هاتين الحالتين – البلقان والشرق الأوسـط – مازال بإمكان الحوار الصادق، بين الثقافات والأديان، وبـين الآراء بشأن الصواب والخطـأ، والعدالـة والضـرورة، أن يساعد القادة على استجلاء طريقهم إلى السلام، ولا أريـد أن أوحي بأنه لا توجد على المحك مسائل عويصـة وحقيقيـة تتعلق بالحق في تقرير المصير والأمن والكرامة.

إن الكلمات المجردة لن تحل هذه المسائل ، لكن حـوار الأقوال والأفعال – أي الإجراءات المتخذة من الطرفين على أساس الاحترام والتقدير الصادق لآلام الطرف الآخر – هـو الذي يستطيع أن يغير الحال،و أنا واثق من ذلك وينبغـي ألا ننتظر حتى نصبح في حمأة الصراع قبل البدء بهذا النوع من الحوار. بل ينبغي أن نشرع به كلما وحيثمـا سـنحت لنـا الفرصة – وسيكون ذلك أيسر في الغالب بعيدا عـن سـاحة المعركة.

<u>مقتبسة بتصرف من الخطاب الذي ألقاه الأمين العـام كوفي عنان في كلية الدبلوماسية والعلاقـات الدوليـة فـي جامعة ستيون هول في ساوث أورانج بنيو جيرسي يـوم 5 شباط/ فبراير ٢٠٠١</u>

٣- الحوار بين الحضارات ليس مجرد أمنيات

خطاب من الممثل الشخصي للأمين العام لسنة الأمـم المتحدة للحوار بين الحضارات السيد غياندو مينكو بيكو.

قد تبدو فكرة الحوار بين الحضارات عند الكثير مجـرد تمني، وكمثل أعلى لا يدرك سيقول معظم الناس ، كما قيـل لي في عدة مناسبات ، لا يمكن أن يتحقق الحوار لأنه لم يكن أبدا من قبل. وواقع الأمر أن هناك ثقافات مؤسسـية تقـوم بكاملها على تصور أننا غير قادرين على إنجاز ما لم يتحقق من قبل، ومع أن الثقافات ما برحت مترابطة دوما بطريقة أو بأخرى، لا يزال الكثير من الأفـراد والجماعـات يوحـون للشباب الخوف من "الآخر" الذي يأتي من الماضي الملـيء بالتحيز وسوء التفاهم والفشل.

ومع هذا، فإن اكتشاف شيء جديد لا نعلم حتى بوجوده، هو ما يشكل تماما أساس عمل العلماء والباحثين، فعندما كنت يافعا، وكان من هم أعقل مني وأكبر سنا ينصحونني بعـدم الخوض في مغامرات لم يخضها أحد من قبلي ، لـم أكـن لأفهم ذلك لأن تلك التحديات كانت تبدو لـي أشـد الأشـياء جاذبية وهكذا استفتيت قلبي بل أعتقد أنني أنجزت مـا لـم

يتحقق من قبل ، فإذا كان للعالم أن يواصـل كشـفه لخبايـا المجهول فلم إذن أمنع أنا من ذلك؟ وهكذا أعتقد أن أرواحـا كثيرة أنقذت وأن حياتي أصبحت ذات مغزى على الأقل.

في الكثير من الأحيان يزرع الكبار في الشباب شيئًا من الشك يخفيه الكبار تحت ستار التظاهر بالحنكة، فلربما لـيس من الواقعية في شيء أن نتواصل مع الشباب بتلك الطريقة، ورب شيء سميناه تجربة كان مجرد مثال على فشـلنا، لـذا لست بقائل للجيل الجديد أن يكفوا عـن خـوض مغـامرات جديدة ولا بمثنيهم عن تحقيـق مـا لـم يتحقـق بعـد، ولا بمحرضهم على التخلي عن تطلعاتهم وأحلامهم.

وحتى لو اتضح أن الحوار بين الحضارات أمر محـال في جيلنا ، ربما لن يكون الأمر كذلك بالنسبة للجيل المقبل أو الجيل الذي بعده، لذا يبدو لي أن رحلة الحوار تبدأ بمشاركة كل منا الآن.

وليس بوسع المرء بتاتًا أن يسعى إلى تحقيق الطموحات والأهداف المتمثلة في إجراء حوار بين الحضـارات دون أن يؤمن بقوة الروح البشرية وقدرتها على تجـاوز الحـواجز وتخطي الحدود والعقبات التي قد تكون عمرت لقرون مـن

الزمن، الحوار قبل كل شيء استعداد يرى في التنوع عنصرا للتحسن والتطور، متجاوزا بالتالي النمط القديم الذي يرى في التنوع تهديدا، بل ربما أسوأ من ذلك يعده مرادف " العدو".

لا شك أن للحوار بين الحضارات عدة معان، ولذلك قد يكون من الأجدى التركيز على معنى واحد إن شئنا عدم التيه في غموض حديث لا نهاية له ولا طائل منـه، فـإذا كـان حوارنا يركز على تغيير الاستعداد الذي يرى فـي التنـوع تهديدا، قد يكون هدفه الجوهري وضـع نمـط جديـد مـن العلاقات الخارجية القائمة على هذا إحداث هذا التغيير.

ولعمري هذا هو الهدف الطموح الذي رسـمه لنفسـه فريق الشخصيات البارزة الذي أنشأه الأمين العام.

وقد يشمل النمط الجديد العناصر التالية:

- إعادة النظر في تقييم مفهوم " العدو" فهل لنا أن نتطلـع إلى زعماء يقودون بدون أعداء؟
- إنشاء تجمعات تقوم على القضايا بدلاً مـن تحالفـات أساسها أيديولوجي (فحتى الأخيار من الأصـدقاء قـد يتفقون على بعض القضايا ويختلفون في أخرى).

- ينبغي أن يسلم هذا النمط بمفهوم يقضي بوجـود ذوي مصلحة في عالم مترابط بدلاً من وجود قوى عظمى أو قوى متوسطة (منذ قرن مضى كـان بوسـع القـوى الكبرى أن تؤثر بسهولة في البلدان الضعيفة، أما اليوم فحتى البلدان الصغيرة بوسعها أن تمس بالقوى العظمى كما رأينا في القطاع المالي ناهيك عن الإرهاب).
- وختاما ينبغي أن يكون نمطًا يقوم أساسا علـى اتخـاذ قرارات جماعية ولكنه ينبني أيضا على تحمل المسئولية بصورة فردية، فقد غابت مسئولية الفرد علـى الأطـر المؤسسية والقانونية للنظام الدولي، وقد يقول الـبعض إذا لم نتحمـل المسـئولية كـأفراد سـيكون الالتـزام بالقرارات الجماعية ضعيفًا جدا في الواقع.

ليس الحوار عبر الحواجز اكتشافًا جديدا. فزيادة علـى تبادل الكلمات والنوايا الحسنة، يبدو الحوار أكثر نجاحا عندما يقوم الأفراد " ببناء شيء ما معا " متخطين الحواجز، فبنـاء شيء ما معا هو في نهاية المطاف الشكل الحقيقي للحـوار، وعندما نبني شيئًا مشتركًا فإننا نوظـف مواهبنـا المختلفـة لتحقيق هدف مشترك، وإذا كانت مصلحتنا في إنجاز مهمـة

مشتركة، فإن لنا في بناء مستقبل مشترك مصلحة ، أنا أتكلم عن تشييد صروح مادية أو المساهمة في مشاريع مشـتركة، فإن لنا في بناء مستقبل مشترك مصلحة، أنا أتكلم عن تشييد صروح مادية أو المساهمة في مشاريع مشتركة وفـي بنـاء المؤسسات والبناء يستغرق وقتًـا ويسـتلزم قـوة وعزمـا وشجاعة وحكمة وإذا كان الحديث عن أهمية تشييد الصروح المادية عبر الحواجز حديثًا طويلاً فمن الواضـع أن إعـداد البرامج الدراسية وتوحيد الصـفوف لمكافحـة الأمـراض والتصدي للكوارث الطبيعية المشتركة أمر على الجانب ذاته من الأهمية.

قد يؤدي البناء عبر الحواجز في نهاية المطاف إلى قهر غطرسة القوة، التي ما لبثت تشكل السبب الأساسي للتـدهور الحاصل في المجتمعين المحلي والدولي، وبالإضـافة إلـى الاحترام والتسامح وقبول الآخر ثقافيا وفكريا، فإن البناء عبر الحواجز يضفي على الحوار طابع الاستمرارية.

إن الحوار بين الحضارات كما يراه الأمين العـام وأراه هو بالتالي حوارا بين الذين يرون التنوع تهديدا والذين يرون فيه خطوة نحو التحسن والتطور وإذا كان هناك من مهـارة

علينا جميعا صقلها وتعلمها بشكل أفضل وأفضل فهي كيفيـة التعامل مع التنوع.

يشغل غياندو مينكو بيكو،وكيل الأمـين العـام للأمـم المتحدة، منصب الممثل الشخصي للأمين العام لسنة الأمـم المتحدة للحوار بين الحضارات،وهو أيضا الرئيس التنفيـذي لشركة جي دي بي أسوشيتس في مدينة نيويـورك ورئـيس مشروع الاستراتيجيات غير الحكومية للسـلام فـي جنيـف بسويسرا.

وكان مشوار السيد بيكو في الأمم متميزا خلال الفتـرة الممتدة من ١٩٧٣ إلى ١٩٩٢ حيث عمل مؤخرا كأمين عام مساعد للشئون السياسية، ومن إنجازاته البارزة ما بذلته الأمم المتحدة من جهود أدت إلى إطلاق سراح الرهائن الغـربيين في لبنان والمفاوضات التي أفضت إلى وقف إطـلاق النـار بين إيران و العراق ، ومثل الأمين العام في المفاوضات التي جرت بشأن اتفاقات جنيف (١٩٩٨) المتعلقة بأفغانستان وفي التحكيم بشأن قضـية سـفينة رينبـو ووريـر (Rainbow Warrior).

وبعدما غادر السيد بيكو الأمم المتحدة، نال العديد من الجوائز والشهادات التقديرية، منها جائزة الرئيس الخاصة للخدمات المتميزة من الولايات المتحدة، ووسام الصليب الأعظم من درجة الاستحقاق من جمهورية ألمانيا الاتحادية ووشاح الأرز الوطني من رئيس جمهورية لبنان وغير ذلك وقد صدرت روايته الشخصية لقضية الرهائن في لبنان في كتاب بعنوان " رجل بدون سلاح".

٤- فريق الشخصيات البارزة

يقوم فريق من الشخصيات البارزة يختاره الأمين العام بالعمل مع الممثل الخاص للأمين العام، السيد غياندو مينكو بيكو، من أجل إعداد كتاب عن الحوار بين الحضارات كمنهجية لتيسير نمط جديد للعلاقات الدولية، وسيقدم هذا الكتاب إلى الأمين العام في خريف عام ٢٠٠١.

وتقدم كلية الدبلوماسية والعلاقات الدولية في جامعة سيتون هول في نيوجيرسي ، الولايات المتحدة الأمريكية خدمات الأمانة لعمل الشخصيات البارزة.

(للاطلاع على موجز الكتب ، انظر الصفحة...).

وفيما يلي قائمة الشخصيات البارزة المشاركة في هـذا المشروع.

الدكتور أحمد كمال أبو المجد

أستاذ القانون العام بجامعة القاهرة وقاضـي المحكمـة الإدارية للبنك الدولي.

الدكتور لورديس أريسبه

أستاذة الأنتروبولوجيا بجامعة المكسيك المستقلة ومـدير عام مساعد لشئون الثقافة سابقًا في اليونسكو.

الدكتور حنان عشراوي

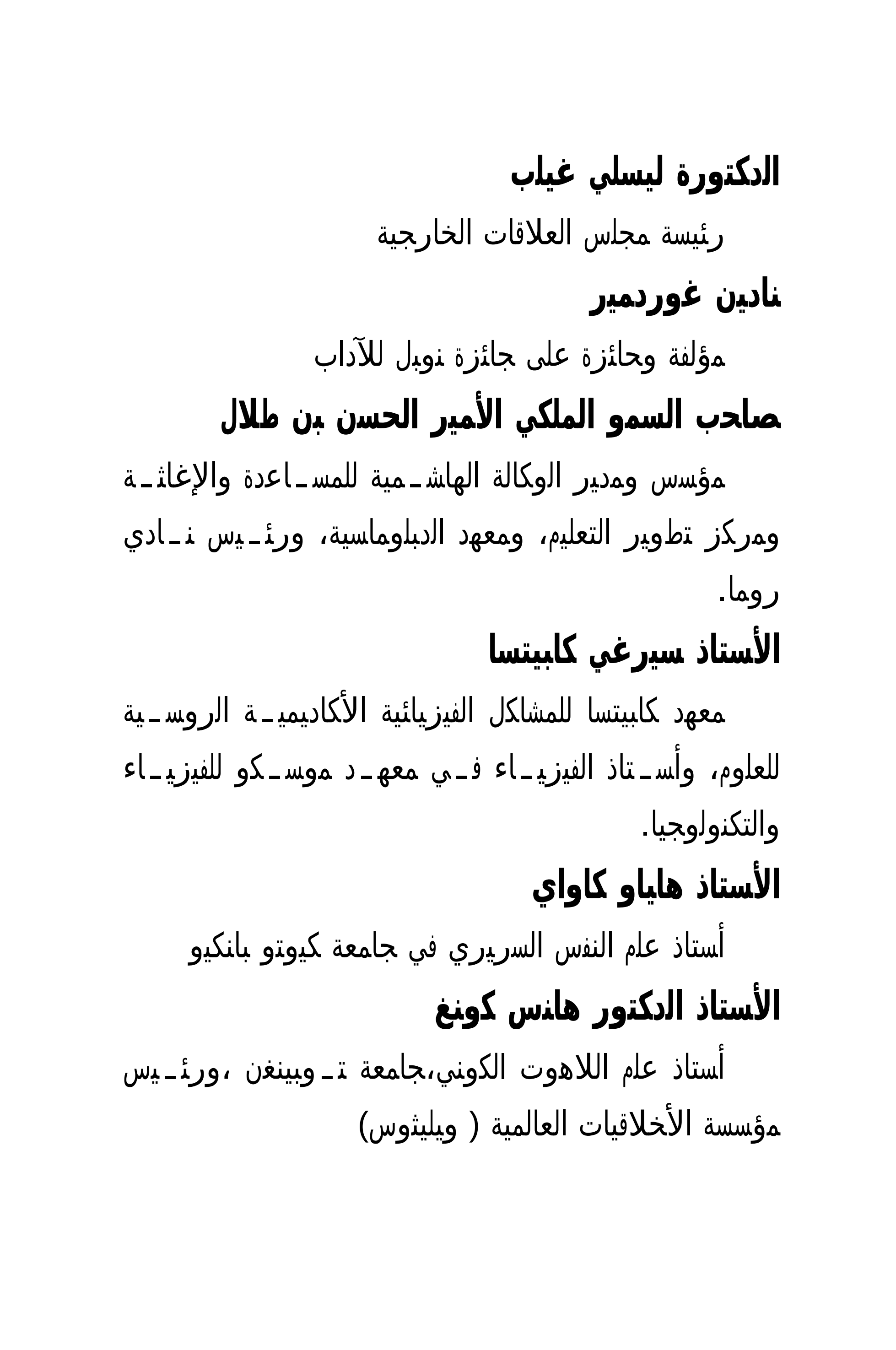
المتحدثة باسم جامعة الدول العربيـة، والأمـين العـام للمبادرة الفلسطينية لتعزيز الحوار العالمي والديمقراطية.

الدكتورة روث كاردوسو

سيدة البرازيل الأولـى، ورئيسـة مؤسسـة تضـامن المجتمعات المحلية وعضو في مجلس مؤسسة الأمم المتحدة.

الأونرابل جاك دولور

رئيس مجموعة الدراسات والأبحاث بمؤسسـة قارتنـا الأوربية ورئيس سابق للجنة الأوروبية.



الدكتورة ليسلي غياب

رئيسة مجلس العلاقات الخارجية

نادين غوردمير

مؤلفة وحائزة على جائزة نوبل للآداب

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال

مؤسس ومدير الوكالة الهاشمية للمساعدة والإغاثة ومركز تطوير التعليم، ومعهد الدبلوماسية، ورئيس نادي روما.

الأستاذ سيرغي كابيتسا

معهد كابيتسا للمشاكل الفيزيائية الأكاديمية الروسية للعلوم، وأستاذ الفيزياء في معهد موسكو للفيزياء والتكنولوجيا.

الأستاذ هاياو كاواي

أستاذ علم النفس السريري في جامعة كيوتو بانكيو

الأستاذ الدكتور هانس كونغ

أستاذ علم اللاهوت الكوني،جامعة توبينغن ،ورئيس مؤسسة الأخلاقيات العالمية (ويليثوس)

الدكتورة غراتشا ماشيل

رئيسة مؤسسة تنمية الجماعات المحلية، وعضو مجلس مؤسسة الأمم المتحدة، ورئيسة دراسة الأمم المتحدة حول تأثير النزاعات المسلحة على الأطفال.

الأستاذ أمارتيا سين

أستاذ الاقتصاد في كلية ترينيتي ، كامبريدج، وحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد.

الدكتور سونغ جيان

نائب رئيس المؤتمر الاستشاري السياسي الشعبي الصيني ورئيس الأكاديمية الصينية للهندسة.

السيد ديك سبرينغ

عضو في البرلمان الأيرلندي ونائب رئيس الوزراء سابقًا.

الأستاذ تو ويمينغ

مدير معهد ينشينغ وأستاذ تاريخ الصين والفلسفة الصينية والدراسات الكونفوشية في جامعة هارفارد.

ريتشارد فون فيزاكير

رئيس سابق لجمهورية ألمانيا الاتحادية

الدكتور جواد ظريف

أستاذ القانون الدولي في جامعة طهران ونائب وزير الخارجية.

٥-الحوار بين الحضارات

هذا موجز لكتاب فريق الشخصيات البارزة الذي عينه الأمين العام بمناسبة سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات.

الوحدة والتنوع

وحدتنا راسخة في مورثاتنا،وتنوعنا حتمية طبيعية،ولا شك أن البشر أمة واحدة يجمعها رباط شامل عبر سلالة عريقة لكنها مع ذلك واحدة. ومن غريب الأمور ، أن العلماء أيضا اكتشفوا مؤخرا أن عدد المورثات البشرية قليل بشكل مدهش وبالتالي رغم كون مظاهرنا الخارجية تجسيدا لاختلافنا ، فدرجات الاختلاف بين البشر قليلة في الواقع.

سياق الحوار: لماذا الحوار؟ ولم الآن؟

قد يكون هذا العصر حقًا عصر العولمة لكنه أيضا زمن العودة لاكتشاف هوية الفرد، وإذا كان الاكتشاف الفردية يفضي إلى إدراك نزعة التفرد ، فإن العولمة أيضا توسع

إدراكنا لأوجه اختلافنا ونتيجة لذلك يشكل هذان الاتجاهـان المتناقضان ، العولمة والتنوع وجهين لواقعنا الراهن.

في الماضي، كان تصور التنوع كتهديد ولا يزال فـي بعض الحالات السبب الجوهري لاندلاع الحروب فـالتطهير العرقي والصراع المسلح أو ما يدعى بالمواجهـات الدينيـة أمور تقوم كلها على تصور التنوع كتهديد وبتذكر الأعمـال الوحشية التي ارتبكت في العقد الماضي، يبدو من السهل بل من الجلي الجواب عن السؤال " لماذا نحتاج إلى الحوار" لكن يظل بقية السؤال " لم الآن"؟

قد تزيد عملية العولمة بدون حوار من احتمال التسـلط، وقد تورث الدعوة إلى التنوع بـدون حـوار المزيـد مـن الانتقائية، وبالتالي يبدو أن الحوار بين الذين يرون التنـوع تهديدا والذين يرونه وسيلة للتحسن والتطور ضرورة حقيقية.

الهدف من الحوار كأداة للتعامل مع التنوع:

نحو نمط جديد من العلاقات العالمية

هل بوسعنا أن ننتقل من نمط الإقصاء الذي يقوم علـى تصور التنوع كتهديد إلى نمط الاندماج الذي ينبنـي علـى اعتبار التنوع عنصرا من عناصر التحسن والنمو؟

وقد يكون بعض بذور النمط الجديد متجليا فعـلاً فـي عالمنا اليوم، من هذه البذور ما يلي:

{١} المساواة: المشاركة التامة في صنع القرارات".

{٢} إعادة النظر في تقييم مفهوم العدو" تجاوز الحكم بسبب وجود عدو".

{٣} توزيع السلطة" لا احتكار للسلطة بعد الآن".

{٤} مسئولية الفرد في العلاقات الدولية.

{٥} الاهتمام والمشاركة " في مستقبل الكوكب".

{٦} تجمعات قائمة على المواضيع

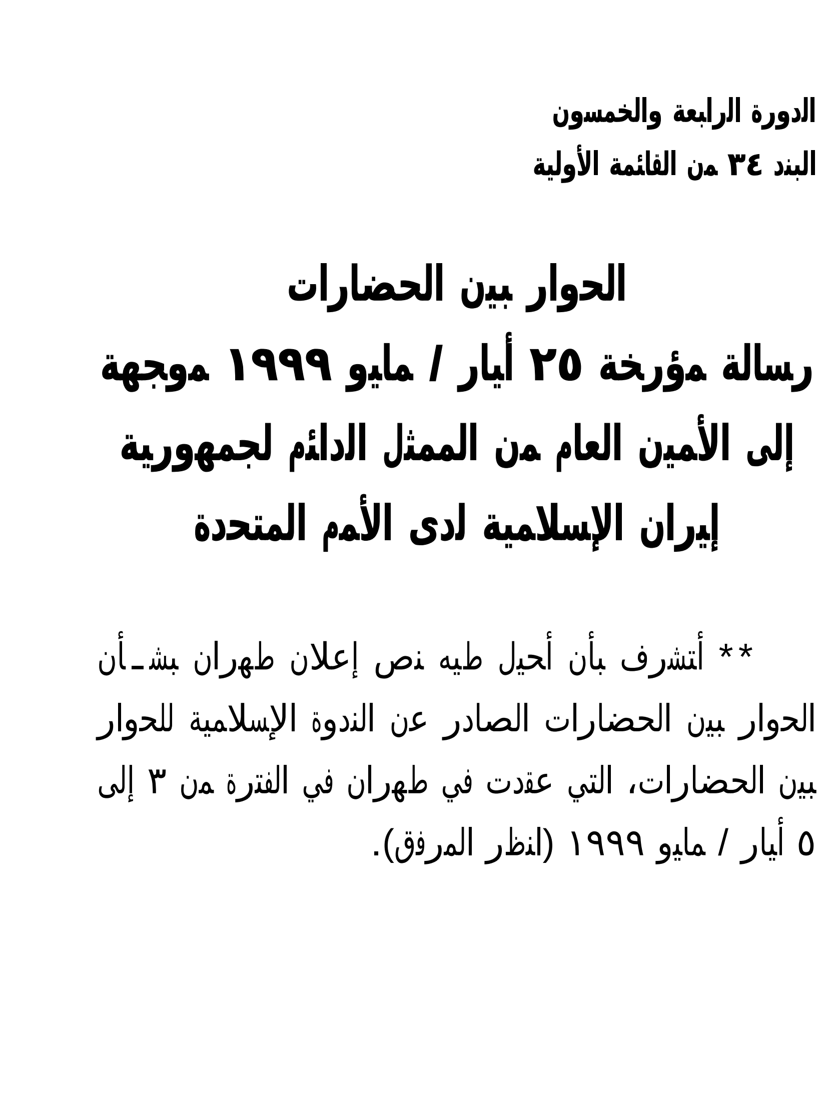
يبدو أن الحوار ضروري لتعزيز هـذه العناصـر السـتة وبالتالي إيجاد نمط جديد من العلاقات العالمية.

نظرة مختلفة إلى الأمم المتحدة

قد يكون الحوار وسيلة للنظر إلى الأمم المتحـدة مـن زاوية مختلفة، فقد تشكل بعالميتها وجمعها بين كـل متنـوع منتدى خصبا يكتمل فيه بنجـاح عقـد اجتمـاعي عـالمي، وسيجمع هذا العقد بين الذين يسعون إلى " المشـاركة" فـي عملية صنع القرار والذين يحتاجون إلى إضفاء " الشـرعية"

على أعمالهم ، وهكـذا ، يمكـن أن تكـون " المشـاركة" والشرعية في نهاية المطاف بمثابة العنصرين الرئيسين فـي ذلك العقد الاجتماعي.

وختاما، ولكي يكون الحوار ناجحا ربما احتجنا إلى " أخلاقيات عالمية جديدة " لا غنى عن الحوار بين الذين ينظرون إلى التنوع على أنه تهديد والذين ينظرون إليه على أنه أداة نحو مستويات أفضل وأوسع آفاقًا"..



الأمم المتحدة

الجمعية العامة

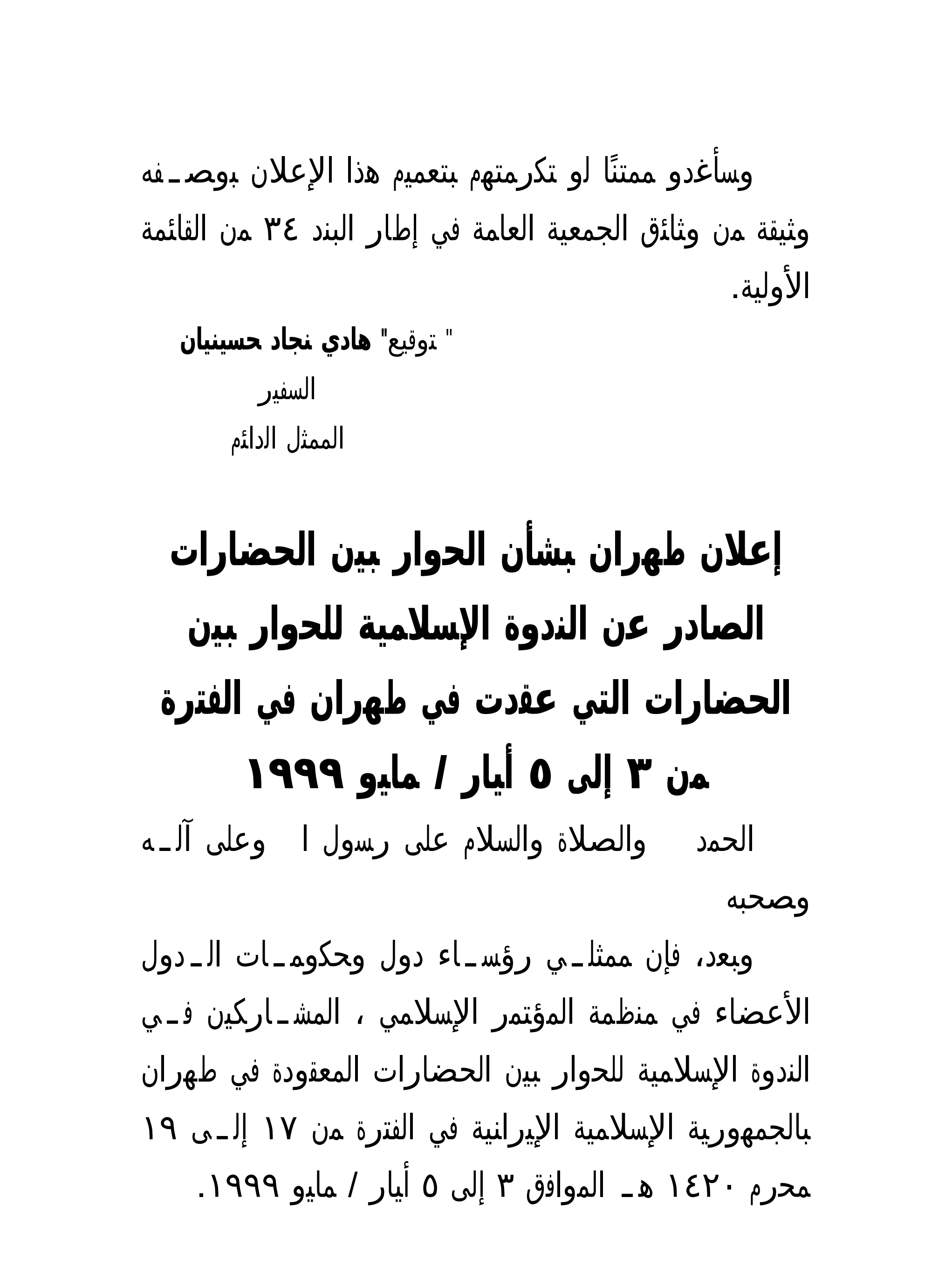
الدورة الرابعة والخمسون

البند ٣٤ من القائمة الأولية

الحوار بين الحضارات

رسالة مؤرخة ٢٥ أيار / مايو ١٩٩٩ موجهة إلى الأمين العام من الممثل الدائم لجمهورية إيران الإسلامية لدى الأمم المتحدة

** أتشرف بأن أحيل طيه نص إعلان طهران بشـأن الحوار بين الحضارات الصادر عن الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، التي عقدت في طهران في الفترة من ٣ إلى ٥ أيار / مايو ١٩٩٩ (انظر المرفق).



وسأغدو ممتنًا لو تكرمتهم بتعميم هذا الإعلان بوصـفه وثيقة من وثائق الجمعية العامة في إطار البند ٣٤ من القائمة الأولية.

" توقيع" **هادي نجاد حسينيان**

السفير

الممثل الدائم

إعلان طهران بشأن الحوار بين الحضارات الصادر عن الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات التي عقدت في طهران في الفترة من ٣ إلى ٥ أيار / مايو ١٩٩٩

الحمد   والصلاة والسلام على رسول ا   وعلى آلـه وصحبه

وبعد، فإن ممثلـي رؤسـاء دول وحكومـات الـدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ، المشـاركين فـي الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات المعقودة في طهران بالجمهورية الإسلامية الإيرانية في الفترة من ١٧ إلـى ١٩ محرم ١٤٢٠ هـ الموافق ٣ إلى ٥ أيار / مايو ١٩٩٩.

إذ يستذكرون القرارات والبيانات ذات العلاقة الصادرة عن منظمة المؤتمر الإسلامي وخاصة الفقرات ذات الصـلة التي وردت في إعلان طهران الصادر عن مـؤتمر القمـة الإسلامي الثامن.

وإذ يستذكرون كذلك قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٥٣/ ٢٢ الخاص بإعلان عام ٢٠٠١ سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات.

واسترشادا بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وقيمه النبيلة بشأن كرامة الإنسان [١] ،والمساواة [٢] و التسامح [٣] ،والسلام [٤] والعدالة [٥] بين البشر والأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكر [٦] .

([1]) القرآن الكريم ١٧: ٧٠

([2]) القرآن الكريم ٤٩ : ١٣

([3]) القرآن الكريم ٦٠ : ٨

([4]) القرآن الكريم ٢ : ٢٠٨ ، ٨ : ٦١

([5]) القرآن الكريم ٤ : ٥٨، ١٦، ٩٠

([6]) القرآن الكريم ٣ : ١١٠

وانطلاقًا من مبادئ الإسلام الخاصة بتنـوع البشـر [٧] والاعتراف بتنوع مصادر المعرفـة [٨] وتشـجيع الحـوار والتفاهم المتبادل [٩] والاحترام الصادق المتبادل في العلاقات الإنسانية [١٠] وتشجيع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة[١١] والمرونة واللين في الخطاب [١٢].

وإذ يؤكدون مجددا التزام حكوماتهم بتعزيـز الحـوار والتفاهم بين الثقافات والحضارات المتعددة سـعيا لتحقيـق توافق عالمي في الآراء لإقامة نظام جديد في الألفية القادمـة على أساس من الإيمان والقيم المعنوية والأخلاقية المشتركة بين الحضارة المعاصرة.

و إذ يعربون عن عميق تقديرهم للمبادرة التي أطلقهـا فخامة الرئيس سيد محمد خاتمي ، رئـيس مـؤتمر القمـة

([7]) القرآن الكريم ٤٩: ١٣

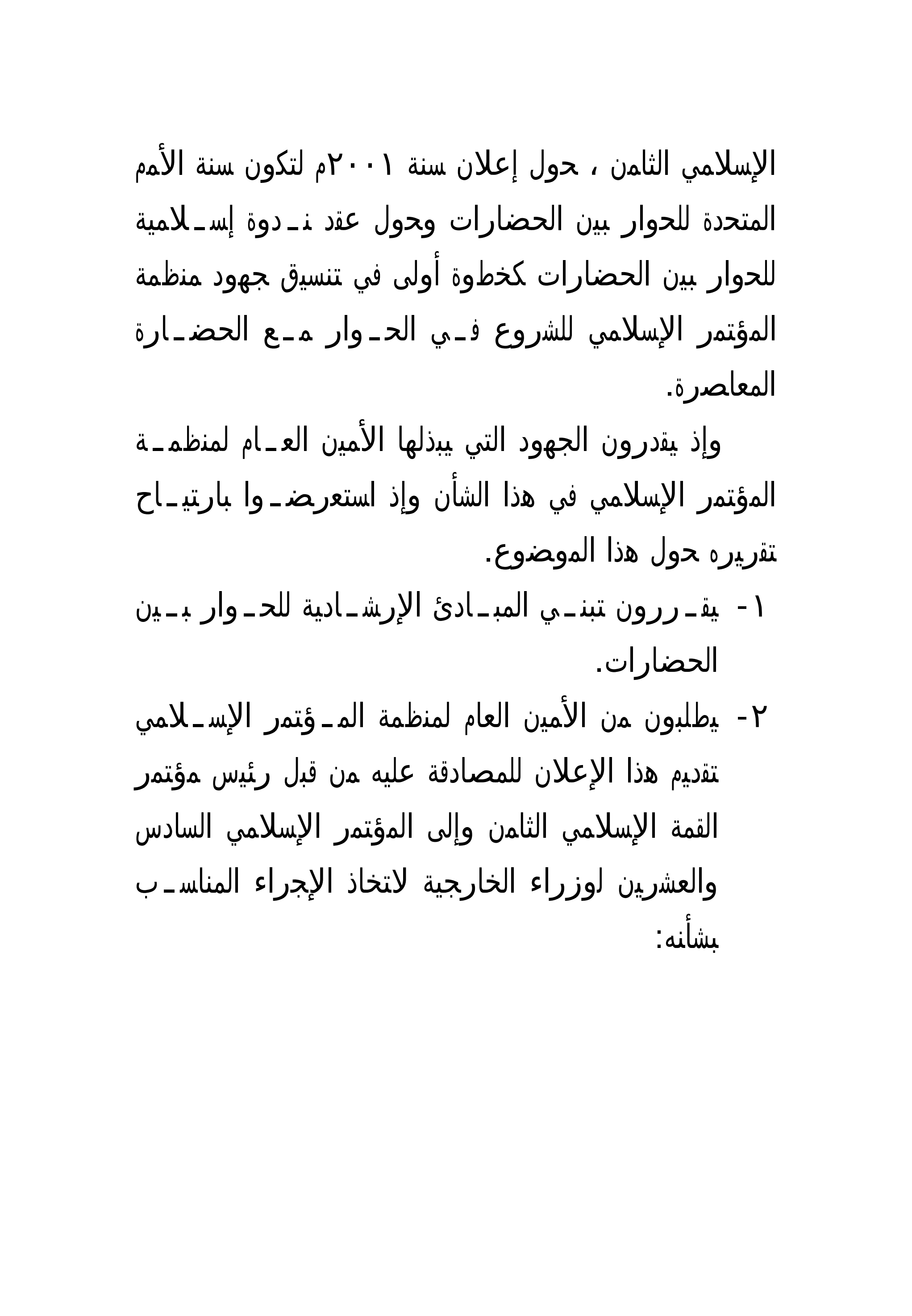
([8]) القرآن الكريم ٢: ٢٦٩

([9]) القرآن الكريم ٣ : ٦٣

([10]) القرآن الكريم ٦ : ١٠٨

([11]) القرآن الكريم : ١٦: ١٢٥

([12]) القرآن الكريم ٢٠ : ٤٤

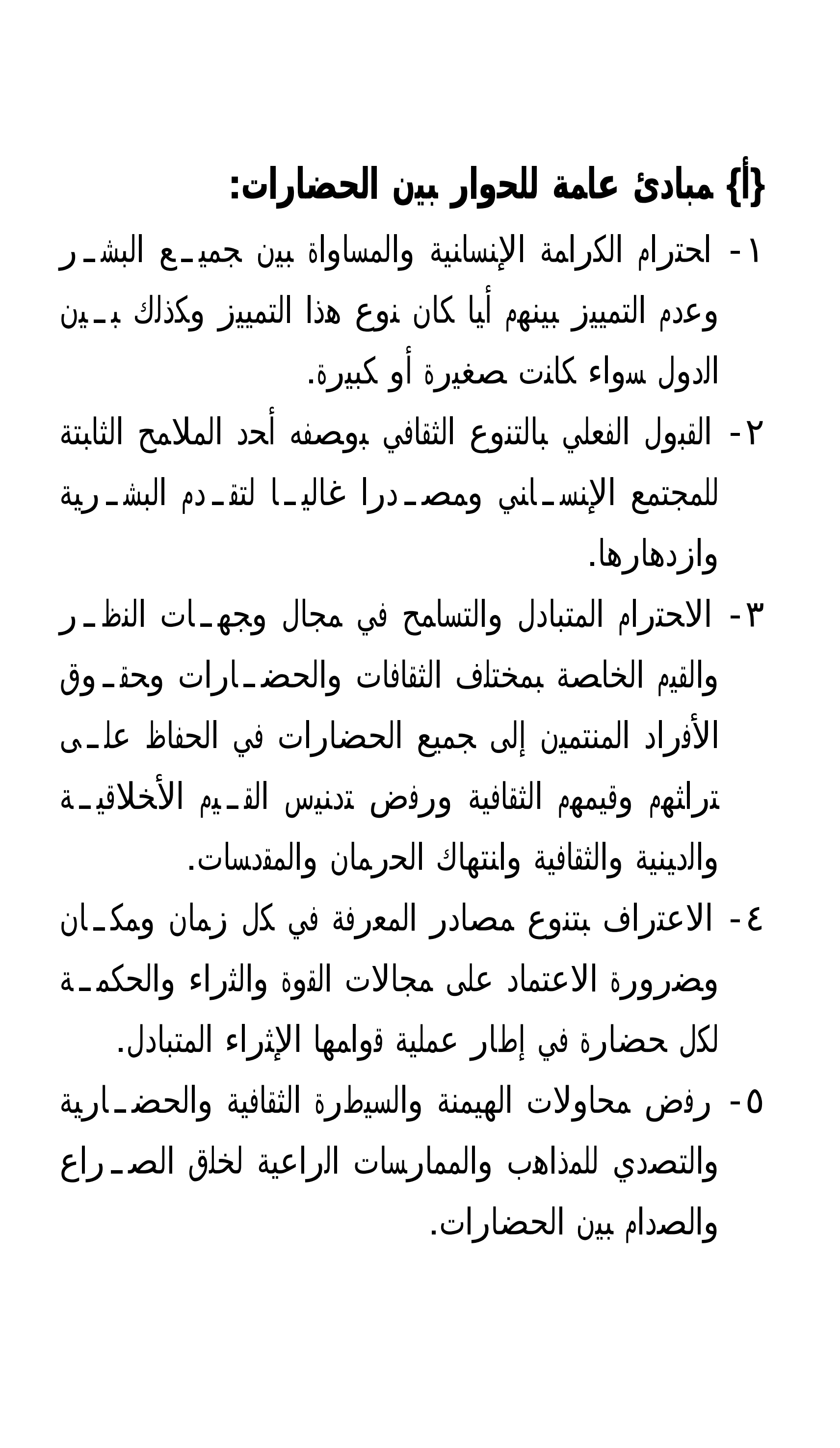


الإسلامي الثامن ، حول إعلان سنة ٢٠٠١م لتكون سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات وحول عقد ندوة إسلامية للحوار بين الحضارات كخطوة أولى في تنسيق جهود منظمة المؤتمر الإسلامي للشروع في الحوار مع الحضارة المعاصرة.

وإذ يقدرون الجهود التي يبذلها الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي في هذا الشأن وإذ استعرضوا بارتياح تقريره حول هذا الموضوع.

١- يقررون تبني المبادئ الإرشادية للحوار بين الحضارات.

٢- يطلبون من الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي تقديم هذا الإعلان للمصادقة عليه من قبل رئيس مؤتمر القمة الإسلامي الثامن وإلى المؤتمر الإسلامي السادس والعشرين لوزراء الخارجية لاتخاذ الإجراء المناسب بشأنه:



{أ} مبادئ عامة للحوار بين الحضارات:

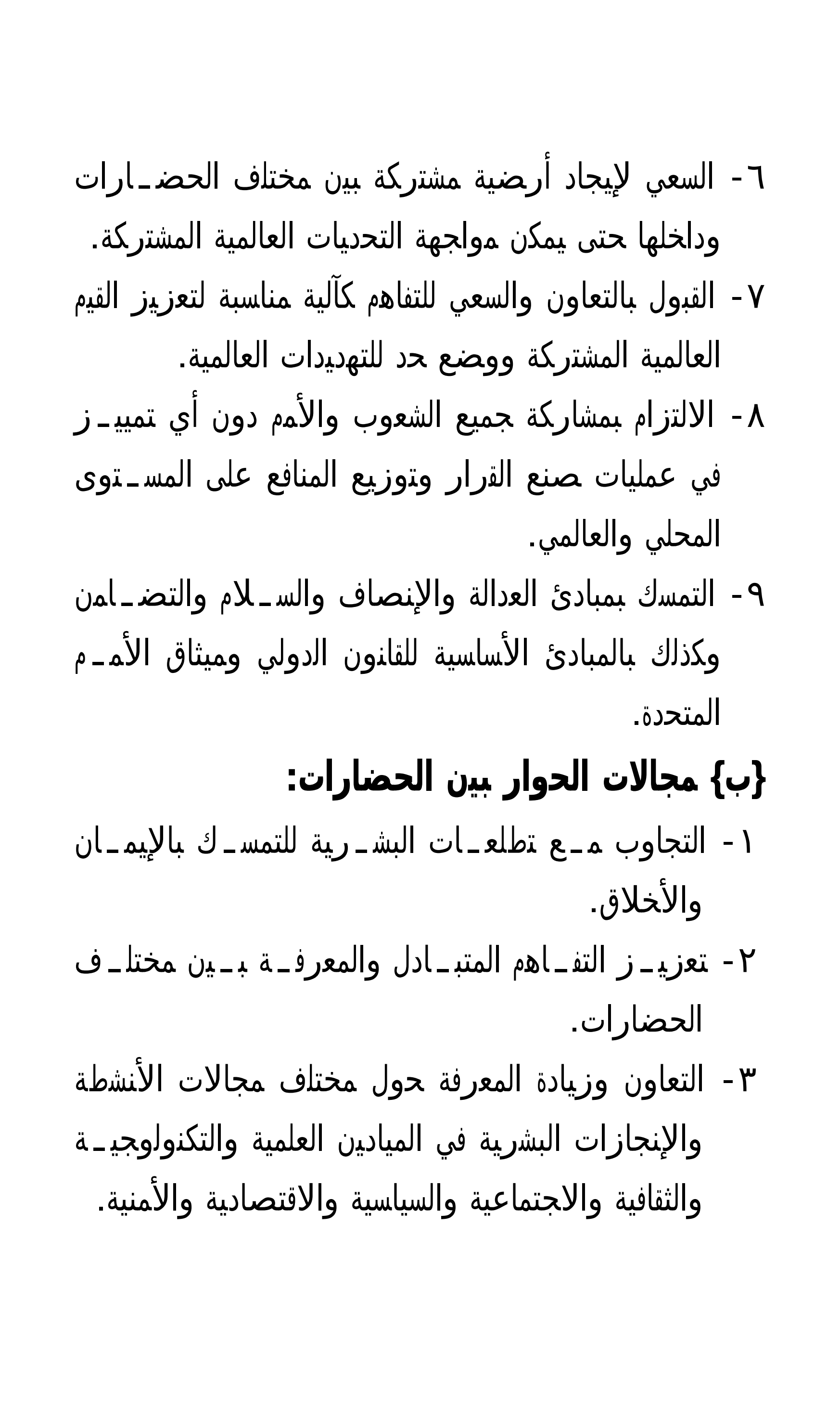
١- احترام الكرامة الإنسانية والمساواة بين جميع البشر وعدم التمييز بينهم أيا كان نوع هذا التمييز وكذلك بين الدول سواء كانت صغيرة أو كبيرة.

٢- القبول الفعلي بالتنوع الثقافي بوصفه أحد الملامح الثابتة للمجتمع الإنساني ومصدرا غاليا لتقدم البشرية وازدهارها.

٣- الاحترام المتبادل والتسامح في مجال وجهات النظر والقيم الخاصة بمختلف الثقافات والحضارات وحقوق الأفراد المنتمين إلى جميع الحضارات في الحفاظ على تراثهم وقيمهم الثقافية ورفض تدنيس القيم الأخلاقية والدينية والثقافية وانتهاك الحرمان والمقدسات.

٤- الاعتراف بتنوع مصادر المعرفة في كل زمان ومكان وضرورة الاعتماد على مجالات القوة والثراء والحكمة لكل حضارة في إطار عملية قوامها الإثراء المتبادل.

٥- رفض محاولات الهيمنة والسيطرة الثقافية والحضارية والتصدي للمذاهب والممارسات الراعية لخلق الصراع والصدام بين الحضارات.



٦- السعي لإيجاد أرضية مشتركة بين مختلف الحضـارات وداخلها حتى يمكن مواجهة التحديات العالمية المشتركة.

٧- القبول بالتعاون والسعي للتفاهم كآلية مناسبة لتعزيز القيم العالمية المشتركة ووضع حد للتهديدات العالمية.

٨- الالتزام بمشاركة جميع الشعوب والأمم دون أي تمييـز في عمليات صنع القرار وتوزيع المنافع على المسـتوى المحلي والعالمي.

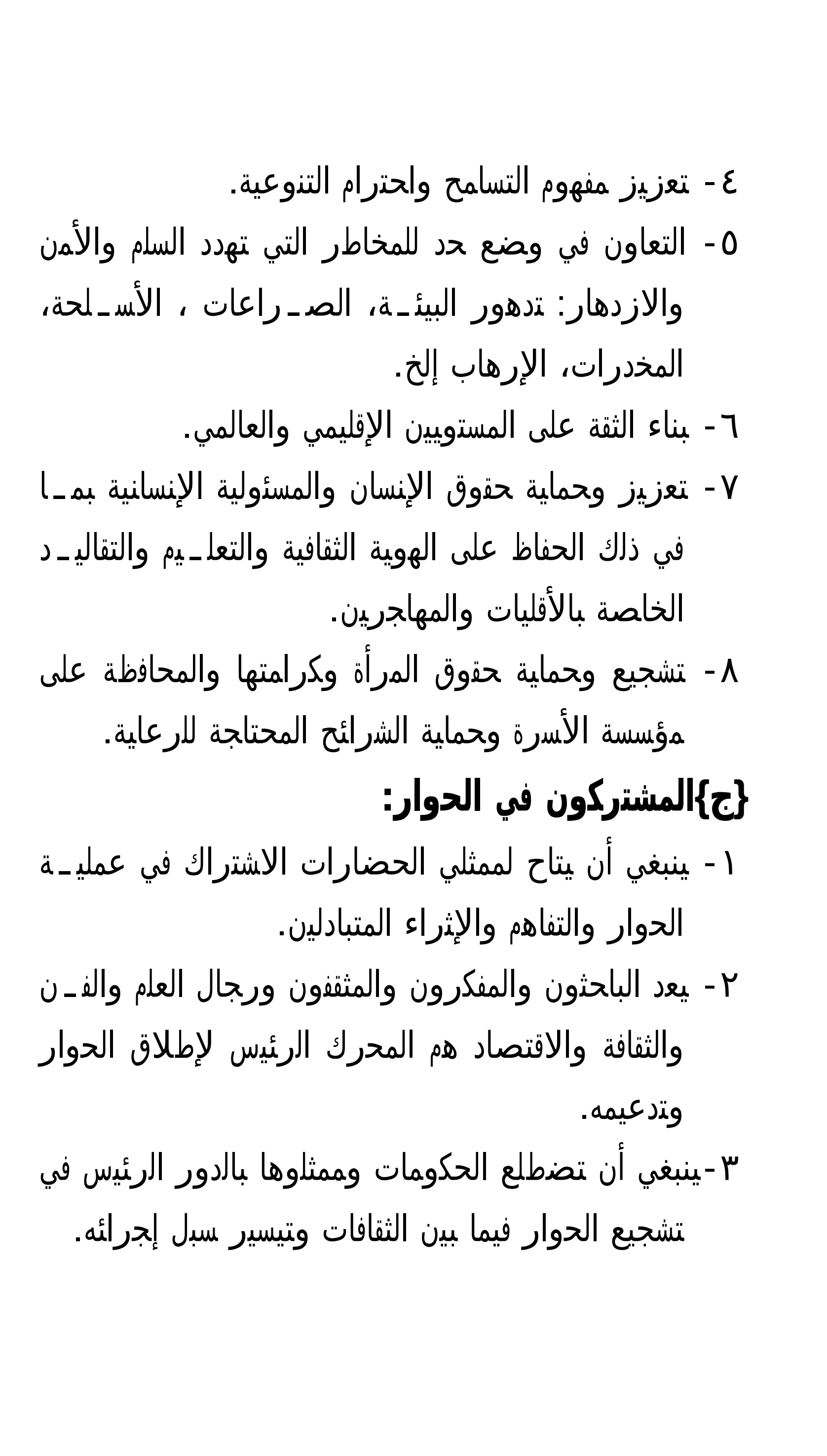
٩- التمسك بمبادئ العدالة والإنصاف والسـلام والتضـامن وكذلك بالمبادئ الأساسية للقانون الدولي وميثاق الأمـم المتحدة.

{ب} مجالات الحوار بين الحضارات:

١- التجاوب مـع تطلعـات البشـرية للتمسـك بالإيمـان والأخلاق.

٢- تعزيـز التفـاهم المتبـادل والمعرفـة بـين مختلـف الحضارات.

٣- التعاون وزيادة المعرفة حول مختلف مجالات الأنشطة والإنجازات البشرية في الميادين العلمية والتكنولوجيـة والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية.



٤- تعزيز مفهوم التسامح واحترام التنوعية.

٥- التعاون في وضع حد للمخاطر التي تهدد السلم والأمن والازدهار: تدهور البيئـة، الصـراعات ، الأسـلحة، المخدرات، الإرهاب إلخ.

٦- بناء الثقة على المستويين الإقليمي والعالمي.

٧- تعزيز وحماية حقوق الإنسان والمسئولية الإنسانية بمـا في ذلك الحفاظ على الهوية الثقافية والتعالـيم والتقاليـد الخاصة بالأقليات والمهاجرين.

٨- تشجيع وحماية حقوق المرأة وكرامتها والمحافظة على مؤسسة الأسرة وحماية الشرائح المحتاجة للرعاية.

{ج}المشتركون في الحوار:

١- ينبغي أن يتاح لممثلي الحضارات الاشتراك في عمليـة الحوار والتفاهم والإثراء المتبادلين.

٢- يعد الباحثون والمفكرون والمثقفون ورجال العلم والفـن والثقافة والاقتصاد هم المحرك الرئيس لإطلاق الحوار وتدعيمه.

٣-ينبغي أن تضطلع الحكومات وممثلوها بالدور الرئيس في تشجيع الحوار فيما بين الثقافات وتيسير سبل إجرائه.

٤- يستطيع ممثلو المجتمع المدني أن يقوموا بدور فعال في النهوض بثقافة الحوار فيما بـين شـتى المجتمعـات وضرورة مشاركتهم في مثل هذا الحوار.

٥- إن المنظمات الدولية – لا سيما منظومة الأمم المتحدة – هي الإطار المناسب لتشجيع إطلاق الحوار وتدعيمه.

٦- ينبغي على منظمة المؤتمر أن تضطلع بدور قيادي في النهوض بثقافة الحوار داخل العالم الإسـلامي وعلـي الصعيد العالمي من خلال اتخاذ مبادرات مبتكرة فـي هذا الشأن.

{د} دعم ثقافة الحوار بين الحضارات:

١-التزام حكومات الدول الأعضاء ومجتمعاتهـا المدنيـة، والمنظمات غير الحكومية داخـل العـالم الإسـلامي وخارجه، والهيئات التربوية والثقافية، بالإضـافة إلـى أمانة منظمة المؤتمر الإسـلامي وأجهزتهـا المنتميـة والمتفرعة، بتشجيع الحوار وروح التسامح إطارا جديدا للعلاقات الدولية يتعين تطبيقه داخل العـالم الإسـلامي وعلى الساحة الدولية عامة.

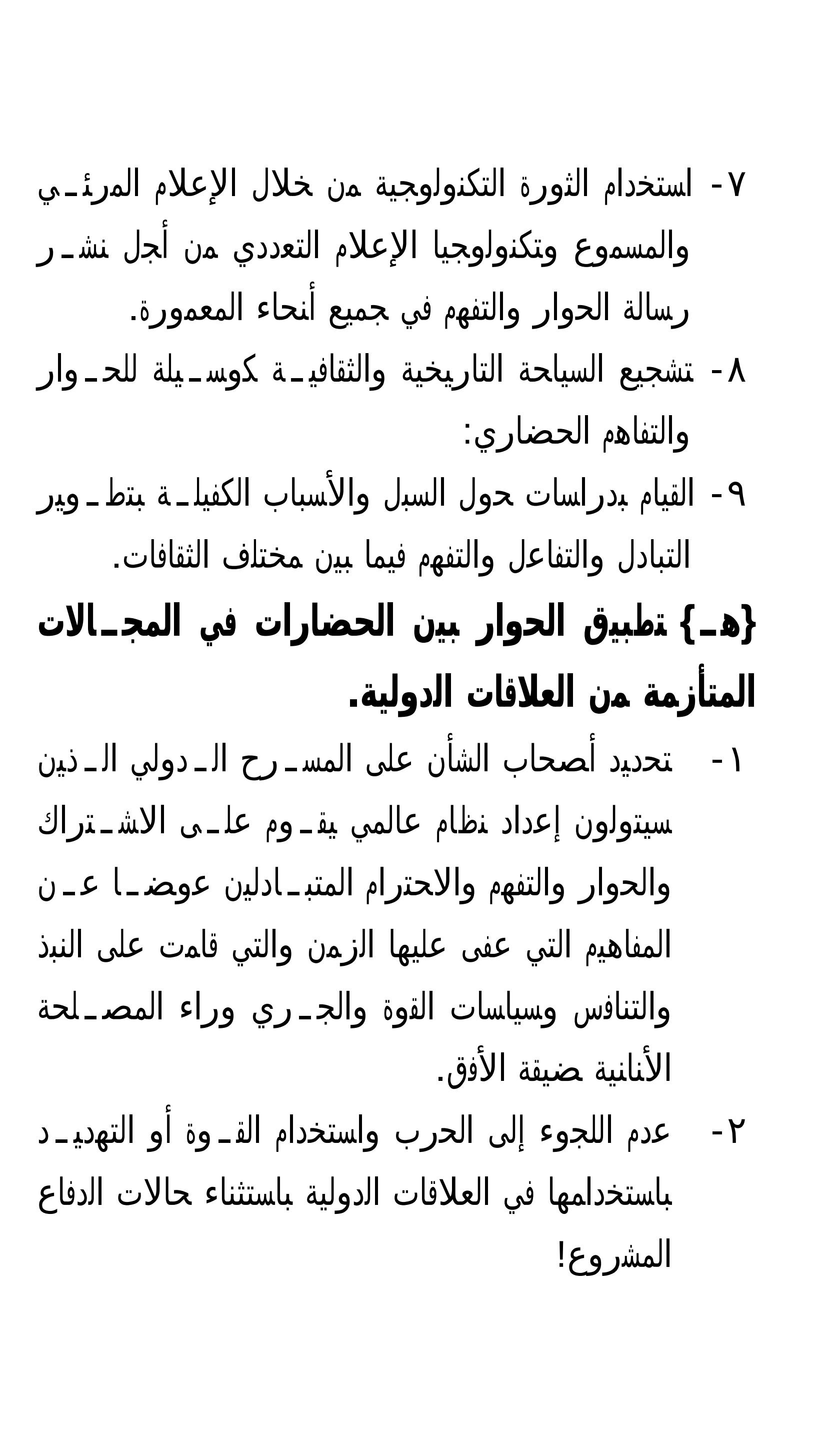
٢- عقد مؤتمرات وندوات مع الإشراف عليها بهدف تشجيع الحوار والتفاهم المتبادل وبث روح التسامح فيما بـين الحضارات المعاصرة.

٣- إبراز مختلف المنجزات الثقافيـة بصـورة فرديـة أو جماعية بما في ذلك الموضوعات الوثائقية التي تصور رسالة الإسلام الحقيقية ومختلف المواقـف التاريخيـة بالتفاعل البناء بين الحضارات الأخرى ، بما في ذلـك الكتب والمقالات والوثائقية والمواد المسموعة والمرئية.

٤- تشجيع المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية على تطوير البرامج الثقافية والتربوية المؤدية إلـى التفـاهم بين الحضارات.

٥- إدخال برامج تهدف إلى تعزيز روح التفاهم والتسـامح في مناهجهـا التعليميـة بالنسـبة لمختلـف الثقافـات والحضارات وربما في ذلك تدريس لغات عديدة.

٦- تعزيز دراسات المقارنة في مجال الثقافة مـع التبـادل الثقافي في مؤسسات ومعاهد التعليم العالي.



٧- استخدام الثورة التكنولوجية من خلال الإعلام المرئـي والمسموع وتكنولوجيا الإعلام التعددي من أجل نشـر رسالة الحوار والتفهم في جميع أنحاء المعمورة.

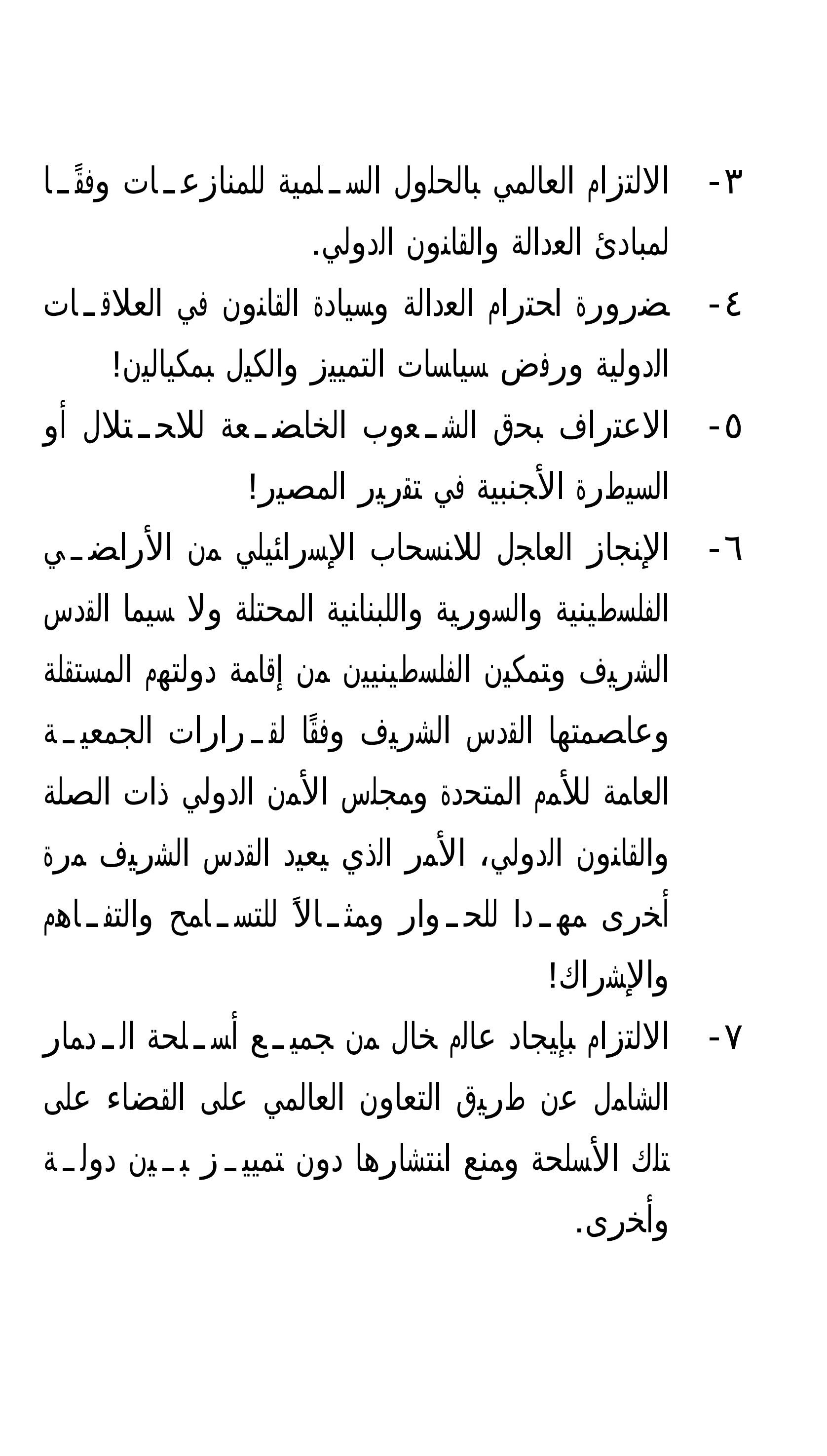
٨- تشجيع السياحة التاريخية والثقافيـة كوسـيلة للحـوار والتفاهم الحضاري:

٩- القيام بدراسات حول السبل والأسباب الكفيلـة بتطـوير التبادل والتفاعل والتفهم فيما بين مختلف الثقافات.

{هـ} تطبيق الحوار بين الحضارات في المجـالات المتأزمة من العلاقات الدولية.

١- تحديد أصحاب الشأن على المسـرح الـدولي الـذين سيتولون إعداد نظام عالمي يقـوم علـى الاشـتراك والحوار والتفهم والاحترام المتبـادلين عوضـا عـن المفاهيم التي عفى عليها الزمن والتي قامت على النبذ والتنافس وسياسات القوة والجـري وراء المصـلحة الأنانية ضيقة الأفق.

٢- عدم اللجوء إلى الحرب واستخدام القـوة أو التهديـد باستخدامها في العلاقات الدولية باستثناء حالات الدفاع المشروع!



٣- الالتزام العالمي بالحلول السـلمية للمنازعـات وفقًـا لمبادئ العدالة والقانون الدولي.

٤- ضرورة احترام العدالة وسيادة القانون في العلاقـات الدولية ورفض سياسات التمييز والكيل بمكيالين!

٥- الاعتراف بحق الشـعوب الخاضـعة للاحـتلال أو السيطرة الأجنبية في تقرير المصير!

٦- الإنجاز العاجل للانسحاب الإسرائيلي من الأراضـي الفلسطينية والسورية واللبنانية المحتلة ولا سيما القدس الشريف وتمكين الفلسطينيين من إقامة دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس الشريف وفقًا لقـرارات الجمعيـة العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ذات الصلة والقانون الدولي، الأمر الذي يعيد القدس الشريف مرة أخرى مهـدا للحـوار ومثـالاً للتسـامح والتفـاهم والإشراك!

٧- الالتزام بإيجاد عالم خال من جميـع أسـلحة الـدمار الشامل عن طريق التعاون العالمي على القضاء على تلك الأسلحة ومنع انتشارها دون تمييـز بـين دولـة وأخرى.

٨- القضاء على الإرهاب الذي يهدد العالم بأسره في جميع أشكاله ومظاهره وكذلك الجريمة المنظمة والاتجار بالمخدرات من خلال التعاون على الصعيد العالمي بأسلوب جدي وشامل وخال من أي تمييز!

٩- تطبيق مبادئ الإنصاف والشفافية والتمثيل الديمقراطي في مؤسسات عالمية شتى !

{و}مساهمة الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي في البرنامج الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة لعام الحوار بين الحضارات.

١- تبادر منظمة المؤتمر الإسلامي بدعوة ممثلي حضارات أخرى للمشاركة في البحث عن القيم المعنوية والأخلاقية المشتركة من أجل إيجاد نظام عالمي جديد يقوم على الحوار والإشراك والإثراء المتبادل!

٢- إعداد مشروع إعلان علامي للحوار بين الحضارات يتضمن مثل تلك القيم المعنوية والأخلاقية المشتركة بما في ذلك تلك الواردة في هذا الإعلان ويرفع المشروع بعد التشاور مع مختلف الدول والمنظمات الدولية المعنية بالأمر إلى الدورة السادسة والخمسين للجمعية

العامة للأمم المتحدة لاعتماده خلال الاحتفال بعام الأمم المتحدة للحوار (٢٠٠١م)!

٣- يتوافق مع الإعلان برنامج عمل مدته عشـر سـنوات يجري تنفيذه علـى المسـتويات الوطنيـة والإقليميـة والدولية بغية تشجيع الحوار بين الحضـارات وإيجـاد مؤسساته من أجل إنشاء نظام عالمي جديد يقوم علـى هذا المقياس!

٤- تتخذ الدول الأعضاء والأمانة العامة لمنظمة المـؤتمر الإسلامي مبادرات تتناسب مع التوصيات الواردة فـي الجزء المذكور أعلاه ورفع تقرير بشأن هذه النشاطات التي تستهدف تعزيز الحوار إلى الأمين العـام للأمـم المتحدة وفقًا للفترة (٣) من قرار الجمعية العامة رقـم ٥٣/ ٢٢.

٥- إبلاغ هذه الوثيقة إلى الأمم المتحدة والمنظمات الدوليـة والإقليمية لتوزيعها على الدول الأعضاء فيها.

{ز} منهجية الحوار وآلياته وهياكله وتمويله:

١-تستوحي منظمة المؤتمر الإسلامي التعـاليم الإسـلامية الجوهرية، بما في ذلك المبادئ الواردة أعـلاه ، فـي

سعيها للنهوض بثقافة الحوار مع ضم ممثلي حضارات معاصرة أخرى إلى الحوار.

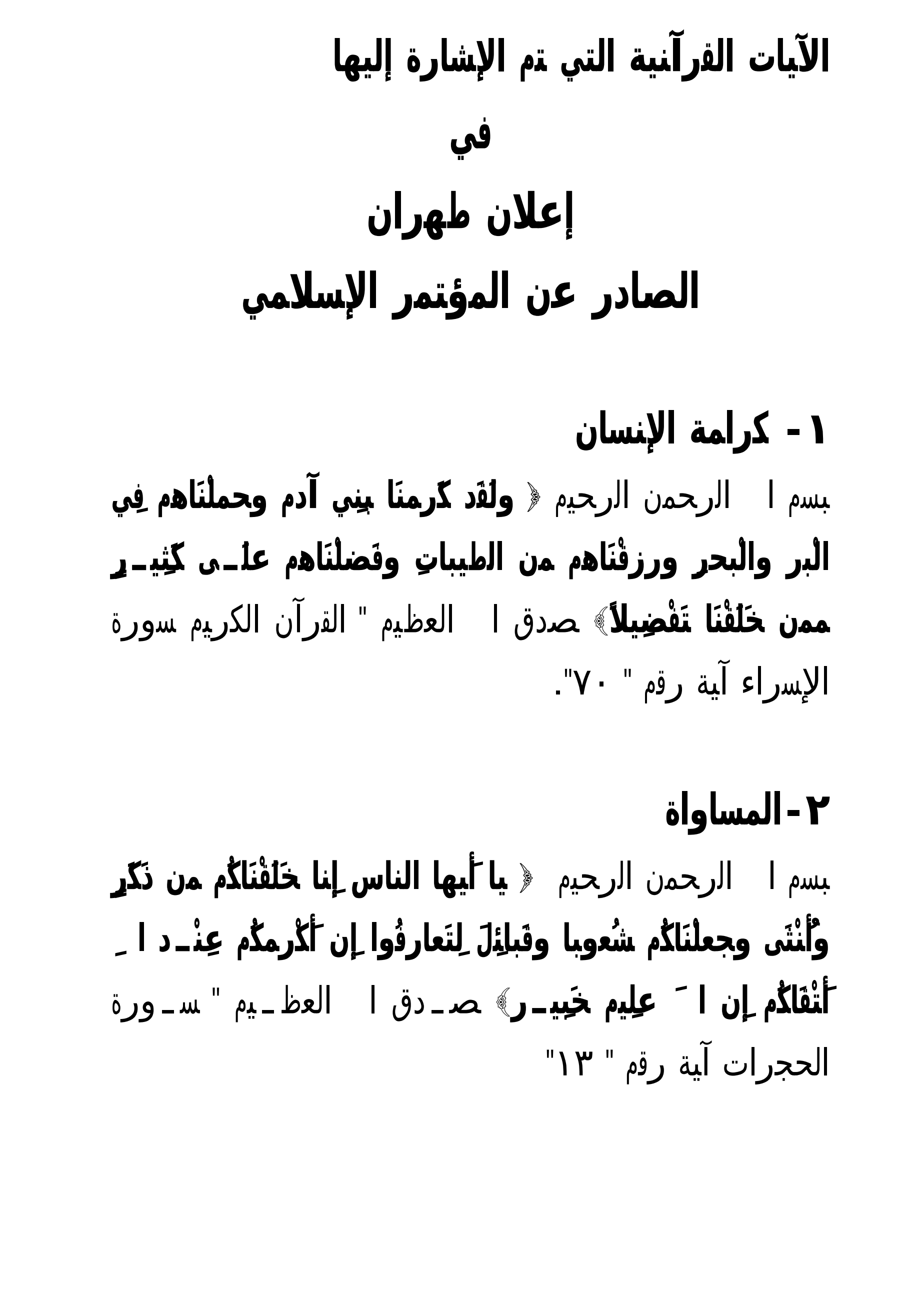
٢- تشجيع الدول الأعضاء على تشكيل لجان وطنية دائمـة من أجل النهوض بالحوار.

٣- يعين الأمين العام لمنظمة المـؤتمر الإسـلامي نقطـة اتصال في الأمانة العامة بهدف المتابعة الحثيثة للحوار مع الحضارات.

٤- تستفيد منظمة المؤتمر الإسلامي من موارد وإمكانيـات الأجهزة الوطنية المعنية بهذه المسألة والموجـودة فـي الدول الأعضاء وذلك من خلال المشاروات المنتظمـة وتنسيق النشاطات.

٥- دعوة فريق رفيع المستوى من الخبراء الحكوميين مـن خلال التشاور بين رئيس القمة الثامنة والدول الأعضاء والأمين العام للمنظمة من أجل إعداد الوثائق المذكورة والتفاوض بشأنها بالتعاون الوثيق مع الممثلين الدائمين للدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي فـي مقـر الأمم المتحدة بنيويورك.

٦- يجري عمل منظمة المؤتمر الإسلامي في مجال الحوار بين الحضارات بطريقة مفتوحة العضوية وفي إطـار من الشفافية..



الآيات القرآنية التي تم الإشارة إليها

في

إعلان طهران

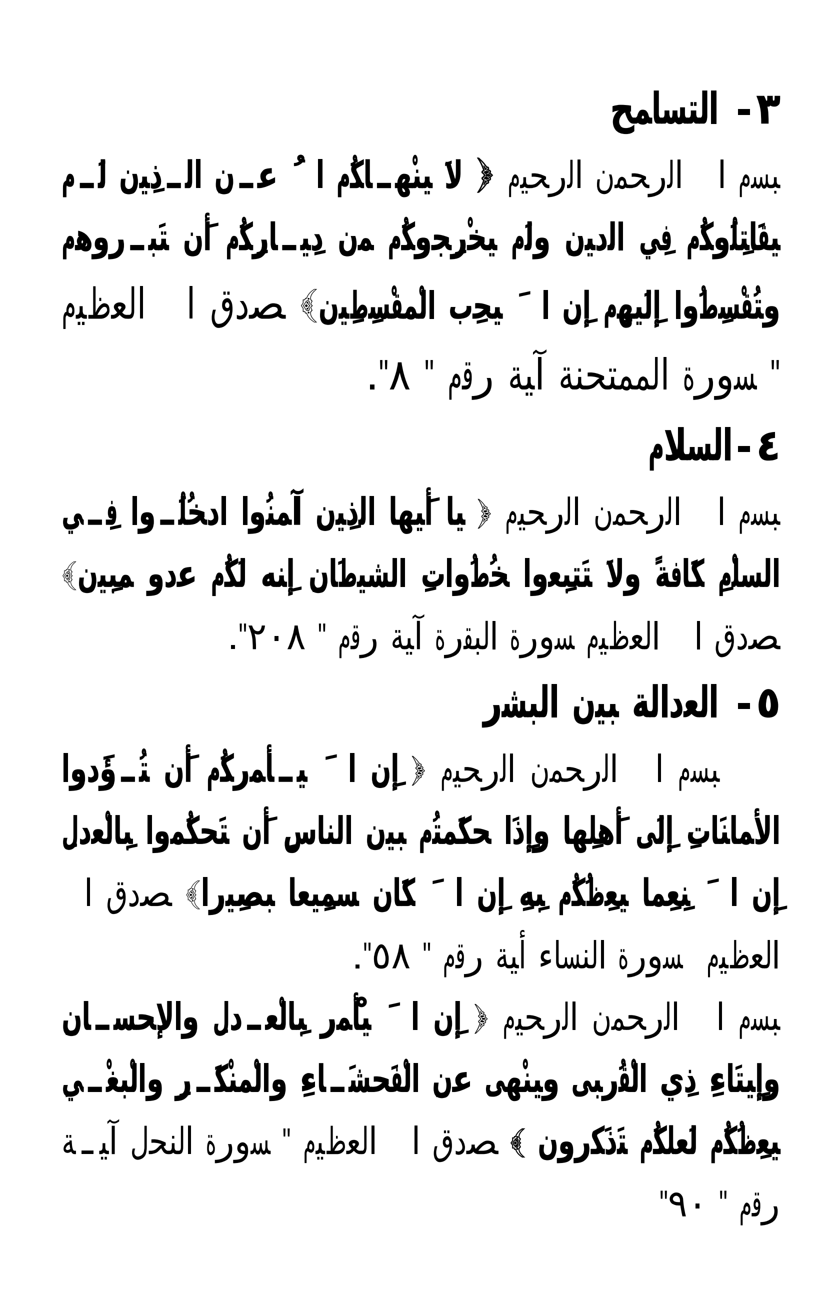
الصادر عن المؤتمر الإسلامي

١ - كرامة الإنسان

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **ولَقَد كَرمنَا بنِي آدم وحملْنَاهم فِي الْبر والْبحرِ ورزقْنَاهم من الطيباتِ وفَضلْنَاهم علَى كَثِيرٍ ممن خلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ صدق ا العظيم " القرآن الكريم سورة الإسراء آية رقم " ٧٠".

٢- المساواة

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **يا أَيها الناس إِنا خلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكُم شعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد ا أَتْقَاكُم إِن ا علِيم خبِير** ﴾ صدق ا العظيم " سورة الحجرات آية رقم " ١٣"



٣- التسامح

بسم ا   الرحمن الرحيم ﴿ **لا ينهـاكم ا ُ عـن الـذين لـم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديـاركم أن تبـروهم وتقسطوا إليهم إن ا َ يحب المقسطين**﴾ صدق ا   العظيم " سورة الممتحنة آية رقم " ٨".

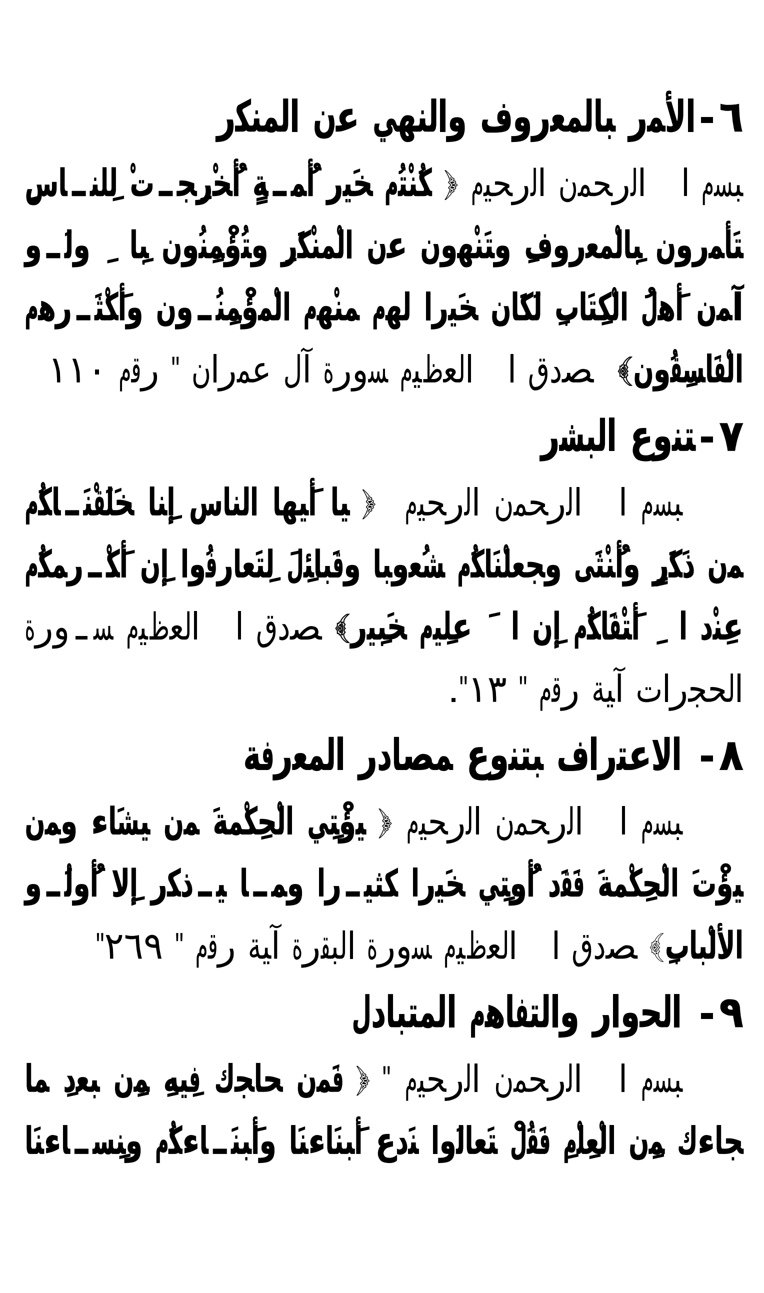
٤- السلام

بسم ا   الرحمن الرحيم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلـوا فـي السلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾ صدق ا   العظيم سورة البقرة آية رقم " ٢٠٨".

٥- العدالة بين البشر

بسم ا   الرحمن الرحيم ﴿ **إن ا َ يـأمركم أن تـؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن ا َ نعما يعظكم به إن ا َ كان سميعا بصيرا**﴾ صدق ا   العظيم سورة النساء أية رقم " ٥٨".

بسم ا   الرحمن الرحيم ﴿ **إن ا َ يأمر بالعـدل والإحسـان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشـاء والمنكـر والبغـي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ صدق ا   العظيم " سورة النحل آيـة رقم " ٩٠"



٦-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **كُنْتُم خَير أمـةٍ أُخْرِجـتْ لِلنـاس تَأمرون بِالْمعروفِ وتَنْهون عن الْمنْكَر وتُؤْمِنُون بِا ـ ولَـو آمن أَهلُ الْكِتَابِ لَكَان خَيرا لهم منْهم الْمؤْمِنُـون وأَكْثَـرهم الْفَاسِقُون**﴾ صدق ا العظيم سورة آل عمران " رقم ١١٠

٧-تنوع البشر

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **يا أَيها الناس إِنا خَلَقْنَـاكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكُم شُعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْـرمكُم عِنْد ا ـ أَتْقَاكُم إِن ا ـ علِيم خَبِير**﴾ صدق ا العظيم سـورة الحجرات آية رقم " ١٣".

٨- الاعتراف بتنوع مصادر المعرفة

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **يؤْتِي الْحِكْمةَ من يشَاء ومن يؤْتَ الْحِكْمةَ فَقَد أُوتِي خَيرا كثيـرا ومـا يـذكر إِلا أُولُـو الأَلْبابِ**﴾ صدق ا العظيم سورة البقرة آية رقم " ٢٦٩"

٩- الحوار والتفاهم المتبادل

بسم ا الرحمن الرحيم " ﴿ **فَمن حاجك فِيهِ مِن بعدِ ما جاءك مِن الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوا نَدع أَبنَاءنَا وأَبنَـاءكُم ونِسـاءنَا**

ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت ا على الكاذبين ﴾ صدق ا العظيم سورة آل عمران آية رقم " ٦١"

١٠-العلاقات الإنسانية

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون ا فيسبوا ا عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون**﴾ صدق ا العظيم " سورة الأنعام آية رقم " ١٠٨"

١١- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

بسم ا الرحمن الرحيم " ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ صدق ا العظيم سورة النحل آية رقم " ١٢٥".

١٢- المرونة واللين في الخطاب

بسم ا الرحمن الرحيم ﴿ **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**﴾ صدق ا العظيم سورة طه آية رقم "٤٤"

الأمم المتحدة

الجمعية العامة

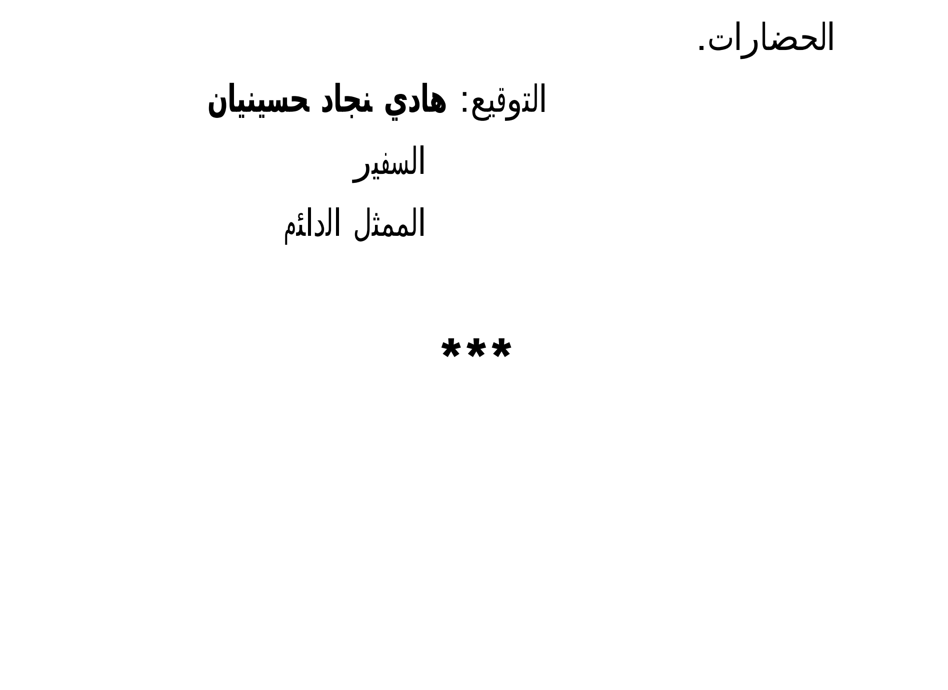
الدورة الرابعة والخمسون

الحوار بين الحضارات

رسالة مؤرخة ٦ كانون الثاني / يناير ١٩٩٩

وموجهة إلى الأمين العام من الممثل الدائم لجمهورية إيران الإسلامية لدى الأمم المتحدة

** أتشرف بأن أوافيكم طي هذا بنص " إعلان أثينـا" المعنون " تراث الحضارات القديمـة" إثـارة علـى العـالم الحديث،وقد وقع الإعلان ممثلو جمهورية إيران الإسـلامية ومصر وإيطاليا واليونان في المركز الثقافي الأوروبي فـي دلفي باليونان يوم ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٨ وأود أن أضيف أننا نرى أن مناقشة بند " الحوار بين الحضـارات لا تقتصر على موقعي هذا الإعلان الأربعة فالبنـد يشـمل جميع الحضارات القديمة والحديثة.



وسأكون ممتنًا لو تفضلتم بالعمل على تعميم نص هذه الرسالة ومرفقها بوصفها من وثائق دورة الجمعية العامة الرابعة والخمسين في إطار البند المعنون " الحوار بين الحضارات.

التوقيع: **هادي نجاد حسينيان**

السفير

الممثل الدائم

****

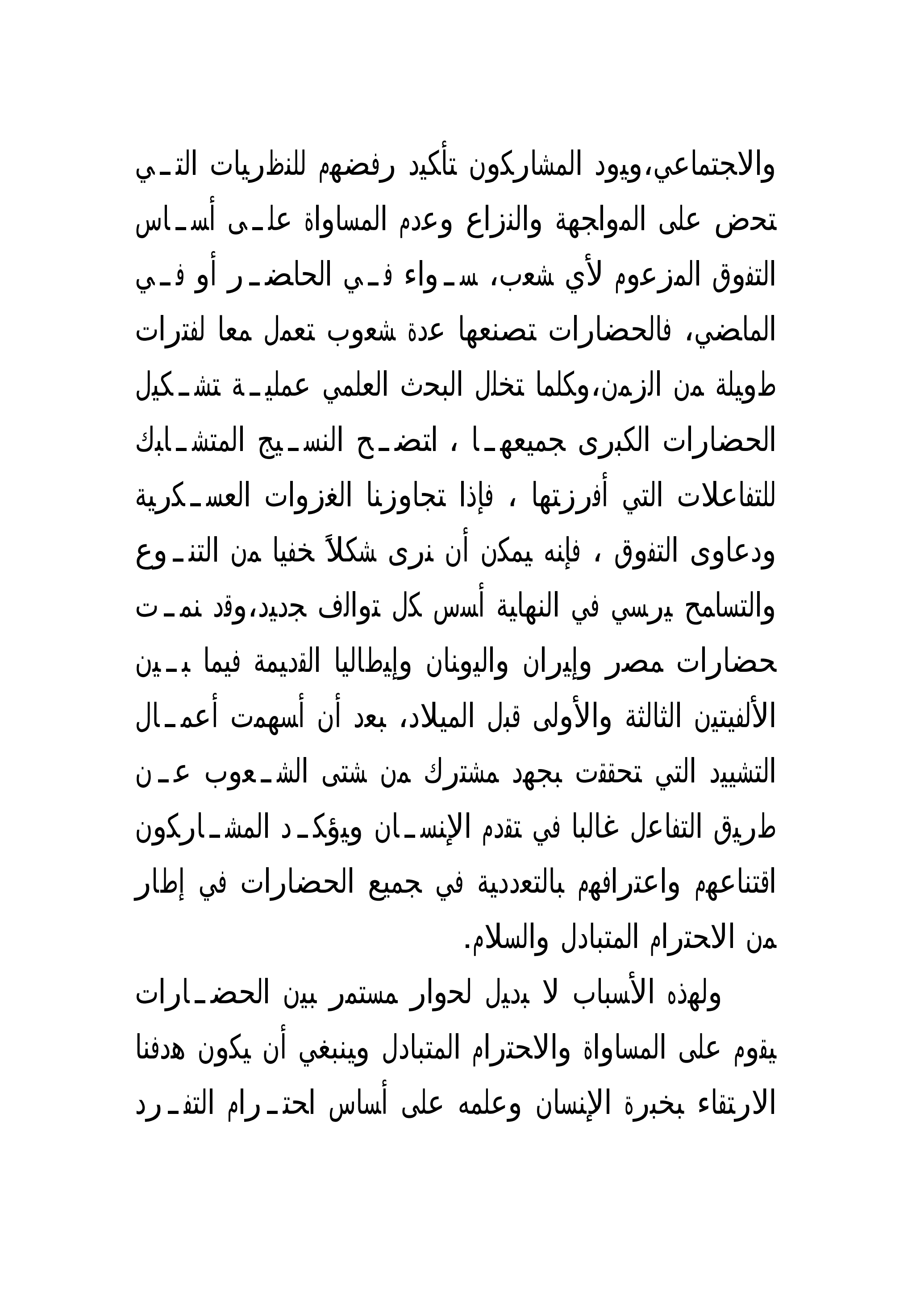
إعلان أثينا

تراث الحضارات القديمة آثاره على العالم الحديث

بدعوة من وزارة خارجية الجمهوريـة اليونانيـة،التقى ممثلو جمهورية إيران الإسلامية وإيطاليا ومصر واليونان في أثينا في المركز الثقافي الأوربي في دلفي باليونان، يـوم ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٨ لمناقشـة موضـوع "تـراث الحضارات القديمة : آثاره على العالم الحديث" مـع بـزوغ الألفية الجديدة وهي فكـرة اقترحتهـا لأول مـرة حكومـة جمهورية إيران الإسلامية لزيادة رقعة السلام والتفاهم بـين جميع شعوب الأرض.

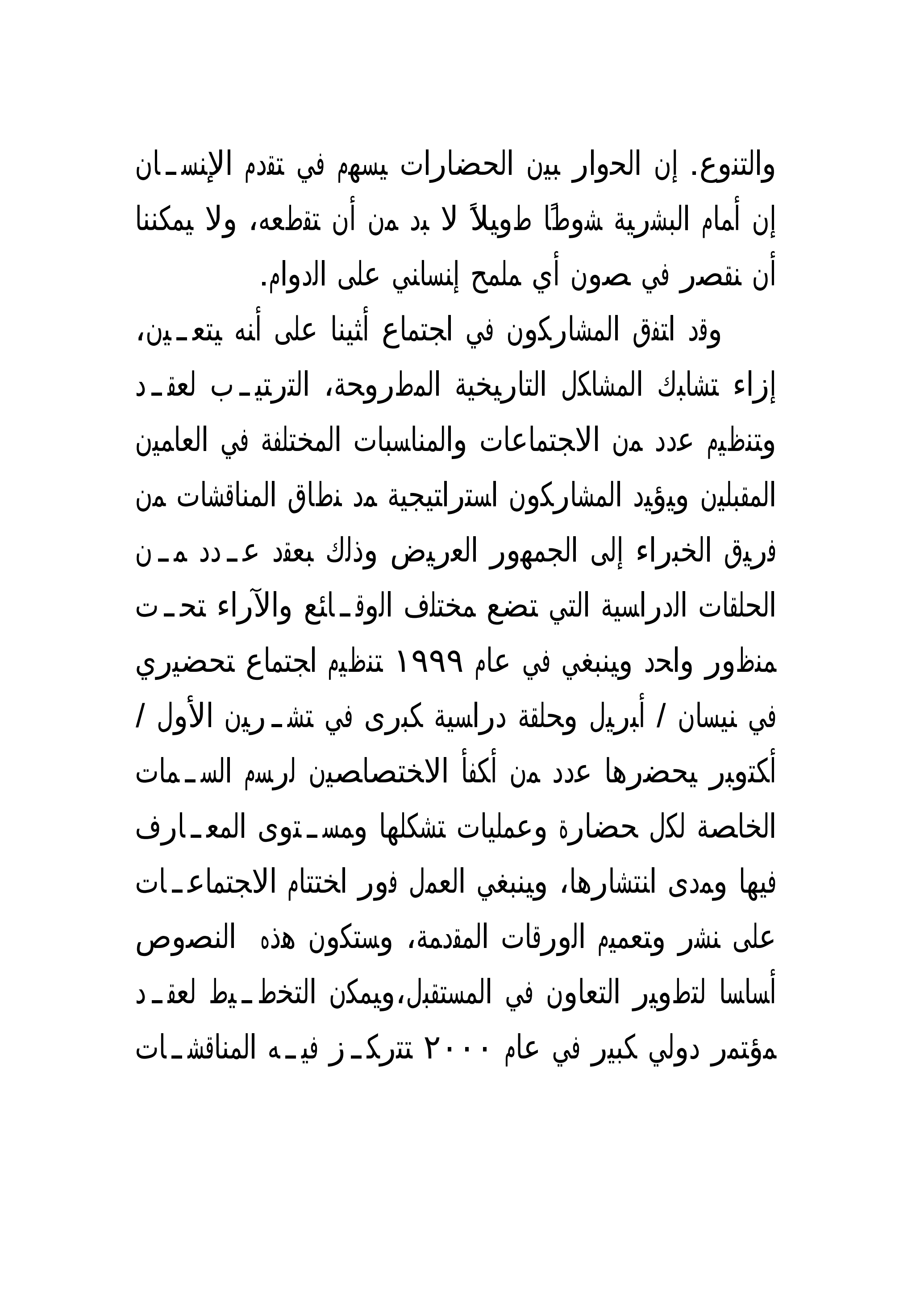
وبعد النظر في مختلـف القضـايا المتعلقـة مباشـرة بالتفاعل بين الحضارات اتفق فريق الخبـراء علـى أهميـة التفاهم وتبادل المعارف بالنسبة إلى قضية العدل والسلام في النظام العالمي.

ويود المشاركون الإعراب عن تقديرهم للمبادرة المتخذة فيما يتصل بما تعانيه بلدان كثيرة اليوم من مشـاكل النـزاع العرقي وغير ذلك من جوانب التعصب السياسـي والـديني



والاجتماعي،ويود المشاركون تأكيد رفضهم للنظريات التي تحض على المواجهة والنزاع وعدم المساواة على أساس التفوق المزعوم لأي شعب، سواء في الحاضر أو في الماضي، فالحضارات تصنعها عدة شعوب تعمل معا لفترات طويلة من الزمن،وكلما تخال البحث العلمي عملية تشكيل الحضارات الكبرى جميعها ، اتضح النسيج المتشابك للتفاعلات التي أفرزتها ، فإذا تجاوزنا الغزوات العسكرية ودعاوى التفوق ، فإنه يمكن أن نرى شكلاً خفيا من التنوع والتسامح يرسي في النهاية أسس كل توالف جديد،وقد نمت حضارات مصر وإيران واليونان وإيطاليا القديمة فيما بين الألفيتين الثالثة والأولى قبل الميلاد، بعد أن أسهمت أعمال التشييد التي تحققت بجهد مشترك من شتى الشعوب عن طريق التفاعل غالبا في تقدم الإنسان ويؤكد المشاركون اقتناعهم واعترافهم بالتعددية في جميع الحضارات في إطار من الاحترام المتبادل والسلام.

ولهذه الأسباب لا بديل لحوار مستمر بين الحضارات يقوم على المساواة والاحترام المتبادل وينبغي أن يكون هدفنا الارتقاء بخبرة الإنسان وعلمه على أساس احترام التفرد


والتنوع. إن الحوار بين الحضارات يسهم في تقدم الإنسـان
إن أمام البشرية شوطًا طويلاً لا بد من أن تقطعه، ولا يمكننا
أن نقصر في صون أي ملمح إنساني على الدوام.

وقد اتفق المشاركون في اجتماع أثينا على أنه يتعـين،
إزاء تشابك المشاكل التاريخية المطروحة، الترتيـب لعقـد
وتنظيم عدد من الاجتماعات والمناسبات المختلفة في العامين
المقبلين ويؤيد المشاركون استراتيجية مد نطاق المناقشات من
فريق الخبراء إلى الجمهور العريض وذلك بعقد عـدد مـن
الحلقات الدراسية التي تضع مختلف الوقـائع والآراء تحـت
منظور واحد وينبغي في عام ١٩٩٩ تنظيم اجتماع تحضيري
في نيسان / أبريل وحلقة دراسية كبرى في تشـرين الأول /
أكتوبر يحضرها عدد من أكفأ الاختصاصين لرسم السـمات
الخاصة لكل حضارة وعمليات تشكلها ومسـتوى المعـارف
فيها ومدى انتشارها، وينبغي العمل فور اختتام الاجتماعـات
على نشر وتعميم الورقات المقدمة، وستكون هذه النصوص
أساسا لتطوير التعاون في المستقبل،ويمكن التخطـيط لعقـد
مؤتمر دولي كبير في عام ٢٠٠٠ تتركـز فيـه المناقشـات

بشكل أكثر تحديدا على الجانب الثاني من برنامجنا وهو "الآثار على العالم الحديث".

ولما كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد كرست عام ٢٠٠١ للحوار بين الحضارات، فإن المشاركين في فريق أثينا يقترحون أن يكون برنامج المناسبات المتعلقة بتراث الحضارات القديمة موجها بقدر كبير صوب الخروج بنتائج ذات مغزى قبل الترتيب لمناسبات هذا العام،ولهذا الغرض اتفق ممثلو البلدان الأربعة على إحالة أية مناقشات أخرى إلى حكوماتهم.

إيران (جمهورية - الإسلامية)
"التوقيع " مهدي خاندا غابادي
سفير جمهورية إيران الإسلامية
لدى اليونان

مصر
التوقيع" محمد خليل
سفير مصر لدي" اليونان"
"التوقيع" السفير نبيل بدر

إيطاليا

"التوقيع البروفيسور موريزيو توسي
المعهد الإيطالي لأفريقيا والشرق
روما

اليونان

التوقيع البروفيسور فاسيلين كاراسمانيس
مدير المركز الثقافي الأوربي في دلفي
"التوقيع" السفير أبوستولوس أنينوس
مدير الشئون الثقافية بوزارة الخارجية

كتب للمؤلف باللغة العربية:

١- أريد مسكنًا - مشكلة لها حـل - دار روزاليوسـف - القاهرة ١٩٧٨. (نفد)

٢- نعم أقباط .. لكن مصريون - مكتبـة مـدبولي١٩٨٠. (نفد)

٣- ذكريات سبتمبرية - دار المسـتقبل العربـي- ١٩٨٦. (نفد)

٤- دراسات وأوراق عمل حول قضايا الإسكان في مصر- صدر عن مجلس الشعب عام ١٩٨٥. (نفد)

٥- الإسكان والمصيدة - دار المستقبل العربـي- ١٩٨٨. (نفد)

٦- مصر لكل المصريين - دار سعاد الصباح - الكويـت والقاهرة - ١٩٩٢.

٧- الأعمدة السبعة للشخصية المصرية - الطبعة الأولـي- كتاب الهلال - عدد يناير ١٩٨٩. الطبعة الثانية - دار الهلال - ١٩٩١ الطبعة الثالثة - دار الهلال - ١٩٩٣ الطبعة الرابعة ١٩٩٧- الطبعة الخامسة من دار نهضة

مصر ١٩٩٨، وقد ترجم إلى الإنجليزية عـام ١٩٩٤، وإلى اللغة الكورية عام ٢٠٠٠ .

٨- حاجة الإنسان العربي للإسكان والكساء - صادر عـن المعهد العربي للتخطيط بالكويت صدر عام ١٩٩١ في إطار سلسلة دراسات ومحاضـرات عـن الحاجـات الأساسية في الوطن العربي.

٩- صـراع الحضـارات والبـديل الإنسـاني - كراسـة استراتيجية رقم ٣٠- عدد يونيو عام ١٩٩٥- صـادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بـالأهرام العربية والإنجليزية.

١٠- ما بعد عام ٢٠٠٠ كتاب دار الهلال – عدد ديسـمبر ١٩٩٥ (نفذ)

١١- الإسكان والسياسة - الهيئة العامة للكتـاب - ١٩٩٦. (حصل على جائزة أحسن كتاب في مجال الدراسـات الاجتماعية في معرض الكتاب الدولي عام ١٩٩٥م.)

١٢-خصوصية مصر- مكتبة الأسرة- الهيئة العامة للكتاب - ضمن مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦.وحصل على

جائزة أحسن كتاب في الدراسـات الاجتماعيـة لعـام ١٩٦٦

١٣- ساسة ورهبان وراء القضبان - كتاب الأهـالي رقـم ٥٨ سبتمبر/١٩٩٦.

١٤- قبول الآخر- الطبعة الثانية - ضمن مجموعة الأعمال الفكرية لمكتبة الأسرة سبتمبر عام ١٩٩٩.

١٥- التلسيم الثقافي لترطيب الأقليات دار الفكر – سـوريا عام ٢٠٠١.

١٦- المثقف العربي والآخر – مسلسل مجمعة اقـرأ رقـم ٦٥٠ عن دار المعارف عام ٢٠٠٠.

باللغة الإنجليزية:

17- The Seven Pillars of the Egyptian Identity. The General Egyptian Book Organization GEBO - CAIRO- .1994

18-Towards a brighter Mellenium - The General Egyptian Book Organisaim GEBO - Cairo .1998

19- Translated to Korian by Posan university of foreign studies Press- south Koria-2000

20- Acceptance of the other – Al- Ahram Ceter for Stratigic studies- 2000.

باللغة الفرنسية:

٢١ - Le Logement en Egypte - essai critique.

Center dtudes et de Documentation conomique، Juridique et Socialeز CEDEJ سLe Cairo - Egypte- .1992